المقدمة

إذا كانت حضارة المشرق العربي/ الرافدين – بلاد الشام / تعبّر عن أنها ضرورة إنسانية، عَبْر مجمل المنجز التاريخي الذي تراكم على مدى آلاف السنين ولا سيما في الطفرات الكبرى التطورية، عنيتُ ابتكار الزراعة ثم بمنجز المدن الأولى والثورة العمرانية المدينية مروراً باختراع الكتابة وتطويرها وصولاً إلى الأبجدية.

هذا إضافة إلى عالم التجارة والصناعات والحِرف ومجمل الحياة الروحية والاعتقادية والثقافية. فإننا إزاء منجز الثورة العمرانية والمتبدّي بشكل رئيس في نشوء المدن الأولى في المشرق العربي، نلحظ أننا أمام سلسلة حضارية واحدة تبدأ في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد عبر أوروك وأريدو في الجناح الرافدي، ومدينة حبوبة الكبيرة الجنوبية وتل قناص وجبل عرودة وتل براك في الجناح الشامي.

ولعل تراكم المنجز العمراني في ناحيتي الشكل والمضمون، بالإضافة إلى الروحية السائدة، كل ذلك شكّل خطاً حضارياً واحداً يمتلك التواصل في الزمن، ومع المكان.

وعلى هذا يمكننا مقاربة ما نحاول السعي إليه في مؤلفنا هذا، حيث أن الخط العمراني المشرقي الذي يستند على سمة التواصل والاستمرارية عبّر عن نفسه بنشوء المدن وازدياد أعدادها، حتى أن نشوء بعض المدن

أعـاد البحـث والتـدقيق فـي كثيـر مـن البـديهيات والقواعـد التي تحكمّت بالأدبيات التاريخية التي عَنَت بمعـايير نشـوء الحضارات الأولى والكبرى.

فمـثلاً، إن نشـوء مدينـة إبـلا فـي بيئـة محليـة تفتقـد الأنهـار، أعـاد التفكيـر بمقولـة أن الحضـارات الأولـى قامـت على أطراف الأنهار.

وهنا، في مدينة ماري، نجد أننا أمـام خصـائص متميـزة حَكَمت إنشاء هذه المدينة، فهي أُنشئت بحسـب مخطـط مسبق ومدروس بعناية وهذا يعني أنـه تـمّ اختيـار المكـان ودراسة جدواه في كافة المناحي، إن كان لجهة الأمان من جور الطبيعـة المتمثلـة فـي الفيضـانات أو فـي الأمـان مـن التعديات والنواحي العسكرية.

إضافة إلى ذلك، أن الإدارة المجتمعية السياسـية التـي سـعت إلـى إنشـاء هـذه المدينـة كانـت تمتلـك الرؤيـة الشمولية لجدوى الإنشاء الاقتصادية والتجارية، آخذة بعين الاعتبار وقـوع المدينـة فـي منتصـف المسـافة بـين شـرق الجناح الرافدي والبحر المتوسط.

ونعتقد أن هذه الرؤية، هي رؤية استراتيجية مهمة في ذلك الزمن المبكر.

والشـيء الآخر الذي ينبغـي الإشـارة إليـه، هـو أن نهـر الفـرات / علّـة وجـود مـاري / لـم يكـن فاصـلاً بـين جناحي المشـرق، لا بـل كـان عـالم توحيـد وتفعيـل لـدورة الحياة الواحدة بينهما. ولم يصـبح فاصـلاً بـين الجنـاحين إلا في زمن الاحتلال الروماني لـبلاد الشـام فـي القـرن الأول قبل الميلاد.

ثم سيلحظ القارئ، أنـه مـع إنشـاء مدينـة مـاري كانـت المخططات تُنفِذ جملـة مـن الإنشـاءات المائيـة مـن أقنيـة وسدود ومجارٍ مائيـة للملاحـة إلـى مـا هنالـك، وهـذا يـدل دلالة واضحة على أن الإدارة المجتمعية التـي سـعت إلـى هذا العمل كانت مدركة لما تفعل وتستند على مجمـل مـا تراكم من خبرات في هذا المجال.

ومع انتهائنا من هذا المؤَلف، أشـارت بعـض المعلومـات الواردة إلينا، عن صدور كتاب للبروفسور جان كلود مارجرون فـي بـاريس تحـت عنـوان " مـاري، مدينـة الفـرات " حيـث يشـير الباحـث إلـى " أن مـاري كانـت مـن أوائـل المـدن الجديدة في التاريخ البشري التي تشأت مـن العـدم دفعـة واحـدة بهـدف تحويلهـا إلـى مركـز للتعـدين ". وذلـك فـي حوالي 2900 قبل الميلاد.

والمعلوم أن ماري فقيرة بالمعادن حيث كانـت تسـتورد القصدير من إيران وأمـاكن أخـرى، كمـا اسـتوردت النحـاس من جزرالمتوسط / قبرص/.

واللافت في ثقافة هذه المدينة، هـو خصوصـيتها التـي تستند على مجمل الروحية المشرقية.

فإن نشأت مع الألف الثالث في بداياته، فإن مـا يمكننـا لحظـه هـو الطـابع الـديمغرافي العمـوري – الأكـادي الـذي وسم هذه المدينة منذ نشوئها.

وإن كانـت مجمـل الظـواهر الفنيـة والأدبيـة والثقافيـة والعمرانية تشير إلى مبلغ التفاعل مع مدن الجناح الرافدي البـاكرة فـي الألـف الثالـث، غيـر أن الباحـث يسـتطيع أن يـتلمس الروحيـة المارّيـة الخاصـة فـي كافـة المظـاهر والظواهر الحياتية.

فمثلاً، إن العثور على ظـاهرة / القصـر – المعبـد / فـي الألـف الثالـث فـي مدينـة مـاري، تشـي بـأن ثمـة علاقـة منسجمة ومنسابة بين السلطتين الزمنيـة والاعتقاديـة، لا بل وربما أن السلطة الزمنية تحتوي السـلطة الاعتقاديـة / المعبدية.

وهذا الأمر نجد ما يعاكسه فـي مواقـع المـدن الرافديـة المتزامنة.

ولعـل مدينـة مـاري، قـد ظُلمـت فـي مجـال الدراسـات التاريخية السورية والعربية، وما يـدفع للاسـتغراب هـو أنهـا منذ اكتشافها عام 1933 وحتى الآن، لا نجد كتاباً في اللغة العربية يُعنى بدراسة ثقافة وحياة مدينة ومملكة ماري.

وإن لـم نخطـئ فـإن الكتـاب الوحيـد الصـادر عنهـا هـو تعريــب لكتــاب مكتشــف مــاري البروفســور أنــدره بــارو MARI.CAPITALE FABULEUSE في عام 1979.

الحقيقـة، أن هـذا المؤلـف أخـذ منـي وقتـاً يمتـد علـى مدى سنوات عديدة، وكـان حرصـي أن يكـون لـدى القـارئ السوري والعربي مرجعـاً شـاملاً حـول مملكـة مـاري وفـق أحدث المكتشفات الآثارية.

وطبعاً لا ندّعي الكمال.



2005

الفصل الأول

الخلفية الحضارية والتاريخية لنشوء مدينة ماري.

لعل الخوض في تاريخ مملكة ماري الواقعة على الفرات الأوسط، والتي امتدت فاعليتها التاريخية والحضارية لما يزيد على الألف عام/ من حوالي 2900 ـ 1760 ق.م / تدفعنا إلى البحث في العوامل والمعايير التي أدت إلى اعتبار الألف الرابع قبل الميلاد ولا سيما النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد/ مفصلاً رئيسياً في حركة تطور الاجتماع البشري في المشرق العربي آنذاك.⊗

⊗ المشرق العربي، اصطلاح جغرافي يعني المنطقة التي تضم بلاد الرافدين وبلاد الشام، والتي أكدت الكشوف والأبحاث الأثرية فيها على وجود وحدة حضارية وتاريخية واحدة تزامنت في خط حضاري واحد عبر الأزمنة ما قبل التاريخية ومن ثم التاريخية وهذا ما يعبّر عنه بوحدة الحياة في دورة روحية ـ اقتصادية ـ اجتماعية واحدة.
وتُعرّف هذه المنطقة أيضاً بما يسمى " الهلال الخصيب " LE CROISSANT FERTILE.

ولم يكن هذا التطور ليحصل إلا عبر استناده على مجمل ما قدّمته حركة التطور التاريخي والحضاري في مدن المشرق العربي ومواقعه منذ نقطة انعطافه الرئيسة والتي تكمن في ابتكار الزراعة في الألف التاسع قبل الميلاد، وكذلك تدجين الحيوان.

فمع هذا المنجز الحضاري المتميز أصبحنا أمام معادلات ومعايير وقيّم حضارية جديدة، أدت فيما أدته إلى الشروع بتوالد للمنجزات الحضارية الأساسية والفاعلة في سياق التطور الاجتماعي والإنساني ليس على نطاق المشرق العربي فقط، بقدر ما كانت القاعدة الرئيسة المادية والروحية لانطلاق الحضارة الإنسانية بعامة.

وبذا نستطيع أن نفهم مقولة الكاتب الفرنسي جاك كوفان JACQUES CAUVIN من أن " المعنى التقليدي لنشوء الزراعة، يرتكز في معياره الحاسم على إنتاج المعيشة، وأنه بهذا الانتاج إنما بدأ في الواقع صعود المقدرة البشرية التي ليست حداثتنا سوى ثمرة لها "[1]

الجدير ذكره هنا، هو أن ابتكار الزراعة في مساق الحضارة البشرية، تمَّ لأول مرة في المشرق العربي وتحديداً في المنطقة الممتدة من الفرات الأوسط مروراً بحوضة دمشق وحتى وادي الأردن.[⊗]

ولتبيان أهمية هذا المنجز على صعيد الحياة الإنسانية، لابد أن نحدد الآفاق التي فتحها هذا الابتكار بما

[⊗] للاطلاع على المزيد في مجال ابتكار الزراعة يمكن الرجوع لمؤلفات عديدة منها:
المزارعون الأوائل للدكتور سلطان محيسن عن دار الأبجدية، وكتاب الباحث جاك كوفان:
"NAISSANCE DES DIVINITE'S NAISSANCE DE L'AGRICULTURE "
CNRS EDITIONS 1997
ترجمة الأستاذ موسى ديب الخوري وصدر عن وزارة الثقافة السورية تحت عنوان:
الالوهية والزراعة ـ ثورة الرموز في العصر النيوليتي- 1999
وكذلك كتاب الباحث كوفان: " القرى الأولى في بلاد الشام " عن دار الحصاد ـ 1995 ـ ترجمة الياس مرقص.

انعكس إيجاباً على مسار الاجتماع البشري بعامة والمشرقي بخاصة.

فأولاً: إن الاستقرار الذي أمّنته الحياة الزراعية أدى إلى احساس المجتمعات القديمة بالطمأنينة والأريحية ما أدى إلى زيادة أعداد المجموعات البشرية واتساع مواقعها وتشكيلها لمستوطنات زراعية أخذت بالتوسع والكبر باطراد مع الزمن مؤدية إلى منجز نشوء المدن الأولى وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد في المشرق العربي القديم.

ثانياً: إن ما وفرته الحياة الزراعية من منتج ومردود، دفع إلى نشوء التبادل التجاري النشط وتطور عالم التجارة، ما انعكس على المجتمعات الزراعية آنذاك وتبدّى في غناها وتعبيرها عن الازدهار الاقتصادي والتجاري بما سيؤدي إلى تطور في مجمل الحياة المادية والروحية. بالإضافة إلى ما قدّمه هذا المنجز من نشوء بوادر الإدخار والتخزين وعالمهما الرحب.

ثالثاً: نتيجة دفع العامل الزراعي للتبادل التجاري فقد أدى ذلك إلى استنباط وسائل أولية للعدّ تُسهل من عملية التبادل التجاري والسلعي وهذا ما اعتبرته الأبحاث العلمية نواة ظهور علم العدّ والحساب ومن ثم سوف تتوالى المظاهر الحسابية بتطور واضح وصولاً إلى ظهور بوادر الكتابات والتي أخذت تتوضح تباعاً عبر الكتابات التصويرية إلى المقطعية مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

رابعاً: أدى منجز ابتكار الزراعة إلى تطور تقنيات الصناعات الفخارية والحرفية بما ساهم في تطور الفنون في مناحيها الفردية والمجتمعية والاقتصادية. ولعل تراكم الخبرات التقنية عبر العصور هو الذي أدى إلى الدخول في عالم استثمار المعادن بدءاً من النحاس فالبرونز ثم الحديد مروراً بالقصدير والفضة والذهب.

خامساً: إن نشوء الزراعات المروية جعل المجتمعات تسعى إلى تنظيم وسائل الري ومقتضياتها وذلك عبر

انشاء السدود والسواقي والأقنية المائية منها والملاحية ما اقتضى تبعاً لذلك من نشوء حاجة اجتماعية لوجود سلطة مجتمعية تنظم أعمال هذا المرفق في الموقع نفسه وتالياً في العلاقة مع المتحدات الأخرى وهذا ما بلوّر في النهاية ظهور السلطة إن كان في وجهها المعبدي/المعتقدي أولاً، أو في وجهها الزمني / السياسي، بعد انفصال سلطة المعبد عن السلطة الزمنية في دول المدن ولا سيما في عصر الفاعلية الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

يقول الباحث بوهارد برينتس:

" إن التطور الذي أدى إلى الثورة العمرانية ونشوء المدن الأولى لم يكن ليحصل إلا نتيجة لظهور الزراعة وتطورها وتقسيم العمل، في الحرفة والزراعة وظهور التجارة. وإن النمو الكبير لمردود العمل / حيث أنه في الزراعة، ازداد الانتاج خمسة أضعاف عما كان عليه في مرحلة الصيد/ أدى إلى زيادة سريعة في عدد السكان ما أدى إلى ظهور المدن الكبرى وبروز أشكال جديدة في حياة المجتمع ".[2]

وعلى كل هذا صار بإمكاننا النظر إلى منجز الزراعة كمنجز توالدي، فهو أدى إلى ظهور التجارة والتبادل التجاري، كذلك ساهم في نشوء علم العدّ والحساب، ثم علم الكتابة وكذلك دفع بقوة باتجاه ظهور السلطة للمجتمع كضرورة حتمية للتطور المدني ومن ثم نشوء المدن الأولى.

بالإضافة إلى خلقه لمعايير وقيم ورموز جديدة في كافة أوجه النشاط للاجتماع البشري ناهيك عن توطيده لعلاقة المجتمع بالأرض وعلاقات المجتمعات بين بعضها البعض ما

خلق رائزاً مهماً للتفاعل الإنساني والانفتاح بين المجتمعات الإنسانية. ⊗

ولا بأس هنا من محاولة لرصد أوجه الحياة في المشرق العربي القديم في الفترة الممتدة من منتصف الألف التاسع قبل الميلاد وحتى منتصف الألف الرابع كي نستطيع تحديد المعايير والقواعد والأرضية الأساسية التي ساهمت في نشوء المدن الأولى في فجر التاريخ في المشرق العربي ومن ثم في نشوء مدينة ماري في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد.

⊗ لعل هذا يتبدى جلياً حين البحث في حركة انتشار الزراعة من المشرق العربي القديم إلى العالم آنذاك إن كان نحو الأناضول أو مواقع عالم المتوسط أو مصر.
للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتابنا " دراسات في حضارة المشرق العربي القديم " الدراسة الأولى. دار الإنماء الحضاري 2003.

المشرق العربي بين ظهور الزراعة 8300 ق.م وحتى نشوء المدن الأولى حوالي 3500 ق.م:

مع حلول الألف الثامن قبل الميلاد، نلاحظ أن الزراعة شملت معظم مواقع المجتمع المشرقي العربي. بالإضافة إلى تزامن هذا مع تدجين الحيوانات.

وتشير الدراسات والأبحاث إلى أن النمط المعماري للمساكن أخذ بُعداً جديداً عبر التصاق المساكن ببعضها البعض ما يعطي انطباعاً بمعالم الاستقرار الدائم من جهة، ومن جهة أخرى الالتحام الاجتماعي والألفة بين سكان تلك المجتمعات وهذا سوف يؤدي بدوره إلى رسوخ التقاليد المجتمعية الزراعية حيث أن عالم الحياة الزراعية خلق إيقاعاً مجتمعياً يتماهى إلى حد كبير مع إيقاع البيئة الطبيعية والوسط الحيوي وهذا ما انعكس في الذهنية المجتمعية المشرقية وفي ظهور الأساطير والأدبيات الشفاهية ذات الأساس الخصبي والتي تمتلك بُعداً اعتقادياً يُعنى بعلاقة المجتمع مع رمز الخصب والذي يتبدى في إله المطر والخصب / دموزي ـ أدد ـ البعل/.. وكما هو معلوم، فإن الحياة الزراعية تحتم التآلف والتعاون الاجتماعي وهذا ما سوف يؤدي إلى التفاهم الاجتماعي من أجل تطوير عوالم الري عبر استخدام وسائل للري الصناعي إن كان عن طريق الأقنية أو السواقي أو السدود وهنا نكون أمام ظهور للزراعات المرّوية كالكتان مثلاً وهذا يؤرخ في حوالي 6500 ق.م.

وفي هذه الفترة أيضاً سوف نلاحظ أننا أمام منجز معماري صحي تجلّى في إنشاء أقنية للتصريف داخل المنازل. وقد أبان موقع بقرص في سورية والذي يرقى إلى

حدود 6500 ـ 6000 ق.م عن نشوء أول قرية منتظمة بشكل مبكر حيث أنشئت وفق مخطط معماري مسبق.

وبالاتجاه نحو الفترة الممتدة بين 6000 ـ 3500 قبل الميلاد، فإن موقع الكوم في البادية الشامية قدّم دليلاً على ممارسة الزراعة المروية عبر جرّ المياه من الينابيع أو الأنهار كالفرات مثلاً.[3]

أيضاً سوف نلاحظ في موقع سامراء في الجناح الرافدي والذي يعود إلى 5300 ق.م ظهور ابتكار جديد في مجال العمارة بما يعكس المناخ المستقر الذي أمنّه عالم الحياة الزراعية، حيث أبان هذا الموقع على أن سكانه ابتكروا قوالب خشبية / وذلك للمرة الأولى في التاريخ الإنساني/ لتكييف اللبن في تشييد جدران المنازل.

وتنبغي الإشارة في هذا المجال إلى أن مواقع المشرق العربي استخدمت المعادن ولا سيما النحاس منذ الألف الخامس قبل الميلاد.

ومع حلول منتصف الألف الخامس نجد مواقع الجنوب الرافدي وتبعاً لإشراطات البيئة الطميية والمستنقعية تعمد إلى تكييف الوسط الطبيعي بما يلائم احتياجاتها فقد عمد سكان تلك المواقع إلى مكافحة ملوحة التربة، وتجفيف المستنقعات، ومارسوا الزراعة المروية بإتقان.

ولعل استخدامهم المبكر لتقنيات الري الصناعي حتمت نشوء سلطة مجتمعية وبنى اجتماعية ادارية متطورة وهو ما مهّد إلى تأسيس أولي للقاعدة المادية الاجتماعية لنشوء المدن الأولى في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد.

" فالفترة الممتدة بين نهاية الألف الرابع قبل الميلاد وبداية الألف الثالث، تلعب دوراً خاصاً في التاريخ البشرية، ففي هذه المرحلة قامت سلطة الدولة التي هي نتاج حركة المجتمع وتطوره ".[4]

ومع حلول منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، أصبحنا أمام محددات ومداميك واضحة تبدّت في نشوء المدن الأولى.

فنتيجة لكل ما سبق من تراكم للخبرات الحياتية من بيئية واقتصادية واجتماعية واعتقادية وذهنية تطورت عن النظام الزراعي وعوامله ونتائجه أصبح المشرق العربي أمام مجتمعات مركبة ذات علاقات حياتية معقدة فرضت انبثاق السلطة المنظمة لحركة المجتمع وتفاعلاته سواء كانت سلطة معتقدية[⊗] أو سلطة سياسية رغم أن الأولى سبقت الثانية في ظل سيادة سلطة المعبد السابقة لانفصال المعبد عن القصر.

وبالإضافة إلى معالم نشوء المدن الأولى، بتنا أمام ظهور لفاعلية المؤسسات المدنية في التجارة والحِرفِ والاقتصاد والملاحة، وكل هذا يندغم وبشكل متجانس مع تضخم العمران حتى بتنا في هذه الفترة أمام مواقع لمدن شملت المشرق العربي بجناحيه.

ففي الجناح الرافدي نجد مواقع مدن أوروك وأريدو وتبة ـ غورا، أما في الجناح الشامي فنجد تل براك بمدينته ناغار في الجزيرة الشامية العليا ومواقع مدن حبوبة الكبيرة الجنوبية وعارودة وتل قناص.

وتشير الأبحاث العلمية إلى وجود تشابه في النمط المعماري لمعابد تلك المواقع، ما يعطي دلالة واضحة على وجود وحدة حضارية واكبت نشوء المدن الأولى في المشرق العربي آنذاك.

ويشير الباحث علي أبو عساف إلى أن التنقيب في تل براك / ناغار / نوار القديمة / إلى الشمال الشرقي

[⊗] نميل لاستخدام تعبير المعتقدية أو الاعتقادية لتفريقه عن التعبير المستخدم في الأدبيات التاريخية والذي يُطلق على الحياة الميثولوجية والليتورجية تسمية " الدينية ". ونعتقد أن هذا الأمر يواكب معطيات العلم الحديث ولا سيما علم تطور الإنسان ولا سيما في شقه الدماغي. فالمعتقد القديم هو تعبير عن التطور الذي وصل إليه الدماغ الإنساني في تفسير المعطى الماورائي. انظر كتابنا " دراسات في حضارة المشرق العربي القديم " الدراسة الأولى.

من الحسكة، كشف عن معابد ولقى أخرى تشابه معابد ولقى أثرية اكتشفت في أوروك في جنوب الرافدين. بالإضافة إلى أن التقنيات الأثرية في كل من جبل عارودة وحبوبة كبيرة الجنوبية وتل قناص التي تقع جميعها على ضفة الفرات اليمنى إلى الشمال من مسكنة، كشفت تلك التنقيبات عن معابد من طراز معابد أوروك وبيوت سكنية في جبل عارودة وتل قناص. وفي هذه المعابد والبيوت والمدينة، عثر المنقبون على أوانٍ فخارية وطبعات أختام أسطوانية، وأوتاد ملونة زخرفية طينية مماثلة لما عثر عليه في أوروك ولكنها ذات طابع محلي. كما كشف التنقيب في موقع الشيخ حسن عن آثار من تلك الفترة تتمتع بمواصفات محلية "(5)

ويتابع الباحث:

" لقد شهدت البلاد إبان عصر فجر التاريخ عهداً مستقراً ممتازاً نشطت فيه الحركة التجارية بين مختلف هذه الوحدات الإدارية وغيرها، في سبيل الإبقاء على طرق التجارة مفتوحة. فالجنوب الرافدي الذي كان يتوفر فيه فائض من غلال الحبوب والثروة الحيوانية، رغب بتصديرها ومقايضتها مع المناطق المجاورة، وكان بحاجة إلى الأخشاب والمعادن حيث يستوردها من مناطق أخرى فسهّلت منطقة ناغارا/تل براك، هذه العملية وساهمت في حسن تنظيم الحركة التجارية مع آسية الصغرى وإيران وبلاد الشام ".

ويشير الباحث أيضاً إلى أن هذه المواقع الشامية كانت مدناً مزدهرة شدّت من أواصر التعاون القوي بين مختلف مناطق بلاد الرافدين والشام حتى بدا لنا ذلك التعاون اليوم وكأنه شامل يرقى إلى مستوى الاتحاد بين تلك الكيانات السياسية. وتظهر آثار ذلك في بناء المعابد على طراز واحد وتحصين المدن وإنتاج أواني فخارية متماثلة، واستعمال الأختام الاسطوانية ذات النقوش المعبّرة عن أفكار متقاربة واتباع أسلوب واحد في تسجيل الحسابات.

والجدير ذكره هنا، هو أن مدينة حبوبة كبيرة الجنوبية أُنشئت وفق مخطط مسبق ودقيق وقد أُحيطت بسور طويل / 600 متر / وعرضه ثلاثة أمتار.

ولعل النمط المعماري المتبدي في المخطط المسبق للإنشاء والسور الواقي للمدينة، سنجده مكرراً في نشوء مدينة ماري مع مطلع الألف الثالث وكذلك في تل الخويرة وإبلا وغيرها من مدن المشرق العربي القديم.

أما لجهة الواقع الديمغرافي في هذه الفترة فقد أشارت الأبحاث إلى وجود ديمغرافي سومري وأكادي وتلحظ المعطيات تواجداً أكادياً إلى جانب السومريين.

" ففي الموروث المدون لبلاد الرافدين والشام، نقرأ أسماء ملوك سومريين وأكاديين في الجنوب الرافدي، عاشوا جنباً إلى جنب متسالمين حيناً ومتخاصمين حيناً آخر منذ الألف الثالث قبل الميلاد... علماً أن السومريين والأكاديين كانوا في المشرق العربي منذ الألف الخامس قبل الميلاد حسب أكثر التقديرات تفاؤلاً ".⊗

وقد أشار بوهارد برينتس إلى أن " السومريين حين جاؤوا إلى الرافدين أكملوا ما بدأه العبيديون / 4500 ـ 3500 / ق.م وقد دلل على ذلك بأن الكتابة السومرية احتوت على كلمات كثيرة مقتبسة ممن قبلهم. بالإضافة إلى أن الكثير من أسماء الآلهة السومرية مأخوذة من لغات الشعوب التي سكنت الرافدين قبل السومريين.

ويشير الباحث أيضاً إلى أن المدن السومرية كانت تقريباً تحمل أسماء غير سومرية وتعود في أصولها إلى الحضارات التي سبقتهم / العبيديون /.(6)

ومع الاتجاه نحو نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، فإن منجزاً جديداً / تمخض عن عالم الزراعة وامتداداته / سوف ينبثق، عنيتُ بذلك منجز الكتابة التي خرجت من

⊗ انظر علي أبو عساف ـ وثائق الآثار السورية ـ وزارة الثقافة ـ المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ سورية 2002 انتشار الحضارة في حوض الفرات توافق مع مجرى النهر صـ 33 ــ

معطف الحساب والعدّ في العمليات التجارية. وأضحت مدن المشرق العربي تمتلك مصالح اقتصادية وتجارية حتمت نشوء سلطة القصر الزمنية التي أخذت تنظم الفعاليات الحياتية المتنوعة وفق ما يلائم تطور المجتمع وتشابك علاقاته، بالإضافة إلى تشابك المصالح بين المدن آنذاك.

وسوف نجد في هذه الفترة نشوء مدن مسوّرة في المشرق العربي منها:

كيش ـ تل فارا ـ أبو صلابيخ في الرافدين، بالإضافة إلى المدن العائدة للفترة السالفة. وفي بلاد الشام نجد تل العشارة ـ تل ليلان ـ تل براك.

أما في الأردن فسنجد باب الضهرة وفي فلسطين، مجيدو ـ خربة الكرك ـ تل الفرح. وفي لبنان، جبيل.

والجدير ذكره هنا أن موقع مدينة أوروك في هذه الفترة أبان عن ظهور الموزاييك في معابدها كأول ظهور له في المشرق العربي.

ومع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، نلاحظ أن منطقة الفرات الأوسط سوف تتجه إلى إبداء وتفعيل دورها الحضاري مستندة على الدور التاريخي لنهر الفرات وهذا ما تحقق في إنشاء مدينة ماري، التي أقيمت وفق مخطط مسبق وداخل سور.

يقول الفرنسي جان كلود مارجرون:

" لقد سمح نهر الفرات لسورية أن تشرع بعملية التمدن، ذلك أنه يَّسر لها التطور من خلال العلاقات التجارية انطلاقاً من البلاد السومرية في الألف الرابع قبل الميلاد. وهو دائماً وأبداً وللأسباب ذاتها الذي ضَمِنَ تطور سورية الداخلية في الألف الثالث قبل الميلاد ". ⊗

⊗انظر
EXPOSITION SYRO – EUROPEÉNNE D' ARCHEÓLOGIE. 1996 JEAN CLAUDE MARGUERON.

البيئة الجغرافية الطبيعية لمنطقة الفرات الأوسط:

تُشكل منطقة الفرات الأوسط جزءاً من الجزيرة الشامية ويمتد واديها بين دير الزور والبوكمال. وقد تمكن الإنسان من التوطن فيها رغم المعوقات الطبيعية والبيئية حيث ملوحة المياه الجوفية لهذا الوادي من جهة وقوة الفيضانات في نهر الفرات.

واستطاعت مجتمعات المشرق رغم هذا من التفاعل مع معوقات هذه البيئة بوجهتها الايجابية والسلبية حيث كشفت التنقيبات الآثارية على وجود قرى منظمة تعود إلى الألف السابع قبل الميلاد، كما في موقع بقرص وتل السن. وتشير الأبحاث إلى العثور حتى الآن على حوالي 150 موقعاً من جميع العصور. ويبدو أن هذه المنطقة شهدت فاعليتها التاريخية مع نهاية الألف الرابع باتجاه الألف الثالث قبل الميلاد فقد شهد وادي الفرات كثافة

سكانية في الجزء الجنوبي منه حول مدينة ماري التي كانت مركز المنطقة السياسي والاقتصادي.

واستطاع التقدم التقني في تجهيزات الري الزراعي من أن يجعل المجتمعات المستوطنة تتحكم بمجمل المساحات الطمية التي كانت تشكّل تجويف ماري وهذا ما سوف نناقشه في الفصل الثاني، غير أننا نود أن نشير أن نهر الفرات قدّم لهذه المنطقة الممكنات التي أهلّتها كي تبدو " بصورة عالم مكتنز بالخيرات، وضع فيه علم الماء القديم كل امكاناته لاستغلال جميع المساحات الزراعية المتوفرة أحسن استغلال ".⊗

وهذا ما تبدّى في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد عبر نشوء هذه الفعاليات المتحدية في تلك المنطقة.

ولعل دراسة أحوال المناخ تبرز كيف أنه ومنذ حوالي 8200 ق.م بدأ المناخ بالاستقرار والتصاعد بصورة بارزة وصولاً إلى العصور التالية وتقدم الأبحاث المناخية معطياتها عبر أنه وفي حوالي 10000 ـ 9500 سنة خلت، كان مناخ الجزيرة السورية بارداً

وبين 9500 ـ 8500 سنة خلت عمَّ مناخ دافئ.

ومن 8500 ـ 8200 سنة خلت حل عصر بارد.

ثم واعتباراً من 8200 ق.م عم دفء كبير وحار ثم ومن 3000 وحتى 800 ق.م أصبحنا أمام مناخ جاف ودافئ.

ويشير د. عادل عبد السلام إلى أنه ومنذ ذلك الحين مال المناخ نحو التحسن نسبياً مع تذبذبات سلبية وايجابية حتى اليوم.

وبشكل عام فإن المناخ في الجزيرة الشامية الآن يعتبر قريب الشبه بما هو عليه منذ الألف الثالث قبل الميلاد مع تغييرات قصيرة الأمد.(7)

⊗ المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية ـ المعهد الفرنسي للآثار الشرق الأدنى 1989 استكشاف وادي الفرات الأوسط ـ جييرو مونشابير ـ صـ 61 ــ

وهذا يعني فيما يعنيه أنه في فترة إنشاء مدينة ماري مع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد كنا أمام مناخ شبيه بالمناخ الحالي وعنوانه الأساسي مناخ جاف ودافئ.

مدن المشرق العربي مع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد:

مع حوالي مطلع الألف الثالث عمّت المدن الحديثة الإنشاء المشرق العربي إلى جانب المدن الرائدة، فإلى جانب أوروك في الجناح الرافدي نجد مدن، كيش - أور - لاجاش -أوما- شوروباك ـ وأدب. أما في الجناح الشامي فسنجد تل الخويرة وماري بالإضافة إلى مواقع لم تكتمل فاعليتها التاريخية بعد مثل إبلا وأوغاريت وغيرها، هذا بالإضافة إلى موقع تل براك و تل العشارة.

وقد حكمت السلالات السومرية تلك المدن ما عدا مدينتي كيش وماري حيث حكمتهما سلالات أكادية.

ويشير البروفسور مارجرون إلى أن ماري حسب الاعتقاد القديم هي عاصمة سومرية، لكن الأبحاث الحديثة تظهر أن ماري تمتلك صفاتاً سورية وإلى جانبها صفات سومرية.(8)

الجدير ذكره هو أنه في هذه الفترة كانت مدن المشرق العربي تُبدّي مصالحها المدينية على ما سواها، لهذا فإننا نجد الخلاف والحروب بين المدن وصراع المصالح هو المُتبدي في غياب أي وعي مديني اتحادي أو ما شابه.

ولعل أهم خصائص حركة التاريخ والمجتمعات المدينية في هذه الفترة، تتوضع من خلال:

أولاً: حصول تطورات مهمة في مجال العمران وتقنياته ما أدى إلى توسع المدن، وتلبية النظام العمراني لحاجات المجتمعات المادية والروحية.

ثانياً: إذا كانت مدن الألف الرابع قد أبانت عن سيادة السلطة الاعتقادية /المعبد على المجتمع، فإن معايير الألف الثالث سوف تتجه لانفصال السلطة تلك عن المجتمع عمرانياً، بحيث أبانت المكتشفات الأثرية على وجود معابد مفصولة عن المحيط المديني، في مقابل مثلاً أن مواقع مدن أوروك وحبوبة كبيرة الجنوبية وعارودة وقناص كانت تقام المعابد فيها في أحياء خاصة.

مع ملاحظة أنه في ماري في الألف الثالث، عثر على معابد مرتبطة بالقصر الملكي وهذا ما يُسمى /قصر معبد/ وهذا يعطي دلالة على وجود استقلالية ما عن الخط الذهني العمراني الاعتقادي الذي كان سائداً. ولربما يدل على احتواء للسلطة الزمنية لسلطة المعتقد/المعبد.

ثالثاً: في مجال الحياة الفنية وتبعاً للزمن، كان لابد أن تشهد مدن المشرق ظهور اتجاهات فنية جديدة ومبتكرة ولا سيما في أسلوب العمل أو معالجاته ومواضيعه، وهذا ما تُقدمه الأدلة الأثرية في فن الفسيفساء وصناعة الفخار والنقش على الأختام.

رابعاً: من أهم مميزات هذه الفترة وبالاتجاه نحو الألف الثالث يمكننا أن نلاحظ معالم انفصال للسلطة المعتقدية

عن السلطة الزمنية ونشوء مؤسـسات مدنية تُعنى بأوجه الحياة السياسية والاقتصادية والتجارية والحرفية.

وتبعاً لهذا نفهم مقولة الباحث مارك لوبو من " أن الإشغال البشري/ في المشرق العربي / في الألف الثالث قبل الميلاد، كان أثره ملموساً في ناحيتين أو منحنيين:

الأول، في الزراعة. والثاني، المتولد عن الأول والذي يتجلى في التجمعات المدنية.

وإن هذين المنحنيين يتميزان في الانتشار الواسع والعميق، بحيث بتنا أمام بنى اجتماعية واقتصادية لجماعات بشرية كانت مغلوبة ومقهورة، والآن هي جماعات قادرة على التحكم جزئياً بالوسط البيئوي المحيط ".[9]

مراجع الفصل الأول

1- جاك كوفان – الألوهية والزراعة - ثورة الرموز في العصر النيوليتي- ت- موسى خوري – وزارة الثقافة 1999- دمشق.
2- بوهارد برينتس ـ نشوء الحضارات القديمة ـ ت ـ جبرائيل كباس ـ دار الأبجدية ـ دمشق 1989
3- سلطان محيسن ـ المزارعون الأوائل – دار الأبجدية – دمشق 1994.
4- بوهارد برينتس ـ مرجع سابق.
5- علي أبو عساف ـ انتشار الحضارة في حوض الفرات توافق مع مجرى النهر .وثائق الآثار السورية ـ وزارة الثقافة ـ سورية 2002
6- بوهارد برينتس ـ مرجع سابق.
7- عادل عبد السلام ـ البيئة الجغرافية للجزيرة العربية واستيطانها. وثائق الآثار السورية ـ مرجع سابق.
8- محاضرة للباحث الفرنسي جان كلود مارجرون في المركز الثقافي الفرنسي تحت عنوان ماري. 1991 ـ دمشق. ونشرت في صحيفة الحياة اللندنية بتاريخ 1991/12/20 .
9- الحوليات الأثرية السورية ـ 43 ـ 1991 ـ دمشق. وزارة الثقافة السورية. مارك لوبو ـ طرق الاتصال في بلاد الرافدين العليا في الألف الثالث ق.م .

الفصل الثا

ماري في الألف الثالث قبل الميلاد
إنشاء مدينة ماري 2900 قبل الميلاد

إنشاء/نشوء مدينة ماري 2900 ق.م :

يحمل موضوع إنشاء مدينة ماري عدة اعتبارات تدخل في السياق الذهني والابداعي المعماري لحضارة المشرق العربي القديم.
وإن ركّزنا على كلمة إنشاء فلأن هذه المدينة أنشئت وفق تصور ومخطط مسبق ودقيق. ولعل هذا النمط المعماري المبكر يُعّبر عن خصوصية ذاتية تتصف بها حضارة هذا المشرق، كون أن التواصل الحضاري بين العصور عبّر

عن نفسه في تراكم المنجز الحضاري كالسويات الأثرية، طبقة فوق طبقة وعصر إثر عصر.

فلو عدنا إلى حوالي 6500 قبل الميلاد، فلسوف نجد أنفسنا أمام قرية أنشئت في تل بقرص وفق مخطط عمراني مسبق، ثم ومع الألف الرابع قبل الميلاد سنجد أننا أمام نفس هذا المنحنى في إنشاء مدينة حبوبة الكبيرة الجنوبية.

ومع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ستتجه ماري نحو إنشاء عمرانها وفق ذاك النمط مع المزيد من التعقيد في هذا المجال كون أننا أمام إنشاء منشأت مائية وملاحية تحتم آلية متطورة تخدم المدينة الجديدة.

إذن ماري لم تكن قرية تطورت إلى مدينة. والذي يبدو أن من سعى لإنشاء ماري سواء كان سلطة سياسية أو إدارية أو اجتماعية، كان يملك موقعاً على الفرات، وقريب من ماري، ما لبث هذا الأخير أن هُجر أو دُمر لسبب ما، مما آل إلى التفكير بإنشاء مدينة جديدة على الفرات الأوسط.

ويبدو أن تلك السلطة تعي أهمية إنشاء مدينة في موقع ماري وتملك خبرة بالمنطقة وأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية والملاحية، بمعنى أن إنشاء مدينة ماري يبدو وكأنه تعويض لفقدان صلة وصل مهمة في المكان والزمان بين جناحي المشرق الرافدي والشامي بما يعود بالفائدة على هذه المدينة.

الباحث مارجرون يشير في هذا المجال إلى أنه " ربما كان زمن وجود ماري حوالي 2900 قبل الميلاد، حيث اتخذت السلطة السياسية ضمن إطار تنظيم اقليمي واسع قراراً بتأسيس مدينة حديثة على الفرات الأوسط. وكان هدف بناء المدينة هو مراقبة الطريق التجاري المحوري الذي يتبع مسلك الفرات "

ويعتقد الباحث في مجال إنشاء هذه المدينة إلى وجود " مدينة قريبة إلى موقع ماري، هي التي قامت بتعمير

ماري، ويعتقد أن موقع هذه المدينة يمكن أن يكون في تل الرمادي ".[1]

ويبدو من إنشاء ماري على نهر الفرات وبشكل يبعد عنها حوالي 2 كيلومتر⊗، على أن الموقع الذي كان مُعّمراً في تل الرمادي كان بدوره قائماً على ضفة نهر الفرات، مما سبّب هلاكه بفعل الفيضانات وهذا ما نستنتجه من كون أن ماري حفلت بمنشأت مائية متطورة ربما لدرء الفيضانات ولا سيما في مجال السدود والأقنية وهذا حتماً عائد لتراكم خبرات سابقة.

ولعل إنشاء مدينة ماري في هذا الموقع على الفرات الأوسط، شكّل مزّية موفقة لجهة صلة وصل بين كلا جناحي المشرق العربي وبذلك فقد أمكن للجناح الرافدي أن يطل على عالم المتوسط وبلاده، في مقابل إطلال الجناح الشامي على العالم ما بعد الرافدي ولا سيما الايراني والهندي وشرق آسيا وعبر مواقع الخليج العربي أيضاً بما يعني أن الجانب الاقتصادي ـ التجاري كان حاضراً وبقوة في هذا الشأن.

وعلى هذا، يمكننا أن نحدد انعكاس تأثير إنشاء ماري وفق الحياة الاقتصادية ـ التجارية في ذلك الحين، فنجد:

<u>أولاً:</u> كان الجناح الرافدي وتبعاً لإشراطات وإمكانات البيئة الطبيعية، يفتقد للأخشاب والحجارة ومواد أخرى، وهذا ما أمكن تأمينه عبر موقع ماري الذي بدوره شكّل صلة وصل تجارية بين الداخل الشامي والرافدين.

بالإضافة إلى قيام ماري بتأمين الجناح الشامي من حاجيات يفتقدها وتأتيه من الرافدين وما بعده.

⊗ موقع مدينة ماري في تل الحريري، ويبعد عن البوكمال حوالي 2 كيلومتراً. تم الكشف عنه عام 1933 عبر البعثة الفرنسية برئاسة أندره بارو.
تبلغ أبعاد التل 1000 × 600 م. عثر في الموقع على ما يزيد عن الـ 25 آلف لوح مسماري معظمها يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد. وما زال العمل مستمراً في موقع هذه المدينة إلى الآن وبرئاسة البروفسور جان كلود مارجرون.

ثانياً: إن منطقة الخابور الخصيبة وسهولها الزراعية الوفيرة تؤمن امكانات حياة زراعية نشطة ومنتجة. وهذا ما سبّب اهتمام إدارة ماري وسلطتها بهذه المنطقة طيلة فترة فاعليتها في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد.

والجدير ذكره هنا، هو أن المخطط الأصلي لماري على شكل دائرة كاملة تخترقها قناة متفرعة عن نهر الفرات حيث تؤمن جرّ المياه إلى المدينة وتسّهل وصول السفن إلى المرفأ.

ويلحظ المدقق على أن بناء سور المدينة تمّ أولاً ثم شيّدت الأبنية داخله، وكان التوسع العمراني يتجه من المركز إلى السور، ومع ملاحظة أن السور يحيط بكافة جهات المدينة عدا الجهة المطلة على نهر الفرات. ويزيد قطر المدينة على 1.9 كيلومتر.

أما لجهة المنشآت المائية التي أنشئت بالتوازي مع إنشاء المدينة، فهي تدل على تطور مذهل في التقنيات ومحاولات جديرة بالاهتمام في سياق التعامل مع البيئة الطبيعية وجعلها تخدم المجتمع لا أن تسبب هلاك المدينة والمجتمع.

وهذا ما تبدى جلياً في المنشآت المائية من أقنية وسدود من غايتها الحد من خطر الفيضانات، إلى تأمين مياه الشفة للمدينة وصولاً إلى تأمين حركة ملاحية تأخذ بعين الاعتبار اختصار الطرق البرية عبر الملاحة المائية.

يقول مارجرون في هذا المجال:

" عُمّرت ماري وفق مخطط وتنظيم هادفين، حيث يشهد على ذلك منشآتها المائية وآثار السور الذي يحيط بها. وإن منظر المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد يدل على تفكير منطقي متجانس، يمثل قوة الحضارة وتفتحها التي ظهرت في الألف الرابع قبل الميلاد، وتوجت في بداية الألف الثالث عبر إنشاء هذه المدينة "[(2)]

وقد بينت الأبحاث التي جرت على تجويف ماري ومنطقة التقاء نهر الخابور بالفرات، على وجود شبكة من

الأقنية. فثمة قناة مهمتها إيصال مياه الري إلى مصطبة واقعة على ضفة الفرات اليمنى بشكل يتأمن معه انتاج الحبوب اللازمة لاستهلاك المملكة.

وثمة اعتقاد أن هذه القناة جرى ربطها بسدّ أقيم على وادي الصواب لتأمين المياه في نهاية فصل الشتاء.

كما أبانت التقنيات عن وجود قناة أخرى تربط نهر الخابور بالفرات عند مستوى البوكمال ويتعدى طولها 120 كيلومتراً وكان وظيفة هذه القناة تأمين الملاحة وبالتالي تفعيل التبادل التجاري بين مناطق الشمال والشرق والغرب عبر ماري.

" كانت هذه القناة الضخمة التي تدمج الخابور بالفرات تحت ماري قائمة على الضفة اليسرى ولها مقياس ثابت هو 11متراً وبطول 120 كيلومتراً وأمكن التعرف عليها لأول مرة باسم نهر داورين، وأن أسباب تشييد منشأة كهذه واضح في عصر كثيف النشاط، فهي تختصر خط الرحلة من 160 إلى 120 كيلومتر. وتتيح إمكانية بقاء ما يكفي من المياه في القناة في فترات انخفاض المنسوب بمعنى أنها قناة ملاحية.

وإلى الآن لم تعرف هذه الترتيبات إلا في المنطقة الواقعة بين الخابور وبلدة البوكمال ولكن يبدو أن آثار تشييدات لابأس بأبعادها، قد تمّ اقتفاؤها باتجاه معاكس لتيار النهرين المجتمعين من قبل ب. جيير وج. ي. مونشابير، وإذا ما ثبتت صحة هذه الملاحظات فلن يقتصر تكييف الوادي على القطاع من نقطة التقاء الخابور بالفرات وحتى ماري، بل يمكن تصوره على نطاق واسع نوعاً ما ".[3]

وفي مجال تأمين مياه الشرب للمدينة عمدت إدارة ماري إلى إنشاء قنوات تتصل بنهر الفرات، وقد دّلت الكشوفات على وجود قنوات تخرج من وادي الصواب / حيث تجتمع مياه الأمطار / بحيث أقيمت سدود لحفظ المياه التي سوف تنتقل إلى ماري عبر هذه القنوات.

أيضاً ثمة تطور آخر تبدّى في تقنيات وسائل الري ومعالجة المياه، وصلت إلى حدّ تمكنت إدارة ماري من خلاله أن تتحكم بالمساحات الطميية التي كانت تشكّل تجويف ماري.

ويشير الباحث أوليفيه روو إلى أن تم تصّور وجود مستوطنة كتلك التي في ماري البعيدة عن النهر ولكنها تتصل به بواسطة نظام قنوات مُعقد ما أدى إلى تحكّم صناعي وفعال بين النهر والمدينة.[4]

وبنتيجة هذه الذهنية المتطورة في إنشاء المدن في ذلك الوقت المبكر، فإن هذا أدى إلى ازدهار هام لمنطقة الفرات الأوسط، بحيث أكدت الاكتشافات والأبحاث على أن وادي الفرات شهد في هذه الفترة تكثفاً للسكن ولا سيما في الجزء الجنوبي منه حول مدينة ماري.

واستطاع الباحثان جيير ومونشابير من تحقيق وجود ما لا يقل عن عشرين موقعاً يبدو أنها كانت تدور في فلك مدينة ماري.

وتوصل الباحثان إلى تأكيد " أن صورة الفرات في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، أشبه بصورة عالم مكتنز بالخيرات، وضع فيه علم الماء القديم كل امكاناته لاستغلال جميع المساحات الزراعية المتوفرة أحسن استغلال ".[5]

ولعل أنظمة الإنشاء المائي هذه سواء كانت لأغراض ملاحية أو خدمية أو وقائية تُعبر تعبيراً قوياً عما استطاعت إدارة ماري في مطلع الألف الثالث القيام به لجهة التصالح مع نهر الفرات بحيث أدى إلى وضع ممكنات البيئة الطبيعية في خدمة المدينة والمجتمع.

وبذا فإن علاقة ماري بالفرات كانت تشكّل علة وجودها ".[6]

الواقع الديمغرافي لماري في الألف الثالث قبل الميلاد:

قبل أن نناقش معطيات الواقع الديمغرافي في ماري في الألف الثالث قبل الميلاد، لابد لنا من أن نشير إلى خصيصة أساسية من خصائص الحضارة السورية عبر التاريخ، عنيت بذلك خاصية الحيوية التي تجلّت في منحنيين:

أولهما: هو الحيوية المتبادلة في البيئة الطبيعية والوسط الطبيعي المحيط والتي أفرزت حالة من التنوع البيئي الطبيعي الذي انعكس حكماً على أحوال البيئة الاجتماعية من خلال التفاعل النشط بينهما سلباً أو ايجاباً.

وبناء على هذا فنحن نستطيع تحديد معالم الوسط الاجتماعي البدوي أو الرعوي والوسط الزراعي والمديني، وهذا الواقع فرض إشراطاته على حركة تاريخ الاجتماع البشري المشرقي سواءاً لجهة التفاعل أو التضاد، لكنه في المحصلة العامة كان يصب في قناة التطور العام الذي تبدى في جملة المنجزات الحضارية الإنسانية للمشرق العربي.

وهذا ما نستطيع تتبع ايقاعه من خلال قراءة الرقم المسمارية لجهة الوقائع الحياتية أو لجهة الأساطير والمناظرات التي عبّرت عن أوجه هذا التفاعل في منحنييه السلبي والايجابي كما في ملحمة جلمامش أو المناظرة بين الراعي والمزارع وهكذا.

ثانيهما: وفق ما سبق لم يعد النظر إلى حركة الاجتماع البشري المشرقي على أنها حالة تفاعل فيزيائي بين كتل لا رابط بينها، بل أصبحنا أمام حالة تفاعل بنيوي امتزاجي أكدته معطيات الآثار والوثائق الكتابية.

فكما استند المنجز الحضاري السومري على ما سبقه من منجز حضاري عبيدي، فإننا الآن أمام حالة امتزاج

سومري ـ أكادي ـ عموري على مدى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. وهكذا تتمخض حركة الاجتماع المشرقي عن سلسلة حضارية ـ تاريخية متواصلة امتلكت أدوات التفاعل المادي ـ الروحي فيما بينها، واستطاعت أن تؤسس من خلال تفاعلها مع البيئة الطبيعية والوسط المحيط لحياة جديرة بأن تعاش.

بناء على ذلك نستطيع مقاربة الواقع الديمغرافي في مدينة ماري انطلاقاً من هذه المفاهيم التي حاد عنها الاستشراق الغربي جهلاً أوتجاهلاً وإما لاظهار حالة قطيعة بين المشرق العربي اليوم ومشرق تلك العصور.

وإذا كان الواقع الديمغرافي في الألف الرابع ولا سيما في منتصفه قد استمد ركائزه من الفاعلية المشرقية السومرية في الجناح الرافدي، فإننا إزاء الجناح الشامي لا نلاحظ فعالية واضحة كما في الرافدين وعلى هذا يمكننا القول أنه مع الألف الثالث قبل الميلاد فإن الفاعلية الحضارية التاريخية في الجناح الغربي الشامي قامت بفضل الأكاديين والماريين / نسبة لماري / والإبلائيين / نسبة لإبلا /، وطبعاً لا يمكن تتبع هذه الفاعلية بموضوعية إن لم نجد أساساتها في الفاعلية السومرية.

يقول الدكتور أبو عساف:

" ساهم السومريون في صنع حضارة الجناح الشرقي للهلال الخصيب ولم يسهموا في حضارة بلاد الشام، حيث قامت هذه بواسطة الماريين والإبلائيين والأكاديين " (7)

وإن كانت الثقافة في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد في ماري تأخذ من الروحية السومرية في أوجهها كافة، غير أن البيئة الديمغرافية حسب المعطيات الآثارية تشير إلى فاعلية أكادية ـ عمورية يبدو وأنها تأثرت بالثقافة السومرية.

وهذا ما دفع مكتشف ماري أندره بارو للقول:

" إن ثقافة ماري سومرية تفتحت في وسط غير سومري "[8]

إذن نستطيع بناء على ذلك مقاربة العلاقات التفاعلية والامتزاجية في المنظور الاجتماعي بين مدن المشرق العربي بجناحيه حيث أن الأبحاث الرصينة تشير إلى علاقات وطيدة بين مواقع الجناحين في الفترة بين 2800 ـ 2350 ق.م، في حين يؤكد الباحث مارك لوبو:

" إن المبادلات الثقافية في الألف الثالث ق.م بين مدن المشرق العربي كانت أغزر وأقوى مما كان من الممكن تصوره حتى الآن ".[9]

وهذا ما تؤكده المعطيات الأثرية في العلاقات الوطيدة بين مواقع كيش وأبو صلابيخ في الرافدين وماري وإبلا في بلاد الشام.

كذلك تلك العلاقات الوطيدة أيضاً بين ماري وأوروك ولاجاش في الرافدين.[10]

وتجمع " الدراسات حول الثقافة المادية للممتلكات القديمة في ماري منذ الثلث الأول للألف الثالث قبل الميلاد، وأكثرها بوجه خاص الفخار، وتقودنا إلى اعتبار ماري منذ فجر السلالات الثانية متصلة حصراً مع وادي ديالى في الرافدين، وفي الواقع كانت ماري قد أسـست في نهاية فترة فجر السلالات الأولى خط سير واضح يُعبّر عن العلاقة بين اشنونا / في الرافدين / وماري . بحيث أن هذا الخط يمر عبر عانه ويجتاز الطريق السفلي لوادي الثرثار. وقد أقامت هذه الطريق علاقات مباشرة بين مناطق كيبان، كركميش، ايمار، توتول، ماري، عانه، سيبار، كيش.[11]

إذن نصل من هذا إلى استنتاج أن ماري ذات القاعدة الأكادية ـ العمورية، كانت واقعة تحت تأثير الروحية الثقافية الرافدية، وكان خط اتجاهها التفاعلي يتجه شرقاً إلى الرافدين ولا سيما في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، وهذا ما يمكن ملاحظته سواء لجهة الفخار أو

المنحوتات التي عثر عليها والتي تحمل صفاتاً رافدية في الشكل والروحية.

وبناء على هذا يمكننا القول أن حركة التفاعل في هذه الفترة في ماري كانت ذات اتجاه رافدي أكثر من اتجاهها إلى العمق الغربي الشامي، ويبدو أن هذا الأمر يتبع النشوء المبكر لماري كمدينة في بلاد الشام في ظل غياب فاعل لمدن كانت في طور التكوين كإبلا مثلاً، أو ايمار التي لم تمتلك أدوات قوتها الذاتية مما أهلّها لتكون مدينة تابعة للفاعلية الأقوى سواء في ماري أو إبلا في النصف الثاني للألف الثالث. وهنا يعنينا التأكيد أن الواقع المديني في النصف الأول من الألف الثالث كان يشتمل على سلالات حكمت مدن، أور، أوروك، لاجاش، كيش، أوما، شورباك، أدب، ماري وغيرها، وهذه كلها كانت سومرية فيما عدا سلالات مدينتي كيش الرافدية / بؤرة التواجد الأكادي / وماري، حيث كانت أكادية وبؤرة التواجد والتجمع العموري.(12)

ويشير د. أبو عساف إلى أن مدن لاجاش وأوما وأور، لم تشارك مباشرة في التفاعل مع مدن بلاد الشام آنذاك، بل شاركت الأكاديين في صنع حضارة الجناح الرافدي.(13)

أما عن لغة سكان ماري في هذه الفترة فتبعاً للواقع الديمغرافي، لابد أن نلحظ وجود عدة لهجات أو لغات، حيث دلّت الأبحاث على أن سكان ماري كانوا يتكلمون السومرية والأكادية القديمة والحورية واللهجات العمورية، وكان ملوك ماري في تلك الفترة يحملون أسماء عمورية.

ويشير ألفرد هالدار إلى أن السكان الذين يتكلمون اللغة السومرية كانوا موجودين في شمال سورية وفي ماري وتل الخويرة في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل.(14)

أما لجهة التواجد العموري في المشرق العربي فتؤكد الأبحاث التاريخية إلى أنه يعود إلى الثلث الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث أنه أخذ بالتصاعد التدريجي

وصولاً إلى تأسيسه للممالك العمورية الكنعانية مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد في مجمل مدن المشرق العربي آنذاك.

الجدير ذكره هو أن البؤرة الديمغرافية للتواجد العموري تقع في جبل بشري في البادية الشامية، وشكّلت ماري عبر تاريخها بوابة العبور العموري إلى بلاد الرافدين.

وإن كانت معالم التغلغل العموري في الألف الثالث أخذت بُعداً سلبياً في الأدبيات الرافدية السومرية حيث أشارت إلى العموريين على أنهم يأكلون اللحم النيء، وكونهم رُحلاً وإلى ما هنالك، من صراع بين النمط المديني والنمط الرعوي، غير أن هذا الأمر أخذ بالأفول تبعاً لانضواء العموريين تحت جناح الحياة الزراعية والمدينية واسهامهم في دورة الحياة المدينية الواحدة.

والباحث مارك لوبو يشير إلى التعايش السومري العموري الذي سار جنباً إلى جنب وبسلام في ماري. ويؤكد أن التجار العموريين كانوا يتجولون في بلاد الرافدين وأكاد كما تجوّل التجار السومريون في ماري، بالإضافة إلى توطن الكثير منهم في أماكن الآخر.

وهذا ما يُعبّر عنه الفرد هالدار بقوله:

" لما كانت التجارة تتيح إمكانية التبادل ليس فقط بين البضائع، بل أيضاً بين الأشخاص، فإن النتيجة أنه استوطن العموريون بصفة دائمة في الرافدين واستوطن السومريون في الغرب ".(15)

إذن نصل إلى أن ثمة تعايشاً سومرياً ـ أكادياً ـ عمورياً في الثلث الأول من الألف الثالث.

وعلى جري المدن التي تمتلك الخاصية التجارية، لابد أن تتمتع ماري بلغة تفاعل وحوار بين مختلف أروماتها الواغلة في دورة حياتها الاقتصادية ـ الاجتماعية الروحية وبالتالي امتلاك أدوات القوة الحضارية من أجل انبثاق فاعليتها الحضارية التاريخية.

الحياة المعتقدية في ماري ـ الألف الثالث:

أيضاً لا نعتقد أن بإمكاننا البحث في الحياة المعتقدية في مدينة ماري في الألف الثالث، دون الاستناد على البعد الديمغرافي ـ الاجتماعي في شقيه الزماني والمكاني.

فالمعطيات الأثرية تؤكد ميزة التفاعل والامتزاج الاجتماعي، بالإضافة إلى التنوع في مجال الرموز الاعتقادية تبعاً للتنوع الديمغرافي.

فإلى جانب الآلهة السومرية سنجد آلهة عمورية وبذا نحن أمام معابد للأولى كما للثانية.

وعلى هذا قدمت الكشوفات الأثرية معبداً للآلهة نيني زازا كما أمدتنا بمعبد للآلهة عشتار، كذلك نجد معبداً لشمش وعشتارات ودجن ونينهورساج بالإضافة إلى العثور على زقورات ذات مهمات معتقدية مدينية اجتماعية.

وتشير الدلائل إلى أن الأرباب السومريون والعموريون عُبدوا بآن واحد في ماري.

ويشير هالدار إلى أن جزءاً من سكان ماري كانوا يتكلمون السومرية ويعبدون الأرباب السومريين، وقسم آخر كان يتكلم العمورية ويعبد الأرباب العموريين.

بدوره يشير ويلفرد جورج لامبيرت إلى أن مجمع الآلهة / البانثيون / في ماري كان يحاكي النمط السومري، فثمة إله رئيسي وإلى جانبه مجمع من الأرباب. وهذا يؤكد حسب الباحث على التواصل الثقافي والروحي بين جناحي المشرق في عصر ماري. (16)

ويصل إلى نتيجة أن وجود " أسماء آلهة سومرية في معابد سورية وأسماء آلهة سورية في معابد سومرية يجعل الحديث عن الحياة الاعتقادية في المشرق لا

يكتمل إن لم يتم التطرق إلى كلا الجناحين، الرافدي والشامي.

وفي مجال مقاربتنا للحياة الاقتصادية والطقوس في ماري، فنحن نعتقد أن ما كان موجوداً في مواقع الرافدين لهذه الفترة، ينسحب على مدينة ماري كون أن الفاعلية الرافدية كانت أقوى من جهة، ومن جهة أخرى أنه تبعاً لذلك كانت ماري ذات توجه رافدي ولا سيما في النصف الأول من الألف الثالث. ونظراً لأن نصوص ماري العائدة للألف الثالث لم تقدم بعد معطياتها لقلّتها، لهذا سنحاول تتبع مجمل فعاليات الحياة الاعتقادية والطقسية التي كانت سائدة في مواقع الرافدين المتزامنة مع هذه الفترة من حياة ماري.

وبالعودة إلى ثنائية السلطة في شقيها المعبدي والزمني، نلاحظ أنه مع بدايات تشكّل المدن الأولى كان ثمة سيادة للسلطة المعبدية على حركة المجتمع، ويبدو أنه مع معالم نشوء السلطة الزمنية المتجلية في القصر والملك، أصبحنا أمام تقاسم للأدوار بين المعبد والقصر ويبدو أن كل هذا اختص في مجال الفاعلية السومرية، ولم تتوضح معالم فصل المعبد عن دولة المدينة إلا مع العصر الأكادي وانبثاق الفاعلية الأكادية في النصف الأخير من الألف الثالث ق.م.

فبالعودة إلى الحقبة الأولى من تشكّل المدن ولا سيما في الرافدين، نلاحظ أن حاكم المدينة كان يقوم بوظيفة مزدوجة فهو إلى جانب كونه ملكاً، غير أنه كاهن أيضاً، ما يعيد للأذهان وجود حالة توافيقية ومتداخلة بين كلا السلطتين.

وباطراد مع الزمن أصبحنا أمام حالة لنشوء فئة من الكهان كانت غايتها التوسط بين الإله والجمهور، ما يعني انسحاب السلطة المعبدية من مجال الحياة العامة ولو في شكل بدئي.

فإن كان الإله ـ حسب اعتقادهم ـ هو المالك الحقيقي للأرض، فإن الجمهور هم المستأجرون عنده، وبالتالي فإن للكهان وظيفة أن يقوموا بتحصيل الضرائب وريع الأراضي.

وقدمت وثائق أوروك في هذا المجال دليلاً على تسديد الضرائب والالتزامات إلى الكهان.

وثمة وظائف أخرى يقوم بها الكهان ولا سيما كبيرهم الذي تستند إليه مهمات قيام وإقامة الطقوس المعتقدية الكبرى / السنة الجديدة مثلاً /.

ويمكننا مقاربة فئات الكهنة التي كشفت عنها وثائق المدن الرافدية والتي نعتقد أنها انسحبت على الحياة الاعتقادية بعامة على كامل المشرق العربي ومنه مدينة ماري.

الكالو KALU:

وهم فئة من الكهنة كانت مختصة بموسيقى المعبد، حيث كانت تؤلف الترانيم والليتورجيات وتعنى بالآلات الموسيقية. بحيث أن وظيفتهم الأساسية كما أشارت الوثائق هي " تهدئة قلب كبار الآلهة " وكان من يريد العمل في هذه الفئة أن يتبع دورة تدريبية تستغرق ثلاثة أعوام.

الأشيفو ASHIPU: أو مَشْماشُو:

كانت وظيفة هذه الفئة تنحصر في درء الأرواح الشريرة والشياطين عن الناس وذلك عبر إقامة الطقوس وتلاوة التعاويذ، وكان الاعتقاد آنذاك أنه حتى الأمراض أو الحوائج والأوبئة كان مصدرها تلك الأرواح الشريرة.

البارُو: BARU:

وتعني الرائي. وهذه الفئة كانت تختص باستطلاع الفأل وتفسير الأحلام ورصد الفلك والنجوم وكان لهذه الفئة دوراً مهماً في استطلاع نتائج الحروب وتقديم المشورة إلى الملك.

قدشتو:

وهذه الفئة من الكهنة تختص بالنساء، وتخبرنا الوثائق أن بنات الملوك كنّ يلتحقن بهذا السلك فهو مدعاة للفخر والايمان حيث تصبح النسوة كاهنات المعبد ومثال ذلك ، ابنتي نارام سن الأكادي.

وقد صانت قوانين حمورابي في الألف الثاني قبل الميلاد، حقوق هذه الفئة ووضعت قوانيناً تحدد آليات عملهن وسلوكهن.

وكانت النسوة اللواتي يلتحقن بمعبد عشتار يطلق عليهن اسم " عشتاريتو ".

طقوس المعبد:

كان المعبد يَعْبر عدة مراحل طقوسية يومية، فهناك أولاً: غسل تماثيل الآلهة وكسوتها وإطعامها. حيث يوضع أمام الحرم،الزهر والطعام والشراب للآلهة، بالإضافة إلى البخور ومجامر حرقه.

ويتألف طعام الآلهة من الخبز والكعك ولحم الحيوان والأسماك.

وتقدّم القرابين من قبل الجمهور سواء كانت من الماشية أو نتاج الحقول وهي بمثابة ضريبة عن ريع الأراضي وغيرها.

وفي حكمة تقديم القرابين، فإن الوثائق تشير إلى أن هذا الأمر ضروري لجهة جعل الإله في مزاج حسن وتجنب غضبه.[⊗]

وباعتقادنا أنه لا يمكن النظر إلى مجمل فعاليات الحياة الاعتقادية في ماري / الألف الثالث/ إلا من خلال

[⊗] للاستزادة في هذا المجال يمكن الرجوع إلى مؤلفات عديدة تتحدث عن هذه الأمور ولا سيما:
- S.H.HOOK . BABYLONIAN AND ASSYRIAN RELIGION
- صموئيل كريمر ـ طقوس الجنس المقدس ـ ت ـ نهاد خياطة ـ دار الغربال ـ دمشق 1989
- انطوان مورتفات ـ تموز ـ ترجمة ـ توفيق سليمان ـ دار المجد ـ 1985
- ما قبل الفلسفة. هنري فرانكفورت وآخرون ـ ت ـ جبرا ابراهيم جبرا ـ المؤسسة العربية ـ لبنان ـ 1980

فعل التمازج والتعايش وسيادة الثقافة الأقوى، عنيت الثقافة الرافدية وإلى جانبها ما تمخض عن السياق الأكادي ـ العموري.

ولعل طبيعة ماري التجارية فرضت عليها أن تكون حاضنة لمجمل الاعتقادات ورموزها، وهذا ما فرضه الواقع الاقتصادي، التجاري، بما يُذّكر أيضاً في مجمل معايير ومنظومات المدن القائمة على الفعل التجاري وإشراطاته، مثل تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى وبابل في الألف الأول قبل الميلاد.

واستناداً على ذلك، فإن ماري في الألف الثالث، حفلت بمعابد سومرية ومعابد عمورية، وكذلك آلهة سومرية وعمورية، فإلى جانب معبد نيني زازا السومري نجد معبداً للآلهة عشتارات العمورية. " ولما كانت التجارة تتيح إمكانية التبادل ليس فقط بين البضائع، بل أيضاً بين الأشخاص كالتجار مثلاً، فكانت النتيجة أن استوطن العموريون بصفة دائمة في الرافدين واستوطن السومريون في بلاد الشام "⊗[1]

إذن ثمة تداخل بين العالم التجاري وإشراطاته، مع العالم الاعتقادي وكذلك مع عالم التوطن والاقامة في المدن المختلفة في المشرق.

وقد قدمت معطيات ماري العمرانية، وجود معابد لـ نيني زازا ونينهور ساج وكذلك عشتار ودجن.

ويشير أندره بارو مكتشف ماري إلى أنه ومع بداية تأسيس ماري، شهدت هذه المدينة مع أول سلالة حاكمة لها فترة ازدهار عبّرت عن نفسها في إنشاء القصور والمعابد التي ترقى إلى حوالي 2900 ـ 2600 ق.م.⊗⊗ [32]

ومع حوالي منتصف الألف الثالث ستكشف التنقيبات، عن وجود تماثيل تعبر عن الخشوع والإيمان تخص الحكام

⊗ هالدار – العموريون. 1993- دار الأبجدية.

⊗⊗ أندره-بارو- ماري- وزارة الثقافة السورية1979.

⊗⊗⊗ جان كلود مارجرون- دليل معرض الآثار السوري الأوروبي.

والكهنة موضوعة في المعابد، وهذا ما نجد صداه في مواقع عديدة من المشرق، كمواقع خفاجي وتل أسمر في الرافدين وموقع تل خويرة في الشام.

أما الباحث مارجرون فيؤكد وحدة الذهنية المعمارية في الشرق، بقوله:

" لا يمكن الحديث عن استقلالية سوريّة في مجال العمارة الدينية عن الرافدين " ⊗⊗⊗ 4

وتجمع دراسات الحياة الاعتقادية في ماري وعمارتها وذهنيتها على هذا النموذج الاعتقادي بين كلا مدن الجناحين المشرقيين فالباحث ويلفرد جورج لامبيرت يتحدث عن " أسماء آلهة سومرية في معابد سوريّة وكذلك أسماء آلهة سوريّة في معابد سومرية، يؤكد بناء على هذا على أن أي حديث عن مجمع ديني في سورية أو الرافدين لا يكتمل ما لم يتم التطرق إلى كلا الجانبين "⊗5

وقدّمت نصوص ماري ما يزيد على 125 اسماً إلهياً مقدساً، مثل: شمش ، سين، أدد، عشتار، إيا، ننهور ساج ـ داجان.. الخ.

أما الأضاحي المقدمة الآلهة فكانت دوماً من الخراف الذكور، وكانت تؤكل بعد ذبحها مع ملاحظة أن الكنعانيين كانوا يحرقونها.

وتشير الوثائق أيضاً إلى ظهور اسم إله هو / اتور ـ مير / وتعني بوابة ماري، وربما هذا يعطي دلالة إلى وجود إله قديم في ماري أعطاها اسمه. ⊗⊗

⊗ فيصل عبد الله - دراسات تاريخية – 38/37 قراءة في 5 مجلدات عن ماري.

⊗⊗ المرجع السابق.

أما معابد ماري في هذه الفترة فسنجد، معبد عشتار، معبد شمش، معبد نهور ساج، معبد عشتارات، معبد نيني زازا ـ معبد داجن. كما عثر على زقورات ذات وظيفة اعتقادية ودنيوية.

الجدير ذكره أن مساكن الكهنة كانت تقام إلى جوار المعابد.

وقد أبانت مكتشفات ماري على نشوء ظاهرة جديدة تمثّلت في انشاء قصر ـ معبد، وهي ظاهرة مميزة بين مدن المشرق العربي آنذاك.

وربما هذا يدل على وجود نوع من التصالح بين السلطتين الاعتقادية والزمنية.

" وقد عثر في معابد مدينة ماري هذه على مجموعة كبيرة من تماثيل العبّاد الورعين، والذي يعتقد أنه كانت هناك ورشات عمل تنتج تماثيل بشرية متشابهة تبيعها للراغبين من الرجال والنساء.

وعلى مدى عدة قرون / 2700 - 2350 / ق.م، انتجت ورشات ماري تماثيل رجال مُثلوا وقوفاً، أو في بعض الأحايين القليلة جلوساً، حفاة، يرتدون مئزراً معذقاً بأكمله أو طرفه فقط يشده إلى الخصر أحزمة، ويستر النصف السفلي من الجسم أما النصف العلوي فيبقى عار، ومُثلت النساء واقفات وجالسات حفاة يرتدين ثوباً طويلاً فضفاضاً يستر الجسم.⊗

الجدير ذكره أن أغلب تماثيل ملوك ماري في هذه الفترة عثر عليها في المعابد.

وحوى أحد القصور ـ المعبد الذي يعود إلى حوالي 2500 قبل الميلاد، على مصطبة مرصوفة بالبلاط حوت على بقايا عمود خشبي جميل من أرز لبنان، ما يقدم دليلاً

⊗ بغية الاستزادة، انظر مؤلف الدكتور علي أبو عساف، فنون الممالك القديمة في سورية – دار شمأل 1993-دمشق.

مادياً على وجود علاقات لماري آنذاك مع الساحل السوري.

وكما أشرنا إلى احتواء المعابد على تماثيل الملوك، نجد تمثال لمجي ماري في معبد عشتار، وتمثالاً للملك إيكو ـ شاما ـ كان في معبد نيني زازا، وكذلك تمثال المغنية أور ـ نانشي الذي نقش على ظهره اسم الملك إيلول ـ ايل.

وكانت معابد ماري على صنفين:

الأول: هو المعبد الطويل حيث يكون المصلى طويلاً.

الثاني: معبد يكون مخططه شبيهاً بمخطط بيت السكن وهو بيت الرب.

وتشير الدراسات إلى وحدة النمط المعماري بين المعبد B_2 في إبلا مع بيت العبادة التابع للقصر في ماري والذي يرقى إلى 2300 قبل الميلاد.

وكان الرب الحقيقي أو الرب الوطني في ماري هو داجان/ دجن.

مع الإشارة إلى أن الملوك آنذاك، درجوا على وضع بناتهم في سلك الكاهنات في المعابد، وذكرنا مثلاً أن نارام سين وضع ابنتيه كاهنتين في معبد شمش، وهما شوما شاني وأختها ميكيبار.

الواقع السياسي في الألف الثالث قبل الميلاد ـ عصر ماري:

في إشارته إلى الجناح الشرقي الرافدي يقول أرنولد توينبي:

" كانت سومر في فجر التاريخ للمدنية السومرية، قطعة فسيفساء مكونة من مدن ـ دول محلية ذات سيادة. والوحدة الثقافية التي عرفها العالم السومري لم تكن بعد قد وازنها وحدة على المستوى السياسي " (17)

ففي هذه الفترة نحن أمام مدن تكاملت مصالح كل واحدة على حدة، فنجد، أوروك ـ أور ـ لاجاش ـ كيش ـ أوما ـ شوروباك ـ نفر ـ أدب ـ نيبور ـ أريدو ـ ماري.

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن مدينة إبلا والتي يعود بدء استيطانها إلى حوالي 3500 قبل الميلاد، كانت ذات تواجد تاريخي لا بأس به في النصف الأول للألف الثالث، إلا أن فاعليتها التاريخية لم تكتمل إلا في حوالي 2400 قبل الميلاد متواقتة تقريباً مع نشوء الفاعلية الأكادية أو قبلها بقليل.

وتعطي وثائق هذه الفترة منذ فجر التاريخ واستمراراً حتى النصف الأول من الألف الثالث انطباعاً على أن دول المدن تلك تعايشت خلال القرون الأربعة الأولى وفي أبعد تقدير الستة الأولى، في وئام ودون أن تتصادم فيما بينها.

ويبدو هنا أن الصدام والصراعات ما كانت لتحصل إلا عند اكتمال الشرط الحياتي للمدينة سواء في مجال الاقتصاد أو التجارة أو الحدود الادارية/الدولية لكل مدينة، حيث سنصبح أمام صراع معظمه صراع مصالح مدينية في غياب وجود وعي اتحادي يصون مصالح الجميع والذي يبدو أنه لم يكن ليتحقق إلا عبر وجود قوة فاعلة لمدينة ووجود رأس لهذه المدينة يعي هذا الأمر وهذا ما نجده صداه في

محاولات عديدة بدأها لوغال زاجيزي ثم شاروكين الأكادي وشمشي أدد وحمورابي.

وبالعودة إلى ما قبل كل ذلك، فإن لحظة الصراع المصلحي بين مدن الجناح الرافدي تبلورت حين اتسعت أملاك مدن ـ الدول وامتدت أراضيها بحيث أصبحت تلك المدن متجاورة ومتلاصقة فيما بينها بشكل مباشر، ما أتاح هذا المجال للاحتكاك المباشر وبالتالي ظهور صراعات حدودية واقتصادية وتجارية وملاحية.

فالرافديون " لم يستجيبوا للتحدي الاجتماعي باللجوء إلى الطريقة الأساسية للتوحيد والوحدة، على نحو ما تمَّ في مصر حين ظهرت المشكلة الاجتماعية ذاتها هناك. بل استمرت مدن الدول السومرية حتى بعد تماسها واحدتها بالأخرى في الحفاظ على استقلاليتها وسيادتها المحلية ". (18)

وبذلك فمع منتصف الألف الثالث سنشهد بدء الصراعات بين المدن الرافدية والتي أخذت طابعاً عسكرياً، فاختلاف مدينة أوما مع لاجاش حول قناة مائية تقع على تخوم المدينتين سيفجر صراعاً عسكرياً أدى إلى انتصار مدينة لاجاش.

ثم وفي فترة حكم إناتوم حاكم لاجاش، قامت هذه بحروب على مدن أور ـ أوروك ـ كيش، واستطاع هذا الحاكم الوصول إلى منطقة الفرات الأوسط وماري.

الجدير ذكره هنا، هو أن بعض أوجه الصراع لم تكن لأسباب المصالح المدينية بقدر ما كان تعبيراً عن حيوية المدينة واكتمال فاعليتها ما يدفعها إلى التوسع واحتواء المدن الأخرى كعنصر من عناصر ثقافة الأقوى والذي تخبرنا عنه حركة التاريخ.

وبعد انتصار لاجاش سنلاحظ أن معالم التمدد والتوسع تحمل في طياتها تآكل للنظام نفسه وهذا ما نجده هنا حيث قام أوركا جينا بحركة تمرد في لاجاش أدت إلى اعتلائه لسدة الحكم فيها. وقاد حركة اصلاحية اجتماعية

لكافة ظواهر ومجريات الحياة في لاجاش، غير أن مصالح المتضررين من هذا الاصلاح دفعت بهؤلاء كي يتآمروا مع حاكم مدينة أوما لوغال زاجيزي⊗، ما أدى إلى سيطرة أوما على لاجاش.

ثم ونتيجة لاكتمال فاعلية أوما التاريخية ولا سيما بعد إسقاط لاجاش، سنجد أن زاجيزي سيطر على مدينة أوروك، واستطاع هذا الملك أن يستغل الصراعات القائمة بين مدن الدول آنذاك لصالحه وهذا ما مكّنه من الاستيلاء عليها. وإليه ينسب تدمير ماري في حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

والذي يبدو أن محاولات زاجيزي هذه، تعتبر أولى محاولات التوحيد السياسي / بقوة السلاح / تتم في المشرق العربي بحيث استطاع أن يصل إلى ساحل البحر المتوسط.

وفي معرض مناقشته لظاهرة لوغال زاجيزي يشير توينبي إلى أن التوحيد السياسي الذي فرضه كان العلاج الوحيد لظواهر اجتماعية سلبية كالحروب الأهلية ـ الصراعات والتفكك.

كما أن شبكة الأقنية المائية التي كانت قائمة في الحوض الأدنى لدجلة والفرات، الطبيعي منها والاصطناعي، كانت وحدة لا تقبل التقسيم، وما لم تقم سلطة واحدة قادرة على تنظيم عالم المياه بالكامل، فإن ادارة هذا العالم المائي لا يمكن أن تكون فعالة وسليمة.

أيضاً لا يخفى هنا وجود بعد اقتصادي ملاحي تجاري يتبدى في السيطرة على المعابر المائية التجارية لدجلة والفرات بالإضافة إلى وجود حاجة رافدية دائمة للحصول على الأخشاب من جبال الأمانوس وكذلك الحصول على النحاس من مناطق بعيدة.

⊗ لعل ظاهرة لوغال زاجيزي تُعبّر عن مدى التفاعل السومري ـ الأكادي. فهو كان حاكماً لمدينة سومرية غير أنه كان أكادي النسب وذلك بالاستناد إلى اسم أبيه " بوبو " الأكادي. (BUBU). انظر عيد مرعي ـ تاريخ الرافدين ـ دار الأبجدية ـ دمشق ـ 1991 ـ ص 38.

ووسط كل ذلك، كان ثمة فاعلية تسعى للاكتمال ولا سيما في منحاها الديمغرافي وذلك في مدينة كيش، بحيث أن اكتمال هذه الفاعلية سيؤدي إلى انحسار فاعلية زاجيزي المتسعة غرباً. ويبدو أن الأمر حُسم حين قام زاجيزي الذي أصبح مقره في مدينة أوروك بمحاولة إنهاء فاعلية كيش المهددة له ولمشروعه وهذا ما سوف يؤدي إلى خروج شاروكين الأكادي من مدينة كيش / حوالي 2340 ق.م / وانتزاعه للامبراطورية من يد زاجيزي، وهنا سوف تبدأ الفاعلية الأكادية نحو منعطف جديد في تاريخ المشرق العربي. ⊗

وتشير الوثائق الكتابية إلى أن شاروكين قام بحوالي 34 حملة عسكرية ضد لوغال زاجيزي حتى تمكن من أسره وعرضه أمام الإله انليل في مدينة نفر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلا المدينتين أريدو ونفر كانتا ذات فعالية دينية/اعتقادية، بشكل جوهري ولم تكن لهما أي مطامح سياسية.

⊗ في مقاربة المستشرقين لهذا الصراع بين شاروكين وزاجيزي، نجد أنهم يحاولون مناقشة هذا الأمر وفق صراع ديمغرافي بين السومريين والأكاديين، غير أننا هنا نستبعد هذه المقاربة التي لا تمت لذهنية المشرق العربي القديم، فالوثائق لم تشر إلى حدوث صراع ديمغرافي سومري ـ أكادي، كذلك إن الصراع هنا يتبدى في مسألة انبعاث فاعلية تاريخية واكتمال شرطها الحضاري دون اعتبار آخر. كما أننا نعلم أن زاجيزي هو أكادي وحاكم لمدينة سومرية، وأن شاروكين هو أكادي أيضاً.

مدينة ماري بين 2900 - 2350 قبل الميلاد:

لندرة الوثائق الكتابية في ماري والتي تعود لمطلع الألف الثالث قبل الميلاد بالاتجاه نحو منتصفه، فإن ما عوّض عن ذلك هو الوثائق الرافدية / البابلية والآشورية/.

فقد أبانت هذه الوثائق / ولو أنها أتت في فترة متأخرة عن ذلك العصر / عن ستة ملوك حكموا ماري لمدة 136 عاماً. علماً أن سلالة هؤلاء الحكام وغيرهم حكمت بين 2900 ـ 2600 ق.م .

وأول حكام هذه السلالة هو أنسود.

وبعد الكشف عن رُقم إبلا في الألف الثالث / العائدة نحو منتصفه / أبانت هذه عن وجود أسماء لملوك حكموا مدينة ماري، ولم يرد ذكرهم في ثبت الملوك البابلي الآشوري.

ويميل الاعتقاد إلى أن هؤلاء حكموا في الفترة بين 2600 ـ 2350 قبل الميلاد.

وهم: إيكوشمش ـ سوم ـ ايشتوب شار ـ ايبلول إيل ـ إنا دجن ـ لمجي ماري ـ إيكو شاماكان./ يمكن الرجوع إلى الملحق الأول للكتاب /.

ويبدو أن فاعلية ماري/ بحيث يمكن اعتبارها مملكة تسيطر على مجالها الطبيعي والحيوي التاريخي / تحققت في زمن حكم ايبلول إيل، حيث أشارت الوثائق إلى أن ماري كانت القوة الوحيدة المسيطرة على حوض الفرات الأوسط، بحيث استمرت في فاعليتها التاريخية حتى ظهور الفاعلية الأكادية في حوالي 2350 قبل الميلاد.

وقد دلّت الوثائق على هذا الأمر، عبر قراءة رسالة لحاكم ماري ايبلول إيل، عثر عليها في أرشيف إبلا حيث يذكر هذا الملك أعماله ومنجزاته، بالإضافة إلى أعمال

سلفه ـ ايشتوب شار، وسوم اللذين سيطرا على مدن عديدة في حوض الفرات.

ويبدو أن محتوى الرسالة يتضمن وجود صراع مصالح خفي بين ماري وإبلا في هذه الفترة، وهذا ما سنناقشه لاحقاً في فصل منفصل.

إذن، إن المشهد البانورامي باتجاه منتصف الألف الثالث يشير إلى وجود صراعات مصالح بين مدن المشرق العربي ولا سيما في جناحه الرافدي، ثم سنشهد علاقات متباينة ومتصالحة بين ماري وإبلا. على أنه حين دمّر لوغال زاجيزي ماري فإنها سرعان ما أعادت بناء نفسها وباقتدار، ما يدل على فاعليتها آنذاك ولاسيما الاقتصادية – الاجتماعية- الروحية.

هذا في وقت كانت إبلا توطد دعائم دولتها وتحاول السيطرة على مدن العبور التجاري، وهذا ما يؤكد ترّنح علاقتها مع ماري تبعاً لمصالحها وتبعاً لمصالح ماري ولا سيما التجارية منها. والذي يبدو أنه في فترة التصالح بينهما وتأسيس علاقات حميدة بينهما، كان هذا الأمر ينعكس إيجاباً لصالح المدينتين.

جورجيو بونشيلاتي بدوره يؤكد أن ماري ومنذ حوالي 2400 قبل الميلاد، كانت تسيطر على منطقتي الفرات وحوض الخابور واستمرت حتى سقوطها على يد حمورابي في 1760 قبل الميلاد، وعلى نفس المنوال.[19]

وتشير الدراسات إلى أن ماري في الألف الثالث امتد نفوذها حتى كركوك في فترة إيبلول إيل، ومنطقة كوموكينا في الأناضول، وأن إبلا دفعت الجزية لها، كذلك تشير تلك الأبحاث إلى أنه في فترة حكم ايشتوب شار خضعت إيمار لفاعلية ماري.[20]

واستطاع الباحث الفونسو آركي من تحديد ملوك الألف الثالث في ماري ولا سيما مع الثلث الثاني منه كما يلي:

سوم ـ ايشتوب شار ـ إيبلول إيل ـ نيزي ـ إنا دجن ـ إيكوشار ـ حيدار.

وقد كشفت وثائق إبلا عن إرسال كميات من الهدايا من إبلا في عهد ملكها أرانوم الذي حكم بين حوالي 2400 ـ 2300 ق.م إلى ماري في فترة حكم إبلول إيل ونيزي وإنا دجن، وقد بلغ مجموع الهدايا المرسلة هذه 63 كيلو غراماً من الذهب و 1008 كيلو غراماً من الفضة. وهذا يشير إلى سيادة فاعلية ماري بمملكتها في هذه الفترة وصولاً إلى إبلا. ومع حكم إيكوشار وحيدار لمملكة ماري، يبدو وأن فاعلية ماري قد هدأت وسادت علاقات متوازنة وندية بين المدينتين، ويبدو أن توطد دعائم الفاعلية الإبلية ساهم في هذا التوازن. لذا سنجد أننا هنا أمام إقامة علاقات اقتصادية وتجارية وفق معاهدات، وهذا ما سمح بتفعيل العبور التجاري للبضائع والسلع من وإلى ماري وإلى إبلا ومدن أخرى مثل كيش الرافدية، لا بل وتشير وثائق إبلا إلى انتقال الحرفيين بين المدينتين. (21)

مع الإشارة إلى أن ماري كانت وبقيت مفتاح السيطرة على التجارة النهرية لنهر الفرات، واستطاعت كلا المدينتين أن تسيطر على النصف الشمالي لبلاد الشام.

وأيضاً، يجدر الذكر هنا، هو أن نشوء وإنشاء ماري قي منطقة الفرات الأوسط جعلها همزة الوصل بين جناحي المشرق العربي وبمعنى آخر فإن هذا الأمر قد أرسى لتوجه حضاري جديد يتجلى في محاولة جعل الجناح الرافدي منفتحاً أكثر على عالم المتوسط وبلدانه عبر موقع ماري وتالياً إبلا.

ويشير الباحث مارجرون إلى هذا الأمر بقوله:

" إن وادي الفرات الأوسط، عاش عصره الذهبي في فترة البرونز، وأن هذا الوضع يتطابق واللحظة الحاسمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، حين كانت سهول الرافدين التي سارت على خطى حضارة أوروك تتجه بنفسها نحو البحر الأبيض المتوسط". (22)

الحياة الاقتصادية ـ التجارية 2900 - 2350 ق.م

لمقاربة دقيقة للواقع الاقتصادي التجاري لماري في الفترة الممتدة بين مطلع الألف الثالث وصولاً إلى ظهور الفاعلية الأكادية، ينبغي علينا التأكيد على حقائق عدة:

أولها: أن هذا الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي لا ينفصل عن الواقع السياسي الذي تبّدى منذ نشوء المدن الأولى وتكّون مصالحها باطراد، وأن هذه المصالح كانت تُعبّر عن نفسها ضمن وعي مديني لم يرقَ إلى وعي اتحادي بين المدن آنذاك.

وعليه فإن ما نتابعه من دراسات وأبحاث للمستشرقين والتي تُعنى بمناقشة هذه المسائل، ولا سيما الصراعات بين المدن تلك على اعتبار أنها صراعات هوية ديمغرافية، فيجري التركيز على الهوية السومرية مقابل الهوية الأكادية، بحيث يتبدّى للقارئ والمتابع أن ثمة صراعات أثنية آنذاك، وقد فندنا ذلك فيما سبق وأظهرنا أن وثائق المشرق العربي القديم الرافدية لم تشر إلى صراعات أثنية أو ديمغرافية مع الأكاديين، لا بل إن التعايش بينهما كان يعبّر عن نفسه في مجمل حركة المجتمع آنذاك، وإن ذكرت الوثائق الرافدية، العموريين، بشكل سلبي، فهذا لم يكن استناداً إلى معطى ديمغرافي بقدر ما كان تعبيراً وصفياً عن جماعة مرتحلة من البدو لم تصل بعد إلى التفاعل مع العالم الزراعي والمديني رغم وجود عناصر عمورية متزامنة امتلكت التفاعل وانخرطت في حركة المجتمعات في مدن المشرق الرافدية.

وعليه فإن ما درج عليه بعض المستشرقين في هذه المسألة، نقف إزاؤه وقفة نقدية، ونشير إلى أن صراع المصالح المدينية هو الأساس الكامن خلف صراع المدن

المشرقية آنذاك، وبالتالي فلا نحبذ الإشارة إلى فاعلية أور في الثلث الأخير من الألف الثالث على أنها نهضة سومرية متأخرة، لأن المعطيات الأثرية تدل على وجود ركائز ومداميك أكادية في فاعلية هذه المملكة في هذه الفترة. ولا يمكن الركون إلى الأسماء فقط لإلصاق مرحلة كاملة بهوية واحدة، طالما أن حركة التاريخ في مجتمعات المشرق أساسها التفاعل والتمازج الذي وثقته الكتابات والمعطيات الآثارية.

ثانيها: إن اختلاف ممكنات البيئة الطبيعية ومواردها/ والمناخ كذلك / بين مواقع مدن المشرق العربي آنذاك فرضت نشوء حاجات اقتصادية لتلك المدن، وكذلك أدت إلى نشوء أهمية خاصة ومميزة للمدن النهرية أو مدن العبور التجاري.

فمثلاً، إن وثائق إبلا تتحدث في الألف الثالث على أن ملوك الجنوب الرافدي كانوا يعتمدون على المواد الخام الثمينة من خشب وذهب وفضة وما إلى هنالك من مدن الجناح الغربي/ بلاد الشام.

حيث كانت إبلا على مقربة من مصادر تلك المواد والتي استطاعت ممارسة تجارتها ونقل المواد عبر الفرات إلى مدن الجنوب الرافدي، وهنا يكمن دور ماري الهام في هذا السياق.

يقول مارجرون:

" في سهول بلاد ما بين النهرين، لا وجود للأخشاب والحجارة والمعادن، وبالتالي لا وجود للمواد الأولية، لهذا فإن السهول المحرومة من المواد الأولية والمحروقات مثل أور، وماري في وسط الفرات، فرضت نفسها كمراكز لصناعة المعادن المستوردة ومن الدرجة الأولى في بداية الألف الثالث قبل الميلاد".[23]

على أن ماري كانت تمارس رقابة نهرية صارمة على حركة الملاحة الفراتية، وهذا ما سبّب لها الازدهار المشهود له، حيث استطاعت أن تكون صلة الوصل بين

العمق الشامي والعمق الرافدي وبالتالي إلى ما وراء العمقين معاً.

ثالثها: أن النشاط التجاري والسلعي لم ينحصر في الألف الثالث بين مدن المشرق العربي، بل ثمة بعض المدن التي أنشأت خطوط تجارة تتجاوز الأفق المشرقي.

فقد كشفت وثائق منتصف الألف الثالث أن مدينة لاجاش الرافدية كانت تستورد النحاس من الديلمون في البحرين، والقصدير من الشمال، والخشب من عيلام والديلمون أيضاً. كما أنها استوردت مستحضرات وزيوت الأشجار الابرية من مدن بلاد الشام.

مع الإشارة إلى أن مدينة أور في الجنوب الرافدي، كانت ميناء بحرياً مهماً لوقوعها على مقربة من الخليج العربي حيث تذكر الوثائق أنها كانت مركزاً مهماً للتبادل التجاري.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن التجارة آنذاك كانت تجارة مقايضة بين السلع. كمقايضة مثلاً المنسوجات والحبوب بالنحاس من الديلمون، وثمة بضائع كان يتم تسديد أثمانها بالفضة.

أيضاً ثمة شأن آخر يتعلق باستيراد الأحجار الكريمة من مراكز حضارية بعيدة وتشير الدراسات على أنه " منذ نشأت الحضارة في المشرق العربي، تطورت التجارة تطوراً سريعاً، وسعى الناس للحصول على بعض المواد الخام من البلدان المجاورة.

وكان من بين المواد التي ازداد الطلب عليها منذ الألف الثالث قبل الميلاد، الحجر الأزرق اللامع الذي يعتبر من الأحجار الكريمة العادية والمطواعة بين أيدي الحرفيين.

وقد عثر على ما أنتجه هؤلاء من هذه المادة على شكل حليّ وأختام اسطوانية وقطع زخرفية .. الخ، في العديد من المواقع الأثرية الهامة مثل أوروك، وأور، ماري، إبلا، وتحدثت عنه الوثائق المسمارية المشرقية كسلعة

تجارية هامة من غير أن تذكر مصدره. ومن المعلوم أن هـذا النوع من الحجارة متوافر في أفغانستان ".[24]

ويبدو أن الخط التجاري لهذه المادة كان يـتم عبـر ايـران عـن طريـق موقـع تبـه ـ هيسـار الـذي يقـع شـرق مدينـة طهـران، حيـث كـان هـذا الموقـع يتـاجر بالأحجـار الكريمـة ويُصّنعها أيضاً في مشاغله منذ الألف الثالـث قبـل المـيلاد. ثم يتابع الطريق إلى موقع تبه ـ سـيالك إلـى الجنـوب مـن طهران ومن ثم إلى مدن المشرق العربي ولا سيما ماري.

وتشير وثائق أور في الألف الثالـث ومنـذ منتصفه إلـى استيراد النحاس مـن باكسـتان إلـى أور عبـر البحـر. حيـث كانت السفن تبحر من جزيـرة فيلكـة / الكويـت / وتمر من البحرين حتـى مضيق هرمـز محملـة بالسمسـم والأنسجة، ومنها إلى موانئ باكستان حيث تفرغ حمولتهـا وتعود محملة بالنحاس.

مع الإشـارة إلـى أن هـذه الطريـق هـي نفسـها التـي نقلت الحرير من الشرق الأقصى إلى المشرق العربي ثـم نحو عالم المتوسط.

ويشير الباحث هورست كلينغل إلى ذلك بقوله:

" ثمـة قاعـدة للاقتصـاد السـوري هـي التجـارة وذلـك لسببين هما: الموقـع الجغرافـي والإنتـاج الاقتصـادي. فقـد أصـبحت سـورية بمشـاركتها بالتجـارة البعيـدة بالأحجـار الكريمـة منـذ منتصـف الألـف الثالـث قبـل المـيلاد، مركـزاً للمبادلات الاقليمية، وهذا ما تطور مـع أوائـل الألـف الثـاني ق.م، عندما برز العالم الإيجي وقبرص كشركاء في التجارة "[25]

الجدير بذكره أن مدينـة مـاري وإبـلا وبسـبب موقعيهمـا الجغرافي المتميز، شكلا نقطـة تجاريـة ومحطـة أساسـية مهمـة فـي طـرق التجـارة العالميـة ولا سـيما منـذ الألـف الثالـث وهـذا مـا كـان سـبباً فـي تعميـق التفاعـل بـين المدينتين لجهة السلب والإيجاب.

وكان " أهم طريق تجاري لإبلا هو الطريق الذاهب إلى الفرات، وبخاصة إلى ماري ومن ثم إلى مدينة كيش في وسط الرافدين. وكان أهم شريك تجاري لإبلا هو مدينة ماري، حيث كانت تنقل الأخشاب من جبال الأمانوس وسلسلة الجبال الساحلية السورية إلى ماري، بالإضافة إلى النبيذ والشعير والمنسوجات والمفروشات. وكانت ماري تنقل الأحجار الكريمة مثل اللازورد والعقيق " (26)

كذلك فقد نشطت مدن الرافدين في تجارتها نحو الشرق مثل ايران ومدن الخليج العربي واستطاعت أن تحصل عبر ذلك على المواد الخام والسلع الثمينة مثل الخشب والحجارة والمعادن وتشير وثائق الألف الثالث إلى أن العقيق واللازورد والكلوريت كانت تستورد من بادخشان في أفغانستان ومن هضاب ايران.

ونتيجة العثور على حليّ مصنوعة من اللازورد في ماري وإبلا وكذلك في مصر، فإنه بالإمكان التأكد الآن على أن طريق اللازورد في تلك الفترة، كان ينطلق من الشرق مروراً بالمشرق العربي إلى مصر وقد أمكن تحديد هذه الطريق التي تنطلق من بادخشان في أفغانستان إلى مصر وذلك عبر: موقع شهري سوخطة في سيستان ثم تبه هيسار، وتبه يحيى ومدينة في عيلام ثم آشور وماري وإبلا وجبيل أو ميناء آخرسواه على الساحل السوري.

وقدمت المعطيات الأثرية الإبلية على وجود علاقات قوية بين إبلا ومواقع الجنوب الرافدي من ناحية، ومع مصر من ناحية أخرى وقد أصبح لدينا الآن سبب للافتراض بأن تلك العلاقات كانت تتم عبر وساطة كلية أو جزئية لمراكز أخرى مثل ماري أو جبيل ". (27)

ويشير كلينغل إلى " أن النقص في المواد الخام اللازمة للبناء والنحت والصياغة، أدى إلى تحريض مدن المشرق كي تفعّل تجارتها نحو بلدان بعيدة مثل أفغانستان ووادي السند ومصر مروراً بإيران.

وكـون أن الفـرات الأوسـط يقـع فـي وسـط هـذا الخـط التجاري العالمي، فقد أخذ أهمية قصوى في الألف الثالـث قبل الميلاد عبر مدينة ماري.(28)

هذا من جهة مدن المشرق العربـي، أمـا لجهـة مواقـع الخليج العربي والتي ساهمت ومارست التجارة بـين مـدن المشـرق وشـبه القـارة الهنديـة، فقـد أماطـت الكشـوفات الأثرية في مواقع الخلـيج العربـي البحريـة علـى أنـه ومنـذ الألف الرابع قبل الميلاد، قامت مواقع الخلـيج العربـي بـدور الوساطة بين مواقع المشرق العربي وشبه القارة الهندية، حيث شهدت هذه نشـوء حضـارة هرايـا المعاصـرة لحضـارة الألف الثالث في المشرق ولحضارة الديلمون في البحرين.

ومن أهم مواقع الخلـيج العربـي ولا سـيما علـى طـول ساحله الغربي والتي امتلكت فاعلية تجاريـة مميـزة نجـد: موقع فيلكة في الكويت، وفي السعودية موقع جرها، وفي قطر والبحرين موقع الديلمون، وفي الإمـارات العربيـة موقـع أم النار والعين وجلفار، وفي عُمان موقع ماجان.

ويشـير د. محمـد حـرب فـرزات إلـى أن هـذه المواقـع شهدت ومنـذ الألـف الثالـث قبـل المـيلاد، ملامـح حضـارية ماديـة وثقافيـة اتصـلت بالثقافـة المبكـرة فـي المشـرق العربي.(29)

وقد استطاعت هذه المواقع لعب دور الوسـيط التجـاري بين عالمي المحيط الهنـدي والبحـر المتوسـط عـن طريـق المشرق العربي ومصر.

النشاط الملاحي على الفرات وتقنياته:

لا نعتقد أن تقنيات الملاحة وحركتها تختلف في الألف الثالث عن شقيقتها في الألف الثاني، إلا ما اعترى الأخير من تطور تبعاً لمقتضيات مصالح الملاحة وصناعة السفن وزيادة التبادل التجاري ونشاطه في الألف الثاني، أو نشوء مراكز ملاحية جديدة.

لهذا فإن كانت وثائق الألف الثاني قدمت معطيات عن هذه المسألة فإن ما نستطيع مناقشته في الألف الثالث يستند عليها، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه مع إنشاء ماري كانت السلطة قد أقامت قنوات ملاحية لتعزيز وتسهيل هذا الأمر وجعله مطواعاً لمتطلبات أو علة إنشاء مدينة ماري.

فميناء هذه المدينة كان المحطة الأخيرة للسفن القادمة من منطقة الجزيرة العليا. واستطاع الفرات والخابور أن يستجيبا لمتطلبات الملاحة والنقل عبرهما وعبر القنوات المتفرعة عنهما، علماً أن النقل المائي يعتبر أسهل وأرخص وآمن من النقل البري.

وكون أن نهر الفرات الذي كان يشكّل عصب التجارة المشرقية والدولية آنذاك لم يكن ليصلح للملاحة لاختلاف سوياته أولاً، ثم أنه في شهري آب وكانون الأول تكون مياهه في أخفض حالاتها مما يضعف حركة الملاحة فقد استطاع الماريون للتغلب على هذه المشكلة من أن يبتكروا قوارباً ذات قواعد مسطحة وجوانب مستديرة أو مستقيمة، ولم تحتج هذه القوارب للأشرعة كون أن اندفاع تيار النهر أقوى من حركة الرياح وهذا ما جعلهم يسحبون هذه القوارب بالحبال.

كما صنعوا قوارب من الجلود يتم نفخها عند الاستعمال وهناك سفن مصممة للابحار مع التيار وسفن بعكس

التيار. وتذكر وثائق مدينة نيبور الرافدية أنه للذهاب من لاجاش إلى نيبور / حوالي 140 كيلومتراً /، كان يقوم 16 عاملاً بجرّ سفينة حمولتها 18 طناً خلال 15 يوماً.

وهذا الأمر بقي متواصلاً حتى عصرنا الحالي ويشير قاسم طوير إلى أنه وقبل حوالي 60 عاماً كان المشهد مألوفاً في مدينة دير الزور أن يجري سحب السفن المسطحة بالحبال وهي معبأة بالحطب أو المحاصيل الزراعية.⊗

والجدير ذكره هنا هو أن تكاليف النقل المائي كانت باهظة الثمن وفي معظم الحالات يتم النقل النهري للحمولات الثقيلة في حين أن الحمولات الخفيفة كانت من نصيب النقل البري.

وبشكل عام كان اللجوء إلى الملاحة النهرية يتم باتجاه سير التيار لسهولة الحركة، أما في الاتجاه المعاكس فيتم اللجوء إلى طرق النقل البري.

ويشير جورج دوسان في كتابه / الأرشيفات الاقتصادية لماري / إلى أن السفن في ماري كانت على أنواع منها الصغيرة والكبيرة، وثمة سفن متخصصة في نقل الخمر أو أحجار الجواريش وكذلك الاسفلت أو الحبوب.

ونعتقد أن تنظيم أمور الملاحة النهرية كان يتطلب وجود مؤسسة تعنى بهذا الأمر، وتشير وثائق الألف الثاني في ماري إلى أن أحد الملاحين وقبل أن يصل إلى مرفأ ايمار كان ينتظره ستون رجلاً لتمهيد الطريق حيث يتجه نحوه الحرس وملاّح خبير بإرشاد السفن، كما تكون بانتظاره ثلاثون طوافة.

وبالإضافة إلى الفرات لعب نهر الخابور دوراً مهماً في الاتصالات التجارية الشمالية والجنوبية وذكرنا سابقاً أن سلطة ماري كانت قد أنشأت قناة ملاحية / قناة داورين / كانت تربط الخابور بالفرات في المنطقة اليسرى على

⊗ انظر الحوليات الأثرية السورية ـ العدد 34 ـ آثار حوض الفرات ـ قاسم طوير.

مستوى البوكمال عند باغوز، وكان طول هذه القناة 120 كيلومتراً وعرضها 20 متراً ومصّبها 30 متراً.

ويبدو أنه من أجل تأمين هذا الخط التجاري / كونه يؤمن التجارة الشمالية / كان لابد لماري من إخضاع مثلث الخابور لفاعليتها لضمان وتأمين هذا الخط لما يؤمنه أيضاً من احتكاك بين الممالك في سفوح الجبال مع الفرات ومدينة ماري. أما الملاحة في نهر الخابور فالذي يبدو أن سرعة جريان الخابور تفوق سرعة جريان الفرات وهذا ما شكّل عقبة أمام النقل النهري، ولأجل تجاوز هذه المشكلة عمد الماريون إلى ربط أثقال من الحجر بحيث تحتك بقاع النهر وذلك للحّد من سرعة المراكب المتروكة لتسير نزولاً مع مجرى النهر.

في حين أن الملاحة الصاعدة كانت تعتمد حصراً على السفن المقطورة، بحيث أن هذا يتطلب جهداً لا يستهان به من البشر. ⊗

نستنتج مما سبق أن ماري الألف الثالث امتلكت أدوات التفاعل مع البيئة الطبيعية، واستطاعت تطويع الفرات والخابور وفقاً لمتطلباتها الملاحية والمائية وعلى هذا نفهم مقولة جان كلود مارجرون من أن " الفرات سمح لسورية أن تشّرع بعملية التمدن، ذلك أنه يسّر لها التطور من خلال العلاقات التجارية انطلاقاً من البلاد السومرية في الألف الرابع قبل الميلاد، وهو دائماً وللأسباب ذاتها الذي ضَمِنَ تطور سورية الداخلية في الألف الثالث قبل الميلاد ".[30]

⊗ للمزيد. انظر أندره فينه ـ الحوليات الأثرية السورية عدد 34 ـ نهر الخابور عبر وثائق مدينة ماري. وكذلك دراسة الدكتور علي أبو عساف " إيمار وحوض الفرات الأوسط بين مملكتي إبلا وماري " 1991. وهي غير منشورة.

مملكة ماري في عصر الفاعلية الأكادية التاريخية 2350 - 2160 ق.م

ثمة نقاط عديدة تشكّل قاعدة للبحث في هذه الفترة:

أولها: أن الفاعلية الأكادية الديمغرافية والتي تعود في ظهورها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، شكّلت مدينة كيش الرافدية بؤرتها الأساسية.

ثانيها: أن هذه الفاعلية امتلكت أدوات التفاعل الديمغرافي ـ الاقتصادي والروحي مع الفاعلية السومرية واستطاعت أن تجبّ المنجز السومري وتأخذه إلى آفاق تطورية جديدة اطراداً مع الزمن.

ثالثها: أن الفاعلية الأكادية والهوية الأكادية تشكّل القاعدة الأساسية التي تمت صياغة المشرق العربي عليها وصولاً إلى العصر الحاضر، وذلك مروراً بالفاعليات العمورية والكنعانية والآرامية والعربية.

رابعها: كنا أشرنا إلى أن طبيعة التفاعل الأكادي ـ السومري والامتزاج والتعايش كان مثلاً يُحتذى به، وهذا ما استمر في مختلف الفاعليات الأخرى بما يعطي دلالة على أن خاصية التمازج والتفاعل والانفتاح هي خاصية من طبيعة الشخصية المشرقية العربية عبر تاريخها.

خامسها: إن صعود الفاعلية الأكادية من مدينة كيش في حوالي 2350 ق.م كان تطوراً طبيعياً في مساق اكتمال هذه الفاعلية لإظهار حيويتها التاريخية في زمنها، فهي لم تقم لنقض التواجد السومري وتدمير منجزه بقدر ما كانت تعبيراً عن التطور المتبدّي في حركة مجتمعات مدن المشرق العربي.

وعلى ذلك نفهم أن الفاعلية الأكادية ورثت الفاعلية السومرية وجبتّها وأضافت عليها وطوّرتها ضمن خط ذهني حضاري واحد مع الإشارة إلى أن التواجد السومري الديمغرافي لم يختفِ بل استمر متفاعلاً بيد أنه أفسح المجال للأكاديين كي يسهموا في حضارة المشرق العربي والحضارة الإنسانية بعامة.

<u>سادسها</u>: يبدو أن خط الوعي الاتحادي لدى الفاعلية الأكادية تجاوز ما كان قام به لوغال زاجيزي قبل حوالي مئة وخمسين عاماً، فإن كان هذا قد سعى إلى توحيد مدن المشرق آنذاك كاستجابة لمقتضيات دورة الحياة السياسية ـ الاقتصادية الاجتماعية الروحية الواحدة، فإن شاروكين الأكادي امتلك أدوات التوحيد عبر ما يبدو لحظة وعي فرضها الظرف التاريخي آنذاك بما تحمله الفاعلية الأكادية من إشراطات ثقافية واقتصادية وروحية متطورة.

فمع مجيء شاروكين الأكادي الذي استطاع أن يرث ما وصل إليه منجز زاجيزي، مع ملاحظة أن الواقع الاجتماعي التاريخي المديني لمدن المشرق العربي في عصر الفاعلية الأكادية كان أضعف من عوامل القوة العسكرية الأكادية لهذا لم يستطع استيعابه وهذا ما أدى بالإمبراطورية الأكادية إلى الاضمحلال فإن كانت وثائق زاجيزي تتغنى بأنه:

" من البحر الأدنى / الخليج العربي / وعلى طول دجلة والفرات، وحتى البحر الأعلى / المتوسط / جعل الإله انليل كل البلاد تذهب إليه ".(31)

فإن شاروكين استطاع أن يرث هذا ويضيف عليه، كون أن ثمة مبالغة في مقولة زاجيزي لجهة سيطرته الكاملة على المشرق العربي.

بدأت مسيرة شاروكين بأن استلم السلطة في مدينة كيش في حوالي 2350 ق.م، وبعد حوالي 34 حملة

عسكرية بينه وبين زاجيزي، استطاع أن يسيطر على تلك الدولة فضّم إلى سلطته مدن أوروك ـ أوما ـ أور ـ لاجاش، ومضى في إنشاء عاصمته أكاد وسط الرافدين / إلى الآن لم يعثر عليها / والتي أضحى ميناؤها مركزاً تجارياً مهماً وصل بفاعليته التجارية إلى سواحل الهند/ ملوخا / حسب الوثائق.

كما أنه اتجه بجيشه الذي يقدّر بحوالي 5400 جندي نحو الجناح الشامي حيث جاء في وثائقه:

" شاروكين الملك خرّ خاشعاً في توتول أمام الإله دجن وصّلى. الأرض العليا أعطاه إياها دجن: ماري ـ يرموتي ـ إبلا، وحتى غابة الأرز / جبال الأمانوس / وجبال الفضة / طوروس /".[(32)]

وبدوره يشير المؤرخ سيتون لويد إلى أنه " تمَّ تأكيد ادعاءات شاروكين بأنه عَبَر البحر المتوسط في الغرب ليصل إلى قبرص وجزيرة كريت "[⊗].

وقد أطلق شاروكين على نفسه لقب " ملك الجهات الأربع " ومقصده في ذلك:

" مملكة عمورو في الغرب، وسوبارتو في الشمال، وسومر وأكاد في الجنوب، وعيلام في الشرق ".

وتشير الأبحاث إلى أن امبراطورية شاروكين شملت منطقة الخليج العربي والجناح الرافدي ومعظم مناطق بلاد الشام الشمالية[⊗⊗].

وتشير الوثائق إلى أن حملة شاروكين على الأناضول كانت بسبب تعرّض تجار أكاديين هناك لمضايقات من قبل حاكم مدينة " بورشاندا " فذهب لنجدتهم.

⊗ انظر سيتون لويد ـ آثار بلاد الرافدين ـ ت ـ محمد طلب ـ دار دمشق. 1989

⊗⊗ هذا ما يشير إليه الدكتور علي أبو عساف في حين أن د. عيد مرعي يشير أن تلك الامبراطورية شملت كل بلاد الرافدين وسورية.

انظر ـ د. عيد مرعي. تاريخ بلاد الراقدين ـ دار الأبجدية ـ دمشق 1991

وكذلك ـ د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية وكذلك مؤلفه: فنون الممالك القديمة في سورية.

وثمة وثيقة تعود لشاروكين تشير إلى أنه " خاض أربع وثلاثون معركة وانتصر فيها ودمّر أسواراً حتى شاطئ البحر، وجعل سفناً من " ملوخا " / سواحل الهند الغربية / ومن ماجان / عُمان / وسفناً من الديلمون / البحرين / ترسو في ميناء أكاد " (33)

وتنبغي الإشارة هنا، إلى أن نواة الامبراطورية الأكادية، كانت تشمل القسم الأوسط من بلاد الرافدين من نيبور في الشمال وحتى خط هيت ـ سامراء بما فيها منطقة ديالى.

وكذلك تنبغي الإشارة إلى أن العلاقات بين كيش وإبلا تعود إلى ما قبل صعود الفاعلية الأكادية حيث نجد أن ثمة دورة حياة واحدة بين كيش وإبلا وماري وموقع أبو صلابيخ.

وقد استطاع شاروكين من أن يضمّ إبلا وماري إلى امبراطوريته.

ويشير هورست كلينغل إلى أن ثمة نصاً يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، يذكر أن جميع البلدان الواقعة بين الخليج العربي والديلمون وماجان من ناحية، وكبتارا (كريت) وأنكو (قبرص) من ناحية أخرى، خضعت لشاروكين الأكادي ثلاث مرات ".(34)

وبدوره انطون مورتفات يشير إلى أن امبراطورية شاروكين لم تتحقق بصورة فعلية إلا بعد احتلاله لبلدان العموريين في الجناح الغربي الشامي.(35)

واستمر حكم شاروكين حوالي 60 عاماً، أمكنه من خلاله تأمين استقرار سياسي ـ اقتصادي ـ اجتماعي، ساهم في توطيد أركان الامبراطورية الأكادية، ما أدى إلى اصطباغ المشرق العربي برمته بالطابع الحضاري الثقافي الأكادي والذي استمر حتى الألف الأول قبل الميلاد وبقيت تأثيراته إلى أيامنا الحاضرة.

الواقع التجاري في المشرق العربي في عصر الفاعلية الأكادية:

لا ينفصل الواقع والنشاط التجاري في فترة الفاعلية الأكادية عما قبله إلا بوجود استمرارية للخطوط التجارية السابقة مع نشوء طرق جديدة ولا سيما إنشاء مدينة أكاد بمينائها.

ويبدو أن خطوط التجارة المشرقية نحو آسية / افغانستان ـ باكستان ـ الهند / استمرت مع وجود دور جديد لميناء مدينة أكاد.

ونستطيع أن نقارب النشاط التجاري آنذاك على أنه شهد ازدهاراً مشهوداً طالما تأمّن الاستقرار السياسي والأمني الذي وفرته الفاعلية الأكادية ولا سيما في عصر شاروكين وحفيده نارام سن.

وتشير الوثائق إلى أن القوافل التجارية أصبحت تتجه من آسيا الصغرى نحو الخليج العربي عبر طرق التجارة المشرقية تحت حماية فصائل الجيش الأكادي، وإن كان ثمة خطورة على القوافل فيجب ألا ننسى دور القبائل

والعشائر التي كانت تجوب المشرق العربي والتي كان جزء منها يعتمد على سلب القوافل ونهبها.
كما تشير الوثائق أيضاً إلى أن السفن القادمة من ملوخا وماجان والديلمون أصبحت ترسو في ميناء أكاد، ويشير الباحث بوهارد برينتس إلى أن ثمة إشارات كثيرة في المدن الأكادية تدّل على وجود مترجمين عرفوا لغة ملوخا، وقد قدمت تلك الوثائق معلومات عن استيراد الأرز والقطن وخرز الصود المزخرف من الهند.
مع الإشارة إلى أنه في هذه الفترة نشهد انحساراً أو تراجعاً لدور المعبد في الشأن الاقتصادي، وأصبح للسلطة الزمنية الدور الأول في قيادة الدولة في كافة المجالات عدا الاعتقادية.

مملكة ماري في عصر الفاعلية الأكادية:

نتيجة الازدهار التي وصلت إليه مدينة ماري مع منتصف الألف الثالث، ثم استطاعتها إعادة ترميم ما دمّره هجوم لوغال زاجيزي وبسرعة قياسية تدل على معطيات قوة واقتدار إن في المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي والروحي، فإن معالم تلك الفترة تتوضح في أن مدينة ماري أصبحت عاصمة لمملكة تعجّ بالبلدات والمدن التي تتبع فعاليتها.
ويبدوا أن المستوطنات توزعت بكثافة حولها بحيث لا يكاد يفصل الواحدة عن الأخرى مسافة 10 كيلومترات[⊗]. وهذا ما يؤكده برينتس بقوله " أنه في أواسط الألف

⊗ انظر ألفرد هالدار ـ العموريون ـ ت ـ شوقي شعث ـ دار الأبجدية 1993 دمشق.

الثالث، انتشر العديد من المدن ـ الدول، التي تكونت عـادة من مدينة واحدة محاطة بعدد من القرى "⊗⊗

" ففي منتصف الألف الثالث قبل المـيلاد، تبـدو منطقـة الجزيرة السورية مزدهرة بالمسـتوطنات والقـرى، لا بـل أن بعض هذه القرى أصبح مدناً ذات شأن مثل تـل لـيلان ـ تـل براك ـ تل مـوزان ـ الخـويرة، ولعـل وجـود مثـل هـذه المـدن القوية في الشـمال هـو الـذي دفـع بالملـك الأكـادي نـارام سـن إلى الاستقرار في تـل بـراك حيـث بنـى قصـراً يشـبه القلاع العسكرية الحصينة ".⊗⊗⊗

ونحن نعتقـد أنـه وللأسـباب ذاتهـا أنشـأ شـمشـي أدد عاصمته الثانية في شوباط انليل في تل لـيلان فـي الألـف الثاني قبل الميلاد.

وسـط كـل هـذا، كـان علـى مملكـة مـاري مـع امتـداد الفاعلية الأكادية إليهـا وإلـى إبـلا، أن تختـار بـين أن تواجـه المدّ الأكـادي أو أن تميـل قلـيلاً وتتفاعـل مـع المـدّ الجديـد خصوصاً أن هذا المـدّ لـيس غريبـاً عنهـا أولاً وثانيـاً فـإن مـا استطاعه شاروكين الأكـادي مـن خلـق دولـة مركزيـة ذات بنية واضحة وصارمة، لم تكن تحتمل أنصـاف الحلـول، لهـذا استطاعت سلطة ماري أن تواكب الفعل الأكـادي محافظـة على استقرارها وازدهارها ومسـتفيدة فـي الوقـت نفسـه من طوق الأمان الذي سببته الفاعلية الأكادية.

ومقابل هذا، تراجع نفوذ ماري عن مملكتها في منطقة الفرات الأوسط لصالح الفاعلية الأكادية، وفقدت اسـتقلالها المديني لصالح الفاعلية الأكادية الاتحادية المسلحة.

وعبر هذا، " استطاع حكـام مـاري فـي هـذه الفتـرة أن يعيدوا تنظيم وبناء المدينة جزئياً لحساب الملوك الأكـاديين ومن ثم لحسابهم الخاص وحافظوا علـى البنيـة المعماريـة

⊗⊗ انظر بوهارد برينتس ـ نشوء الحضارات القديمة ـ ت ـ جبرائيل كباس ـ دار الأبجدية ـ دمشق 1989.

⊗⊗⊗ انظر حميدو حمادة ـ تل ليلان ـ دراسات تاريخية عدد 37 - 38 - 1990.

التي تعود إلى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، وهي البنية التي ورثوها " ⊗

وسوف يستمر فقدان ماري لاستقلالها السياسي/ وهذا ضمن منطق الوعي المديني الذي كان سائداً / حتى انتهاء الفاعلية الأكادية بحيث ستعاود عند ذاك إلى استعادة سيطرتها على منطقة الفرات الأوسط، خزانها الحيوي للبقاء بالإضافة إلى الفرات.

وبعد موت شاروكين، لم تعد فاعلية الدولة الأكادية كما كانت عليه، بل تراجعت حتى زمن حفيده نارام سن 2260 ـ 2232 ق.م، حيث ستعاود الفاعلية الأكادية فعلها، وحفلت فترة حكم نارام سن البالغة حوالي 37 عاماً بتمردات وثورات ضد الدولة استطاع إخمادها سواء في مدينة كيش أو أوما، نيبور ، أوروك ، بلاد ماجان ، بلاد عيلام، نامار، أبيشال وزاغروس، بالإضافة إلى ماري أيضاً.

كما أن نارام سن وصل إلى الأمانوس وجبال الفضة ودمّر إبلا، ويبدو أن هذا كان نتيجة المزاحمة الاقتصادية ـ التجارية للفاعلية الإبلية القوية، للفاعلية الاقتصادية التجارية للدولة الأكادية.

وتتباهى وثائق نارام سن بأنه " أول من قضى على إبلا ولم يسبقه أحد في هذا العمل منذ الخليقة ".

أما تدمير بلاد ماجان / عُمان / فتشير المعطيات إلى أن حاجة الجناح الرافدي لأحجار الديوريت اللازمة لصنع التماثيل كانت تتأمن من هناك والذي يبدو أن ثمة سبباً دفع نارام سن لتدمير ماجان ربما لاحتكارها استيراد هذه المادة المهمة.

وتشير الوثائق أيضاً إلى أنه في فترة حكم نارام سن كلّف هذا الملك ابنتيه بوظائف دينية في مدينة ماري فكانت شوماشاني وأختها مكيبار كاهنتان / قدشتو / في معبد شمش.

⊗ مرجع سابق GEAN MARGUENOR , EXPOSITION – MARI

وبعد وفاة نارام سن في حوالي 2232 ق.م، تدهورت أوضاع الامبراطورية الأكادية ووهنت، ما أدى إلى هجوم قبائل الكوتيين القادمين من جبل ايران، حيث سيطروا على الجناح الرافدي ولا سيما شماله لحوالي مئة سنة، وتندر المعطيات المعمارية والكتابية التي يمكن أن يتركوها، ما يعني أن فاعليتهم الحضارية هامشية وعلى مرتبة أدنى من الفعالية الأكادية.

ومقابل ذلك، بقي الجنوب الرافدي بعيداً عن هذه الهجمات، بما سيؤدي لاحقاً لانبعاث جديد من هناك مدعوماً من العموريين الكنعانيين، وكان أساس هذا الانبعاث إعادة تأسيس مدن قديمة مثل أوروك ولاجاش وأور، وكذلك تأسيس ممالك جديدة. بالإضافة إلى ذلك فقد استطاع الكنعانيون من تأسيس سلالات حاكمة في مدينتي اسين ولارسا الرافديتين، حيث أدى ذلك إلى سيطرتهما على البلاد وانبعاث الدولة البابلية.

وفي النهاية، خرجت سورية عموماً من أزمات العصر الأكادي / ولا سيما في ما بعد نارام سن / وحروبه، ضعيفة جداً وبحضارة مدنية متقهقرة. ⊗

وإن كانت الفاعلية الأكادية قد خمدت وتلاشت في المستوى السياسي والعسكري، غير أن قوة وروحية الثقافة الأكادية استطاعت أن تعبّر عن حضارتها في عدة أمور:

<u>أولها</u>: هو شيوع اللغة الأكادية والكتابة الأكادية على مدى المشرق العربي وتواصل هذا حتى الألف الثاني قبل الميلاد في مقابل انحسار للسومرية وآدابها.

وقد استطاعت اللغة الأكادية أن تسود في الألف الثاني قبل الميلاد وتصبح لغة عالمية كتب بها الملوك مراسلاتهم.

⊗ مرجع سابق - MARGUERON

وبقيت الأكادية سائدة حتى انتشار اللغة الآرامية وكتابتها في القرن الخامس قبل الميلاد.

الجدير ذكره هنا، هو أن أرشيف ماري كُتب بالأكادية وكذلك وثائق مكتبة آشور بانيبال العائدة للآلف الأول قبل الميلاد بالإضافة إلى الكثير من وثائق أوغاريت في منتصف الألف الثاني.

وقد أثبتت الأبحاث اللغوية على أن الأكادية هي أم اللغة العربية، " فجذور اللغة العربية موجودة في اللغة الأكادية، ومعظم التراكيب اللغوية والقواعدية ومصادر الأفعال وجذورها وتصاريف الأسماء والصفات الأكادية تشبه ما هو موجود في اللغة العربية الحالية "⊗

ويشير د. فيصل عبد الله إلى أن " الطابع الحضاري الأكادي الذي تلّون بألوان مدن ذلك العصر / الألف الثاني ق.م / وعلى رأسها حلب وماري وبابل وجبيل ما يزال قائماً وسائداً حتى يومنا هذا وسيبقى لأنه عميق الجذور، ومتين الأصول ".⊗⊗

<u>ثانيها</u>: إذا كانت الفاعلية الأكادية التاريخية قد استمدت ركائزها من الفاعلية السومرية وجبتّها، ولا سيما في المعتقدات والتجارة وهذا ما أشار إليه المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في مؤلفه تاريخ البشرية، فإن ما يَسِمُ الفاعلية الأكادية وبتميز هو أنها ساهمت في تأسيس مفهوم الدولة الزمنية وبعمق بحيث نستطيع أن نقارب معالم نشوء " فصل الدين/المعتقد/عن الدولة " فقد أبعد الأكاديون المعبد عن الشؤون الدينوية ونقلوا النشاط الاقتصادي والتجاري إلى القصر الملكي، وأصبح المعبد خاضعاً بشكل كامل لمراقبة القصر.

⊗ عيد مرعي ـ تاريخ بلاد الرافدين ـ مرجع سابق.

⊗⊗ انظر فيصل عبد الله ـ الحوليات الأثرية السورية عدد 43 للاستزادة انظر ايضاً كتاب فقه اللهجات العربيات للدكتور محمد بهجت قبيسي وكتاب مقدمة في علم الأكاديات للدكتور فيصل عبد الله وكتاب د. علي أبو عساف " نصوص من أوغاريت ".

وهذا الأمر لم يكن صراعاً بين الأقنومين بقدر ما كان تعبيراً طبيعياً عن التطور الذي آلت إليه الذهنية الأكادية الحضارية والتي تُختصر في مقولة " ما لقيصر لقيصر وما لله، لله ".

مملكة ماري بين 2266 - 2008 ق.م :

ذكرنـا سـابقاً أن الاجتيـاح الكـوتي للمواقـع الرافديـة الشـمالية أدى إلـى تـدمير المـدن هنـاك، وكـون أن ثقافـة الكوتيين أولية وأدنى من الفاعلية الأكادية المتطـورة ، فقـد أدى ذلـك إلـى تـدمير بغـيض لمواقـع المـدن، وقـد حفلـت الوثائق الأثرية بتفاصيل هذا الغزو البدائي، فإحدى الوثـائق تقول:

ثعابين الجبال، اختطفوا الزوجة من زوجها والأطفال مـن آبـائهم، ونقلـوا الملكيـة مـن سـومر إلـى الجبـال، وبكـت البنات، المدن بسبب الكوتيين "

وأشارت وثيقة أخرى إلى ذلك حيث ورد فيها:

" البلاد في أيدي أعداء قساة
سيقت الآلهة إلى الأسر
وأثقل كاهل السكان بالضرائب
وجفّت الأقنية وشبكات الري
وأصبح نهر دجلة غير صالح لعبور السفن
ولم يعد بالإمكان ري الحقول
ولم تعطِ الحقول محاصيلها ".[36]

إذن تمّ تدمير البنى التحتية للمدن الرافديـة الشـمالية، ونتيجـة أن الجنـوب الرافـدي بقـي خـارج نطـاق السـيطرة الكوتية، فهذا ما سـوف يـؤدي إلـى إعـادة ترتيـب أوضـاعه، ونحـو 2164 قبـل المـيلاد، سـنلحظ تأسـيس حكـم لسـلالة حاكمة في لاجاش، اعتبر من أشـهر حكامها جوديـا / 2143 ـ 2124 ق.م / وتشير الوثائق إلى أن عدد سكان هذه المدينة كان حوالي 21600 نسمة، وقد سيطرت هذه المدينـة علـى جنوب بلاد بابل.

ويبدو أن فاعلية لاجاش الصاعدة دفعتها إلى محاولة تفعيل دورها التجاري، وحتى حدود الاستئثار بحركة التجارة آنذاك عبر البعثات التجارية.

وتشير وثائق تلك الفترة إلى حصول هذه المدينة على أخشاب الأرز من الأمانوس وخاخوم، وأورشوم بالقرب من إبلا.

كما استطاعت تأمين الأحجار اللازمة من بزالا، وجبال مارتو وكيماش وسوزا والديلمون وماجان وملوخا، كما حصلت على النحاس من كيماش وعلى الذهب والفضة من ملوخا.

مع الإشارة إلى أنه في هذه الفترة شهدت استخدام اللغة السومرية وكتابتها، ما يعطي تأكيداً لعدم انعدام الفاعلية السومرية في المشرق ويؤكد على روحية التفاعل والتمازج بعيداً عن معالم الإلغاء للآخر.

الجدير ذكره هنا، هو أن الكتابة السومرية المستخدمة انتابها التطور بالإضافة إلى دخول الكثير من الكلمات الأكادية في متن اللغة السومرية.

والمتابع بشكل عام يلحظ وجود تأثيرات أكادية مهمة في ثقافة لاجاش.

وإلى جانب لاجاش، نجد إعادة تأسيس لمدن أوروك وأور، وفي مدينتي إسين ولارسا، تمكّنت سلالتان كنعانيتان من تسنم عرشي هاتين المدينتين، واللتين سوف تساهمان في نشوء الدولة البابلية لاحقاً.

ومع حوالي 2112 قبل الميلاد، سنكون أمام منعطف مهم شكّلت مدينة أوروك نواته، وذلك عبر مقاومتها للاحتلال الكوتي، ومن ثم استطاعة حاكمها أوتو خينجال من هزيمة الكوتيين وأسر قائدهم تيريجان وهذا ما أدى إلى تحرير البلاد من الاحتلال الكوتي، ليتفرغ الحاكم في أوروك إلى ترتيب أوضاع الجنوب الرافدي حيث عّين في أور حاكماً هو أورنمو، الذي سرعان ما تمرد على الأول وبذا تنتقل الفاعلية التاريخية من أوروك إلى أور في حوالي 2110

ق.م وهذا يعني فيما يعنيـه، عـدم تطـور الـوعي المـديني إلى وعي أشمل رغم الغزو الكوتي للرافدين,
وقد جاءت في الوثائق ما يلي:
" ضُربت أوروك بالسلاح، وانتقلت الملكية منها إلى أور. في أور أصبح أورنمو ملكاً، وحكم 18 عاماً ".(37)
واستمرت سلالة أورنمو في الحكم حتى 2002 ق.م.
وأشارت الوثائق إلى أن أورنمو أطلق على نفسه لقب " ملـك سـومر وأكـاد " لأول مـرة، مـا يعنـي أن مملكـة أور شملت كامل الرافدين فـي فعاليتها إذا صدقت الوثيقـة. / عيد مرعي 1991 /.
ومع تنامي فاعلية أور أصبحنا أمام مملكة احتـوت مـدناً للجناح الرافـدي / لارسـا ـ لاجـاش ـ نيبـور ـ أوروك وأور طبعاً / ومنطقة الفرات الأوسط بما فيها مـاري وتوتـول، وآشور في الشمال وجبيل على الساحل السوري.
وإلـى أورنمـو تُنسـب أول قـوانين حقوقيـة فـي العـالم والتاريخ الإنسـاني، والتـي اسـتطاعت أن تـؤثر فـي مجـال الحياة الحقوقية اللاحقة مثـل قـانون لبـت عشـتار وقـوانين حمورابي وغيرها.
وضـمن كـل هـذا وفيمـا يعنيـه مـن صـعود الفاعليـة السـومرية بعـد الـتمكّن الأكـادي فـي المشـرق العربـي، سوف نشهد حركـة ديمغرافيـة فاعلـة / وإن بـدأت منـذ مـا قبـل منتصـف الألـف الثالـث قبـل المـيلاد / باتجـاه الجنـاح الرافدي قادمة من الجناح الشامي، تجلّت في زيادة حركـة العبـور العمـوري البـدوي القبلـي، وربمـا يعـزى هـذا إلـى عوامـل تغيّـر منـاخي جـاف أدى إلـى ارتحالـه إلـى الجنـاح الشرقي ومدنه.
ويبدو من وثائق هـذه الفتـرة أن المـدن الرافديـة عانـت من هذا الضغط القبلـي العمـوري وعـوالم تخريبـه، مـا دفـع حاكم أور " شوسين " إلى إنشاء خط دفـاعي بـري مـائي

يشـمل مـا بـين دجلـة والفـرات ويمتـد بطـول 275 كيلـومتراً لإيقاف انزياحهم إلى مدن الرافدين.⊗

ويبدو أن الانزياح العموري نحو الرافدين، ساهم بشـكل أساسـي فـي إضـعاف فاعليـة مملكـة أور مـا أدى إلـى انتهائها عبر الهجوم العيلامي في حوالي 2002 ق.م.

وقد أشار هالدار إلى ذلـك، بالإضـافة إلـى أن هورسـت كلينغل لاحـظ احتـواء وثـائق أور لهـذه الفتـرة علـى أسـماء عمورية وبشكل متزايد.(38)

والجدير ذكره هو أنه فـي العشـرين سـنة الأخيـرة مـن عمـر مملكـة أور وفـي عهـد إبـي سـين ونتيجـة للضـغط العمـوري بالإضـافة إلـى توثـب عـيلام للانقضـاض عليهـا، شهدت هـذه المملكـة تراجعـاً فـي فاعليتهـا التاريخيـة مـا سـوف يسـبب بدايـة انفصـال المـدن المشـرقية المنضوية تحت فاعليتهـا، عنهـا مـا يعطـي انطباعـاً عـن انعـدام فـي وجود وعي ما فوق المديني.

فقد انفصلت إشنونا ثم لاجـاش ثـم أومـا، وفـي مدينـة إسين، استطاع إشبي إرا وهو من مدينة مـاري مـن حكـم مدينة إسين حيث اتخذها عاصمة له، بالإضـافة إلـى قيـام نبلابوم العموري من حكـم مدينـة لارسـا، وهـذا مـا يعطـي دلالة على عمق التفاعل والتداخل الديمغرافي الاجتماعي بين مدن الجناحين. أيضـاً ثمـة أمـر مهـم آخـر يُعنـى بـزواج ملك أور " أورنمو " من ابنة حاكم ماري ابيل ـ كين.

⊗ العموريون هم سكان البادية الشامية وتشير الوثائق إلى أن نواة تواجدهم كانت في جبال بشري في البادية، وجاء اسمهم من " أمورو " التي تعني الغرب. ويعود أول شاهد كتابي عموري إلى حوالي 2600 ق.م عبر نصوص موقع فارا في الرافدين، وكذلك نقش تمثال الملك لمجي ماري، / 2400 - 2350 ق.م / وإن كان جورجيو برتشيلاتي اعتبرهم أجانب في بلاد الرافدين غير أن التململ منهم لم يكن لسبب ديمغرافي بقدر ما كان رفضاً للثقافة الأولية الرعوية / السلبية وليست الإيجابية / التي كانوا عليها.

أنظر C. BUCCELLETI . THE AMORITES

وقد ورد في الوثائق الرافدية أن العموري " لا يعرف الحبوب " و " لا يملك بيتاً " و " يسكن خيمة تضرب بها الرياح والأمطار " للمزيد: انظر كتاب الفرد هالدار في نسخته العربية " العموريون " . دار الأبجدية 1993 دمشق.

بما يعطي دلالة أخرى على مبلـغ التفاعـل والانسـجام بين مدن المشرق العربي آنذاك.

إذن مع 2002 ق.م، سوف نشـهد انتهـاء فاعليـة مملكـة أور، غيـر أن مـا يسـم هـذه الفتـرة هـو الفعـل الحضـاري، الثقـافي الـذي قدمتـه هـذه المملكـة بسـلالتها لعمـوم المشرق العربي وتشير الوثائق إلى قيام الكتّاب والفنـانون والنسـاخون، بنسـخ المؤلفـات والأعمـال الأدبيـة والفنيـة بحيث جمعوا الأساطير والنصوص الأدبيـة القديمـة ومجمـل الابـداع الـذهني المشـرقي السـابق والمعاصر، وصـنفوها في مكتبات المعابد والقصور.

وفي مجال الفنـون، عمـد الفنـانون إلـى تصـوير الحكـام والأمراء على لوحات أو مسلات، وهـم يطلبـون مـن الآلهـة المـدّ فـي أعمـارهم، ويعتبـر هـذا تطـور مهـم علـى صـعيد الحياة الفنية في المشرق العربي. ⊗

ورغم أن الباحثين درجوا على وصف هذه الفترة بالصفة السـومرية، غير أن الطـابع الأكـادي كـان يصـبغ ثقافـة هـذه الفترة، بالإضافة إلى وضوح الأرضية الثقافية السـومرية، مـا يؤكـد طبيعـة التفاعـل السـومري ـ الأكـادي ـ العمـوري - الكنعاني.

وبانتهاء فاعلية سلالة أور لم يعد هناك دولة قويـة فـي مـدن المشـرق العربـي، مـا أفسـح المجـال أمـام منعطـف حضـاري جديـد تجلّـى فـي تعبيـر الفاعليـة الديمغرافيـة العموريـة الكنعانيـة عـن نفسـها، عبـر انشـاء الممالـك العمورية ـ الكنعانية على مدى مدن المشرق العربي وذلك مع مطلع الألف الثاني قبـل المـيلاد، وفـي وقـت سـنشـهد ذوبـان الفاعليـة السـومرية ضـمن الفاعليـة الديمغرافيـة المشرقية.

⊗ للمزيد: يمكن الرجوع إلى كتاب سومر لأندره بارو 1978 ـ وزارة الثقافة ـ بغداد وكتـاب د. علـي أبو عساف ـ فنون الممالك القديمة في سورية ـ دار شمأل ـ 1991 ـ دمشق.

مدينة ماري في الفترة بين 2266 - 2008 ق.م :

إذا كانت ماري، قد فقدت استقلالها السياسي في زمن الفاعلية الأكادية، وتراجعت فاعليتها التاريخية المستندة إلى البعد الاقتصادي ـ الزراعي ـ التجاري الذي تؤمنه لها مملكتها، بحيث تحولت من مملكة إلى مدينة، كون أن الفاعلية الأكادية المركزية والعسكرية استطاعت احتوائها، فإن الاحتلال الكوتي لمدن الرافدين لم يؤثر مباشرة على ماري، غير أن النهب والفوضى والتدمير الذي حَفَلَ به هذا الاحتلال لا بدّ من أن يؤثر على حركة التجارة وعلى دورة الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية لكامل منطقة المشرق العربي.

ثم مع طرد المحتلين الكوتيين، وصعود نجم أور التي شملت فاعليتها كمملكة، منطقة الفرات الأوسط بما فيها ماري وتوتول،وآشور وجبيل بالإضافة إلى المدن الرافدية [⊗]،سوف نجد أن ماري ستدخل عصر تأسيسها الذهبي العمراني والاقتصادي وكل مجالات الحياة وهذا ما سوف يعبّر عن نفسه في فاعلية ماري العمورية مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

ففي فترة فاعلية أور ومملكتها، تسّلم حكم ماري سلالة حكام يدعون " شاكاناك " وتعني الوالي/الولاة. وكان هؤلاء يمثلون ملك أور في ماري ويقدر عددهم

[⊗] تقع مدينة أور على بعد 365 كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من بغداد، وعلى مسافة 17 كيلومتراً إلى الجنوب الغربي لمدينة الناصرية. وتشير الوثائق الأثرية إلى احتمال أن تكون مدينة أور في ذلك العصر قريبة من البحر أي مطلة على الخليج العربي. ويعتقد أن نهر الفرات كان يجري بجوارها، في حين أنها تبعد عنه الآن غرباً حوالي 12 كيلومتراً. مع الإشارة إلى أنها تبعد الآن عن البحر بأكثر من 200 كيلومتر.
ولاحتمال تجاورها في هذه الفترة مع نهر الفرات فإن هذا يدل على مبلغ أهمية الموقع الاستراتيجي لمدينة ماري في حركة التجارة الشرقية والعالمية في ذلك العصر.

بحوالي 13 حاكماً بدأت فترة حكمهم عام 2266 واستمرت حتى 2008 ق.م. / انظر الملحق الأول/.

ويبدو أنهم تسلموا السلطة قبل بزوغ فاعلية مدينة أور.

ويُعتقد أن حكم هذه السلالة بدأ في فترة الفاعلية الأكادية ولا سيما في عهد الملك الأكادي مانيشتوزو 2275 ـ 2260 ق.م.

وتشير المعطيات إلى أن ماري في هذه الفترة/فترة فاعلية أور/استعادت سيطرتها على منطقة الفرات الأوسط بمعنى أنها عادت لمملكتها، وكانت علاقاتها جيدة مع مدن الجنوب الرافدي.

وهذا الأمر ليس جديداً فبالعودة لما قبل منتصف الألف الثالث، سوف يتم اكتشاف " كنز أور " في ماري ويعود إلى هذه الفترة حيث تضمن هذا الكنز على خرزة كبيرة من اللازورد عليها كتابات مسمارية هي كما يلي:

" أهدى هذه الخرزة المغزلية⊗ إلى الربة غال، ميزا نيبادا ملك أور عندما كان آنسود ملك معيرا/ ماري ".[39]

وقد أمكن تحديد حكام ماري في هذه الفترة بحسب الوثائق الأثرية وهم:

ابيل كين / تزوج ملك أور، أورنمو من ابنة هذا الحاكم /.

ايشتوب ايلوم ـ تورا داجان ـ بوزو عشتار / وهو يعتبر أشهر الحكام آنذاك / ـ هتلال عررا ـ حانون دجن.

⊗ عام 1965م كشفت تنقيبات ماري على جرة تحتوي عدة لقى أطلق عليها اسم " كنز أور "، وقد حوت هذه الجرة على تمثال صغير من العاج لامرأة عارية، وتمثال صغير من النحاس لإلهة عارية ولوحظ أن شعرها عليه عصبة جبهية من الذهب وقرنان صغيران/ علامة الألوهية /، كما عثر على نسر له رأس أسد وقد تم نحته في لوحة سميكة من اللازورد حيث أن رأسه وجناحاه من الذهب ونُزّلت عيناه بالقار.

حوى الكنز أيضاً على زوجين من الأساور الأول من النحاس والثاني من الفضة، وكذلك هناك ثمانية مشابك من الفضة والبرونز والذهب ورأس المشبك من العاج، وسوار من الخرز صُنع من الذهب واللازورد وعقد مصنوع من الذهب واللازورد والفضة، وثلاث نجوم من الفضة، وستة تمائم لازوردية، وخرزة كبيرة مغزلية من اللازورد متعددة الوجوه منقوش عليها بالمسمارية.

وقد سعت ماري في هذه الفترة إلى إعادة تأسيس نفسها بكافة مناحي الحياة، وإلى هذه الفترة يُعزى بناء القصر الملكي المشهور والذي دُشّن وافتتح في عهد زمري ليم في الألف الثاني قبل الميلاد. وفي هذا القصر عثر على تماثيل الشكاناكو.

ويشير مارجرون إلى " أنه ومع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ومع عودة النشاط الاقتصادي الكثيف إلى الرافدين مع سلالة لاجاش وأور، شرعت مدينة ماري بعملية الارتقاء من جديد، ومنذ وقت مبكر حيث يلاحظ إعادة لبناء المدينة بعد زوال السيطرة الأكادية ".(40)

كما يؤكد جان ماري ديوران إلى أن وقوع ماري تحت الفاعلية التاريخية لمملكة أور الثالثة وحكام الشكاناكو، جعل ماري تصل إلى تحقيق فاعليتها التاريخية، ويتحدث عن أن يخدون ليم وزمري ليم وأجدادهم، مجموعة قبائل الخانيين في شمال شرق الفرات، عرفوا كيف يكونوا الورثة الحقيقيون لعصر الشكاناكو.(41)

وبدوره مارجرون، يعتبر أن هذه الفترة شكّلت أعظم حقبة في تاريخ مدينة ماري، فمعظم العمائر التي تتألف منها المدينة في أيام زمري ليم / حوالي 1800 ق.م / تم بناؤها في تلك الحقبة الزاهرة.(42)

استنتاجات حول ماري في فترة الثلث الأخير من الألف الثالث:

أولاً: أن مدينة ماري عـادت إلـى مملكتها وأصـبحت عاصمة لمنطقـة الفـرات الأوسـط، كمـا كانـت قبـل سـيادة الفاعلية الأكادية.

ثانيـاً: أن القاعـدة الماديـة لبنـى مـاري فـي الألـف الثـاني تأسـست فـي هـذه الفتـرة، وشـكّلت الأرضـية الحضارية لانبعاثها فيما بعد.

يقول د. فيصل عبد الله:

" منذ عصـر إبـلا فـي الألـف الثالـث قبـل المـيلاد / مـن منتصـفه تقريبـاً /، كانـت مـاري تكْـدس الثـروات، والـذهب خاصة. ويتحدث أحد النصوص في مـاري أن فنانـاً اسـتخدم قرابة كيلو غرام من الذهب لصنع شـكل مـن أشـكال الـبط ". (43)

كما أن مبلغ الازدهار والرقي الذي حققته ماري جعلهـا فـي هـذه الفتـرة محطـة أساسـية فـي خـط التجـارة المشرقي والعالمي كما سنرى في الفصل اللاحق.

ثالثـاً: أن هـذه الفتـرة أكـدت علـى عمـق التفاعـل الحضـاري والـذهني فـي دورة حيـاة واحـدة لكـلا جنـاحي المشرق العربي. فمثلاً إن الرسـومات والتلوينـات الجداريـة التي عثر عليها في القصـر الملكـي فـي مـاري، تُـذكر بمـا حوتـه مسـلة أورنمـو فـي أور، إن كـان مـن حيـث الشـكل واللباس أو المضمون.

كـذلك فـإن الأوانـي المرسـومة فـي الجـداريات تـذكر بأواني أور في سلالتها الثالثة.⊗

رابعاً: يبدو للباحـث والمـدقق علـى أن مـاري لعبـت دوراً غير مباشر في إسقاط الفاعليـة التاريخيـة لمدينـة أور في سلالتها الثالثة.

وهذا ما يتبدى فـي أن مـاري ومحيطهـا، كانـت تُشـكل بوابة العبور العموري من الجناح الشامي إلى الرافدي. كما أن مـاري بحـد ذاتهـا كانـت الخـزان الأسـاسـي للتواجـد العموري، ويشير هالدار إلى أن ثمة رباط تقليدي كان يـربط العموريين مع مـاري، التـي كانـت العاصـمة الحقيقيـة لهـم منذ فترة مبكرة.(44)

فإن كان سقوط أور يعود للهجـوم العيلامـي وزاغـروس، إلا أن فاعليـة الوجـود العمـوري المتزايـدة فـي الرافـدين أسهمت في السقوط ذاك.

مع الإشارة إلى أن أسباب هذا السقوط لم تكن لدوافع إثنية، بقدر مـا كـان تطـور طبيعـي فـي حركـة التـاريخ أفـرز إشراطاته ونتائجه في آن.

⊗ انظر علي أبو عساف. فنون الممالك القديمة في سورية. مرجع سابق وكتاب اندره بارو ـ سومر ـ مرجع سابق. وكتاب فنون سومر أكاد – انطون مورتفات.

الواقع الاقتصادي ـ التجاري فترة فاعلية مملكة أور الثالثة:

لابـد حـين الحـديث عـن الواقـع الاقتصـادي والتجـاري للمشرق فـي هـذه الفتـرة، مـن التأكيـد علـى اسـتمرارية وجود خطـوط التجـارة فـي الألـف الثالـث، مـع وجـود بعـض التغيـرات والانزياحـات التـي فرضـتها الأحـداث السياسـية والعسكرية. فمثلاً إن سقوط أكاد أفقد خطوط التجارة ميناء هاماً وفاعلية تجارية مهمة، لصالح انبثـاق فاعليـة أور فـي ما بعد في مداها التجاري، مع وجود أهمية واضحة لمدينـة ماري، كون أن الفرات الذي كـان يمـر قـرب أور كـان يُشـكّل عصباً مهماً بـين المـدينتين مـن جهـة ومـع مـا وراء الخلـيج العربـي، بالإضـافة إلـى عمـق المشـرق الشـامي ثـم الأناضول وعالم المتوسط بالنسبة لمدينة أور.

وقد أبانت وثـائق أور العائـدة لتلـك الفتـرة عـن اسـتيراد النحاس من باكستان إلى أور عن طريق البحر. حيث كانت السـفن تبحـر مـن جزيـرة فيلكـه فـي الكويـت ثـم تمـر بالـديلمون / البحـرين / حتـى مضـيق هرمـز محملـة بالسمسـم والنسـيج، ومنهـا إلـى مينـاء سـوتكاكين ودور، وسـوتكاكوه فـي باكسـتان ثـم تعـود تلـك السـفن محملـة بالنحاس.

الجـدير ذكـره هنـا، هـو أن هـذه الطريـق هـي نفـس الطريق التي نقلت سلع الحرير من الشرق إلـى المشـرق العربي ثم عالم المتوسط.

وفي مقاربة زمنية تذكر وثائق جوديا حاكم لاجاش، أنـه اسـتورد بضـائع ومنتجـات مـن منـاطق بعيـدة، فالـديوريت والأخشاب استوردتا من الديلمون وماجان.

ومن ملوخا، العقيق الأحمر واللازورد والذهب والنحاس.

ومـن الجنـاح الغربـي / عَبْـرَ مـاري / اسـتورد الألباسـتر والخشب والأحجار. ومن مناطق شرق دجلة،النحاس.

وتشــير الوثـائق إلــى أن التجــار فيهــا كــانوا يقايضــون المنسـوجات الصـوفية والجلـود وزيـت السـمسـم بالنحـاس من ماجان.

وثمة ملاحظة هنا تختص فـي عـودة المعبـد فـي هـذه الفترة إلى السيطرة على النشـاط الاقتصادي وعائداته في تعبير عن تقليد سـومري، سـبق للأكـاديين أن أنهـوه لصـالح القصر والسـلطة الزمنية/الدولة.

النظام السياسي في ماري في الألف الثالث:

إذا كان الألف الثالث قبل الميلاد تميّز بالطابع الثقافي السومري ولا سيما في الجناح الرافدي، ما عدا مدينة كيش، فإن الجناح الشامي عبّر عن نفسه بالطابع الثقافي الأكادي ـ العموري، ولكن هذا الأمر لم يكن بشكل منفصل، فالتفاعل السومري ـ الأكادي ـ العموري سارٍ بمنحاه الطبيعي على مدى الألف الثالث وهذا نراه واضحاً في ماري حيث ثمة تأثيرات سومرية في وسط أكادي ـ عموري.

وإن كانت كيش هي مركز فاعلية الديمغرافية الأكادية، فإن ماري شكلت مركز الفاعلية الديمغرافية العمورية منذ منتصف الألف الثالث وما قبله حتى.

وتأسيساً على هذا يمكننا مقاربة حركة حياة ماري في الألف الثالث بما تتضمنه من طبيعة نظامها السياسي وتركيبه، وكذلك مجال الفنون والاعتقادات والحياة اليومية.

مع الإشارة إلى أن بعض ما سنناقشه ربما لم تشر إليه وثائق تلك الفترة، لكن التفاعل الذي تحدثنا عنه قمين بأن يجعلنا نقارب الأمر وكأننا أمام مدن اتسمت بروحية واحدة وهذا ما كان، وبالتالي فما ينطبق على مدينة ربما ينسحب على باقي المدن وهذا ما يؤكده الباحثون في مقاربتهم المختلفة لحضارة المشرق العربي ككل.

أيضاً تنبغي الإشارة إلى أن ما كان سائداً في الألف الثاني وأشارت إليه الوثائق، لابد أن له جذوره الممتدة إلى الألف الثالث، ربما مع بعض التطور، غير أن الطابع العام يُعبّر عن نفسه جلياً. فالقيم والمعايير والرموز هي نفسها، مع الأخذ بعين الاعتبار لواقع انتهاء فاعلية ما، ولا سيما السومرية، والتي ذابت في الفاعلية الديمغرافية

المشـرقية ككـل وأخـذت معهـا بعـض رموزهـا الاعتقاديـة وبعض تقاليدها المجتمعية.

ففي مقاربة للنظام السياسـي فـي مـاري فـي الألـف الثالث، أشارت وثائق مدينة نيبور الرافديـة وكـيش، عـن أن ماري حُكمت من قبل السلالة العاشرة بعد الطوفان، وكـان أول حكامها هو أنسـود، حيـث حكـم قرابـة الثلاثـين عامـاً، ويعتبر هذا أول حـاكم لسلسـلة مـن الحكـام بلـغ عـددهم ستة حكموا ماري خلال 136 عاماً.

ويعتقد أنهم حكموا في الفترة بين 2900 ـ 2600 ق.م

وتشير الأبحاث إلى أن ثبت الملـوك هـذا لـم يسـتوعب جميع الملوك، حيث كشفت وثائق إبـلا عـن أسـماء ملـوك لم ترد في ثبت الملوك، وربما حكموا في الفترة بـين 2600 ـ 2350 ق.م وهم: إيكوشمش، سوم، ايشـتوب شـار، ايبلـول إيل، أنادجن، لمجي ماري.(45)

وذكرنا سابقاً أن حكـام مدينـة مـاري فـي فتـرة فاعليـة مملكة أور الثالثة والذين أطلق عليهم اسـم " الشـكاناكو " قد حكموا في الفترة بين 2266 ـ 2008 ق.م وضـمت قـائمتهم 13 ملكاً أشهرهم بوزو عشـتار، الـذي حكـم بـين 2050 ـ 2025 ق.م ومن هؤلاء الحكام نجد: ابيـل كـين ـ ايشـتوب ايلـوم ـ تورا داجان ـ هتلال عررا ـ حانون دجن.

وبـين 2015 ـ 1920 ق.م، كـان ثمـة سـبعة حكـام حكمـوا مدينة ماري، إلى أن نكون في حوالي 1825 ق.م أمام حكم السلالة العمورية التي بدأت مع يجيد ليم واستمرت حتـى 1760 ق.م حيث ستسقط ماري بيد حمورابي بابل.

وفـي طبيعـة النظـام السياسـي فـي مـاري، لابـد مـن الإشارة إلى أن الأرضية الذهنية التـي طبعـت هـذا النظـام سادت في معظم مدن المشرق العربي في الألف الثالث.

ففي مجال مدينة إبلا، نجد أن نظام الحكـم الـذي كـان سائداً، كان يقوم على سلطة الملك وإلـى جانبـه مجلـس للشيوخ، أعضاؤه من الفاعليات المشـهود لهـا فـي الحيـاة المهنية والاقتصادية والاجتماعيـة والحرفيـة وغيرهـا، حيـث

كانوا يشاركون الملك في اتخاذ القرارات المهمة لحماية المملكة ومصالحها.

وقد شملت معظم مدن المشرق على مثل هذه المجالس كما في أوروك وماري وكيش وأور وغيرها.(46)

بدوره يؤكد هورست كلنغل على أن وثائق إبلا أكدت على وجود مجالس للشيوخ في أكثر من أربعين مدينة مشرقية، تتقاسم بوضوح مع الحاكم والمسؤولين الآخرين حوله.(47)

وكان يطلق على مجلس الشيوخ اسم " التهتامم " ويضم أعضاء مؤقتين ودائمين أو ينتخبوا انتخاباً بالإضافة إلى أعضاء كانوا يعتبرون وجهاء في مجالاتهم المختلفة.(48)

ويقوم مجلس الشيوخ هذا بالبت بالمسائل الاقتصادية والتشريعات المتعلقة بها، كذلك الأمور السياسية، وكانت قراراته نافذة.

ففي وثيقة من ماري تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد/ وهو ما يمكن أن ينسحب على الألف الثالث / نستطيع نبيان مدى قوة مجلس الشيوخ وقراراته، حيث أن ملك ماري أبدى عدم رضاه على قرارات مجلس الشيوخ في مدينة توتول / التي كانت تتبع لفاعلية مملكة ماري /، فأوعز الملك إلى ممثليه وكان يطلق عليهم اسم " الحصانم " أن يبلغوهم بالأمر ويقولوا لهم: إن القرارات الآتية من العاصمة ماري ليست هي قرارات الملك فقط، بل هي قرارات مجلس الشيوخ أيضاً.(49)

وبالتوازي مع هذا الأمر، تمّدنا وثائق الرافدين العائدة إلى الألف الثالث، وهي عبارة عن قصيدة ملحمية تصف صراعاً بين مدينتي كيش وأوروك يعود إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث تشير هذه الوثيقة إلى وجود برلمان يتألف من مجلسين، مجلس الشيوخ ومجلس للنواب في مدينة أوروك. وكان مجلس النواب يتألف من الذكور المحاربين، لذا سمي بمجلس الحرب،

حيـث يـدعى للاجتمـاع لاتخـاذ قـرار يخـتص بـالحرب أو السلام.

وتشير الوثيقة إلى أن مدينة كيش أحسست بتعاظم قوة أوروك وفاعليتها حتى باتت تهددها، وهذا ما دفع ملك كيش " أجا " إلى تهديد جلجامش ملك أوروك بأنه سيشن حرباً مدمرة على مدينته ما دفع بالأخير إلى عقد اجتماع لمجلس الشيوخ والنواب، حيث دعا الأعضاء إلى عدم الإذعان لتهديدات كيش، لكن أعضاء نجلس الشيوخ رفضوا رأي جلجامش وفضلوا الحل السلمي معها، مما أغضب جلجامش الذي طلب انعقاد مجلس النواب /الحرب/ وكرر طلبه بالحرب، فقرر الأعضاء هؤلاء عدم التسليم بتهديدات كيش وإعلان الحرب عليها.

ويبدو أن الوثيقة تنتهي بحيث حاصر ملك كيش أوروك، ثم تُعقد مصالحة بين الطرفين دون قتال فيرفع الحصار ويتم إرساء صداقة بين المدينتين.

الجدير ذكره هنا هو أن هذه الوثيقة كتبت بوقت متأخر عن الأحداث بحدود الألف عام.⊗

⊗ انظر ـ من الواح سومر ـ صموئيل كريمر ـ ت: طه باقر ـ بغداد ـ مغفل التاريخ . مكتبة المثنى

عمارة وفنون ماري في الألف الثالث:

لا تفترق خصائص الفن في مدينة ماري على اختلاف أنواعه من عمارة وفنون نحتية وأختام ورسومات جدارية.. الخ عن المناخ العام الذي ساد الألف الثالث بقاعه الثقافية في كلا الجناحين.

خلا، بعض الطفرات الفنية التي كانت تشهدها بعض المدن فتقدم الجديد بما يناسب ممكناتها. كما أن طبيعة البيئة الجغرافية فرضت إشراطاتها في كلا الجناحين، فمثلاً كانت مدن الرافدين تفتقر إلى الحجارة والأخشاب، في حين أن هذا متوافر وبكثرة في الجناح الشامي.

أيضاً، ومثل كافة المجالات الأخرى، فإن الحياة الفنية على أشكالها كانت تستند بعمق على الواقع الديمغرافي الاجتماعي.

فإن كان الفن في ما قبل الألف الثالث هو فن ذو ثقافة رافدية، فإننا وباتجاه الألف الثالث وباطراد سنجد ظهور روحية جديدة تستند على ما سبق وتضيف عليه كما في الثقافة الأكادية وكذلك في مجال الثقافة العمورية الكنعانية.

إذن ما يحكمنا هنا هو خط تواصل ذهني روحي واحد يستمد جذوره من الواقع الاقتصادي ـ السياسي، وكل ذلك ضمن اطار تفاعل مجتمع المدينة مع بيئته الطبيعية، وتفاعل المدن فيما بينها بما أدى إلى نشوء روحية واحدة تشمل مواقع المشرق العربي كافة.

يقول الدكتور علي أبو عساف: " لقد أظلت الهلال الخصيب حياة جديدة وسادت السكان مفاهيم وقيم .. وحلت في أذهانهم وعقولهم وقلوبهم مُثل أخرى "[50]

وذلك في إشارته إلى هذه الفترة من تاريخ المشرق.

في الحياة العمرانية:

شهدت مدينة ماري منذ تأسيسها معالم عمرانية وإنشائية تتناسب مع ذهنية التخطيط المسبق، حيث أننا أمام أنظمة متطورة للري كالأقنية والسدود، وأنظمة ملاحية مبتكرة، بالإضافة إلى سعي المدينة لتأمين مياه الشرب عبر الأقنية والسدود التي تجمع مياه الأمطار.

ويبدو أن الازدهار الذي وصلت إليه ماري مع تأسيسها وانطلاقها في القرون الثلاثة الأولى من الألف الثالث تجلى واضحاً في القصور الفخمة والمعابد، ومنحوتات تدل على وجود مدرسة فنية في ماري تعدّ من أقوى مدارس الفن وأكثرها أصالة في " المشرق العربي " على حد قول أندره بارو. (51)

ففي مجال العمارة المعبدية، كشفت التنقيبات عن معبد عشتار، حيث يتألف من حرمين متجاورين لا يوجد بينهما باب، وفيهما مقاعد ومنبر وقد أقيم هذا المعبد بجوار سور المدينة الغربي.

وقد بنيت جدران المعبد باللبن فوق أساسات من الحجارة الكلسية ـ الجيرية، ووضع فيها 13 مسماراً برونزياً.

وشرق هذين الحرمين ثمة باحة ذات أرضية اسفلتية تحتوي على حوض للماء المقدس، ومصطبة للذبائح، ومذبح، حيث تجرى الطقوس المعتقدية.

وشرق هذه الباحة تقع مساكن الكهنة.

أما معبد عشتار الآخر، فعثر عليه وسط المدينة، حيث يشبه في مخططه مخطط البيوت، وتتجه زواياه نحو الجهات الأربع.

حرم هذا المعبد مستطيل ينفتح على باحة تحيط بها الحجرات، كما أنه يحتوي على مقاعد ومنبر.

وهناك معبد نيني زازا الذي يجاور معبد عشتار من الجهة الشمالية الغربية، وقد اشتمل هذا المعبد على باحة ينفتح عليها الحرم كما وتحيط بها الحجرات، وقد تم

تزويق واجهاتها المطلة على الباحة بالمحاريب. ووسط الباحة ثمة عمود بازلتي بارتفاع 1.50 م، له وظيفة وقيمة اعتقادية.

قصور ماري:

أدت التنقيبات إلى الكشف عن ثلاثة قصور متوضعة فوق بعضها البعض، حيث أنها بنيت الواحد فوق أنقاض الآخر وذلك على مدى عشرات السنين.

القصر الأحدث من هذه القصور يطلق عليه القصر ـ المعبد ويقع تحت قصر زمري ليم، ويرجح أنه يعود إلى منتصف الألف الثالث أو مع بداية الفاعلية الأكادية.

هندسة هذا القصر تشبه هندسة المعابد، وتضيع المعالم بين الوظائف المعتقدية فيه والوظائف الزمنية. بيت العبادة في هذا القصر، كبير، توحي باحته المركزية على طابع اعتقادي. ففي وسطه باحة مربعة طول ضلعها 10 متر وجدرانها مزوقة بالمحاريب.

وحوّث على درب مزفت، ومنضدة نذور وحوض للماء المقدس ومذبح.

وتحيط بهذه الباحة الغرف الكبيرة والصغيرة، وفي الطرف الجنوبي عثر على قاعة كبيرة / 2.5 × 7م / تميزت بوجود قدس الأقداس فيها.

ولوحظ أن ثمة ممشى يحيط ببيت العبادة هذا، يبدوا أنه يشكل عقدة مواصلات تتفرع عنها الدروب إلى جميع جهات القصر.

وعثر في هذا القصر ـ المعبد على بقايا عمود خشبي من أرز لبنان.

الجدير ذكره أن القصور كانت تقام فوق القصور والمعابد فوق المعابد في خط الحضارة المشرقية العمراني.⊗

⊗ استندنا في مناقشة عمارة ماري على كتاب الدكتور علي أبو عساف ـ آثار الممالك القديمة في سورية. مرجع سابق. وكتاب أندره بارو – ماري.
وكتاب " سومر" للمؤلف نفسه. وكتاب " فنون سومر وأكاد " – أنطون مورتفات.

أما البيوت السكنية، فقد أنشئت على أسس قوية وصلبة من ألواح حجرية، وكانت على شكل مستطيل أو شبه منحرف تتجمع مع بعضها البعض في كتل بينها مساحات فارغة تؤلف مساحات محاطة ببوابات. مخططها متشابه وثمة باحة تنفتح عليها غرف البيت / بما يذكر بالبيت الدمشقي /.

وبنيت تلك البيوت من اللبن وأساساتها صنعت من الحجر الكلسي المنحوت. وصنعت المنشأت المائية مثل الأحواض والخزانات من الآجر المشوي. أما البيوت فكانت تُطلى جدرانها بسائل من الطين الممزوج بالتبن وتلصق عليه تزينات هندسية على شكل نواتئ وغوائر وأحياناً يضاف طرش أبيض من الكلس.

إن ما قدمته عمارة ماري في الألف الثالث يشي عن ذهنية، حضارية عمرانية متعددة ومبدعة وهذا ما يدفع مارجرون للقول:

" إن البنية المعمارية المكتشفة في ماري أحدثت انقلاباً في المفاهيم المتعارف عليها حول عمارة بلاد المشرق في الألف الثالث قبل الميلاد. / مارجرون 1996 /.

وإن تحدثنا عن عمارة الألف الثالث في ماري فلابد أن نعرّج إلى القصر الملكي الذي عرف بقصر زمري ليم، والذي تمَّ تدشينه في حوالي 1800 قبل الميلاد، لكن تاريخ انشائه يعود إلى فترة الثلث الأخير من الألف الثالث، بحيث يبدو أن البدء في عمرانه تم في حوالي 2285 ق.م واستمر لعدة قرون حتى دُشن في عهد الملك زمري ليم.

وتشير المعطيات على تعاقب البناء فيه قبل اكتماله ثلاث مرات حسب كل سوية.

ويبدو أن مخطط هذا القصر أو فكرته مستوحاة من تقليد إبلائي عتيق، حيث تظهر الدراسات المقارنة أن القصر خ في إبلا الذي يعود للألف الثالث قبل الميلاد، يشابه في مخططه مخطط قصر ماري ما يعني أن فنان

ماري حاول أن يحاكي تصميم قصر إبلا الذي دُمر في حوالي 2250 ق.م.[(52)]

تبلغ مساحة هذا القصر هكتارين ونصف، وأكبر طول فيه 200 متراً، والعرض 120 متراً. ويحوي على 300 حجرة يصفه اندره بارو بأنه كان يؤلف مدينة داخل مدينة. وكان يعتبر من إحدى عجائب العالم. القصر محاط بسور مدهش، الباحة السماوية المركزية تبلغ مساحتها 49 × 33 متراً، وتقع قاعة العرش على أحد أضلاع هذه الباحة.

ويشير بارو إلى أن معماريي ماري كشفوا على أنهم رجال سياسة حقيقيين، حيث أن هذه الباحة بإمكانها أن تستوعب من يشاء كي يشاهد الملك ويخاطبه وهذا يعكس طبيعة علاقة الحاكم مع المحكوم.

الزاوية الشمالية الغربية من القصر، تحتوي جناح الأسرة الملكية، وقد تمَّ اختيار هذا الركن لعزل الأسرة عن الصخب والضوضاء.

وقد حوى هذا الجناح الملكي على 23 غرفة متوضعة حول باحة داخلية مكشوفة ويشغل هذا الجناح حوالي 20/1 من مساحة القصر الكلية وهذا دليل تواضع وبساطة / PARROT . 1974 /

ويبدو أن تصميم مخطط القصر الداخلي جعل تنقلات الملك تبدو سهلة وسريعة، دلَّ على ذلك وجود ممرات متعددة، حيث كان الملك يستطيع أن يصل إلى أي من الأجنحة الهامة عن طريق عدة أبواب، فمثلاً الباب الشرقي كان يقود إلى قاعة الجلسات والاجتماعات أما الباب الجنوبي الشرقي فكان يقود إلى قاعة العرش وثمة باب جنوبي يؤدي إلى غرف الأرشيف والرقم والنسخ والجناح الإداري.

وتبين أن الملك يستطيع خلال دقائق معدودة أن ينتقل من مسكنه إلى قاعة العرش بما يعبّر عن ذهنية معمارية عملية ومبدعة.

وفي المنطقة الشرقية من القصر عثر على عشر غرف تختص بالمسافرين وسعاة البريد والغرباء وتحتوي مطابخ وورشات وكوانين لا تزال مزودة بالفحم الخشبي حين تم اكتشافها وكانت جاهزة للاستخدام.

ويشير بارو إلى أن الناس كانوا يتحدثون عن هذه العجيبة ليس في بابل وحدها/ وذلك خلال الألف الثاني بل حتى الشواطئ التي تغيب فيها الشمس أيضاً.

الجدير ذكره أن عدد طوابق القصر اثنان، وثمة مجمعات أبنية تتوسطها باحات، كما عثر على أقنية لتصريف المياه المالحة.

وقد دلت الكشوف والدراسات على أن هذا القصر أبان عن تقنية جديدة في البناء تجلّت في وجود محاجر مقولبة في سقف قاعة لعرش وهذا الأمر يعتبر ميزة جديدة وهي الأولى من نوعها في المشرق العربي آنذاك. وبشكل عام يبدو مخطط هذا القصر متماشياً مع التقليد العمراني العام لقصور المشرق العربي.

وهنا تستوقفنا دراسة قام بها الباحث أوليفييه أورانش تحت عنوان " الملاحظات العرقية وأثرها في فهم الأوابد القديمة ـ قصر ماري وقصور " الشرق الأوسط " المعاصرة ".[⊗] حيث يقارن الباحث بين الفن المعماري القديم والفن المعماري الحديث في المشرق العربي ولا سيما في نطاق القصور ويصل إلى استنتاجات عديدة:

أولها: تبين نتيجة الدراسة المقارنة بين الفن المعماري القديم في ماري والهندسة المعمارية القائمة حديثاً على أن النتيجة إيجابية لجهة الخصائص الفنية والروحية.

ثانيها: تبيّن أن جميع وظائف قصر ماري قد وجد لها مثيلاً في مجتمعات القصور المعمارية المعاصرة.

[⊗] انظر فيصل عبد الله ـ دراسات تاريخية 37 - 38 – قراءة في خمسة مجلدات من ماري.

ثالثها: أن العوامل الإجتماعية التي أثـرت علـى تكـوين الفراغ والبنـاء فـي حضـارة المشـرق العربـي، نجـدها فـي الحضارة الإسـلامية التي تلتها وفي الوسط الجغرافي ذاته.

فنون ماري في الألف الثالث:

إذا كانت الفنون المجتمعية لا تنفصل عن حركة المجتمع وطبيعته وتجلياته المختلفة، فإن هذا ينطبق على مساق بحثنا في فنون ماري، يقول اندره بارو: " إن الفن حلقة في سلسلة لا نهاية لها، حلقة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما سبقه وبما سيعقبه [53]

والفن في ماري في هذه الفترة، سواء لجهة فن النحت أو النقش على الأختام الأسطوانية والأواني الحجرية إلى الرسومات الجدارية وغيرها، لا يشذ عن القاعدة الذهنية التي حكمت الخط الحضاري الفني المشرقي بعامة، إلا في بعض الابداعات المميزة أو الطفرات التي كانت تنبثق من هنا أو هناك.

بالإضافة إلى هذا فإن تعدد المذاهب والمدارس الفنية بين مدن المشرق العربي يتبدى واضحاً من خلال الأعمال الفنية، وإن كنا قبل عصر ماري / قبل نهاية عصر فجر التاريخ 3500 ـ 2900 ق.م / قد شهدنا مثل هذا التنوع، وهذا ما نلاحظه مثلاً حين مقاربتنا للنقش على الأختام الاسطوانية، كذلك في مجال فن نحت الدمى، فإن مواقع الجنوب الرافدي اتصفت بميلها إلى المذهب الواقعي / دون أن تدري طبعاً / أما في الشمال في تل براك وآشور فنشهد اتباع الأسلوب التجريدي.[54]

فإذن، ضمن المنظومة الفنية العامة، والخط الحضاري الفني، نشهد حالة من الغنى والتنوع، وهذا ما يُفَعّل المنجز الفني ويُغنيه ويجعله إنسانياً في مستواه الإنساني.

ففي مجال فن النحت، تلحظ الدراسات على أن فن النحت بعامة وعلى مدى المشرق العربي كان تكعيبياً وهندسياً وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد، ومع الألف

الثالث اتجه هذا الفـن للأخـذ بـالمنحى الـواقعي، وبمعنـى آخر، كان الفنان المشرقي بعامة يجتهد لرسـم واقع منظـور يحاكي الحياة مع مميزات فردية وشخصية لشخوصه.

وهنا كنا أمام الخطـوات الأولـى للانطـلاق مـن التجريـد إلـى التصـويرية، حيـث أصـبحنا أمـام تماثيـل لأفـراد عائلـة واحدة ولكن لكل منها شخصيته وملامحه التي تميـزه عـن الآخر، كما الواقع.

وهنا تستوقفنا دراسة مقارنة بين تماثيل مشرقية تعود للألف الثالث، وتماثيل تعود للألف الأول قام بها أنـدره بـارو، حيث يلاحظ أن تماثيـل الألـف الأول قبـل المـيلاد كـان مـن المستحيل تمييزها عن بعضـها الـبعض، فتمثـال شـاروكين الآشوري مثلاً لا يختلف عن تمثال سنحاريب أو آشور ناصر بعل أو آشور بانيبعـل، وفـي حـين أن تماثيـل الألـف الثالـث تميزت بدقة الملامـح وتمايزهـا بـين الشـخوص تمامـاً كمـا الواقع.⊗

ونحن نعتقـد أن سـبّب هـذا الانحـدار فـي الألـف الأول، يعـود لمجمـل الظـروف الموضـوعية التـي تحكّمـت بحركـة التاريخ في تلك الفترة بحيث أن المجالات الروحية لم تأخـذ حيّزها الطبيعي.

وبالاتجاه نحو منتصف الألف الثالث، نجـد كثافـة وغـزارة في إنجاز تماثيل فرديـة لمتعبـدين وهـذا علـى مـدى مـدن المشرق العربي. وكانت تماثيل ملوك مـاري وتماثيـل كبـار الكهنة توضع كتماثيل نذرية فـي المعابـد، كتقدمـة للآلهـة. وتشير المعطيات الأثرية إلى أنه كـان هنـاك مشـاغل فـي ماري تقوم بصـناعة التماثيـل ولا سـيما اللاشخصـية حيـث تباع للحكام والكهنة من أجل وضعها في المعابد.

وتغزر التماثيل الرجالية مقابل قلـة التماثيـل النسـائية / هذا على عكس العصر السابق حيث كان الحضور الأنثـوي في مجال التماثيل، طاغياً /.

⊗ انظر أندره بارو - سومر - 1978 - العراق - وزارة الثقافة.

تماثيل العُباد هذه تبلغ 40 سم طولاً، وتحمل معظم هذه التماثيل صفات عامة، لرجل له لحية مستطيلة طويلة ومتجعدة، أما شعره فطويل ومضفور بحيث يتدلى على جانبي الرأس وفوق الظهر وبجانب اللحية. وثمة تماثيل لرجال متعبدين حليقين، ويرتدي الواحد منهم مئزراً معذقاً، يستر الأطراف السفلية من الخصر حتى تحت الركبتين، ويشدّه حزام عريض إلى الخصر، ويلاحظ تشابك اليدين على الصدر العاري، أما العيّون فكانت مصنوعة من نفس الحجر وأحياناً من الصدف أو من حجارة ذات لون مختلف عن لون حجر التمثال في حين أن الجفنان من القار. ⊗

أما لناحية أسلوب النحت، فقد عمد الفنان إلى تحرير جسم التمثال عن الكتلة الحجرية، بحيث استطاع إظهار أعضاء الجسم كالذراعين والساقين والرأس، مع الاحتفاظ بتوازن التمثال.

الجدير ذكره أن الفنان النحات كان يخضع في عمله لنُظم محددة أهمها أن الفواصل بين أعضاء الجسم البشري ذات شكل منتظم وكذلك المحيط الخارجي للجسم البشري.

كما استطاع النحات حصر الكتفين والعضدين والخط الواصل بين المرفقين المار بالحزام ضمن إطار مستطيل أو مربع.

ويشير د. أبو عساف إلى أن ظاهرة حصر العمل ضمن إطار هندسي، شغلت بال الباحثين الذين رأوا فيها مقاربة بين النحت في الحجر والقطع في الخشب وسكب المعدن وطرقه.

وقد عثر في معابد ماري وفي المدينة ذاتها على مجموعة كبيرة من التماثيل للعبّاد الورعين، وعلى مدى 2700 ـ 2350 ق.م أنتجت ورشات ماري تماثيل لرجال واقفين وجالسين / ولو بشكل أقل /. وكانت تماثيل النساء،

⊗ انظر ـ علي أبو عساف ـ فنون الممالك القديمة ـ مرجع سابق. وأنده بارو ـ سومر ـ مرجع سابق.

لنسوة واقفات وجالسات، حفاة، يرتدين ثوباً طويلاً فضفاضاً يستر الجسم، لكن الكتف الأيمن يبقى مكشوفاً. وثمة عباءة وقلنسوة يتسترن بها.

وبالإضافة إلى التماثيل اللاشخصية، عثر في ماري على تماثيل شخصية كما لملك ماري لمجي ماري / 2400 ـ 2350 / ق.م. وكذلك تمثال الملك إيكو شماكان 2500 ق.م، وتمثال للموظف ايبش ايل 2700 ـ 2600 ق.م، ويعتبر هذا التمثال من أجمل تماثيل ماري لمدلولاته الفنية وإيماءاته نسبة لفترته.

كما تنبغي الإشارة هنا إلى تمثال المغنية أورنينا / أورنانشه / الذي عثر عليه في معبد نيني زازا وقد نذره لها ملك ماري إبلول إيل.

ويعتبر هذا التمثال من الأعمال المميزة حيث تبدو المغنية جالسة على أريكة صغيرة وقد انحسر ثوبها إلى أعلى متجمعاً على الفخذين فوق الركبتين وقد فقدت اليدان والآلة الموسيقية من التمثال.

وفي إطار آخر مميز أظهرت منحوتات ماري لتماثيل أخرى تختص بزوج / رجل وامرأة / حيث يحتضن الرجل المرأة في حنان وحب وقد بدا أن الرجل يرتدي مئزراً معذقاً وجذعه عاري في حين أن المرأة ترتدي الرداء المغذق المكشوف عند الكتف الأيمن وهذه التماثيل انفردت بها ماري عن بقية مواقع المشرق العربي المعاصرة.

وكانت المواد الأكثر استخداماً في نحت التماثيل هي الجص الذي يتواجد بكثافة في مقالع قريبة من ماري وعلى أطراف بادية الشام.

" ومما يثير الدهشة أن نرى أن هذا الحجر الرديء من كل النواحي لم يحل دون بلوغ بعض التماثيل صفة الكمال تقريباً، وكان أهل ماري معلّمين حقاً في شتى الميادين ". (55)

وبالإضافة إلى الجص كان ثمة تماثيل مصنوعة من الرخام الذي كان يجلب من أماكن بعيدة عن الفرات، كما

استخدم فنانو ماري اللازورد الذي كان يجلب من أفغانستان لتشكيل العيون في التماثيل.

كما أنه صنعت تماثيل من البرونز، وفي معرض مقارنته بين تماثيل إبلا وماري يشير الباحث أبو عساف إلى أنه في إبلا لم يعثر على تماثيل حجرية بالمطلق بل عثر على تماثيل مركبة من مواد عدة كالحجر والخشب والصدف والذهب وتبيّن من خلال الدراسات المقارنة أن ثمة تمثالاً من إبلا يشبه تمثال ملك ماري / لمجي ماري /.[56]

وفي مجال الفسيفساء والأختام الاسطوانية يشير الباحث بيير أميه إلى أن موقع ماري قدّم أكبر مجموعة من الأختام وطبعاتها، في حين أن الخيال الذي كان مصدر إلهام الفنان في ماري، جعل التكوين الفسيفسائي أكثر رقة من القسوة الرافدية. فقد عثر على كسر من لوحات فسيفسائية مركبة من قطع الصدف والعاج والحجر الكلسي الأحمر والحجر المشقف حوّت على مشاهد عديدة تُذكر بما عثر عليه في أور الرافدية.

كما تجمع الدراسات على أن أهل ماري كانوا معلمين بارعين في زخرفة الأواني الحجرية النذرية.

فن النقش على اللوحات:

عثر في مواقع المشرق على لوحات منقوش عليها أو مسلات، وقد تضمنت هذه النقوش مجلساً للشراب، وقد كشف موقع مدينة ماري عن عدة كسر من اللوحات نذرية تحتوي في مضمونها مجلساً للشراب. صُنعت من الحجر الجيري كما عثر على كسر أخرى بلغت أبعادها بعد جمعها 11.6 × 6.3 سم، وعثر عليها في القصر المعبد في ماري.

وقد عمد الفنان إلى حصر المشاهد في تسع مربعات، تمّ توزيعها على ثلاثة حقول متدرجة تفصل بينها أثلام، ويبدو أن المشاهد لا تؤلف موضوعاً واحداً.

فنرى في المشهد الأول، شخص عار لحياني ذو شعر مضفور يمسك بكلتا يديه ثورين، لهما وجه إنسان، وينتصبان على القائمين الخلفيين. أما المشهد الثاني فهو لنسر بوجه أسد ينشب أظفاره بعنزتين جبليتين.

وتعود هذه الكسر إلى حوالي 2500 ـ 2350 ق.م، وقد اعتمدت الأسلوب الواقعي.

ويبدو أن النسر الذي برأس أسد وهو ما يسمى بالسومري الأكدي / أنزوجود / كانت تصنع له دمى، عثر على واحدة منها في ماري مع مجموعة من التحف الثمينة التي كانت معبأة في جرة مطمورة بأرضية القصر المعبد الذي يعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

وقد تألف الجسم من حجر اللازورد والإسفلت والنحاس والذهب، ارتفاعه 12.8 سم وعرضه 11.8 سم.

أما في مجال فن الترصيع، فقد كانت أور وماري من أكثر مدن المشرق شهرة بذلك.

وقد أبانت تنقيبات ماري عن وجود لوحة سميت " لوحة الحرب " بحيث صنعت من العاج واللؤلؤ والحجر بدقة عالية، يظهر فيها رجال القصر ببذات الاحتفال والأوسمة المبرقعة والسدارة وهم يحملون بلطات. ويستقبلون الأسرى العراة تحت حراسة الجنود. وما يميز هذه اللوحة أن الفنان استطاع أن يميّز بين الصديق والعدو حسب اللباس. وأيضاً هو استطاعة الفنان أن يعكس انفعالات الشخوص بشكل واضح.

كما عثر على لوحة تُمثل مشهد أضحية من الحجر الكلسي الوردي والحجر المشقف والعاج واللؤلؤ بقياس 25.7 × 17 سم. وكذلك على لوحة مركبة من اللؤلؤ والحجر المشقف والعاج حوت على مشاهد اعتقادية وأبعادها 52.6 × 25.9 سم. وتحفل مقتنيات ماري بفن النقش على الأواني الحجرية أيضاً وفن النقش على الأختام الاسطوانية.

والطريف أيضاً، هو العثور في ماري على أقراص حلـوى منقوش عليها مشاهد حياتية، كمشـهد صـيد أو رسـومات أو أساطير، وهذا يعطي انطباعاً على أن ثمة مع كل قطعة حلوى، قصة، على حد تعبير الباحث حميدو حمـادة - /2002 ./

الحياة اليومية في مملكة ماري في الألف الثالث:

إن مناقشة طبيعة الحياة اليومية في مملكة ماري في الألف الثالث، لا تشذ عما ألفناه سابقاً، من الأخذ بمعايير أساسية شكلّت القاع الثقافية لعالم الألف الثالث في المشرق العربي, فمن طغيان الثقافة الرافدية وتجلياتها، إلى تزايد التواجد الأكادي ـ العموري ومن ثم حصول نوع من التفاعل والتعايش والتمازج بين كل الأرومات الديمغرافية، كل هذا شكّل قاعدة لإمكانية دراسة الحياة اليومية في الألف الثالث في ضوء المعيار الأساسي المتجلّي في التفاعل والتمازج، بما يُذكّر بمقولة ألفرد هالدار:

" كان هناك عملية تبادل بين المجموعات، بين الشرق والغرب / في المشرق العربي /، وهذا يعني أن العموريين المستوطنين في بلاد الرافدين ازداد عددهم بشكل مستمر، وأخذت هذه العملية في التسارع، كما تراجعت في فترات، ولكن منذ أول ذكر للعموريين في 2600 ق.م وحتى 2000 ق.م، تكاملت هذه المسألة "[57]

ولعلنا في مقاربتنا للحياة اليومية في مملكة ماري في هذه الفترة، سوف نستند على وثائق الألف الثاني، لقلة الوثائق العائدة للألف الثالث في هذا المجال، كما أن الوثائق الرافدية المعاصرة، تُقّدم معلومات عن طبيعة الحياة اليومية هناك، وهذا برأينا يمكن أن ينسحب بشكل عام على مواقع الجناح الشامي.

مع الإشارة إلى اكتفاءنا بالخطوط العامة دون الدخول في التفاصيل، التي تختص بمدينة ما، وكذلك دون إلصاق معالم الألف الثاني بشكل كامل وقطعي وجازم بعالم الألف الثالث، علماً أن من يلاحظ طبيعة انتقال السلطة السياسية مثلاً في ماري مع نهاية الألف الثالث ولا سيما

بعد انتهاء حكم سلالة " الشكاناكو " سوف يجد أن انتقال السلطة من هذه السلالة إلى السلالة العمورية، كان انتقالاً سلساً وعفوياً، لم يوازه انقلاب مفاجئ في القيم والمعايير والرموز، بما يعني أن المنظومة الحضارية التاريخية في الألف الثالث عَبَرتْ إلى الألف الثاني بشكل طبيعي، وهذا ما يعطي صفة التواصل والاستمرارية بُعداً مهماً في قراءة الحياة اليومية في المشرق بعامة وماري بخاصة في الألف الثالث.

والأساس في كل هذا هو أن الثقافة العمورية تمثّلت الثقافة السومرية ـ الأكادية ومن ثم أضافت عليها، وهذه تشكّل خصيصة أساسية من خصائص الحضارة في المشرق العربي.

وبالعودة إلى معالم حركة المجتمع في مملكة ماري في الألف الثالث قبل الميلاد، فإن ما أشرنا إليه من نشاط الحياة الاقتصادية والتجارية والحرفية والاجتماعية وغيرها، ينبئ بأننا أمام وجود مؤسسات تُعنى بفاعليات هذا المجتمع، كي تُنظم شؤونه وتصيغ نمط علاقات حضارية بين الأفراد وبين المؤسسات، وهذا ما تشير الوثائق إليه.

فالغرباء في ماري، كان يحقّ لهم إنشاء جمعيات أو نقابات تُعنى بشؤونهم وأحوالهم، كما توجد جمعيات للمساكين / الفقراء / كان يطلق عليها اسم " موشكينوم " / وبإمكاننا ملاحظة مبلغ التشابه الكبير بين هذه الكلمة الأكادية وكلمة مسكين أو المساكين بالعربية /.

ونعتقد أن أغلب مدن المشرق في هذه الفترة، شهدت وجود مثل هذه الجمعيات أو الاتحادات، كما أنه كان للتجار جمعيات تُسّير أحوالهم وتضمن حقوقهم وتحّل مشاكلهم، وكانت هذه الجمعيات تمثّل التجار في الوساطة بين القصر والسكان. وكان يطلق على هذه الجمعيات اسم " كاروم" / الكار = المهنة في العربية /.

وكان التنقل في المراكب النهرية يتّم وفق نظام ملاحـة مستقل، تديره تلك الجمعيات، وتذكر إحدى الوثائق أن أحد الملاحين وقبل أن يصل إلى مرفأ مدينة ايمار، كـان ينتظـره ستون رجلاً لتمهيـد الطريـق لـه، حيـث يتجهـون نحـوه مـع الحرس وملاح خبير بإرشـاد السـفن، كما تكـون بانتظـاره 30 طوافة في المياه.(58)

وأشـارت نصوص ماري إلى أن التجار العابرين / عبرهـا / كانوا يقدمون هدايا من بضائعهم للمدينة، وكانـت الضـرائب لا تشـمل تنقـل الأفـراد بـل كانـت علـى البضـائع التجاريـة فقط.(59)

ويشـير الباحث هنري ليميه إلى أن وثائق مـاري تشــير إلى معرفة أهل مـاري للحديـد منـذ وقـت مبكـر لكنـه كـان قليل الاستعمال بسبب غلاء ثمنه حيث يفوق سعر الفضة بثماني مرات.(60)

ولم يكن الطفل في ماري يُعرف باسـمه. بل باسـم امه، إلى أن يكبر ويدّب على قدميه، وثمة وجود لطقس يخـتص بترسيم الأطفال حيث يتم إلباسـهم ثيابـاً جميلـة لأول مـرة في حياتهم.(61)

وتذكر الوثائق أيضاً، إقامة حفلات موسـيقية في القصـر، حيث يُذكر مكان فرقة العزف ووجود مغنين ومغنيـات / كمـا في تمثال المغنية أورنينا /.

وقد عثر على آثار فعالية موسـيقية منظمـة فـي معبـد داجن في ماري، كما عثر في القصر الملكي على مدرسـة لتعليم الموسـيقا.(62)

وقدمت الوثائق أيضـاً / ومنهـا مـا يعـود للألـف الثـاني / طرائـف مـن المعلومـات عـن حـال الطقـس عنـدما يتخـذه الناس مدخلاً للحديث بينهم. ⊗

⊗ حميدو حمادة -2002

كما كان في ماري أطباء، granVورد في أحد النصوص عن إيفاد طبيب ماهر بمعالجة التهاب الأذن إلى مكان يبعد عن ماري حوالي 100 كم.

وأبانت التنقيبات عم وجود قطع طينية لها شكل أكباد عليها كتابات ذات قيمة سحرية[⊗]، بالإضافة إلى وجود بيطريين وحرفيين وقواد جيش وعرّافين.

ونعتقد أنه في ماري ولا سيما في فترة ازدهارها في منتصف الألف الثالث، كان ثمة خدمة عسكرية فقد أشارت وثائق الألف الثاني المبكرة إلى وجود هذه الخدمة، حيث كان الملك يرسل الدعوة للناس للالتحاق بالخدمة العسكرية وكل من يتهرب يتعرض لعقوبة " الخازوق ".

ومن طرائف الأمور أيضاً، ما ذكره الباحث حميدو حمادة / 2002 /، من أن الرقم المسمارية التي كان يبطل مفعولها كانت توضع تحت أساسات الجدران كنوع من التقدير والاحترام لعالم الكتابة.

وتشير الوثائق إلى وجود ورشات تصنيع العطور والبيرة ومستودعات للثلج في القصور لتخزين النبيذ.

والجدير ذكره هنا هو أن المرأة المتزوجة في ماري كانت تضع غطاء على الرأس في تفريق عن غير المتزوجة.

وفي مجال الحياة الزراعية، كان الريّ في ماري يتم في شهري آب وأيلول، حيث كان يجري بطرق صناعية عبر الجداول والأقنية، أما الحصاد فيتم في شهري نيسان وأيار، حيث يتزامن هذا مع بدء فيضان نهر الفرات.

وتشير الدراسات إلى أن متوسط عدد سكان المدن الكبرى في الألف الثالث بلغوا حوالي 20 ألفاً، أما أوروك فقد بلغ 40 ألفاً، وهذا مقارنة مع مساحتها.[63]

ونعتقد أن سكان مدينة ماري في الألف الثالث بلغوا حوالي 20 ألفاً حيث أن قطرها بلغ حوالي 2 كم كما مدينة نيبور.

[⊗] سوف نناقش طقس قراءة الأكباد الحيوانية في الحياة الاعتقادية للألف الثاني قبل الميلاد.

ومنذ عصر ماري المبكر ظهر العدد مئة / MIAT / في نصوص ماري، ومع بداية الألف الثاني يظهر فيها مئة وألف / ميات وليم /.[64]

وفي مجال التأريخ، كان اسم الشهر ورقم السنة الملكية يستخدم في ماري وإبلا وموقع أبو صلابيخ، وقد ظهرت بعض أسماء الأشهر في تقويم ماري وأبو صلابيخ.

ويشير الباحث شاربان إلى أنه أمكن بواسطة نصوص ماري تحديد ترتيب الشهور في تقويم إبلا بشكل صحيح من خلال خمسين رقيماً تعود إلى حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.[65]

وفي وثيقة حقوقية المضمون تعود إلى فترة مبكرة من تاريخ ماري، يشير الباحث جان ماري دوران إلى احتواء الوثيقة على أسماء سومرية وأكادية تختص بأشخاص، بما يعطي دليلاً على طبيعة التفاعل والتمازج الاجتماعي في ماري. وقدمت هذه الوثيقة على أن المرأة في ماري كانت تحوز على ملكية خاصة منذ نهاية الألف الثالث، إن لم يكن قبل ذلك.[66]

وإن كانت وثائق الألف الثاني قد قدمت معطيات عن الحياة الزراعية فإن الذي نعتقده أن هذا ينسحب على عالم الألف الثالث، حيث كان ثمة نظام يطلق عليه " الايلكو " ILKU، ويعني " يخدم أو يؤدي الخدمة "، حيث كانت الأراضي التابعة للقصر تُعطى للأشخاص الراغبين من أجل استثمارها واستغلالها مقابل تأدية خدمات وضرائب للدولة، وقد عرف هذا النظام في الألف الثاني في منطقة تمتد من جنوبي بلاد بابل وماري والآلاخ ونوزي وأوغاريت وغيرها. ⊗

أيضاً تقدم المعطيات العامة على أن سعر النبيذ في ماري كان أغلى عشر مرات من سعر القمح وأقل مرتين من سعر الزيت.

⊗ انظر عيد مرعي - ملكية الأرض في عهد حمورابي - دراسات تاريخية 35 - 36 - 1990 - دمشق

وفي الإجراءات والأنظمة التجارية تقدم معطيات الألف الثاني جملة من المعلومات التي باعتقادنا تنسحب على عالم الألف الثالث ولاسيما في جذورها وأساساتها.

فمثلاً في اجراءات نقل البضائع والقوافل بين ماري وحلب، كان على تاجر ماري أن يعتمد على تاجر حلب فيما يخص اجراءات تفريغ ونقل بضائعه في إيمار / حيث كانت إيمار تتبع لفاعلية حلب السياسية /، وعلى هذا فالتاجر الحلبي كان يعتمد على تاجر ماري في نفس الإجراءات في مدينة توتول / التابعة لفاعلية ماري /.

وتشير المعطيات بشكل عام إلى أن السفن الحاملة للبضائع كانت تخضع في ماري لدفع الرسوم والضرائب، وأي تهرّب يدفع سلطة ماري إلى مصادرة البضائع وحجز السفينة، والطريف أن هذا الإجراء يدفع مدينة السفينة المحتجزة إلى اتباع نفس الاسلوب مع السفن في ماري.

أما مبلغ الرسوم فكان يحدد بحسب طبيعة البضائع ونوعها ونوعيتها.[67]

وفي مجال لغة ماري في الألف الثالث، فقد أشار شاربان استناداً إلى نصوص ماري في الألف الثالث ق.م أن لغة ماري تتكون من لهجة مارية مع السومرية التصويرية.[68]

وقد أشار هنري ليميه إلى أن فنانو ماري أبدعوا في صناعة الحلي والمجوهرات حيث استخدموا الذهب والفضة والبرونز واللازورد والعقيق.. وغير ذلك. ⊗

⊗ فيصل عبد الله ـ دراسات تاريخية ـ مرجع سابق ـ

ماري وإبلا في الألف الثالث قبل الميلاد:

لعلنا في دراستنا لطبيعة العلاقات بين ماري وإبلا في الألف الثالث، نكون أمام معاييرعدة، منها، أن وثائق إبلا في الألف الثالث / في نصفه الثاني / قدمت معلومات مهمة عن ماري وأحوالها وحتى حياتها في كافة المناحي.

وأن مقاربتنا هذه لا تأخذ صفة الانتقاء بقدر ما أن العلاقة بين هاتين المملكتين في هذه الفترة، تشهد على وجود نوع من دورة حياة حضارية واحدة في كافة المجالات.

ولعل العلاقة هذه تشكّل محوراً مهماً في طبيعة العلاقات المدينية بين مدن المشرق العربي آنذاك وعلى هذا ينبغي النظر إلى العلاقة كجزء من حركة التاريخ الكامل في المشرق، لأنها تتممه أولاً، وفاعلة فيه ثانياً.

يقول هورست كلنيغل:

" لقد كان لسورية تأثيرها وجاذبيتها من الناحية الاقتصادية، فقد ألّفت جزءاً من الهلال الخصيب بسهولها الواسعة التي كانت تجذب المزارعين بظروفها الجوية الجيدة وتربتها الخصبة وأمطارها. وكان هذا الحال بخاصة في شمال سورية ووسطها "[69]

وقد قدّمت كشوفات إبلا العائدة لسويات الألف الثالث قبل الميلاد عن وجود علاقات بين إبلا ومواقع الجنوب الرافدي من ناحية، ومع مصر من الناحية الأخرى.

والذي يبدو أن تلك العلاقات كانت تتم كلياً أو جزئياً عبر مراكز أخرى مثل ماري وجُبيل.

وبالعودة إلى معالم نشوء المدينتين، فإن كانت ماري تعود في تأسيسها إلى بداية الألف الثالث، فإن إبلا بما وصلت إليه من ازدهار وتطور في منتصف الألف الثالث،

يستند بقوة إلى تراكم حضاري، تاريخي يعود في بدايته إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

وهنا تجدرالإشارة إلى وجود عمق في الاتصالات والعلاقات الثقافية بشكل مباشر وغير مباشر، بين إبلا وماري في الجناح الشامي مع موقعي كيش وأبو صلابيخ في الجناح الرافدي وذلك في الألف الثالث. مع النظر إلى أن علاقات ماري وإبلا لم تخرج في عمقها السياسي عن علاقات دول ـ مدن ذات مصالح، ايجابية حيناً وسلبية حيناً آخر، وهذا ما يفسر تذبذب العلاقات بين المدينتين / المملكتين /، والذي يبدو أنه ومع منتصف الألف الثالث حُسمت علاقتهما لجهة المصالح الإيجابية وهذا ما انعكس في ازدهار المدينتين.

وتشير المعطيات إلى أنه في فترة حكم ايكوشار وحيدار في ماري، هدأت فاعلية ماري وبدأت المدينتان تنظمان علاقتهما بشكل وثيق ومدروس ضمن مسار وحدة حياة اجتماعية ـ اقتصادية ـ ثقافية. بحيث ازدهرت التجارة بينهما وتم تنظيم معاهدات سهلّت تنّقل التجار من وإلى ماري وإبلا، وإلى مدن أخرى مثل كيش في الرافدين، وقدمت الوثائق معلومات عن انتقال حرفيين ونساجين وصنّاع أثاث بين المدينتين.[70]

ولعل مقاربة الحدود السياسية لكلا المملكتين توضح مبلغ التداخل والاحتكاك والذي ساهم بدوره في خلق التجاذب والتنابذ بينهما.

ففي النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، امتدت حدود مملكة إبلا من منطقة الفرات الأوسط في الشرق وحتى سواحل البحر المتوسط في الغرب، ومن سهول حمص في الجنوب وحتى جبال طوروس في الشمال. ويعتقد أن نفوذها ربما وصل إلى جاسور في الرافدين. أما مملكة ماري، فلا يمكن إلى حد دقيق تحديد حدودها السياسية، كونها كانت خاضعة للتجاذبات من مد وجزر تبعاً لحركة التاريخ آنذاك.

غير أن الباحث ألفونسو آركي يشير إلى أن نفوذها في الألف الثالث، امتد حتى كركوك في فترة حكم إبلول إيل، ومنطقة كوموكينا في الأناضول، كما أن إبلا دفعت الجزية لماري أثناء حكم هذا الملك.(71)

وفي فترة حكم اشتوب شار في ماري، خضعت إيمار لفاعلية ماري، حيث كانت إيمار مدينة مهمة كونها تشكّل ميناء مهماً على الفرات تنتهي إليه عدة طرق تجارية. وكانت دوماً تقع تحت سلطة الفاعلية الأقوى لمدن ماري أو إبلا أو حلب أو كركميش.

وكون الواقع الاقتصادي ـ التجاري فرض نفسه كرائز أساسي في العلاقات بين المملكتين، فقد أشرنا سابقاً إلى أن طريق اللازورد والمواد الثمينة مثل العقيق والذي كان ينطلق من أفغانستان ووادي السند وينتهي بمصر، كان يعبر مدناً مشرقية منها ماري وإبلا، وهذا ما درَّ أرباحاً طائلة على المدينتين، وفضل ذلك يعود إلى نهر الفرات الذي كما قلنا شكّل عصب التجارة آنذاك بين الشرق الأقصى وما بعد المشرق العربي غرباً.

وقد أشارت إبلا في نصوصها، إلى أن ماري كانت تشكّل مفتاح السيطرة على التجارة النهرية الفراتية. وأبانت كذلك عن وجود كتّاب شباب من ماري سوف يأتون إلى إبلا. وأن ثمة استاذاً للرياضيات قادم من مدينة كيش إلى إبلا لغاية التعليم، وأشارت نصوص موقع أبو صلابيخ الرافدي إلى كتّاب أكاديين.

وتحفل وثائق إبلا أيضاً بمعلومات عن ريادتها في صناعة الأنسجة ومن ثم تصديرها إلى مدن كثيرة، وبينت أن ماري كانت ترفدها بالنساجين والحرفين. فقد كشفت وثائق إبلا عن قدوم نساجين إلى إبلا من ماري بالإضافة إلى تسعة حجارين ونجارين وحدادين. وكذلك عن وجود مغنين صغار ومغنين كبار من ماري في إبلا, لا بل أشارت إحدى الوثائق إلى حصول أو استلام مغن صغير من ماري على 46 ثوباً من إبلا.

وقد نقلت إبلا الأخشاب من جبال الأمانوس وسلسلة الجبال الساحلية إلى ماري وكذلك النبيذ والشعير والمنسوجات والمفروشات وبالمقابل، كانت ماري تنقل الأحجار الكريمة / لازورد ـ عقيق /.

كما أن أحد النصوص يشير إلى وصول 1028 كيلو غراماً من الفضة و 63 كيلو غراماً من الذهب من ملك ماري إبلول إيل وشيوخ ماري إلى إبلا. بالإضافة إلى نصوص تتحدث عن إرسال كميات من الفضة والذهب من إبلا إلى ماري عبر تجار للحصول على مواد من مدينة ماري.⊗

أيضاً ثمة ذكر لنقل لازورد من ماري إلى إبلا والعكس كذلك، وثمة ثوبان ولازورد تمّ إرسالهم من قبل ملك إبلا إلى ملك ماري.

ويبدو أنه كانت تحصل صفقات تجارية بين تجار المدينتين، فقد أشارت نصوص إبلا إلى صفقة تجارية بين ماري وإبلا أساسها مقايضة الأحجار الكريمة واللازورد والعقيق وغيرها بأنسجة إبلوية. وثمة نص يتحدث عن 46 ثوباً لمغنيين كبيرين من ماري و 42 ثوباً إلى 21 مغنياً من ماري. وتشير المعطيات إلى أن تجار ماري كانوا يعملون في إبلا بأعداد كبيرة وقد اتخذوا من بعض المدن مركزاً لتجارتهم.

ويبدو أن حيوية تجار ماري وهذا يعود لإشراطات المدينة نفسها، أدت إلى تفعيل هذا النشاط التجاري بين المدينتين، حيث لعبوا دوراً أساسياً في تجارة إبلا، وهذا ما أفسح المجال للتجارة الإبلوية من الوصول إلى المدن الرافدية والهضبة الايرانية وما بعدها.

وقد أشارت وثيقة إبلوية إلى حصول عملية تجارية عبر المقايضة بين إبلا وماري، حيث قايضت الأولى مادة الفضة بمادة اللازورد من ماري وذلك بنسبة واحد إلى واحد، رغم

⊗ للمزيد: انظر عيد مرعي ـ إبلا ـ دار الأبجدية ـ دمشق ـ مصدر سابق.
ودراسة علي أبو عساف ـ إبلا وماري ـ مجلة البناء اللبنانية ـ مصدر سابق
و ـ قاسم طويل ـ إبلا ـ مجموعة باحثين ـ دمشق 1984

أن اللازورد كانت قيمته تفوق قيمة الفضة بكثير. أيضاً تشير إحدى وثائق إبلا إلى انتقال معلمي الموسيقا من ماري / حوالي 23 عازفاً مع مديرهم / مع آلاتهم إلى إبلا وكذلك انتقال معلّمين وكتاب.

وفي موازاة كل هذا، حفلت الحياة الثقافية والفنية بين المدينتين / المملكتين / بأوجه تفاعل لا بل تماهٍ نجد آثاره في فن العمارة وفنون النحت المختلفة.

فالباحث أبو عساف يشير إلى أن مدرسة إبلا الفنية ومنذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، كانت على صلة وثيقة بمدينة ماري وبالجناح الشرقي للهلال الخصيب / أبو عساف 1990 /.

بناء على كل هذا يمكننا رصد بضع استنتاجات تختص بطبيعة العلاقات بين ماري وإبلا وكذلك في ايضاح طبيعة الحياة اليومية ومجرياتها ونظامها في ماري اعتماداً على الوثائق الإبلوية:

أولاً: أن هذه الحركة التجارية النشيطة والمميزة لتجار ماري، تجعلنا أمام تأكيد أن هناك جمعيات أو هيئات تجارية عريقة في مدينة ماري كانت تنظم مجريات الحياة التجارية وتُسهلها، وأن هذه الحركة التجارية، لها ارتباط عميق بحركة الملاحة النهرية التجارية والتي بدورها كانت تسير وفق منظومة مجتمعية إدارية فعلّتها وأدارت أمورها.

ثانياً: أن تفاعل المجتمع في ماري، ديمغرافياً واجتماعياً، ثم تفاعله الإيجابي مع الطبيعة وممكناتها، ساهم في خلق اقتصاد مجتمعي نافذ وقوي أدى فيما أداه إلى تفعيل لدور مملكة ماري الحضاري وهذا ما سنجده في ماري العمورية مع الألف الثاني قبل الميلاد.

ثالثاً: أن وجود فعاليات ثقافية / أدبية ـ موسيقية ـ تعليمية /، وثّقتها نصوص إبلا، تجعلنا أمام تثبيت أن مجتمع ماري في الألف الثالث، كان مجتمع ذو بنية مؤسساتية فاعلة. فأن يأتي أحد معلمي الموسيقا ومعه 23 متمرناً إلى إبلا ومع آلاتهم، فإن هذا يعطي انطباعاً أننا

أمـام نشـاط مؤسـسـاتي فـي هـذه الحقبـة المبكـرة مـن التاريخ الجلي.

وهـذا مـا يشـير إلـى مبلـغ التطـور الـذي بلغتـه الحيـاة الروحية في مدن المشرق، مُعَّبـراً عنـه فـي مدينـة مـاري وإبلا.

وهنا تسـتوقفنا مقولـة الباحـث مـارجرون مـن أن " نهـر الفرات سمح لسورية أن تسـرع بعمليـة التمـدن، ذلـك أنـه يسّر لها التطـور مـن خـلال العلاقـات التجاريـة انطلاقـاً مـن البلاد السـومرية في الألف الرابع قبـل المـيلاد، وهـو دائمـاً، وللأسـباب ذاتهـا الـذي ضَمِنَ تطـور سـورية الداخليـة فـي الألف الثالث قبل الميلاد "

مع الإشارة هنا إلى أن نهر الفرات لم يتحول إلى حدود فاصـلة بـين جنـاحي المشـرق العربـي إلا مـع الاحـتلال الروماني لبلاد الشام في القرن الأول قبل الميلاد.

بهذا نكون قد قدمنا مقاربة لواقع مدينة ماري ومملكتها في الألف الثالـث قبـل المـيلاد، وعلـى مـدى حـوالي ألـف سـنة، وإن كانت وثائقها في هـذه الفتـرة لا ترضـي البحـث التاريخي، غير أن تواصل الحضارة في المشرق العربي بين المدن كافة وفي كلا الجناحين اسـتطاع أن يضـيء بشـكل بـانورامي علـى حيـاة هـذه المدينة/المملكـة فـي الألـف الثالث.

وبالاتجـاه نحـو مـاري العموريـة مـع الألـف الثـاني قبـل الميلاد، سـنصبح أمام كمّ هائـل مـن الوثـائق التـي تضـيء على مناحي الحياة كافة في مملكة ماري لنحو 150 عامـاً، حتـى سـقوطها تحـت ضـربات حمـورابي البـابلي. ولعلنـا نشـارك الباحـث كـاي كولمـاير قولـه فـي " أن المـأثورات المادية التي تركها سكان إبلا أقل تأثراً بكثيـر بحضـارة بـلاد الرافدين من تلك التي خلّفتها ماري ".⊗

⊗ كاي كولماير - الآثار السورية 1982 - LAND DES BAAL

مراجع الفصل الثاني

1- EXPOSITION SYRO – EUROPE'ENNE D'AERCHE'OLOGIE MARI- MARGUERON- مرجع سابق.
2- د. فيصل عبد الله ـ قراءة في خمسة مجلدات عن ماري ـ دراسات تاريخية ـ 37 - 38 .
3- وثائق الآثار السورية ـ مارجرون " الفرات الأوسط في عصر البرونز " وزارة الثقافة السورية -2002
4- المرجع السابق ـ التغييرات البيئية واستثمار الأراضي ونظم الاستيطان ـ أوليفية روو.

5- المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية ـ I.F.A.P.O - 1989 دمشق. جيير ـ ج. إ. مونشابير ـ لستكشاف وادي الفرات الأوسط.
6- المرجع السابق ـ مارجرون ـ ماري.
7- د. علي أبو عساف ـ آثار الممالك القديمة في سورية ـ وزارة الثقافة السورية 1988 .
8- A. PARROT: MARI; CAPITALE FABULESE. PAYOT . 1974 PARIS
9- مارك لوبو - طرق الاتصال في بلاد الرافدين العليا في الألف الثالث ق.م ـ الحوليات الأثرية السورية مجلد 43.
10- ألفرد هالدار ـ العموريين ـ ت ـ شوقي شعث ـ دار الأبجدية ـ دمشق 1993
11- مارك لوبو ـ مصدر سابق.
12- د. علي أبو عساف ـ مصدر سابق.
13- د. علي أبو عساف ـ مصدر سابق.
14- ألفرد هالدار ـ مرجع سابق.
15- المرجع السابق.
16- د. فيصل عبد الله ـ مرجع سابق.
17- أرنولد توينبي ـ تاريخ البشرية. 2. نقولا زيادة ـ دار الأهلية ـ بيروت 1984 .
18- المرجع السابق.
19- جورجيو بوتشيلاتي ترقا ـ كتاب أضواء جديدة على تاريخ آثار بلاد الشام ـ مطبعة عكرمة 1989 ـ ت ـ قاسم طوير. دمشق
20- الفونسو آركي ـ من دراسة د. علي أبو عساف ـ إبلا ماري قطبان في دورة حضارية واحدة ـ مجلة البناء اللبنانية العدد 732 1990/4/21
21- علي أبو عساف ـ فنون الممالك القديمة في سورية ـ دار شمأل ـ دمشق 1993.
22- جان كلود مارجرون ـ وثائق الآثار السورية ـ مرجع سابق.

-23- مرجع سـابق ـ JEAN MARGUERON; EXPOSITION SYRO – EUROPE'ENE

-24- علي أبو عسـاف. طريـق الحريـر والطـرق التجاريـة الأقدم ـ دراسات تاريخية 39 - 40 - 1991 ـ دمشق

-25- هورسـت كلينغل [تاريخ سـورية السياسـي] 3000 - 300 ق.م ت ـ سـيف الدين ديـاب. دار المتنبـي ـ دمشـق 1998.

-26- عيد مرعي ـ إبلا ـ دار الأبجدية ـ دمشق 1996.

-27- هورسـت كلينغل. الفرات الأوسـط والتجـارة الدوليـة خلال العهد البابلي القديم ـ الحوليـات الأثريـة السـورية 34 .

-28- هورسـت كلينغـل. " التجـارة فـي بلـدان المشـرق القديم والتفاعل مع جزيرة كريت في الألف الثالث ق.م .أضواء جديدة في تاريخ وآثار بلاد الشام ـ مرجع سابق.

-29- محمد حـرب فـرزات. العلاقـات الحضـارية بـين بـلاد الخليج العربي وشبه القارة الهنديـة حتـى الألـف الأول قبـل المـيلاد ـ دراسـات تاريخيـة ـ العـدد 37 ـ 38 ـ 1990 دمشق . جامعة دمشق.

-30- JEAN MARGUERON مصدر سابق.

-31- توفيق سليمان ـ دراسات في حضارات غرب آسية القديمة ـ دار دمشق.

-32- المرجع السابق.

-33- د. محمـد حـرب فـرزات ـ د. عيـد مرعـي ـ دول وحضارات في الشرق العربي القـديم ـ دار طـلاس 1990 دمشق.

-34- هورسـت كلينغل ـ تاريخ سورية السياسـي.

-35- أنطـون مورتفـات ـ تـاريخ الشـرق الأدنـى القـديم- ترجمة: توفيق سـليمان – علـي أبـو عسـاف – قاسـم طوير 1967.

-36- توفيق سليمان ـ مرجع سابق.

-37- المرجع السابق.

38- هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ مرجع سابق.
39- الحوليات الأثرية ـ 34 ـ 1983 ـ ماري واسهامها الحضاري ـ بشير زهدي.
40- جان كلود مارجرون ـ مرجع سابق.
41- د. فيصل عبد الله ـ قراءة في خمسة مجلدات عن ماري ـ دراسات تاريخية 37 ـ 38 ـ.
42- مارجرون ـ مرجع سابق.
43- د. فيصل عبد الله. إبلا وماري أقدم مثال على نمط زراعي متقدم ـ دراسات تاريخية 43 ـ 44 ـ 1992.
44- الفرد هالدار ـ مرجع سابق.
45- علي أبو عساف ـ بحث لم ينشر ـ ايمار وحوض الفرات الأوسط بين مملكتي إبلا وماري 1991.
46- عيد مرعي ـ إبلا ـ مرجع سابق.
47- هورست كلينغل ـ مرجع سابق.
48- علي أبو عساف ـ مرجع سابق.
49- المرجع السابق.
50- علي أبو عساف ـ إبلا وماري قطبان في دورة حضارية واحدة ـ مجلة البناء 772 ـ 1990/12/4.
51- اندره بارو ـ مرجع سابق.
52- علي أبو عساف ـ آثار الممالك القديمة ـ مرجع سابق.
53- اندره بارو ـ سومر ـ ت: عيسى سلمان – سليم طه التكريتي – 1977 بغداد.
54- علي أبو عساف ـ فنون الممالك ـ مرجع سابق.
55- اندره بارو ـ ماري ـ مرجع سابق.
56- علي أبو عساف ـ إبلا وماري ـ مرجع سابق.
57- الفرد هالدار ـ مرجع سابق.
58- علي أبو عساف – دراسة غير منشورة – مرجع سابق.

59- علـي أبـو عسـاف ـ مرجـع سـابق ـ دراسـة غيـر منشورة.
60- فيصل عبد الله ـ دراسات تاريخية 37 - 38 ـ قراءة في خمس مجلدات عن ماري.
61- المرجع السابق.
62- فيصل عبد الله ـ مرجع سابق ـ ومحمد حرب فرزات وعيد مرعي ـ مرجع سابق.
63- توفيق سليمان ـ دراسات ـ مرجع سابق.
64- عيد مرعي ـ مرجع سابق.
65- المساهمة الفرنسية – مرجع سابق.
66- فيصل عبد الله ـ مرجع سابق.
67- علي أبو عساف ـ ماري وإبلا ـ مرجع سابق.
68- فيصل عبد الله ـ مرجع سابق.
69- هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ مرجع سابق.
70- علي أبو عساف ـ مرجع سابق.
71- علي أبو عساف ـ إبلا وماري ـ مرجع سابق.

الفصل الثالث

مملكة ماري العمورية
1920 - 1760 ق.م

مملكة ماري العمورية 1920 - 1760 ق.م

جملة من المعطيات سوف نستند عليها في مناقشتنا لمملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد:

أولها: أنه مع الولوج إلى عالم الألف الثاني قبل الميلاد، سوف نشهد مرحلة الحسم في ترجيح كفة الفاعلية الديمغرافية العمورية الكنعانية مقابل اضمحلال وذوبان الفاعلية السومرية في المتحد المشرقي الأتم.

ويعتبر اضمحلال الفاعلية السياسية السومرية كناتج طبيعي للتطور في حركة تاريخ المجتمعات المشرقية لصالح تكامل إشراطات انبثاق الفاعلية العمورية الكنعانية والتي كانت ومنذ ما قبل منتصف الألف الثالث تبرز وجودها، حتى تكامل مع مطلع الألف الثاني.

ثانيها: أن الانتقال من عالم الألف الثالث إلى الألف الثاني قبل الميلاد، شهد انسياباً وتطوراً طبيعياً في مساق حركة التاريخ المشرقي، فتّم انتقال الحكم من السلالات السومرية المتأخرة إلى السلالات العمورية الكنعانية ضمن استمرارية حضارية تطورية طبيعية.

وكان هالدار قد أشار إلى أن الفاعلية العمورية أخذت بالتصاعد التدريجي منذ الألف الثالث وصولاً إلى تأسيسها للممالك العمورية الكنعانية مع مطلع الألف الثاني.

مع الإشارة هنا إلى أن هذه الفاعليات الديمغرافية لا تُعبر عن هوية بقدر ما هي في مجموعها أرومات منبثقة عن جذر مشرقي واحد أساسه التمازج والتفاعل بين أروماته المختلفة.

ومن هذا الجذر المشرقي من سكن السهوب والأودية وهم من أطلق عليهم اسم " العموريون" ومنهم من سكن المناطق العالية والمرتفعات بحيث أطلق عليهم اسم " الكنعانيون ".

إذن المسميات أساسها بيئي جغرافي وربما اعتقادي وليس إثنياً أو عنصرياً.⊗

ثالثها: أن ملوك ماري في الألف الثالث قبل الميلاد، كانوا يحملون أسماء عمورية، وكانت ماري تشكل المحطة الأساسية للتواجد العموري والبوابة الأولى للعبور العموري نحو الجناح الرافدي. إذن شكّلت ماري العاصمة الحقيقية للعموريين.

⊗ للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب د. محمد بهجت القبيسي ـ فقه اللهجات العربيات ـ دار شمأل.

رابعها: تنبغي الإشارة إلى دلالة هامة تُعنى بالمنحى اللغوي في اللهجة الكنعانية - العمورية، حيث أكدت الأبحاث اللغوية على ظهور حرف الضاد، كما ظهر حرف الضاد في لهجة إبلا سابقاً العربية بما يزيد على الألفي عام، ما يعطي دليلاً على أن الجذور التاريخية للغة العربية تعود إلى الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد في المشرق العربي.

خامسها: أن الانطلاقة الحضارية لمملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد لم تأتِ من فراغ، لا بل إن حركة التاريخ لهذه المملكة في الألف الثالث عموماً، ثم فترة الفاعلية التاريخية لمدينة أور في الثلث الأخير من الألف الثالث، شكلت الأرضية والبنية التحتية الضخمة التي استفادت منها مدينة / مملكة / ماري العمورية. بحيث أن هذه الفترة شكّلت قاعدة اقتصادية ضخمة أمكن لماري الاستفادة منها وعبرها للتعبير عن فعلها الحضاري.

وهنا لا بأس من الوقوف على واقع المشرق العربي مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، والذي على ما يبدو شكّل الأساس الديمغرافي ـ الحضاري لحياتنا المعاصرة في المشرق العربي.

المشرق العربي في الألف الثاني قبل الميلاد:

مع 2008 ق.م حيث انتهت فاعلية مملكة أور، عانى المشرق العربي من فراغ سياسي لم تملؤه أي فاعلية تاريخية لمدينة من مدنه، وذكرنا أن سبب سقوط مملكة أور كان بسبب زيادة الفاعلية الديمغرافية العمورية / والتي شكلت مدينة ماري بوابتها / وكذلك الهجوم العيلامي عليها.

وبالفعل فقد أبانت النصوص العائدة لتلك الفترة عن زيادة واضحة في الأسماء العمورية.

ونتيجة لهذه الفاعلية الديمغرافية العمورية، وازديادها، كان لا بد من أن تُعّبر عن نفسها بعد اكتمال شروط انبثاق الحضاري والتاريخي وهذا ما كان، حيث سنشهد مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد نشوء ممالك عمورية كنعانية على مدى مدن المشرق العربي من بابل إلى آشور وماري وكركميش ويمحاض وإبلا وقطنة وجبيل ودان وحاصور ومجدو اضافة إلباسين ولارسا وأشنونا.

كما يلاحظ في هذه الفترة أن مدن الجنوب الغربي من المشرق/فلسطين / قد نشطت وانتشرت من جديد/ تبعاً للظروف التاريخية والمناخية / بحيث أصبحت أمام علاقات حياة جديدة مع المشرق العربي ومصر.

وتشير الوثائق المصرية العائدة لتلك الفترة على أن هناك عشرات من دويلات المدن الكنعانية مثل، حاصور ـ عسقلان ـ شكيم ـ القدس، بحيث كانت تدور في فلكها الحضاري التاريخي المُتبدي في العمق المشرقي العربي.

وهذا شأن مهم في مسار بحثنا حيث أن العلاقات بين مملكة ماري وحاصور كانت قوية ولا سيما التجارية. وبشكل عام وطالما كان ثمة غياب للوعي الاتحادي بين مدن المشرق، فإننا سنبقى في هذه الفترة أمام صراعات

دول ـ مدن فيما بينها، أساسها البعد المصلحي الكامن في الحياة الاقتصادية والتجارية والملاحية. وطبعاً إن هذا لم يكن يمنع من قيام تحالفات بين المدن، لكنها تحالفات فرضتها الظروف الموضوعية وليس ما فرضها وجود وعي اتحادي بين هذه المدن.

مع الإشارة هنا إلى وجود نوع من الوعي الأشمل لدى بعض الحكام، الذين سعوا وبقوة السلاح إلى فرض حالة التوحيد المهم من الناحية الاستراتيجية، لكنه لم يأتِ استجابة للواقع الاجتماعي – الاقتصادي – الروحي لحاجة المدن آنذاك وهذا ما أدى إلى انفراط عقد التوحيد هذا، ولا سيما عند شمشي أدد حاكم آشور وحمورابي حاكم بابل.

أيضاً يجدر الذكر أن إبلا والتي دمرها نارام سن في حوالي 2250 ق.م، عادت ولملمت جراحها، وعاودت تأسيس نفسها من جديد مع سلالة الحكام العموريين الكنعانيين مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

ولكنها لم تكن بسوية إبلا في منتصف الألف الثالث، بحيث أنها الآن أصبحت محدودة بين ماري في الشرق، وقطنة في الجنوب ويمحاض في الشمال. وهكذا نتبين أنها أضحت أقل نفوذاً ومساحة وهذا يعود ويدل على ضعف في بنيتها الاقتصادية وأداؤها التجاري، ما ينعكس على واقعها السياسي تالياً.

ووسط كل هذا كان على ماري أن تُثبّت أقدامها وسط هذا المشرق، الذي يعاني من تضارب المصالح بين مدنه ما يصل بها إلى الحروب والنزاعات، بالإضافة إلى الصراعات التقليدية مع القبائل البدوية المغيرة على المدن وإهلاكها ونهبها.

مملكة ماري العمورية:

بعد انتهاء فاعلية مملكة أور في حوالي 2008 ق.م، تشير المعطيات التاريخية إلى احتمال وجود سبعة حكام في ماري حكموا في الفترة بين 2015 ـ 1920 ق.م.

وربما أن الحكم انتقل من أسرة حكام الشكاناكو في ماري إلى أسرة حاكمة أخرى عرف منها يجيد ليم وهو أول حاكم عموري لمدينة ماري، ثم ابنه يخدون ليم الذي حكم بين 1825 ـ 1810 ق.م.(1)

ويبدو أن سلالة يجيد ليم قد نشأت في مدينة ترقا قبل وصولها إلى ماري، حيث أن ترقا أُسست مع بداية الألف الثالث قبل الميلاد وقد كانت تتبع فاعلية ماري آنذاك وكان لها أهمية اعتقادية، واحتفظت بوظائف سياسية في وادي الفرات الأوسط في الألف الثاني إلى جانب وظيفتها الأولى.⊗

وتشير المعطيات إلى مساهمتها في تأسيس وتنظيم النشاط والفاعلية الاقتصادية لمدينة ماري، حيث تحولت ترقا إلى أحد المراكز الأساسية لمقاطعات مملكة ماري.

وإن كان سيد الأرباب في مدينة ماري هو الإله دجن، فإن ترقا كانت موصوفة على أنها مدينة عبادة هذا الإله عبر معبده فيها.

ويذكر بوتشيلاتي أنه عثر في محفوظات ماري على أكثر من 200 رسالة، مرسلة من ترقا إلى البلاط الملكي في ماري.

⊗ انظر كتاب معرض الآثار السورية ـ أوليفيه رووه ـ ترقا / تل عشارة 1996 دمشق.

كما أن موقع ترقا أبان عن وجود أقدم رقيم مسماري يعود إلى حوالي 1900 ق.م حيث يتحدث عن غياب عدد من العمال لأسباب صحية.[2]

الجدير ذكره هنا، أنه إبان سقوط ماري وتدميرها في حوالي 1760 ق.م، انتقلت الفاعلية الحضارية التاريخية إلى ترقا، التي أصبحت عاصمة حوض الفرات الأوسط وحوض الخابور الأدنى حوالي 1760 ـ 1600 ق.م.

ويشير بوتشيلاتي إلى أن مساحة ترقا آنذاك كانت تعادل في حجمها مساحة مملكة بابل طيلة تاريخها.[3]

ولعل ما يشير إلى أن سلالة يجيد ليم هي من ترقا، أنه وبعد سقوط ماري يُعتقد أن العائلة المتبقية من سلالة يجيد ليم عادت إلى موطنها الأصلي في ترقا. ⊗

وطالما أن يجيد ليم هو من سلالة عمورية، فلابد من تتبع جذورها للوقوف على طبيعة وتفاصيل الصراعات التي نشأت واحتدمت مع نشوء هذه المملكة العمورية.

وقد ذكرنا سابقاً أن العموريين ساهموا في إسقاط سلالة أور الثالثة، ثم أنشأوا سلالات حاكمة في مدن المشرق العربي مع مطلع الألف الثاني بحيث أنهم تمكنوا من طبع كامل المشرق العربي بطابعهم العموري المستند على الجذور الأكادية ـ السومرية.

ويبدو أن فعاليتهم امتدت حتى سوزا في جنوب ايران، وحتى بحيرة اورمياخ في الشمال.

وكانوا ينقسمون إلى فرعين قبليين أساسيين:

ـ بني يمينا / أبناء جهة اليمين أو الجنوبيون /.

ـ بني سمأل / أبناء جهة الشمال أو الشماليون /.

⊗ تشير الباحثة ماريلين كيللي بوتشيلاتي إلى العثور في ترقا على لوحة تتضمن مشهداً طقسياً، وهي لوحة بارزة ومصبوبة، وفي إشارة لعمق العلاقة بين ماري وترقا تشير الباحثة إلى العثور على لوحة مماثلة في ماري صنعت بنفس القالب الذي صنعت منه اللوحة الترقاوية. انظر ـ تمثال والواح فخارية من ترقا ـ الحوليات السورية العدد 34.

وتؤكد المعطيات على أن عائلة يجيد ليم هي من بني سمأل، وكذلك العائلة العمورية الحاكمة في حلب/يمحاض.

كان بنوا سمأل قد حلّوا في الجزيرة العليا بشكل خاص، حيث تفرعوا إلى بطون صغيرة. بينما كان بنوا يمين متصفين بالجوَلان غير آبهين بالحدود السياسية حيث كانوا يجولون من ضفاف الفرات وحتى المتوسط مروراً بيمحاض في الشمال أو البادية الشامية في الجنوب.

الجدير ذكره هو أن حمورابي العموري حاكم بابل كان من عائلة عمورية تنتمي إلى بني يمين.

وتشير الدراسات إلى وجود نوع من التوازن آنذاك بين القوى السياسية الرئيسية وهي:

من الجنوب إلى الشمال: حاصور ـ قطنة ـ حلب ـ كركميش.

ومن الغرب إلى الشرق: ماري ـ كالاتوم ـ بابل ـ إشنونا ـ لارسا.

والذي يبدو أن سلالة يجيد ليم، بالإضافة إلى قبائل الخانيين / في شمال الفرات / عرفوا كيف يكونون الورثة الحقيقيون لعصر سلالة الشكاناكو في فترة فاعلية مملكة أور الثالثة.

ولعل جملة هذه المعطيات تضعنا أمام انطباع عن سيادة النمط القبلي ـ المديني الذي استطاع أن ينشئ سلالات حاكمة في مدن المشرق بعد فترة تفاعل وتعايش امتدت لأكثر من 500 عام في مدن المشرق.

مع ملاحظة أن تمدّن هذه القبائل، يبدو أنه ووجه من قبل المجموعات الرعوية القبلية والتي كانت تجول في بادية الشام وصولاً إلى منطقة الفرات الأوسط، مما أثّر على تأمين خطوط التجارة النهرية منها والبرية، كما أثر على استقرار المدن المشرقية ولا سيما ماري وهذا ما سنجد صداه في الوثائق التي تتحدث عن صراعات ضد

هذه المجموعات القبلية التي تعيش على الغزو والنهب وقطع الطريق.

مناقشة لطبيعة الصراع المديني العموري مع القبائل البدوية وشبه الرعوية في مملكة ماري:

لعل المتتبع لحركة الاجتماع البشري في المشرق العربي، سيلحظ أنه ومنذ بداية عصر فجر التاريخ، تشهد المدن المشرقية حالة من المماحكات والإضطرابات بين المدن ـ الدول، في طبيعتها المدينية أو التجارية أو الزراعية، وبين حالات الثقافة شبه الرعوية والبدوية، التي كانت تجتاح هذه المدن فَتُخّل بالنظام المديني وطبائعه، كما التجاري أوالزراعي.

والذي يبدو بشكل عام أن ثمة دوراً للمناخ وأحواله في هذه السلبية شبه الرعوية في المستوى التفاعلي مع المدن. بالإضافة إلى وجود حالات اعتمدتْ في ركائز بقائها على السلب والنهب.

فالحال الطبيعي، هو أن هذه القبائل شبه الرعوية، كان منها من يؤسس لعلاقات سلمية وتفاعلية مع المدن، وهذا يتبّدى في مبادلات بالسلع بين منتجات الحياة الرعوية أو شبهها مع سلع مدينية زراعية أو حرفية.

بالإضافة إلى أن التواجد القبلي البدوي حول المدن كان يشكّل في هذه الحالة عنصر أمان وطمأنينة للمدن ويسهم في حمايتها واستطلاع أحوال المحيط.

إذن، نحن هنا إزاء حالة تفاعلية إيجابية بين ثقافتين تسهمان معاً في حركة التاريخ وحركة الاجتماع المشرقي.

أما الحالة الثانية فتتبّدى في حالة سلبية من العلاقات، أساس سلبيتها تنبع من اعتماد بعض الجماعات المرتحلة على سلب القوافل التجارية أو سرقة المواشي،

وفي حالات أخطر، هو اجتياح للمدن وتدمير منجزها الحضاري.

والحقيقة أن وثائق المشرق العربي تحفل بذكر هذه الصراعات من ملحمة جلجامش، التي عبَّرت فيها شخصية انكيدو عن حال الثقافة الرعوية الأولية التي ينبغي تدجينها وتهذيبها كي تفعل في الحالة الإنسانية المجتمعية بشكل إيجابي.

أو في ما احتوته المناظرة السومرية / مناظرة دموزي وانكيمدو / والتي تحكي عن حالة الصراع بين الثقافة الزراعية والثقافة الرعوية.

ثم في الوثائق الرافدية وعلى مدى الألف الثالث قبل الميلاد التي تصف تلك القبائل المرتحلة أو الغازية وتعيّرها بأوصاف دونية في سُلّم المدنية.

وأيضاً تذكر النصوص الأكادية، أن الملك الأكادي شار كالي شاري، حقق انتصاراً على العموريين في منطقة جبل بشري، الذي يمتد في المنطقة التي تمتد غرباً من الفرات / الشمال الغربي من مدينة دير الزور / ومن الجنوب باتجاه الغرب نحو تدمر.

ومعلوم أن العموريين كانوا عبارة عن قبائل شبه رعوية ترتحل في البوادي وتقارب المدن والبلدات، وتبعاً لارتقائهم في سُلّم التفاعل الاجتماعي، كانوا يعبّرون عن ذلك إما بالاندخال بالنسيج المديني أو رفضه، ثم سنلاحظ في فترة فاعلية أور الثالثة في الثلث الأخير من الألف الثالث أن الاندفاع العموري في شكله القبلي السلبي تكثف وهو ما أدى بحاكم أور " شوسين " إلى إنشاء خط بري ـ مائي دفاعي، ضخم، يشمل ما بين نهر الفرات ونهر دجلة ويمتد بطول 275 كيلومتراً، للحّد من ارتحالهم ومعالم التخريب المرافقة.

وعلى هذا نستطيع أن نقارب معالم العلاقة هذه ونشير إلى أن التواجد العموري والذي على ما يبدو يعود لمطالع الألف الثالث، كانت تكتنفه موجات متتابعة ترتحل

نحو مدن الرافدين / عبر ماري /، ومن هذه الموجات ما امتلكت أدوات التفاعل مع الحياة المدينية بكافة أوجهها الزراعية أو التجارية، واستطاعت أن تمتزج وتتفاعل مع الاجتماع المشرقي السومري ـ الأكادي وتندخل فيه، وهذه الفاعلية هي التي عبّرت عن نفسها في مطلع الألف الثاني عبر تأسيس سلالات حاكمة في مدن المشرق العربي.

أما تلك المجموعات العمورية التي اعتمدت في حياتها على السلب والارتزاق والنهب فهي التي شكّلت مَعْلماً سلبياً في حركة الاجتماع المشرقي وهذه التي كان يتم وصفها بنعوت سلبية ودونية.

وهذه المجموعات السلبية هي نفسها التي شكّلت عنصر ازعاج دائم لمملكة ماري العمورية، حيث تحفل نصوصها بالصراعات ضدهم.

الجدير ذكره بشكل عام، أن طبيعة هذه الصراعات لم تكن من منشأ عنصري أو استعلائي أو إثني، بل كان الرفض لهذه الثقافات الأولية المخربة ناتج عن عدم تفاعلها ومساهمتها في حركة المجتمع، فإذن هو صراع ذو منشأ مصلحي، حيث كلا الثقافتين تريد الحفاظ على مصالحها، المدينية بما وصلت إليه من مستوى حضاري والرعوية بما تحاول أن تحافظ على بقائها معتمدة على التخريب والنهب والتدمير.

ويشير الباحث كاي كولماير في مناقشته للغزو العموري المتدرج لمنطقة الرافدين:

" كان لتدفق العموريين البدو إلى مناطق الرافدين/ولا سيما في جنوبه / قد سبّب الكثير من فقد التوازن الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ السياسي والأمني، ما دفع ملوك سلالة أور الثالثة إلى بناء سور/حاجز في وجه العموريين، يقال أنه بلغ 280 كيلومتراً طولاً. وهو نموذج مبكر وسابقاً لسور الصين العظيم الذي سيُبنى لغرض مشابه "(4)

وفي حال أن التفاعل الايجابي كان سيد الموقف فسنجد مثلاً أنه في زمن اشبي إيرا، نصَّب زعيم قبيلة عمورية نفسه حاكماً على مدينة لارسا الرافدية.

وعلى نفس المساق فإن اشبي إيرا، كان قائداً عسكرياً في مدينة ماري، ويعمل في خدمة سلالة أور الثالثة وتشير الوثائق أنه انتزع صلاحيات واسعة لمقاومة البدو، بحيث أنه استغل مجاعة حّلتْ في الجنوب لينصّب نفسه حاكماً على مدينة ايسين الرافدية.

وسنجد في الفصل القادم، كيف أن مملكة ماري العمورية عانت ما عانته من غزو القبائل البدوية لها، والعمورية أيضاً، بما يعطي دلالة على أن الصراع هو صراع البقاء ولا يحمل أي مسببات إثنية أو غيرها. ونعود إلى كولماير في مناقشته هذه المسألة حيث يقول:

" توجد نصوص كثيرة في ماري، تتحدث عن العلاقة المتأزمة مع قبائل البدو الذين ارتبط اسمهم بسرقة المواشي، والذين كانوا يغزون وديان الأنهار الزراعية بشكل متكرر للنهب والسلب أو يجتازونها بقطعانهم. وأهم هذه القبائل هم اليمينيون / بنويمين / والحانيون أو الخانيون /.

ولم تكن العلاقات معهم بالضرورة علاقات عداوة، ذلك لأن الحضر المستقرين والبدو الرحل يكّمل بعضهم بعضاً، ويستفيدون من تبادل المنتجات والبضائع.

فالبدو كانوا يعرضون الصوف الأجبان والجلود والحيوانات الحية والأنسجة..الخ ويقايضونها بالمنتجات الزراعية والحرفية.

وكان البدو أدلاء لا يُستغنى عنهم بالنسبة إلى القوافل التجارية / لكشف مواقع الآبار والواحات في البادية / كذلك خدم البدو في جيوش الحضر كما فعل اليمينيون في جيش شمشي أدد".(5)

إذن نصل إلى استنتاج حول هذه المسألة، بأن الصراع المديني ـ الرعوي كان من أسبابه الأساسية هو عدم اعتراف الثقافة الرعوية بالثقافة المدينية والسعي إلى

تدميرها، عبر عدم التفاعل والتمازج والتعايش وهذا ما سوف نلحظه في مسار الصراع المديني في مملكة ماري مع القبائل البدوية.⊗

تقول ايفا شترومنغر وكاي كولماير أن سورية:

" لغنى أراضيها المزروعة ومدنها، كانت تجذب إليها المهاجرين الكثيرين، وتدفع البدو الرحل للاستقرار فيها. وباستمرار كانت تضم إلى السكان مجموعات بشرية جديدة تساهم في البناء والتطور الحضاري.[6]

⊗ في هذا السياق، وبمقاربة لمجتمع مدينة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى، نجد أن نفس هذه المعايير تنطبق عليها، رغم مرور أكثر من 2000 عام. فالقبائل العربية التي أحاطت بتدمر وفي البادية الشامية، استطاعت أن تتفاعل وتتمازج مع مجتمع تدمر وبالتالي امتلكت حكم تدمر، في حين أن القبائل ذات الثقافة الرعوية جداً والأولية رفضت هذا التفاعل، وكان ثمة صراع معها. وقد أشار لي الأستاذ خالد الأسعد/ الأمين السابق لمتحف تدمر / على أن هذه القبائل المتفاعلة كانت قبل تعرّفها على مجتمع تدمر / المديني ـ الزراعي / تعبد إلهاً هو شيع القوم " وصفته الأساسية أنه يكره الخمر، ثم جاء حين اندخلت هذه القبائل في نسيج تدمر المديني والزراعي تحوّل اسم إلهها إلى " ذو الشرى " أي الشره للخمر. وهذا دليل على عمق التفاعل لتلك القبائل مع المجتمع المديني ـ الزراعي التدمري.

السلالة العمورية الحاكمة في ماري:

1 ـ يجيد ليم:

يعتبرِ إلى الآن أول ملك معروف من السلالة العمورية التي حكَمتْ مدينة ماري، وكنا أشرنا سابقاً إلى احتمال أن بين 2015 ـ 1920 ق.م، كان هناك سبعة حكام في ماري.

وتشير المعطيات إلى قيام حالة صراع بين ماري وترقا، حيث استطاع ملك ماري يجيد ليم من طرد حاكم ترقا " إلا ـ كبكابو "⊗ وضمّ ترقا إلى فاعلية مدينة ماري ولجأ كبكابو إلى بابل.

والجدير ذكره هو أن حاكم ترقا المخلوع هو والد الملك الآشوري شمشي أدد الذي سوف يحتل ماري فيما بعد ويضمها إلى مملكة آشور.

ويبدو أن ماري ومنذ هذه الفترة / كما في ازدهارها في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد / كانت تدرك أهمية منطقة مثلث الخابور / شمال شرق سورية / في ازدهارها، " فهذه المنطقة كانت تشكّل مستودعاً للقمح، ومنتجعاً صيفياً لقطعان الغنم بسبب طراوة مناخها، وهذا ما يفسر تنازع مدن تلك الفترة من أجل السيطرة عليها "(7)

وتشير الباحثة مارتا لوتشياني إلى أن نصوص ماري لا تتحدث إلا ما ندر عن تربية الحيوانات والزراعة، وإذا حدث فإنها تشير إلى وادي نهر الخابور، وما يحيط به من مجالات الرعي الشتوية.⊗⊗

⊗ إلا كبكاكو تعني بالأكادية " الإله كوكب ".

⊗⊗ انظر ـ مارتا لوتشياني ـ حوض الخابور الأدنى في عصر البرونز الوسيط. وثائق الآثار السورية 2002.

إذن منذ الآن ومع حكم يجيد ليم، سوف نلحظ أن اهتمام مدينة ماري كي تكون مملكة قوية مزدهرة، كان يحتم أن تسيطر على تلك المنطقة الحيوية وهذا ما سوف يستمر إلى فترة زمري ليم.

وهنا لا باس من التذكير أن شرط موقع ماري كي يحقق فعله هو وجود ثلاثة محاور:(8)

الأول: محور الرافدين وما ينقصه من منتجات وأخشاب وأحجار.

الثاني: منطقة الخابور وما يحيط بها من سهول زراعية خصبة، توفر الزراعة والقدرة على الانتاج.

الثالث: محور العمق الشامي وما يوفره من أخشاب / من جبال الأمانوس / والامتداد نحو الوجه البحري المتوسطي.

ويبدو أن المحاور الثلاثة ستبقى على فعلها حتى نهاية فاعلية مملكة ماري.

ولا تقدم ماري نصوصاً / إلى الآن / من عهد هذا الحاكم، حيث أن وثائق ماري تعود إلى عهد الشكاناكو وعهود يخدون ليم وسومو يمام في أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

ويعد يخدون ليم الذي خلف الحكم عن والده في 1825 ق.م أول ملك من ماري العمورية يُمثل في وثائق بواسطة نصوصه الخاصة به.⊗

2 ـ يخدون ليم: ⊗⊗

مع فترة هذا الملك، نلاحظ أن الصراعات المدينية كانت على أشدها، ويبدو أن هذا كان يؤثر على مطامح ماري

⊗ انظر هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ دار المتنبي. دمشق 1998.

⊗⊗ تتضارب الآراء حول فترة حكم الملك يخدون ليم فالدكتور علي أبو عساف يشير إلى أنه حكم بين 1825 - 1811 ق.م أي حوالي 14 عاماً / آثار الممالك القديمة في سورية /، في حين أن دومنيك شاربان يشير إلى فترة حكمه بحوالي 17 عاماً / HISTOIRE DE MARI /. أما الدكتور عيد مرعي فيشير إلى حوالي 8 سنوات / انظر دراسات تاريخية، العدد 27 - 28 - 1987 ـ يخدون ليم ملك ماري. د. عيد مرعي /.

في إنشاء مملكتها، وبالإضافة إلى دور القبائل البدوية السلبي تجاهها. ويبدو أيضاً من الوثائق أن يخدون ليم كان رجل دولة، سعى إلى تعميق البنية التحتية للمدينة، ومواجهة التحديات التي فرضت عليه، بالإضافة إلى سعيه لتوسيع فاعلية مدينته.

ونعتقد أن مناقشة مملكة ماري في عصر هذا الملك لا تكتمل إن لم نضئ على واقع المشرق العربي في تلك الفترة، ولا سيما لجهة المدن الفاعلة تاريخياً، لأن هذا يرتبط بمجمل حركة التاريخ في تلك الفترة.

وكنا ذكرنا سابقاً أن السلالات الحاكمة العمورية الكنعانية تمكّنت من حكم مدن المشرق العربي مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ويمكننا استعراض واقع هذه المدن السياسي:

آشور:

لم تكن مدينة آشور ذات فاعلية مهمة ومؤثرة إلا حين توّلى حكمها شمشي أدد ابن إلا كبكابو في حوالي 1815 ق.م، واستمر حكمه حتى حوالي 1782 ق.م.

ونلاحظ هنا تزامن فترة حكمه ولو لمدة وجيزة مع حكم يجيد ليم، وكذلك مع حمورابي البابلي.

وقد استطاع شمشي أدد أن يجعل من آشور مملكة يُحسب حسابها في صراعات المدن آنذاك. بحيث استطاع أن يسيطر على المناطق الواقعة إلى شرق نهر دجلة وغربه، وكان على منافسة مع مدينة بابل، واحتل ماري.

وبموت ملك آشور، استطاع حمورابي بابل من ضم آشور إلى فاعلية بابل التاريخية.

يمحاض/حلب:

تعتبر من أكبر ممالك بلاد الشام بعد ماري، واستطاعت بفاعليتها التاريخية أن تمتد مملكتها من نهر الفرات شرقاً إلى المتوسط غرباً.⊗

أشهر ملوكها ياريم ليم الأول، وحمورابي الأول وقد حكما في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

الجدير ذكره أن ياريم ليم الأول كان خال ملك ماري زمري ليم، كما أن هذا تزوج من ابنة ياريم ليم الأول.

كانت علاقة مملكة يمحاض قوية مع بابل وماري، في وجه الفاعلية الآشورية، وساهمت في إعادة عرش ماري إلى سلالة يجيد ليم / زمري ليم / بعد الاحتلال الآشوري لها.

وتذكر وثائق ماري أن مملكة يمحاض كان يتبعها عشرون ملكاً (20 مدينة) أيام حكم ياريم ليم.

إبلا:

منذ أن دمرها نارام سين الأكادي في حوالي 2250 ق.م، تراجعت إلى فاعلية مدينة تعيد تنظيم أحوالها، ومع هذه الفترة حكمتها سلالة عمورية كنعانية، ولم تستطع مع هذا أن تعود إلى ما كانت عليه في حوالي منتصف الألف الثالث من ازدهار وقوة ومنعة.

قطنة:

كانت لها علاقة جيدة مع الملك عمو تفيل وهذا معاصر لحمورابي بابل وزمري ليم ملك ماري. وأثناء الاحتلال الآشوري لماري، تزوج حاكمها / يسمع أدد/ ابن شمشي أدد، من ابنة ملك قطنة، وكانت علاقتها متينة مع ماري كما تشير إلى ذلك وثائق ماري.

بابل:

⊗ في البدء انتابت العلاقة بين يمحاض وماري السلبية الواضحة ثم أضحت علاقات متينة وحميمة بعدأن وعت المدينتان أن مصالحهما في علاقتهما الجيدة وتذكر وثائق عائدة لفترة يخدون ليم أن ملك يمحاض / سومو ابوخ / تحالف مع ملك توتول وملك سمّانُم ضد ملك ماري أثناء وجوده في مهمات حربية.

أُسست عبر سلالة عمورية ـ كنعانية في هذا العصر عبر الملك سومو آبوم 1894 ـ 1881 ق.م.

واشتهر من ملوكها حمورابي الذي حكم في الفترة بين 1792 ـ 1750 ق.م. وإليه يعزى تدمير مدينة ماري وإنهاء فاعليتها التاريخية والحضارية.

كركميش:

امتلكت علاقات جيدة مع ماري، في فترة وقوعها تحت فاعلية آشور التاريخية، وكذلك في زمن حكم زمري ليم. واستطاعت بفاعليتها أن تسيطر على حوض الفرات والسهول المجاورة له.

وشملت وثائق ماري على رسائل متبادلة بين ملوك كركميش وماري، في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

أوغاريت:

تشير المعطيات إلى أنها في القرن الثامن عشر، كانت موجودة ولكن فاعليتها لم تخرج عن إطارها، وتعطي وثائق ماري دلالات عن وجود علاقات وثيقة بينها وبين حلب وماري في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد. ⊗

إيمار:

لم تحظ هذه المدينة عبر تاريخها في الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، إلا بموقع انفعالي وبدرجة ثانية، وكانت دوماً محط اهتمام فاعليات المدن الأقوى مثل ماري ويمحاض وإبلا لوقوعها على خط التجارة الدولية، بالإضافة إلى محاولتها لتعكير استقرار المدن الأقوى ولا سيما ماري في عهد يخدون ليم، بدفع من ملك يمحاض، حيث كانت إيمار تحت فاعلية يمحاض.

إذن وعبر كل هذا أصبحنا بإمكاننا القول استنتاجاً، أن المدن الأساسية في هذه الفترة والتي امتلكت إشراطات فاعليتها التاريخية، بدأت تعبّر عن هذا، بمعنى أن تحقق

⊗ هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ 1998 ـ النسخة العربية.

مصالحها الوجودية، في السيطرة على طرق التجارة أولاً، وفي ضمّ الأراضي الخصيبة لها، وهذا هو مرتكز الصراع بين الممالك تلك الفترة ولا سيما، ماري، آشور، بابل، يمحاض.

وقد لمع بين حكام تلك الممالك، زمري ليم حاكم ماري، شمشي أدد حاكم آشور، حمورابي حاكم بابل، ياريم ليم حاكم يمحاض/حلب.

أيضاً يمكننا الإشارة إلى مدن أخرى مشرقية كان لها دورها ولا سيما التجاري مثل جبيل وحاصور ومجدو ودان وكان لمدينة إشنونا الرافدية شأناً سياسياً مهماً.

وبالعودة إلى حركة التاريخ في عهد يخدون ليم حاكم ماري، نلحظ أنه واجه تحديات عديدة منها ما خرج عن مدن متحالفة ضد ماري والسعي لامتلاك فاعليتها التاريخية، ومنها ما اختص بالعشائر البدوية.

فمنذ فترة حكمه الأولى تشير المعطيات الأثرية إلى وجود تحالفات في حوض الفرات الأوسط، أساسها تحالفان،

الأول: بين مدينة إيمار ومدينة أباتم/ التي تقع بين ماري وإيمار، وتمر منها الطريق التجارية المنطلقة من الفرات نحو قطنة / وتوتول وسمّانُم الواقعة إلى الغرب من ماري.

الثاني: وهو تحالف مواجه للأول وأساسه ماري وترقا وسكّاراّتوم التي تقع على نهر الخابور عند مصبه في الفرات. وتشهد أيضاً الوقائع السياسية في عصر يخدون ليم، على تجمع لعشائر بني يمين لدى شيخ مدينة سمّانُم / التي تقع شمال ترقا / وكان يُدعى " لأيُم "، ويبدو أن إيمار كانت تساعد هذه العشائر ضد مدينة ماري حيث كانت فاعلية إيمار واقعة تحت تأثير الفاعلية التاريخية ليمحاض.

وقد استطاع يخدون ليم السيطرة على هذه العشائر وقتل شيخهم في حلبية ولاحق الفلول اليمينية حتى حدود يمحاض ثم سيطر على إيمار.

ويشير د. أبو عساف إلى أن التحالف بين المدن المذكورة في حوض الفرات الأوسط، لم يكن بأهداف عسكرية، بل قام على أســس عديدة تمتد جذورها إلى الألف الثالث فبل الميلاد.[9]

وبالعودة إلى مدينة سكاراتوم، فإن المعطيات تشير إلى " أن هذه المدينة بالإضافة إلى مدينة قاطونان، كانتا تسيطران على حوض الخابور الأدنى وتديران شؤونه.

ويعتقد أن سكاراتوم تقع في تل أبو حائط، وكانت تحكم قبضتها على القسم الجنوبي الأكبر من حوض الخابور الأسفل وعند التقاء رافدي الخابور، بل على القسم الغربي أيضاً الذي يشمل منطقة واسعة من حوض الفرات نفسه. ويخضع لهذه المنطقة أكثر من خمسين موقعاً جغرافياً يقع 20٪ منها، على امتداد مجرى الخابور والباقي على نهر الفرات.

وتشير أسماء الأماكن في منطقة الفرات التابعة لسكاراتوم إلى مدن وقرى لعبت دوراً بارزاً على صعيد الطرق التجارية الموصلة إلى مدينة ماري في الغرب، حيث يتم هناك تبادل البضائع والخامات الأولية. والحقيقة، أن سكاراتوم لم تكن مركز المنطقة الوحيد بل كانت تشكّل مع ماري وترقا، احدى أهم ثلاث مدن رئيسية في المملكة التي خضعت منذ البدء لحكم يخدون ليم. "[10]

وقد عثر في ماري على وثيقة تأسيس تضمنت قيام يخدون ليم وقد لّقب نفسه بـ " ملك ماري وتوتول وبلاد خانا " بحملة على جانبي الفرات، حيث أسر سبعة ملوك ناوؤه وأضاف ممتلكاتهم إلى ماري، وقطع الأدغال من جانبي النهر وبذلك ضمن السلام لبلاده. ونحن نعتقد أن تعبير الملوك مبالغ فيه ويمكن أن يكونوا شيوخ قبائل أو حكام بلدات صغيرة.

ويذكر النص أيضاً أن يخدون ليم حصَن ماري وترقا بالأسوار والخنادق وحفر القنوات واضعاً نهاية للتقليد القائم على رفع المياه للري.

وفي نهاية النص يقول: " في منطقة محرومة، مكان عطش لم يسبق لملك أن أعطاه اسماً، أو بنى مدينة فيه، توفرت لدي رغبة فبنيت مدينة وحفرت خنادقها وأسميتها دور يخدون ليم وحفرت قناة أسميتها شم يخدون ليم.(11)

ويعتقد الباحث هالدار أن القناة شقت وأخذت مياهها من نهر الخابور على الرغم من أن موقع ماري قريب جداً من الجانب الأيمن للفرات، حيث قبل ذلك كانت المنطقة مجدبة ولم تُعّمر سابقاً إلى أن جاء يخدون ليم وأنشأها.(12)

أيضاً تشير وثيقة تأسيس معبد شمش في ماري عن قيام يخدون ليم بحملة على الغرب لاخضاع مدن الشام الشمالية من الفرات إلى المتوسط وحين فشل، يبدو أنه أقام علاقات حسنة مع ملوكها.(13)

ويبدو أن قيامه بتلك الحملة لم يكن لدافع اتحادي أو ما شابه، بقدر ما كان من أجل الحصول على الأرز والسرو والبقس والخشب ويبدو أنه أجبر السكان هناك على دفع الضرائب بانتظام لماري. ⊗

ويشير كلينغل إلى أن جيش يخدون ليم، زحف بجوار الفرات باتجاه الأعلى حيث اتبع طريق القوافل.(14)

ويبدو أن يخدون ليم كان يسعى وبقوة إلى تدعيم مملكته حيث أنه أخضع ايمار التي كانت مجالاً للسيطرة

⊗ تقول الوثيقة العائدة ليخدون ليم وقد نشرها جورج دوسان عام 1955 ما يلي:
" ما من ملك مقيم في ماري وصل البحر وفتح جبال الأرز والبقس، الجبال العالية قطع أخشابها يخدون ليم بن يجيد ليم الملك القوي، الثور البري (بين) الملوك ذهب ببراعة وقوة إلى شاطئ البحر، لـ (إله) المحيط ضّحى ضحاياه الملكية الكبيرة، وجنوده في وسط المحيط استحموا، في جبال الأرز والسرو والصندل، وهذه الأشجار هو قطعها ".
كما نقرأ أيضاً في وثائقه: " هو اكتسح كل شيء، وأشهر اسمه، وجعل قوته معروفة "
" هذه الأرض على شاطئ المحيط، أخضعها ووضعها تحت أوامره وجعلها تسير خلفه ".

والمنافسة بين ماري ويمحاض واستطاع هذا الملك ضمها إلى فاعلية مملكته، ولكن مع مجيء زمري ليم انتقلت لتنضوي تحت فاعلية يمحاض.

وكان ليخدون ليم حلفاء وتابعون إلى الشمال من ماري. " وتشير إحدى الوثائق إلى رسالة نجده تلقاها من حاكم إحدى المدن / أبي ـ سامار / حيث أن مدينته مهددة من كل جانب من ملوك آشور وكركميش وأورشوم وخاشوم ويمحاض ".(15)

ويبدو أن ثمة تضارباً للآراء بين الباحثين في نتائج حملة يخدون ليم إلى الغرب والمتوسط، حيث أشار كلينغل إلى تحقيقه لغايات اقتصادية وضرائبية، في حين يشير د. أبو عساف إلى أنه فشل عسكرياً غير أنه أقام علاقات حسنة مع ملوك المدن تلك، نجد أن د. مرعي يعتقد أن حملته فشلت سياسياً واقتصادياً كان ينبغي منها الحصول على أخشاب الأرز والسرو والصنوبر اللازمة للبناء. / عيد مرعي ـ 1987 ـ يخدون ليم ملك ماري /.

ويشير شاربان إلى أن فترة يخدون ليم كانت فترة حاسمة في تاريخ تطور ماري سياسياً وثقافياً / شاربان 1989 /.

الجدير ذكره هنا هو أن يخدون ليم تزوج بأخت ملك يمحاض/حلب. ياريم ليم، حيث أنجبت له زمري ليم. ⊗

⊗ في مقابل قناعة معظم الباحثين على أن زمري ليم هو ابن يخدون ليم، فإن الباحثة الإيطالية مارتا لوتشياني تشير في بحث لها إلى أن زمري ليم هو حفيد يخدون ليم وتقول: " في هذه الفترة كانت ماري تحكم من قبل يسمع أدد بن شمشي أدد، بعد حكم الملك يخدون، وحكمت بعد ذلك من قبل زمري ليم حفيد يخدون ليم "

انظر وثائق الآثار السورية ـ مارتا لوتشياني ـ حوض الخابور الأدنى في عصر البرونز الوسيط " صـ 201 ــ .

وأيضاً يتحدث دومنييك شاربان عن وجود ختم يذكر " زمري ليم بن خدني أدد" بحيث أنه بناء على ذلك يمكن أن يكون زمري ليم هو أبن أخ الملك يخدون ليم ". انظر اقتصاد مملكة ماري ـ علم الدين أبو عاصي ـ وزارة الثقافة السورية 2002 ـ صـ 23 ـ .

وللدلالة على مبلغ قوة ماري في هذه الفترة، تشير وثيقة أرسلها أبي سمار حاكم إحدى المدن إلى يخدون ليم بقوله: " بيتي هو بيتك وأبي سمار هو ابنك "[16]

وكانت دلالة أن يكون حاكم ابناً للملك في مستواها الاعتباري هو أن الملك سيد المدن ومدينته أقواها.

وأيضاً ما يشير إلى قوة مملكة ماري في هذه الفترة، هو وثيقة عبارة عن رسالة من حاكم منطقة قريبة من كركميش إلى يخدون ليم يطلب فيها مساعدة عسكرية لمواجهة ملك آشور شمشي أدد.

ويبدو أنه مع اعتلاء شمشي أدد لعرش آشور في 1815، وسعيه إلى تحقيق فاعلية آشور بعد اكتمال إشراطاتها، فإن ماري بدأت تعاني من هذه الفاعلية الآشورية، فتذكر إحدى الوثائق في فترة الملك يخدون ليم:

أن شمشي أدد" أحرق حصيد البلد "[17] ويعتقد أن أفراد جيش شمشي أدد بلغ 60.000 جندياً. / فرزات ـ مرعي 1990 /.

ويبدو في النهاية أن اضطرابات حصلت في قصر ماري أدت إلى مقتل يخدون ليم في حوالي 1811 ق.م، وانتقل الحكم إلى أخيه سومو يمام حيث بقي في الحكم لمدة سنتين.

ثم وبعد انتصار شمشي أدد/ الذي يعتقد أنه كان وراء مقتل يخدون ليم / على تحالف قوات حلب وأورشوم وكركميش، اتجه نحو ماري، حيث احتلها وهذا ما أدى إلى فرار زمري ليم إلى حلب/يمحاض، في حين تم أسر ابنتي يخدون ليم من قبل شمشي أدد وتمَّ تنصيب يسمع أدد/ ابن شمشي أدد/ حاكماً على ماري في حوالي 1795 ق.م.

وإن كان ملك آشور شمشي أدد قد مضى في توسيع مملكته بعد القضاء على حكم يخدون ليم، بحيث استطاع إنشاء مملكة واسعة تمتد من جبال زاغروس وحتى

الفرات، فإن احتلاله لماري / عاصمة منطقة الفرات الأوسط / أدى إلى تدهور الأوضاع في تلك المنطقة وتحولت الطرق عنها إلى البادية، غير أن هذا لم يستمر، حيث أنه مع عودة زمري ليم إلى عرش ماري سنلحظ عودة لفاعلية ماري كمملكة مزدهرة، الازدهار الأخير.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن موقف يمحاض من احتلال شمشي أدد لماري كان لا مبالياً وحيادياً، وجلّ ما قامت به هو استقبال زمري ليم في بلاط حلب.

وتشير المعطيات أن يمحاض لم تكن راضية عما قام به يخدون ليم من التوسع على حساب جيرانه ملك ترقا وملك توتول، حتى أن احتلاله لإيمار أفقد مملكة يمحاض مينائها المهم على نهر الفرات.

ويشير جان ماري دوران إلى أن شمشي أدد/ حسب وثائق ماري / استقر في قصر ماري بعد احتلالها. ⊗

⊗ فيصل عبد الله ـ دراسات تاريخية 37 ـ 38 ـ قراءة في مجلدات ماري.

مدينة ماري تحت الفاعلية الآشورية 1795 - 1782 ق.م:

ثمة جملة من المعايير ينبغي الإشارة إليها في فترة وقوع ماري تحت فاعلية مملكة آشور:

أولها: أن شمشي أدد، كان رجل دولة من طراز ما كان عليه شاروكين الأكادي أو لوغال زاجيزي أو ما سنراه في حمورابي بابل أو زمري ليم ماري.

وإن ضمّه لمنطقة الفرات الأوسط ومن ضمنها مدينة ماري، كان لاعتبارات مصلحية اقتصادية وتجارية وسياسية، ولا نرى هنا امكانية النظر إلى سيطرته على مدينة ماري كنوع من الثأر والانتقام لأبيه إلا كبكابو، حين طرده يجيد ليم ملك ماري من ترقا بحيث توجه الأول إلى بابل عبر إيمار ومنطقة الجزيرة الشامية وحوض البليخ والخابور.

ويبدو أن شمشي أدد أقام في بابل، وتوّجه بعد ذلك إلى مدينة إيكالاتوم[⊗]، / قبل استيلائه على مدينة آشور والبدء بتحقيق مشروعه الملكي /، حيث سيطر عليها بواسطة جماعات بدوية تحت إمرته.

والجدير ذكره، أن مدينة آشور قبل أن يستولي عليها، كانت تحكمها مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، سلالة حاكمة، تشير أسماء حكامها إلى كونها سلالة أكادية ومنهم / بوزور آشور، شاليم آخوم .. الخ /، وتشير المعطيات إلى أن أحد حكام هذه السلالة وهو إريشوم الأول / 1900 ق.م / استطاع أن ينشئ مستوطنات تجارية آشورية في آسيا الصغرى وأشهرها كاروم كانيش / تقع حالياً بالقرب من القيصرية/ كول تبي /.

وتعطي الوثائق الآشورية التي اكتشفت في هذا الموقع، على أن تجار آشور كانوا ينقلون القصدير

[⊗] مدينة إيكالاتوم: وتعني مدينة القصور، وتقع على نهر دجلة وعلى بعد 60 كم جنوب آشور.

والمنسوجات من آشور إلى بلاد الأناضول ويحصلون مقابل ذلك على الفضة. ⊗

وبعد استيلاء شمشي أدد على آشور ادعى أن الإله انليل هو الذي منحه السلطة وجعله ملكاً، كون أن المُلك يأتي من الإله، وهذا ما غلّف حكمه بالشرعية الإلهية المطلوبة آنذاك.

وهكذا، سوف ينشىء معبداً لإنليل في آشور، ومن ثم سوف يطلق على عاصمته الثانية الواقعة في تل ليلان / تقع في منقار البطة من الخريطة الجغرافية السورية الحالية، أقصى الشمال الشرقي / اسم شُباط انليل / مقام الإله انليل /. وهذا الموقع كشف عن معبد وأرشيف وثائقي يزيد على الـ 1500 رقيم مكتوب بالخط المسماري وباللهجة الآشورية القديمة.

ويحتوي أرشيف ماري / الذي يزيد عن 25 آلف رقيم / على حوالي 129 رسالة أو أجزاء من رسائل، مرسلة من الملك شمشي أدد، كذلك حوالي 100 رسالة من ولديه يسمع أدد/، في اللهجة العمورية يعني الإله أدد، سمع / وإشمي دجن / وهذا اسم أكادي يعني الإله دجن، سمع /.

كما عثر على الكثير من الرسائل لموظفي المملكة الآشورية ومن أمراء وحكام معاصرين. ⊗⊗

وقد أطلق شمشي أدد على نفسه لقب " شاركيشاتيم " أي ملك الجميع أو العالم، فيما يشبه ترجيعاً للقب ملك الجهات الأربع.

ثانيها: لا تشي فترة وقوع مدينة ماري تحت فاعلية مملكة آشور بأي تغيّر بنيوي في حياتها، سوى أن أسرة يجيد ليم وولده لم تعد حاكمة.

⊗ انظر عيد مرعي ـ تاريخ بلاد الرافدين ـ دار الأبجدية 1991.

⊗⊗ المرجع السابق.

فالمعلوم أن شمشي أدد هو من العشائر العمورية, وأن مدينة ماري عمورية الهوية بما يعود لما قبل الألف الثاني قبل الميلاد، وعليه فإن هذا الأمر لا يتعدى أن يكون صراعاً سياسياً ذو أبعاد اقتصادية وتجارية.

إضافة إلى شيء هام سوف ينبثق في هذه الفترة، لا بل يعود إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد.

فإن كانت حركة التجارة الدولية في الألف الثالث شرقية الهوى والمصالح ولا سيما في الجناح الرافدي، فإننا الآن أمام ضعف للمراكز الآسيوية البعيدة / كالهند مثلاً / وبزوغ مراكز تجارية في المتوسط، ويبدو برأينا أن شمشي أدد وعى هذه الناحية وهذا ما سوف نراه في حركة مملكة آشور ونظرها إلى المتوسط وعالمه، بحيث سنشهد توجه خطوط التجارة في المشرق العربي نحو الغرب، مع عدم انعدام التجارة نحو الشرق، لكنها خفّت نسبة للأولى.

وفي سعي شمشي أدد لإنشاء مملكته، كان لا بد أن يصطدم مع ملك ماري يخدون ليم، الذي كان بدوره يسعى لتدعيم مملكته عبر السيطرة على منطقة الفرات الأوسط، ولعل تضارب هذه المصالح، هو ما حتّم احتلال ماري وانهاء سلالتها الحاكمة / ولو إلى حين /.

حيث نصّب شمشي أدد ابنه يسمع أدد حاكماً على ماري، وابنه الآخر اشمي دجن حاكماً على مدينة ايكالاتوم.

وهنا تستوقفنا ظاهرة تشير إلى ذهنية شمشي أدد كرجل دولة، حيث أنه اعتمد على موقع شباط انليل / تل ليلان / كي يكون عاصمته الثانية ليشرف من خلاله على أحوال الجناح الشامي من مملكته بكافة الأوجه.

والجدير ذكره أيضاً أن هذا الملك، استطاع رسم إطار سياسي يحتوي ويشمل كافة طرق التجارة الدولية، ولا سيما في الجناح الشامي وامتداداته إلى عالم المتوسط.

أيضاً، لم تكن مملكة يمحاض/حلب تستسيغ هذا المدّ الآشوري، واستطاعت تبعاً لفاعليتها الظاهرة، من أن توقف ذلك المدّ لآشور عند الغرب، كما أن أشنونا استطاعت الحدّ منه جنوباً.

وكرجل دولة، لجأ شمشي أدد إلى استمالة قطنة الواقعة قرب حمص والواقعة على تخوم مملكة يمحاض جنوباً، وكذلك حين وضع ابنه اشمي دجن على ايكالاتوم، فقد كان قريباً من فاعلية أشنونا، ومراقباً لتحركات القبائل في زاغروس وهذا ما جعل أشنونا تعترف بنفوذه.

ولجهة مدينة قطنة وهي ما تعتبر الخاصرة الجنوبية لمملكة يمحاض، فقد سعى شمشي أدد لتقوية أواصر العلاقة معها، وهذا ما يعود على مملكة آشور بمصالح تجارية اقتصادية، كون أن قطنة تشكّل خط تجارة دولي إلى المتوسط وعالمه. ⊗

لذا سوف نكون أمام زواج ملكي بين يسمع أدد / حاكم ماري / من ابنة ملك قطنة بيلتوم، ابنة اشخي أدد حيث جاء في الوثائق / احدى الرسائل من شمشي أدد إلى يسمع أدد: " أريد أن آخذ لك ابنة إشخي أدد. السلالة

⊗ يشير الدكتور ميشيل مقدسي في بحثه " منطقة حمص بين المتوسط وحوض الفرات الأوسط في الفترة بين 2000 - 1600 ق.م " إلى وجود ثلاث مجموعات لمواقع كانت على خط التجارة بين قطنة والمتوسط، وأهم تلك المجموعات هي الأولى التي تشمل ثلاثة مواقع رئيسة يتمحور حولها الاستيطان في سهل عكار وهي تل الكزل الذي يقع في النصف الشمالي من السهل، وتل عرقة في النصف الجنوبي وتل جاموس عند الحدود الشرقية.

ويشير الباحث إلى أن هذه التلال كانت مسكونة بكثافة في النصف الأول من الألف الثاني ق.م، ويلاحظ أن المسافة التي تفصل هذه المواقع عن بعضها البعض شبه متساوية وتصل إلى حوالي 20 كيلومتراً.

ويستنتج الباحث أن أماكن تواجد هذه المواقع مدروس حتى تكون كمحطات تجارية رئيسية تتوزع خلالها الطرق علة النحو التالي:

ـ اعتباراً من تل الكزل نحو تل سيانو ورأس شمرا.

ـ اعتباراً من تل عرقة نحو جبيل.

ـ اعتباراً من تل جاموس نحو سورية الداخلية ثم تدمر وماري.

وفي مجال الخط التجاري بين قطنة وجبيل، توصل الباحث إلى أن أغلب المحطات الرئيسية التي عثر عليها تقع أيضاً على مسافة شبه ثابتة وتتراوح بين 18 - 20 كيلومتراً وهي كالتالي:

قطنة ـ قلعة حمص ـ تل النبي مند ـ سهل البقيعة ـ تل جاموس ـ تل عرقة ـ أردة ـ البترون ـ جبيل.

انظر ـ وثائق الآثار السورية 2002 ـ وزارة الثقافة السورية.

الحاكمة في قطنة، لها اسم كبير والسلالة الحاكمة في ماري لها اسم كبير أيضاً ". / عيد مرعي 1991. /.

وثمة وثائق تتحدث عن وصول العروس إلى الفرات بسلام حيث أقامت في قصر يسمع أدد في ماري.

ويبدو أن تحالف آشور مع قطنة كانت غايته الأساسية الوقوف بوجه يمحاض.

ولتبيان أهمية قطنة كمحطة عبور تجاري أيضاً، فإن حركة التجارة آنذاك كانت تمر عبر طريق قطنة ـ ماري. بحيث كانت البضائع والسلع تأتي من شمال فلسطين وجبيل وغيرها، مثل الأخشاب والخيول وتنقل إلى الفرات عبر قطنة ومن هناك إلى شمالي الرافدين.⊗

" وفي عصر شمشي أدد، قسمت الدولة إلى وحدات إدارية / مقاطعات وولايات /، على رأس كل منها حاكم يساعده عدد من الموظفين، وتولى الملك حكم العاصمة والإدارة المركزية ولم يستقر في عاصمته آشور، بل كان كثير التنقل بين دجلة والخابور، وتشير المعطيات إلى أنه جنّد البدو الخانيين في جيشه. ".[18]

وثمة نقش يعود لهذا الملك يذكر إقامة نصب في " أرض لابان " على ساحل " البحر العظيم ". ويعتقد هورست كلينغل أن هذا ربما يشير إلى وصول هذا الملك بجيشه إلى لبنان. وإن الطريق الأقصر بين أعالي الرافدين إلى هذه الجبال لا يمكن إلا أن يَعبُر الصحراء الشامية / ولا سيما قطنة /.[19] في حين يشكك عيد مرعي في حصول هذا وأن نفوذه لم يتعدّ منطقة ماري / عيد مرعي 1991 /.

وثمة وثائق تتحدث عن تشكيل كل من شمشي أدد / آشور / ويسمع أدد / ماري / وإشخي أدد / قطنة /،

⊗ يشير د. فيصل عبد الله إلى أن الحصان ظهر لأول مرة في نصوص ماري في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ويبدو وأن ثمة اهتماماً في ماري وأوغاريت وقطنة وآشور بالحصان، وفي ماري كان سعر الحصان أغلى من ثمن المرأة ويعادل مثقالين من الفضة أي حوالي 17غ من الفضة. انظر فيصل عبد الله . الأرض والإنسان في آلالاخ في القرن 18 - 15 ق.م - دراسات تاريخية - 35 - 36 - 1990 . دمشق.

والامارات الشمالية / كركميش ـ أورشوم ـ خارشوم / اتحاداً ضد سومو إبوخ، ملك يمحاض.

ويبدو أن الصراع بين مملكة آشور ومملكة يمحاض كان مستمراً / دون حصول معارك كبرى / بقدر ما كان مماحكات وغارات في المناطق الحدودية بين المملكتين ولا سيما في أعالي الرافدين. واستمر هذا الصراع في عهد ياريم ليم.

أما خطوط التجارة في هذه الفترة بحسب الوثائق الآشورية في ماري فتبّين وجود ثلاث طرق من نهر الفرات إلى قطنة:

الأول وهو الأبعد عن ماري، حيث يتبع حوض الفرات الأعلى ثم يتوجه إلى تدمر فقطنة، أو الرصافة ثم السعن ـ السلمية ـ قطنة.

وثمة خط أوسط وخط أقرب إلى ماري.[20]

والذي يبدو من الوثائق الآشورية في ماري أن زواج يسمع أدد بابنة ملك قطنة، كان يشوبه بعض المشاكل والخلافات، فبالاضافة إلى كون يسمع أدد ضعيفاً كحاكم من الناحية الشخصية والقيادية حيث ورد في إحدى رسائل أبيه إليه:

إلى متى يجب أن ندللك؟ هل أنت صغير؟ ألست رجلاً؟ متى تستطيع أن تدير بيتك/ في إشارة إلى ماري / بشكل صحيح ؟ ألا ترى أخاك الذي يقود جيشاً كبيراً؟ هكذا يجب عليك أن تدير بيتك وقصرك "[21]

والذي يبدو من رسائل شمشي أدد هذه، أن الملك يمتلك عقلاً استراتيجياً وذهنية متوقدة، تدرك أبعاد وأخطار الحاضر والمستقبل وهذا ما يتبدى في رسالة أخرى إلى يسمع أدد حيث يقول:

" حقق أخوك انتصاراً على أحد القادة، وتجلس أنت بين النساء، ولكن إن ذهبتَ الآن مع فرق من الجيش إلى قطنة، كن رجلاً واصنع لنفسك اسماً كبيراً كما صنع أخوك لنفسه اسماً كبيراً ".[22]

وحين أحس شمشي أدد أن ابنه هذا ميّال إلى اللهو والنساء بما أثّر على زواجه، وبالتالي على مصالح مملكة آشور عبر توّتر العلاقة مع قطنة/ المهمة استراتيجياً لأمن المملكة الآشورية وخطوطها التجارية، والوقوف في وجه مملكة يمحاض / لذا فقد سطر رسالة لابنه حيث ربما وصله خبر أن يسمع أدد يريد ابعاد زوجته عن القصر إلى البادية / جاء فيها: " ألم يسمح الملوك السابقون لنسائهم بالعيش بالقصور؟ أما أنت فترغب في أن تُسكِنَ ابنة اشخي أدد في البادية، وسيسمع والدها بالأمر وسوف لن يرتاح قلبه لذلك. وهذا لا يجوز أبداً وهناك غرف كثيرة في قصر النخيل، يجب أن تختار لها غرفة من بينها وأن يُسمح لها بالسكن فيها .. أما في البادية فلا تدعها تسكن مطلقاً ".(23) كما نقرأ توبيخاً قاسياً لابنه حيث يقول له: " أنت طفل ولست رجلاً، ألا تملك لحية على وجنتيك ".

والجدير ذكره هنا، هو أن شمشي أدد في رسالته إلى يسمع أدد بشأن زوجته من ابنة ملك قطنة أبدى سخاءه في تقديم مهر لهذا الزواج حيث تذكر الوثيقة / الرسالة / أنه خصص مهراً قدره " خمس تالنتات / حوالي 145كغ من الفضة/ و100 ثوب ".(24)

وتدل وثائق ماري في فترة الفاعلية الآشورية على مبلغ العلاقات بين قطنة وماري⊗، " فقد كان كلا الطرفين بحاجة إلى الآخر، فموقع قطنة المتميز يفيد سياسة شمشي أدد وحرصه ألا يعلو شأن ملوك يمحاض/حلب، الذين آووا زمري ليم الفار من ماري، ويحدّ من طموحهم لإعادة زمري ليم إلى العرش، ومدّ نفوذهم إلى المناطق الشرقية.

⊗ تذكر نصوص ماري أن موسم جفاف شديد حلّ على ماري فطلب يسمع أدد من إشخي أدد حاكم قطنة أن يسمح لقطعان مواشي ماري بالرعي في أراضي قطنة.

وبالمقابل كانت قوة شمشي أدد المتعاظمة واتساع امبراطوريته تغري حكام قطنة بالاحتماء به والتحالف معه، لضمان الحماية من الخطر اليمحاضي على مملكتهم الصغيرة.

وتشير وثائق ماري إلى مرابطة قوات عسكرية من ماري والمناطق المحيطة لها في قطنة بهدف حمايتها من أي خطر خارجي مباغت "(25) كما أن قوات ماري تحت إمرة يسمع أدد تمركزت في إيمار. / أبو عساف 1990 /.

وتقدم المعلومات الوثائقية على أن حدود علاقات المملكة الآشورية وصلت حتىالديلمون في الخليج العربي.

وبشكل عام فقد شملت المملكة الآشورية في عهد شمشي أدد معظم الجزيرة الشامية وحتى سفوح زاغروس في الشرق وطوروس في الشمال. ويبدو أن جميع الأراضي من ماري وحتى أعالي الجزيرة الشامية وشرقها قسمت بين ابني شمشي أدد.

أيضاً يمكننا حسب الوثائق التي قدمتها كشوفات ماري الأثرية، أن نشير إلى أن يسمع أدد حاكم ماري قد حكم أيضاً توتول ويبدو أنه كان يريد أن يضم شوباط انليل إلى إدارته، حيث تشير احدى الوثائق وهي عبارة عن رسالة من يسمع أدد من ماري إلى أبيه شمشي أدد يذكر فيها أن نهر البليخ يجب أن تنصب مياهه بكاملها لسقاية أراضي مدينة توتول، ويشير د. فيصل عبد الله إلى أن ثمة نزاعاً كان قائماً بين يسمع أدد في ماري وقائد عسكري مقيم في شوباط انليل، حيث أن القائد العسكري أمر بسد النهر عن توتول لاستخدامها في سقاية مناطقه، ويبدو وأنه تمَّ طرد عمال ماري من منطقة صردا الواقعة قرب توتول.

وفيما يبدو من تحليل الرسالة هذه أن يسمع أدد كان يرغب في مدّ نفوذه إلى أعالي الفرات شمالاً.(26)

والذي يبدو أن شوباط انليل كانت موقعاً مهماً للملك شمشي أدد من أجل إدارة أحوال مملكته لا سيما في

جانبها الذي يعنى بالجزيرة الشامية والفرات الأوسط، ولكن يستشف من الوثائق أن يسمع أدد سعى إلى الحاقها بنفوذه، حيث ثمة رسالة من اشمي دجن إلى أخيه يسمع أدد يدور محتواها حول هذا الأمر حيث يقول:

" أخاف أن تقول أن اشمي دجن هو ضد الحاق مدينة شوباط انليل بمنطقة ماري، فماذا أفعل أنا بها؟ شوباط انليل بعيدة عن المدينة 20 مرة / يبدو أنه يشير إلى مدينته ايكالاتوم/ وبالعكس هي الواقعة في جهتك قرب منطقة ماري ". [27]

وقد ذكرنا سابقاً، أن يسمع أدد لم يكن هذا الحاكم الكفوء للقيادة والإدارة، وثمة وثائق/رسائل تحدثت عن هذا الأمر، وثمة رسالة تعنيف قوية تلقاها هذا الحاكم من أبيه الملك تقول:

" لقد أعطيتك هذه المدينة، فإن كنت قادراً على إدارتها فافعل، وإن لم تستطع فهناك الكثير من الناس المؤهلين القادرين على إدارتها، وفي النهاية سأعطيها لمن يستطيع إدارتها. هل تتصور أن أترك بيتي وآتي كي أدير بيتك؟ الرجل الحقيقي هو من ينظم بيته بنفسه "[28]

والجدير ذكره هنا، هو أن المسافة الفاصلة بين قطنة وماري تبلغ حوالي 350 كم، ومنذ ذلك الحين كان لتدمر وسط البادية الشامية دور كمحطة تجارية كونها تقع في منتصف المسافة بين ماري وقطنة.

وتشير الدراسات أن المسافة بين قطنة وماري مروراً بتدمر كانت تقطعها القوافل بحدود عشرة أيام.[29]

ويبدو أن الفاعلية التجارية في فترة وقوع ماري تحت فاعلية مملكة آشور، لا تشذ عما قبلها، ولكننا هنا أمام تفعيل أكبر لخطوط التجارة عبر قطنة / الحليف الاستراتيجي لآشور /.

فالوثائق تتحدث " عن أخشاب وردت من قطنة إلى ماري، مرسلة إلى آشور حيث أُودعت مؤقتاً في مدينة صبروم الواقعة بين ماري وترقا، أما الأخشاب فكانت خشب

الأرز والسرو والآس ويبدو وأنه تم استيرادها من مناطق الساحل المشرقي لصالح قطنة "[30]

كما أن تجارة الخيول " كانت رائجة في قطنة حيث أن حاكم ايكالاتوم إشمي دجن أرسل إلى إشخي أدد حاكم قطنة، رسالة يرجوه فيها إرسال حصانين، ويبدو أنه بعد وصول الحصانين إلى إشمي دجن وإرسال ثمنها إلى قطنة، أن ملك قطنة انزعج من المبلغ المرسل حيث أرسل لإشمي دجن رسالة قال فيها:

" ليس هذا الكلام للقول، ولكن دعني أَبُحْ به وأروّح عن قلبي. أنت ملك عظيم، لقد طلبت مني حصانين وقد أرسلتهما إليك، وها أنت ترسل مقابلهما 20 مينا من القصدير .. ألم تلح عليّ في الطلب دون مساومة؟ ألم تستلمهما دون تردد؟ ثم ترسل إليّ هذه الكمية الزهيدة من القصدير .. طبعاً مَرِضَ قلبي، فثمنهما عندنا هو 660 شقل فضة وأنت ترسل 20 مينا قصدير ... أنت لست ملكاً عظيماً ...لماذا فعلت ذلك؟"[31] وثمة رسالة من شمشي أدد إلى يسمع أدد يطلب منه تقسيم حمولة الأخشاب إلى ثلاثة، واحدة لمدينة نينوى، والثانية لمدينة ايكالاتوم والثالثة لشوباط انليل. / اندره فينه ـ الحوليات 34 /.

أيضاً نقرأ وثيقة أخرى، وهي عبارة عن رسالة من حاكم قطنة إشخي أدد إلى يسمع أدد حاكم ماري تدور حول فقدان قطعان من الماشية حيث تقول الرسالة:

" فيما يتعلق بالقطعان، فلم أتوقف عن الكتابة إليك منذ أيام عديدة، ولم يتوقف جماعتك عن الإجابة، بما يلي: أجل ستطلع القطعان، ولكن القطعان لم تطلع، والآن أقسمت بالإله من جديد، بل بعينيّ ما دامتا حيتين، فلم أعد أثق بهذا، أما الآن فاطلع أنت على القطعان، واطلع معك ابنتي / زوجة يسمع أدد / ".[32]

وأبانت الوثائق أيضاً عن فعالية تجارية لماري مع الديلمون في البحرين، حيث أن هناك وثيقة تتحدث عن وصول رسل من الديلمون إلى ماري وتسلّم بعضهم في

شوباط انليل هدايا بأمر من الملك شمشي أدد، وقد اشتملت الهدايا على زيت السمسم وصناديق خشبية وصنادل.

وثمة وثيقة أخرى عبارة عن رسالة أرسلها يسمع أدد إلى حمورابي بابل يذكر فيها المصاعب التي واجهها في إرسال بعثة إلى الديلمون. ⊗

وفي اتجاه تجاري آخر، نجد أن طريق قطنة ـ ماري كان يشهد انتقال للبضائع القادمة من شمال فلسطين، ومناطق أخرى على الساحل المشرقي / أخشاب وخيول / حيث تنقل عبر الفرات إلى أعالي الرافدين.

وتشير الوثائق إلى وجود مركز تجاري لماري في قطنة.

وكانت قطنة وماري ويمحاض تتقاسم المراعي الواقعة شمالي تدمر. ⊗⊗

ومن طرائف الوثائق آنذاك، التي تتحدث عن هروب طبيب وخمسة طباخين من قصر شمشي أدد ولجوئهم إلى ماري، وقد سبق أن هرب عدد من الموظفين الكبار / الجرسيتو / ويشرح شمشي أدد في الرسالة سبب هروبهم إلى ماري وذلك بسبب وجود حانة للتسلية واللهو في ماري.(33)

كما تتحدث وثائق تلك الفترة على وجود إحصاء للسكان في ماري بالاضافة إلى ما يعنيه من جبيَ للضرائب. ونختتم هذه الفترة من وقوع ماري تحت الفاعلية الآشورية برسالة لشمشي أدد إلى ابنه يسمع أدد، حيث أننا أمام نسق من الرسائل التي تُختتم بَمَثلٍ، وهذا ما زال دارجاً إلى يومنا هذا، ويقول شمشي أدد:

⊗ مملكة بابل، أسسها سومو أبوم 1894 - 1881 ق.م. ولم تمتلك وتحقق فاعليتها التاريخية إلا في عهد ملكها حمورابي 1792 - 1750 ق.م. وتشير المعطيات إلى علاقة جيدة بين حمورابي وشمشي أدد، كون أن الفاعلية البابلية لم تشكل خطراً حتى ألان على الفاعلية الآشورية بل كانت آشور تسود بابل دون أن تتبع الثانية للأولى.

⊗⊗ في دلالة على عمق العلاقات المتأزمة بين مملكة آشور ومملكة يمحاض، تبين وثيقة من محفوظات ماري، أن حاكمها يسمع أدد، أراد السفر إلى قطنة من ماري، وقد تحاشى المرور بحلب وأخذ طريقه عبر تدمر إلى قطنة.

" كل شأنك هو أن تُبتلى بخدع دائماً، وأن تظل تخطط لهزيمة عدو دائماً، ولكن العدو أيضاً يجرّب خدعاً ويناورك دائماً.

متى ستكون كالأبطال المصارعين وتتمكن ـ ولو لمرة واحدة ـ من تضليل أحدهم؟ أتمنى أن تتفادى حدوث ذلك نفسه معك، فلا ينطبق عليك المثل القائل: الكلبة من عجلتها، ولدت جراء عمياناً ".[(34)]

وفي 1782 ق.م، يموت شمشي أدد، ويخلفه ابنه إشمي دجن الذي لم يستطع المحافظة على قوة المملكة الآشورية، وإحدى الوثائق تشير في رسالة من إشمي دجن إلى أخيه يسمع أدد ما يلي: " مملكتك تبقى مملكتك "[(35)] ⊗

ما يعني أن يسمع أدد بقي حاكماً على ماري، فهو إن كان ضعيفاً أثناء وجود أباه في حكم المملكة الآشورية، فإنه الآن أضعف من أن يتحمل معطيات ما بعد شمشي أدد، وهذا ما حدث حيث استطاع زمري ليم من أن يعود الاعتلاء عرش ماري بمساعدة خاله ملك يمحاض/ ياريم ليم / والذي سوف يصبح والد زوجته أيضاً.

ويبدو أن إشمي دجن قدّم المساعدة لأخيه لئلا يسقط حكمه في ماري ولكنه لم يفلح، وهكذا تعود ماري إلى مملكتها بعد حوالي خمسة عشر عاماً من الإدارة الآشورية، في حين أن ملك أشنونا إبال بيل الثاني، يقود هجوماً على المملكة الآشورية من الجنوب حيث يستولي على أجزاء منها، كما خسر إشمي دجن مناطق عديدة من أعالي الجناح الرافدي،⊗ لتعود آشور إلى مدنية فاقدة لفاعليتها التاريخية وبحجم دويلة صغيرة.

⊗ ثمة وثيقة/رسالة من إشمي دجن ملك آشور / بعد وفاة أبيه / إلى أخيه يسمع أدد، يطلب فيها إرسال جيش يساعده على تمرد في دولته. كما طلب منه ارسال سفن مشحونة نصفها بالحبوب والدقيق والبيرة ليضلل الجواسيس / عبر الفرات /. قاسم طوير ـ حوليات 34 .

⊗تشير المعطيات إلى أن زمري ليم تمكّن بمساعدة من يمحاض وأشنونا وبابل من طرد إشمي دجن من بلاد الرافدين العليا.

" وتشير وثائق ماري الإدارية إلى أن انتقال السلطة إلى زمري ليم، وزوال سلطة يسمع أدد عن ماري، لم يحدث في ظروف حرب تدميرية، حيث نجد نساء يسمع أدد يعشن في كنف زمري ليم، وكذلك الجهاز الإداري ما عدا تبديل بعض الموظفين.

وبعد استلام زمري ليم الحكم في ماري، آلت جميع الأراضي التي سيطر شمشي أدد وابناه عليها إلى زمري ليم، وربما كان لياريم ليم ملك يمحاض حظ في ذلك ".[36]

استنتاجات حول فترة ماري تحت الفاعلية الآشورية:

بعد استعراضنا لوقائع الحياة في مدينة ماري في فترة سيادة الفاعلية الآشورية عليها، في مختلف جوانبها السياسية والعسكرية والاقتصادية والتجارية، نصل إلى عدة استنتاجات تُعنى بهذه الفترة:

أولاً:

من استعراض مختلف الفاعليات في مدينة ماري، لا نلحظ أن ثمة افتراقاً أو قطيعة بين ما قبل الفاعلية الآشورية وما بعدها، بل ثمة استمرارية في حركة المدينة بما يوحي أن الأسرة العمورية والتي منها شمشي أدد، لابدّ أنها تنتمي إلى قرابة للعائلة العمورية لزمري ليم.⊗

وعلى هذا فالذي يبدو أن الصراع كان بين أسر حاكمة وليس بين شعوب، فالشعب واحد إن كان في آشور أو ماري أو بابل في هذه الفترة.

وكنا ذكرنا أن إلا كبكابو / والد شمشي أدد / كان يحكم ترقا، وأن يجيد ليم قد طرده وضمّ ترقا إلى فاعلية ماري، ما يعني أن الصراع هو بين حكّام ينتمون إلى أرومة واحدة، وبالتالي ليس ثمة قطيعة إثنية أو اقتصادية أو اجتماعية أو روحية.

ثانياً:

نلحظ أيضاً أن المجال الجغرافي في المشرق العربي آنذاك، كان مطواعاً لحركة التاريخ والمجتمع في بعدها السياسي.

فإن طُرد إلا كبكابو من ترقا، فإن نهر الفرات لم يكن عائقاً أمام ذهابه إلى مدينة بابل، ثمَّ ظهور المعالم

⊗ تعتبر مدينة ترقا مسقط رأس شمشي أدد، كما أن أسرة يجيد ليم ملك ماري العموري الأول يحتمل أن أساسها من مدينة ترقا أيضاً.

القيادية لدى ابنه شمشي أدد، الذي سيطر على مدينة آشور / وقبلاً ايكالاتوم / ومن ثم سوف تكتمل فاعلية مدنية آشور التاريخية، لتُضفي وشاحاً عمورياً جديداً على المشرق العربي. وأيضاً، ما يعزز فكرتنا هذه، هو أن شمشي أدد، وكونه يمتلك عقلاً استراتيجياً، وجد أن الجناح الشامي لا يمكن أن يسيطر على حركته إن لم يكن له مربط فرس فيه، فكانت عاصمته الثانية في شوباط انليل/تل ليلان. ما يؤكد احتواء حركة التاريخ للجغرافيا المشرقية بشكل متطابق.

ثالثاً:

في ما يشي بطغيان الذهنية القبلية والعشائرية على الأسر الحاكمة آنذاك، نلاحظ أن للعامل الوراثي دوراً أساسياً في النظام السياسي.

فإن يكن يسمع أدد حاكم ماري ضعيفاً وغير كفءٍ للقيادة ولحكم المدنية، فإن كونه ابن الملك قمين بأن يجعله حاكماً، وما يدل على طغيان عامل الدم والانتماء العائلي القبلي على سواه من العوامل.

وهذا ما ينسحب على مجمل مدن المشرق العربي، إن كان في ماري عبر أسرة يجيد ليم، أو حلب عبر سومو ابوخ وسلالته أو إبلا ... وهكذا.

رابعاً:

تمنحنا حركة التاريخ آنذاك أن صراع المصالح بين المدن والممالك، كان طاغياً لدرجة أنه يمكن أن يؤثر على مصالح تلك المدن أو الممالك.

فخطوط التجارة مثلاً، ونتيجة لطبيعة الصراعات تلك كانت تتغير تبعاً لدرجة الطمأنينة أو الخطورة وعلى هذا فإن طرق التجارة المحلية أو الدولية للمملكة الآشورية كانت تصطدم بمناوئة من مملكة يمحاض، كما أن مملكة يمحاض كانت تتأثر طرقها من العداء الآشوري لها.

وعلى هذا فقد تبعت الخطوط التجارية أحوال العلاقات بين المدن أو الممالك، ومنها ما أثرَّ سلباً في حين كان

يؤثر إيجاباً على مراكز أخرى كما حال مدينة قطنة التي استفادت في هذه المرحلة من العداء الآشوري ـ اليمحاضي.

وبذا نفهم مثلاً أهمية وادي الخابور بالنسبة للمملكة الآشورية حيث كان طريقاً مهماً للمواصلات والتجارة بين ماري وآشور.

خامساً:

بشكل عام، تشبه فترة الفاعلية الآشورية هذه، فترة الفاعلية الأكادية حين سيطرت على مملكة ماري، فكلتا الفاعليتين جرّدتْ مدينة ماري من مملكتها وأعادتها إلى حجمها الاعتيادي، مع الملاحظة أن مدينة ماري تحت الفاعلية الآشورية كانت أكثر حيوية وفعلاً من الفترة الأكادية وقاربت أن تكون مملكة.

سادساً:

تشهد فترة الفاعلية الآشورية، على أن الملك شمشي أدد، كان رجل دولة من الطراز الأول، وبرأينا أنه لا يشذ عن نمط ملوك المشرق العربي سواء في الألف الثالث، مثل لوغال زاجيزي، أو شاروكين الأكادي.

فهو صاحب منهج ورؤيا ويمتلك ذهنية استراتيجية وسياسية جعلته في مصاف القادة التاريخيين. وهذا ما سوف نلحظه في شخصية حمورابي البابلي أيضاً، وزمري ليم ملك ماري.

والذي يبدو بشكل عام أن ما كان ينقص كل هؤلاء، هو امتلاكهم لرؤية توحيدية في المصالح، تحتم اتحادهم واتحاد مدنهم وممالكهم. ولكن الحاصل هو أن المصالح المدينية طغت حتى على احتمالات الاتحاد، مما أضعف المشرق العربي على مدى تاريخه القديم.

ولعل تحقيق مصالح المدن آنذاك عبر القوة المادية لم يكن ليقّدم أو يؤخّر، طالما أن البنية المجتمعية، والروحية

لم تكن بمثل معالم القوة المادية، لهذا نجد فور ضعف الفاعلية التاريخية لمملكة ما، أن المشرق العربي يضطرب وتنفك أواصره، مما يدفع القوى المحيطة للانقضاض عليه.
والذي كان ينبغي، هو أن تسير القوة المادية إلى جانب القوة الروحية ـ المجتمعية في دورة حياة واحدة مفروضة بوحدة المصالح والانتماء وليس بقوة السلاح.

سابعاً:

لعل ما يضيء أكثر على طريقة تفكير الملك شمشي أدد، هو تلك الرسائل التي أتينا على ذكرها، ما تعطي دلالة على منهج تفكير رجل دولة يهتم بكل شاردة وواردة وصغيرة وكبيرة في أحوال مملكته ولعل هذا يتبدى بشكل واضح في رسائله إلى ابنه يسمع أدد / حاكم ماري /.
ومن طرائف تلك الرسائل، تلك الرسالة التي يطلب فيها شمشي أدد من ابنه يسمع أدد، أن يتمَّ تعليم بنات ملك ماري المقتول يخدون ليم، الموسيقا، وحيث أنه تمّت التوصية على خمس قيثارات، ولكن حصل تباطؤ في صنعها، ما استوجب تنبيه المسؤول عن ذلك.⊗

⊗ انظر ـ ماري اندره بارو ـ ت ـ رباح نفاخ ـ وزارة الثقافة ـ سورية 1976.

مراجع الفصل الثالث

1- علي أبو عساف ـ فنون الممالك القديمة ـ مرجع سابق.
2- جورجيو بوتشيلاتي. ترقا ـ أضواء جديدة على تاريخ وأثار بلاد الشام ـ 1989 ـ ترجمة قاسم طوير ـ دمشق.
3- المصدر السابق.
4- كاي كولماير ـ الآثار السورية ـ 1982.
5- المرجع السابق.
6- المرجع السابق.
7- جان ماري دوران ـ ل. باشيلو ـ تل محمد دياب ـ المساهمة الفرنسية ـ مرجع سابق.
8- جان كلود مارجرون: محاضرة حول ماري ـ C.C.F دمشق. مرجع سابق 1991.
9- علي أبو عساف ـ ايمار في حوض الفرات الأوسط ـ دراسة غير منشورة.
10- مارتا لوتشياني ـ حوض الخابور الأدنى في عصر البرونز الوسيط ـ وثائق الآثار السورية 2002.
11- الفرد هالدار ـ العموريون ـ مرجع سابق.
12- المرجع السابق.
13- علي أبو عساف ـ أثار الممالك القديمة ـ مرجع سابق.
14- هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي. مرجع سابق.
15- عيد مرعي ـ يخدون ليم ملك ماري ـ دراسات تاريخية 27 - 28 /1987.
16- هورست كلينغل ـ مرجع سابق.
17- علم الدين أبو عاصي ـ اقتصاد مملكة ماري ـ وزارة الثقافة ـ سورية 2002.

18- محمد حرب فرزات ـ عيد مرعي ـ دول وحضارات ـ مرجع سابق.
19- هورست كلينغل ـ مرجع سابق.
20- فيصل عبد الله ـ قراءة في خمسة مجلدات في ماري ـ مرجع سابق 37 - 38 ـ دراسات تاريخية.
21- عيد مرعي ـ تاريخ بلاد الرافدين ـ دار الأبجدية ـ دمشق 1991.
22- المرجع السابق.
23- المرجع السابق.
24- فاروق اسماعيل ـ قطنة في وثائق العهد البابلي القديم ـ الحوليات الأثرية السورية 42 - 1996.
25- المرجع السابق.
26- فيصل عبد الله ـ إبلا أقدم مثال نمط زراعي متقدم ـ دراسات تاريخية 43 ـ 44 ـ 1992.
27- المرجع السابق.
28- المرجع السابق.
29- فيصل عبد الله ـ تدمر في الوسط الاقتصادي ـ السياسي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. الحوليات الأثرية السورية 42 / 1996.
30- فاروق اسماعيل ـ مرجع سابق.
31- المرجع السابق.
32- فيصل عبد الله ـ المرجع السابق.
33- الفرد هالدار ـ العموريون ـ مرجع سابق.
34- فاروق اسماعيل ـ ماري وشبت انليل ـ الوثائق الأثرية السورية ـ 2002 دمشق.
35- فيصل عبد الله ـ إبلا وماري ـ مرجع سابق.
36- فيصل عبد الله. المرجع السابق.



مملكة ماري في عهد زمري ليم
1782 - 1759 ق.م

المتغيرات الإقليمية في المشرق العربي في عهد زمري ليم⊗: 1782ق.م - 1759 ق.م

مع تراجع فاعلية المملكة الآشورية، أصبح المشرق العربي أمام صعود لفاعليات تاريخية جديدة، فبابل بدأت بقيادة حمورابي في التعبير عن اكتمال فاعليتها ونموها،

⊗ تختلف الآراء بين الباحثين حول تأريخ استلام زمري ليم لحكم ماري، فبعضهم يؤرخ ذلك على حوالي 1782 ق.م، في حين يعيده آخرون إلى 1775 ق.م ويعتبر عهده من أفضل العهود لجهة الغزارة في وجود سجلات كتابية تختص بتلك الفترة. وهذا ينسحب على فترة انتهاء فاعلية مملكة ماري بين 1759 ق.م، أو 1761 ق.م.

وإشنونا ولارسا ويمحاض وماري وقطنة. ويتجلى الوضع السياسي آنذاك موثقاً في رسالة من إتور ـ أسدو، حاكم ناحور إلى زمري ليم حيث يقول: " لا يوجد ملك واحد قوي حقاً بمفرده: ثمة عشر (أو) خمسة عشر ملكاً يسيرون في ركاب حمورابي ملك بابل، ومثلهم في ركاب ريم ـ سن ملك لارسا، ومثلهم في ركاب إيبال ـ بي ـ إيل ملك إشنونا، ومثلهم في ركاب أموت ـ بي ـ إيل ملك قطنة، وعشرون ملكاً يتبعون ياريم ـ ليم ملك يمحاض ".(1)

إذن كان على زمري ليم، ملك ماري، أن يسعى لإيجاد فاعلية لمملكته وسط هذا الواقع المفكك والذي لا يمكن من تحقيقها ما لم يوطد شؤون المدينة ومجالها الحيوي.

وكرجل دولة، نلحظ أن زمري ليم استطاع استيعاب حركة التاريخ آنذاك، عبر صراع المصالح بين المدن ـ الدول تلك. وكون أن منطقة الخابور الأعلى كانت دائماً محط أنظار زمري ليم، فقد سعى إلى احتوائها تحت فاعليته.⊗⊗

" كما أن بنو يمين / البنياميين /، ساءت علاقتهم معه، وتتحدث المعطيات الآثارية والوثائقية إلى رسالة، من أمير سمانم البنياميني إلى إيمار، يستنجد بها ضد زمري ليم. ويبدو أن إيمار وتوتول وقفتا إلى جانب عشائر البنيامين ضد زمري ليم حفاظاً على مصالحهما التجارية واتقاء لشرّهم حيث رغبوا بالسيطرة على هاتين المدينتين حتى يستطيعوا مقاومة ماري وربما حلب.

والذي يبدو أن إيمار وتوتول وبسبب كونهما مدينتين تجاريتين، لم تستمرا في تأييد البنياميين، ولم ترسلا قواتاً معهم ضد زمري ليم، لا بل ان بحارة إيمار ابلغوا ماري عن استعداد البنياميين لشن هجوم على ماري، ويبدو أن

⊗⊗ تشير المعطيات إلى أن منطقة أعالي الجزيرة والفرات كانت مجال الصراع للسيطرة بين ماري ويمحاض ـ فيصل عبد الله ـ 1999 .

الصراع حُسم لصالح ماري واكتفت المدينتان بأن منحتا اللجوء لفلول الجيش البنياميني "[2]
وعبر كل هذا استطاع زمري ليم من ايجاد التفاهم بين ماري والبنياميين طبقاً لاستراتيجيته.
وتشير وثيقة إلى أن أفراد من بني يمين حجزوا قمحاً لماري، وقد جرت محادثات بين ماري وإيمار والبنياميين لحل هذه المسألة.[3] وفي النهاية يبدو أن البنياميين أقاموا في مملكة ماري وقد حظي شيخهم سموا ـ دابي بالمكانة الخاصة عند زمري ليم.
ويبدو أن أخطر ما كان يواجه ماري هو مدينة إشنونا المتحالفة مع عيلام، وهذا ما استطاع مجابهته عبر إنشاء تحالف بين ماري ويمحاض وبابل ضد إشنونا وعيلام وأنداريق.
ففي النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، " كان سكان الهلال الخصيب من القبائل حضراً وبدواً. والبدو هم الأكثر، وتقوم بيئتهم على الارتحال وتخليف المنازل والرسوم، فيتشتت شمل القبيلة الواحدة، أو يجتمع، فتصبح قوة سياسية وتكتسح غيرها، أو تبني لها كياناً سياسياً في منطقة خلاء ... وكان الكنعانيون/ العموريون ينقسمون إلى قبائل مستقل بعضها عن بعض، ظهرت على أشكال ممالك كانت تتحالف واحدة مع الأخرى أو مع أكثر من واحدة أحياناً ضد مملكة أخرى أو مجموعة ممالك.
وكان أبناء القبيلة الواحدة يتوزعون بين الحضر والبدو، وتنشأ بينهم النزاعات على السلطة فينقسمون على أنفسهم أو يخضعون لغيرهم. والنزعة إلى الانفصال والإستقلال كانت قوية، وإلا لما انقسموا إلى ممالك صغيرة وكبيرة. كثيرة العدد. / علي أبو عساف 1993 /.
الجدير ذكره أيضاً، هو أن كل مملكة مشرقية، كانت تسعى إلى توسيع نفوذها وتحقيق وجودها، فإن كانت يمحاض في عهد ياريم ليم قد امتد نفوذها إلى منطقة

شرق دجلة / ديرو دينكتوم /، وهذا ما سبّب إحساس إشنونا بالخطر.
في وقت كان حمورابي يوطد مملكته عبر احتلاله لأوروك وإيسن ولارسا. وتشير المعطيات أيضاً إلى محاربته لإشنونا متحالفاً مع ماري.
وكنا أشرنا في سياق عهد يخدون ليم إلى وجود تحالفان في منطقة الفرات الأوسط، حيث كان الأول يضّم: ايمار ـ أباتم ـ توتول ـ سمانم.
والثاني: ترقا ـ ماري ـ سكاراتوم.
وكان هذان الحلفان متناوأن، والذي يبدو الآن في عصر زمري ليم أن التفاهم قد حصل بين الحلفين.
ويشير د. فاروق اسماعيل إلى عدة إمارات خضعت لفاعلية ماري في عهد زمري ليم، متواجدة في منطقة مثلث الخابور وهي: شوباط انليل ـ إيلان صورا ـ كخت ـ أوشنكوم ـ ناحور وغيرها.(4)
والجدير ذكره أن احتواء هذه الإمارات جرى بالتدريج وبأشكال مباشرة وغير مباشرة.
وفي منطقة جبل سنجار وبلاد يموت ظهرت ممالك قوية مثل: كردا / بلد سنجار. / قطارا / تل الرماح ـ كرنا / تل عتر ـ أندريق / تل خوشي / ـ ألخد / تل هذيل / ـ رزاما وغيرها.
ويشير الباحث إلى أن زمري ليم ترك إدارة هذه الممالك الإمارات لحكامها المحليين ولكن كان له في معظمها، رسل أو مندوبون مراقبون، أو حاميات عسكرية لترعى مصالح ماري.
كما كان يتدخل في شؤونها عند بروز خطر داخلي يمس سيادته فيها، كما يشارك في الدفاع عنها عند التعرض لهجوم خارجي، ويسهم في حل الخلافات بينها أحياناً. وكان لا يلجأ إلى الاحتلال الكامل إلا عندما يكون ذلك مبرراً.
ويلحظ د. اسماعيل في مقاربته لشخصية زمري ليم:

أن موقفه هذا معبر عن حكمته، إذ لم يكن يرغب الحكم بالقوة ولا يريد خلق أعداء له وهو في بداية عهده، بل كان يسعى إلى إرضاء سكان المنطقة وبالتالي تحقيق شيء من الوحدة فيها.(5)

ويبدو وأنه في السنة الثالثة من حكم زمري ليم، تعرضت منطقة مثلث الخابور لغزو من إشنونا، حيث احتلت قوات إشنونا/ ملكها ايبال ـ بي ـ إيل /، شوباط انليل وتمكّن من قتل حاكمها. وتحرك هذا الجيش نحو ماري. وتشير وثيقة / رسالة من زمري ليم إلى خنتورابي / ملك كرنا / إلى موقفه من هذا الهجوم وحاجته لقوات دعم:

" لقد كتبتُ إليك مرات طالباً امدادات عسكرية، ولكن طالما أن قواتك لم تصل، فسوف أقتلع أظفار حاكم إشنونا من قلب مقاطعتي بقواتي الخاصة وسأمزقه كي لا يعود إلى مقاطعتي مرة أخرى ".(6)

وهذا ما يشير إليه الباحث حميدو حماده من أن زمري ليم " لم يحاول فرض هيمنته على أي منطقة نائية عن بلاده، بل اكتفى بالاعتماد على ملوك أتباع كان يدعمهم وفي الوقت نفسه، ويرصد تحركاتهم بواسطة مبعوثيه وقواد جيشه ".(7) وقد سعى زمري ليم إلى تزويج بناته الإحدى عشر زيجات دبلوماسية ولغايات سياسية مع حكام مدن مملكته وكبار ضباطه ـ وبشكل عام، يبدو أن فاعلية مملكة ماري في عهد زمري ليم امتدت من توتول على مصب البليخ، إلى بلاد خانه على الفرات جنوباً وحول مجرى الخابور شمالاً. وامتلكت حدوداً مشتركة مع مملكة قطنة ترافقت مع الطريق التجاري عبر البادية الشامية.

فإذن، كان الوضع السياسي، مهماً لزمري ليم والذي استطاع من خلاله ومن خلال دراسة أحواله، أن يسعى إلى ايجاد موطئ قدم لمملكته بين ممالك تلك الفترة.

كما أن الواقع التجاري والزراعي فرض نفسه مع الواقع الاقتصادي من أجل ازدهار ماري.

فكما هو معلوم أن ماري تتواجد في بيئة شبه صحراوية، والمعطيات الطقسية المناخية، تشير إلى أن الأيام الممطرة لا تزيد عن 40 يوماً في السنة، أما الجفاف فيشمل من شهر أيار حتى تشرين الأول.

ولهذا كان على إدارة ماري وبشكل دائم من أن تسيطر على احوال البيئة الطبيعية وتجعلها مطواعة لحاجاتها، وهذا ما شهدناه في المنشآت الملاحية وعالم الري، والأقنية سواء، تلك المستخدمة للشرب أو للري الصناعي كما استطاعت استثمار الأراضي الصالحة للزراعة في وديان الخابور والفرات.

ويشير كاي كولماير إلى أن الأراضي الزراعية المحيطة بماري، شكّلت قاعدة اقتصادية زراعية لها.[8]

لذا فإن نظرة ماري إلى مجالها الحيوي بالاضافة إلى أهمية الفرات شكّلت رافعتان أساسيتان في ازدهارها، الأول في المنحى الاقتصادي ـ الزراعي والثاني في المنحى التجاري.

وفي العلاقات السياسية، استطاع زمري ليم إقامة علاقات سياسية وحتى تحالفية متينة مع ممالك المشرق العربي الأخرى.

فمع يمحاض/حلب، تميزت علاقات مملكة ماري معها بالتحالفية والراسخة، توّجها زواج زمري ليم من ابنة ملك يمحاض ـ شيبيتو ابنة ياريم ليم. / وكون أن كركميش كانت واقعة تحت نفوذ يمحاض، فبالتالي، كانت علاقة ماري معها جيدة[⊗]/ وهذا هو ما أعاد زمري ليم إلى عرش ماري حيث ورد في أحدى رسائل " حقاً إنه والدي الذي سبّب

[⊗] ثمة وثيقة تعبر عن العلاقة الجيدة بين ماري وكركميش، تتحدث عن إرسال ملك كركميش إلى ملك ماري حبوباً وخموراً، / تاريخ سوريا السياسي ـ هورست كلنغل / كما تشير الوثائق أيضاً إلى رسالة من زمري ليم إلى سفير ماري في كركميش واسمه ساتران ـ ناصر، يطلب زمري ليم من ملك كركميش فرقاً عسكرية من يمحاض وقطنة وزكاتوم وبعد تسلم تيار
آمي الحكم في كركميش خلفاً لوالده أرسل رسالة إلى زمري ليم حيث أطلق على نفسه لقب " ابن زمري ليم " وعلى زمري ليم " أبي ".

استعادة عرشي ". ومع بابل، كانت علاقة ماري في بادئ الأمر تحالفية ومتينة، وتشير محفوظات ماري إلى وجود معاهدة تحالف تعتبر من أقدم المعاهدات بين حمورابي بابل وزمري ليم ملك ماري، حيث يتعهد فيها الطرفان بمحاربة ملك عيلام وبعدم تفرد أي منها بعقد الصلح معه.[9]

ورغم هذا فإن الخشية كانت تنساب العلاقة بين المملكتين ولا سيما من ماري التي كانت تخشى من تعاظم قوة الفاعلية البابلية لا سيما وأنها تستند على العمق الرافدي بالكامل.

وتشير الوثائق إلى أن زمري ليم ذهب بجيشه لنجدة بابل[10].

كما أن حمورابي بابل استطاع أن يؤمن تحالفات أدت إلى تعاظم قوة بابل، حيث ثمة تحالفاً بينه وبين ملك لارسا الرافدية أوضحته رسالة من ملكها ريم ـ سين إلى حمورابي، حيث جاء فيها:

" لقد احتشد الرجال في مملكتي، فليحتشد الرجال في مملكتك أيضاً, اذا عزم العدو على مهاجمتك فإن رجالي وسفني ستلحق بك، أما اذا عزم العدو علة مهاجمتي فليلحق بي رجالك وسفنك ".[11]

ويبدو أن العدو هنا هو إشنونا أو عيلام أو تحالفهما معاً كما تشير وثائق/رسائل من حمورابي بابل إلى وكيل قصر ماري يتحدث عن إرسال جيوش عديدة إلى ماري.

وأما علاقة ماري مع إيمار:

فقد انتابها بعض المشاكل رغم تبعية هذه إلى فاعليات يمحاض وكركميش وماري حيث كانت تدفع الجزية لهم. وتشير وثيقة/رسالة من سفير ماري في بلاط كركميش واسمه صُدقم ـ لاناسي، إلى أن حلب وكركميش وماري فرضت مقاطعة على إيمار للسيطرة عليها ومعاقبتها.

وفي وثيقة أيضاً لزمري ليم هي عبارة عن رسالة منه إلى ملك يمحاض يشير الأول إلى أن سكان إيمار يتعرضون للمسافرين عبرها ومنهم أحد الفارّين من حاصور في فلسطين والذي كان ينشد حماية زمري ليم.

ويبدو وأن مواقف إيمار السلبية دفعت تلك الممالك إلى مقاطعتها وفرض الحصار عليها، حيث لجأت كركميش إلى منع ابحار السفن في حوض الفرات من كركميش إلى إيمار.

أما ماري فعرقلت ابحار السفن باتجاه مجرى النهر عبر توتول وقاطونان.

في حين أن حلب قطعت عليها الطريق البرية الذاهبة نحو الغرب.[12]

ومع قطنة، كانت علاقات ماري جيدة وغالباً ما كانت ماري وسيطاً جيداً لحلّ الخلافات بين قطنة ويمحاض. وبرغم ذلك فقد كان زمري ليم وبرغم علاقاته المتينة والتحالفية مع الممالك آنذاك، كان يسعى لبث عيون المراقبين والمخبرين في تلك الممالك وثمة وثيقة تشير إلى غموض في علاقة بين عيلام وقطنة. حيث أن الوثيقة هي عبارة عن رسالة من أحد كبار موظفي القصر في ماري إلى زمري ليم يعلمه فيها بالتالي:

" لقد عبر رسول حاكم عيلام إلى حلب، وعندما وصل إلى إيمار أرسل أثنين من أتباعه إلى قطنة، عندما سمع حمورابي / ملك حلب وابن ياريم ليم / بذلك أرسل جنوداً إلى المنطقة الحدودية فقبضوا على الرجلين عند عودتهما. وعندما حققوا معهما أقرا أن حاكم قطنا أرسل معهما إلى سيدهما/ملك عيلام / الخبر التالي:

[البلاد ممنوحة لك، تعال إليّ، اذا قدمت فلن نختلف]. ثم يعلم الموظف زمري ليم بأن حاكم قطنة أرسل رسلاً إلى عيلام ويطلب منه " ليت سيدي يتخذ قراراً ويكتب إلى حاكم بابل طالباً منه ألا يدع هؤلاء الرسل يتجاوزون بلاده ".[13]

وفي المقابل، في مثلث ماري يمحاض، قطنة، يشير د. فاروق اسماعيل إلى أن يمحاض كانت على اتفاق تام مع ماري وتسعى إلى تأجيل الصراع مع قطنة وتلزم الهدوء حرصاً على مصلحة ماري لا بل أن ياريم ليم ملك يمحاض، أبدى رغبته في حل الخلاف المزمن مع قطنة شرط أن يحضر حاكم قطنة، اموت بي إيل إلى حلب وأن يؤديا القسم الإلهي ويعقدا اتفاقية سلام بينهما، وكانت ماري هي المرشحة للتوسط في إنهاء هذا الخلاف كما رأى حموارابي ملك بابل.[14]

وفي موازاة ذلك فإن عالم الوثائق في ماري يقدم لنا الإضاءات تلو الإضاءات لواقع الحياة في الألف الثاني قبل الميلاد، في كافة مناحيها ولا سيما بين الممالك.

ففي معرض مناقشتنا لعلاقات ماري ويمحاض التحالفية والمتينة والتي وصلت إلى حد القرابة العائلية، نجد أن المصالح كانت تتحكم بقوة في هذه العلاقات، فمثلاً ثمة ما يعرف بأزمة الحبوب التي وقعت بين حلب وماري، حيث أن ياريم ليم سيطّر على تجارة الحبوب وحاول استخدام ذلك للضغط السياسي على صهره زمري ليم من مركزه التجاري الفراتي إيمار.[15]

ويشير ألفونسو آركي إلى أن في جوار حلب كانت ثمة منطقة تتبع ملكية زمري ليم، ويعلمنا رقيم مسماري، بأن أدد الحلبي (ربما هو ياريم ليم كون أن الملك في العرف السائد آنذاك يستمد ملكه من الإله) أعلم زمري ليم عن طريق الوحي الإلهي بما يلي:

" اذا لم يُسلمها فإنني قادر على الإستيلاء عليها، وأنا سيد العرش، سيد الأرض والمدينة. أما اذا حقق رغبتي فسأهبه عرشاً إثر عرش، منزلاً تلو منزل، أرضاً إثر أرض، مدينة تلو مدينة، وقد أسلّمه بلده من الشرق إلى الغرب ".

كما أن الوجه الآخر للرقيم يحوي رسالة من أدد الحلبي إلى زمري ليم يقول فيها:

" ألست أنا أدد سيد حلب، الذي فقّهك من بين الرعية والذي أوصلك إلى العرش وإلى منزل والدك .. ويختم: لقد مسحتك بزيت انتصاري ".[16]

الجدير ذكره هنا هو وجود رسائل من زمري ليم إلى ياريم ليم تصفه بـ " الوالد " وهذا يعطي دلالة الاحترام والتقدير، بالاضافة إلى كون زمري ليم صهر ملك يمحاض.⊗ / انظر الملحق الثالث في نهاية الكتاب /.

أما علاقات ماري مع أوغاريت في فترة زمري ليم، فإن المعطيات تدل على أن أوغاريت كانت عبارة عن مدينة صغيرة تتدرج في منحى الاكتمال لخلق فاعليتها التاريخية مع منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. غير أنها في هذه الفترة امتلكت أهمية خاصة كونها ساهمت في تجارة القصدير والنحاس، فالأول يأتي أوغاريت من ماري أو عبرها، في حين أن النحاس كان يستورد من قبرص عن طريق أوغاريت.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن العالم التجاري وطرقه وآليته، شهد في المشرق العربي آنذاك، لا بل منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد تحركاً باتجاه عالم المتوسط ولا سيما كريت وقبرص. وقد تواقت هذا مع ضعف المصادر التجارية الايرانية والآسيوية / الهندية /.

وشكّلت قبرص حلقة الاتصال بين عالم المتوسط والمشرق العربي ولا سيما عبر تجارة النحاس حيث ترد في نصوص ماري العائدة لأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أسماء كريت وقبرص كمشارك في عالم التجارة الدولية آنذاك. وهذا ما سوف نتحدث عنه في مناقشتنا اللاحقة لحركة التجارة والتبادل التجاري في عهد زمري ليم.

⊗ تشير نصوص ماري إلى إرسال فرق عسكرية للمساعدة إلى ماري من يمحاض وذلك خلال السنين الأولى من حكم ومري ليم، حيث توضعت هذه القوات في مدينة سكاراتوم التابعة لفاعلية ماري. / هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي /.

وأيضاً تذكر وثائق ماري عن زيارة لملك يمحاض ياريم ليم إلى أوغاريت، حيث رافقته زوجنه، وأعضاء من بلاط مدينة ماري، ويشير هورست كلينغل إلى أن ثمة شواهد تدل على أن زمري ليم قد رافق ملك يمحاض شخصياً حتى أوغاريت.[(17)].

ويبدو أن علاقة ماري مع أوغاريت في تلك الفترة، لم تكن في المنحى السياسي قوية ومباشرة، بل إن علاقة أوغاريت بيمحاض/حلب كانت مباشرة وأقوى. حيث أن الوثائق تشير إلى رسالة من حاكم أوغاريت إلى ملك يمحاض⊗، يطلب منه السعي لدى زمري ليم لزيارة أمير أوغاريت لماري وقصر زمري ليم الذائع الصيت آنذاك. ويشير د. فيصل عبد الله إلى أنه ومن خلال نصوص ماري التي نشرت مؤخراً، يبدو وأن ملك ماري زمري ليم قام بأكثر من رحلة إلى بلاد يمحاض ولابد أنه زار مدينة حلب وأوغاريت.[(18)].

ويشير إلى وجود اتصالات وثيقة بين ياريم ليم وزمري ليم من جهة وأوغاريت وجوارها من جهة أخرى حيث قاما برحلة إلى تلك المناطق على ما يبدو، وكان لزمري ليم ممثلاً في أوغاريت واسمه داريش ليبور.

أيضاً احتفظت ماري بعلاقات جيدة مع مدينة جبيل على الساحل السوري، وكذلك علاقات جيدة مع مدينة حاصور في شمال فلسطين.⊗⊗

وفي مجال مملكة ماري بالخاصة، تبعت مدينة شوباط انليل فاعلية ماري في هذه الفترة وعبر ملوكها: توروم ناتكي ـ زوزو ـ حيا آبوم.[(19)].

⊗ كان ملك يمحاض في هذه الفترة هو حمورابي ابن ياريم ليم.

⊗⊗ تشير المعطيات إلى انه مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد بدأت مدن الجنوب السوري / فلسطين / بالنشاط التاريخي وربما يعزى هذا المجال إلى الأحوال المناخية حيث يلاحظ تفاعل تلك المدن مع العمق المشرقي ومع مصر. وتقدم وثائق مصر في هذه الفترة معلومات عن عشرات المدن مثل عسقلان وحاصور وشكيم والقدس. ولعل موقع حاصور/ تل القدح / من أهمها ولم يقل أهمية عن حلب أو إبلا أو كركميش أو ماري. وتشير وثائق ماري إلى أن هذه المدينة / حاصور / كانت تصدر القصدير الذي يعتبر عنصراً هاماً في صناعة البرونز.

ويبدو أن إيمار كانت في علاقة متذبذبة مع ماري / لا سيما أنها تقع تحت فاعلية يمحاض / حيث كان ثمة تضامن بين إيمار ومدينة توتول / تل البيعة /. وتشير وثيقة هي عبارة رسالة من لاناسُم حاكم مدينة توتول / التابعة لفاعلية ماري / إلى زمري ليم / سيّدهُ /، أنه حين كان يطلب إلى سكان توتول دفع الجزية، فإنهم يتهرّبون، ويكتبون إلى إيمار يسألونهم النصيحة، فيجيبهم الإيماريون:

نحن ندفع الجزية إلى ثلاثة ملوك وأنتم لا تدفعونها إلى سيدكم زمري ليم، فذهب التوتوليون إلى إيمار وأقاموا احتفالاً وتشاوروا وعادوا ليخبروا زمري ليم أنهم لن يدفعوا الجزية له.

وبذا يبدو أن توتول تحاول التضامن والتحالف مع إيمار ضد مصالح زمري ليم / ماري /.[20].

كما تشير الوثائق إلى رغبة توتول في أن تشارك في طقوس عبادات حلب بواسطة إيمار. ما يعني أنها ربما تتململ من انضوائها تحت فاعلية مملكة ماري وترغب مثل إيمار أن تكون تحت فاعلية مملكة يمحاض وهذا وفقاً لمصالحها. الجدير ذكره هنا هو أن توتول كان تشكّل مركزاً دفاعياً مهماً لماري ومركزاً لصنع القوارب الملاحية.⊗

أيضاً سعى زمري ليم وبعد توطيد دعائم مملكته إلى ترسيخ هذا الأمر عبر تزويج بناته إلى عدد من الأمراء والقادة التابعين له في المملكة. حيث " يشير برتراند لافون في دراسته إلى أحد عشر ابنه للملك زمري ليم، حيث يوضح هذا الباحث سياسة الملك في تزويج بناته إلى نوابه في المناطق والمقاطعات وفق اسلوب مدروس لإحكام السيطرة على البلاد ".[21].

⊗ هذا بالإضافة إلى كون مدينة توتول تشكّل مركزاً مهماً للتجارة عبر مينائها وفاصلاً بين مملكتي إبلا وماري.

فقد زوّج اثنتين من بناته إلى الأمير إلا ـ نصورا، وزوّج أخرى إلى شاريا، من الإخوث. وكذلك إلى ايسبال ـ أدد ملك أشلاكا، وربما إلى خمديا ملك أنداريق، وإلى ايلي ـ عشتار ملك شونا، وربما إلى أشكور ـ أدد، ملك كارانا.

وبالعودة إلى علاقة ماري مع بابل، وكون هذه العلاقة تحمل خصوصية، كون أن بابل هذه، وبقيادة ملكها حمورابي، سوف تنهي عسكرياً فاعلية مملكة ماري بعد اصطدام المملكتين مع بعضهما البعض.

حيث أن علاقة حمورابي مع زمري ليم كانت علاقات متينة وتحالفية أيضاً، رغم تضارب المصالح في بعض الأحيان.

وكان لملك ماري سفيراً في بابل وكان لهُ مخبرون فيها أيضاً، كما كان لحمورابي معتمدين في بلاط ماري.

وقد أمدتنا وثائق ماري بأخبار عن طبيعة العلاقات التحالفية التي كانت قائمة بين بابل وماري ويمحاض في مواجهة تحالف إشنونا وعيلام، حيث أن ماري وضعت تحت تصرف بابل قواتها، وأنها كانت تتوسط في تعبئة قوات من يمحاض، حيث تشير المعطيات إلى ارسال قوات يمحاضية إلى بابل بقيادة زمري ليم / فاروق اسماعيل 1993 /.

فثمة وثيقة عن مبعوث لبابل إلى زمري ليم، أخبر حمورابي أن قواتاً من يمحاض قد وصلت، وتذكر أن عدد هذه القوات هو 30.000 جندي.[⊗]

وثمة رسالة لزمري ليم إلى حمورابي تتحدث عن " القوات المساعدة التي بسببها كررت الكتابة إليّ، فقد كتبتُ إلى الملك حمورابي/ ملك حلب، ليرسل إلي قواته وقد أرسل الآن قواته ووصلت عندي ".[(22)].

وتشير المعطيات أيضاً إلى أن حمورابي بابل قدّم مساعدات عسكرية وقوات لماري بين حين وآخر، وفي

[⊗] يشير د. فاروق اسماعيل إلى وثيقة تتحدث عن أن زمري ليم وحمورابي بابل كانا يقودان جيشاً قوامه ثلاثين آلف مقاتل في حربهما المشتركة ضد إشنونا و عيلام.
انظر ـ فاروق اسماعيل ـ ماري وشوباط انليل ـ وثائق الآثار السورية 2002.

السنة الحادية عشرة من حكم زمري ليم، قدّمت ماري مساعدة عسكرية لبابل، وقد أكد مختلف سفراء ماري، وصول هذه القوات من منطقة ماري إلى بابل.

الجدير ذكره هنا، أن نقل القوات العسكرية من ماري إلى بابل كان أسهل من نقلها من بابل إلى ماري.

فطريق ماري نحو بابل يتميز بالحركة السريعة على مجرى النهر بواسطة السفن. ويبدو وأن هذا الأمر هو ما دفع حمورابي في بعض الأحيان لعدم إرسال قواته إلى ماري حين الضرورة.

أيضاً، في صراع حمورابي بابل مع إشنونا، تذكر النصوص أن حمورابي " ونتيجة الحكمة التي حباه بها مردوخ، قد دمّر تولبياش بكميات هائلة من المياه.

ويعتقد هورست كلينغل أن هذا يبدو على أنه فيضان مصطنع نتيجة خراب سدّ ما.

ومن طرائف الوثائق، أن زمري ليم أرسل وفداً إلى بابل في أثناء احتفال بابلي، والذي يبدو أن البلاط البابلي لم يسمح لبعض أعضاء وفد ماري بالمشاركة في الحفل بسبب عدم ارتدائهم اللباس الخاص بالإحتفال، ويبدو من رسالة سفير ماري في بابل أن ملك بابل أمر بإعادتهم ومنحهم ملابس الاحتفال الخاصة.[(23)]

وقد كان لمملكة ماري سفراء لدى الممالك الأخرى، كما كان لملك ماري مندوبين في مدن المملكة.

وتشير وثائق ماري إلى وجود سفراء في كركميش، يمحاض، كوردا، كحت، وثمة أيضاً سفراء جوّالون. وفي شوباط انليل كان لزمري ليم ممثلاً عنه هو ينوخ سمر الذي كان قائداً للحامية العسكرية التابعة لماري في شوباط انليل. وربما يكون مستشاراً لحاكم شوباط انليل خايا أبوم.[(24)]

إن كل ما سبق، يدفعنا للاستنتاج على أن زمري ليم، شكّل نمطاً من رجال الدولة النابهين والتاريخيين، الذين استطاعوا ايجاد مكان لهم تحت الشمس وسط الصراعات

المتبدية آنذاك، ورغم وجود ممالك قوية تنافس فاعلية مملكته.
وذكرت الوثائق مبلغ طموحه لتأسيس المملكة العمورية باقتدار، وكانت منطقة مثلث الخابور تعنيه مباشرة، كعامل في قوة المملكة وازدهارها. لذا كان عليه أن يعيد النظام إلى كامل مناطق ضفاف الفرات.
وتذكر الوثائق حملته على كحت وأشلكا. وثمة رسالة من حاكم خالبا / بونو عشتار / إلى حاكم كرنا / خنتورابي / تتحدث عن ضرورة دعم زمري ليم في سعيه إلى تنظيم تلك المنطقة في وقت كانت قوات إشنونا تتحرك نحوها حيث نقرأ:
" عندما تقرأ هذه الرسالة، اخرجوا أنت وشرايا / ملك رزاما / والملوك الذين بجانبك معاً، وجندوا من عندكم 4000 مقاتل، وأنا من هنا سأجند ألفين، فيكونون ستة آلاف مقاتل مقدام، دعنا نجمعهم ونرسلهم بسرعة لنجدة زمري ليم ".[25]
والذي يبدو أن قوات إشنونا / بقيادة ملكها إيبال بي إيل، احتلت شوباط انليل وقتل حاكمها توروم نتكي، فتولى الحكم ابنه زوزو، حيث دامت فترة احتلال شوباط انليل أقل من سنة.
ونتيجة انتظام وقوة وتمكّن قوات أشنونا، فقد قرر ملكها أن يتجه نحو ماري، ويبدو أنه تم أخبار زمري ليم بذلك، فأرسل إلى خنتورابي ملك كرنا رسالة جاء فيها:
لقد كتبتُ لك سابقاً تقريراً مفصلاً، بل اثنين عن خبر سير قوات حاكم إشنونا باتجاهي، والآن أرسل لك هذه الرسالة لأعلمك بأني أدّعم مواقع منطقتي منذ ثلاثة أيام لمواجهة حاكم إشنونا.
إذا ما تراجعت تلك القوات فقد ارتدت، وإذا لم تتراجع فسوف أقود الحرب ضدها بقواتي الخاصة ولن أتراجع.
لقد كتبتُ إليك مرات طالباً إمدادات عسكرية، ولكن طالما أن قواتك لم تصل، فسوف أقتلع أظافر حاكم إشنونا

من قلب مقاطعتي بقواتي الخاصة، وسأمزقه كي لا يعود إلى مقاطعتي مرة أخرى "[26]

الجدير ذكره هنا، هو أن هذا الأمر حصل في السنة الثالثة من عهد زمري ليم. وتتحدث وثائق ماري وغيرها، عن زمري ليم الذي استطاع أن يُعبر بشخصه عن مجتمعه وخصائصه، ونقرأ في الوثائق:

في السنة الرابعة من حكم زمري ليم، أقام معبداً للإله شمش.

في السنة الخامسة طهرّ بلاده.

في السنة السادسة بنى سور يخدون ليم.

في السنة السابعة أقام عرشاً / معبداً /للإله ختّا.

وفي السنة الثامنة ذهب لنجدة عيلام.[27]

ولا بأس هنا الإضاءة على ملك ماري زمري ليم كما أمدتنا بذلك وثائق ماري.

زمري ليم ـ ملك ماري:

ذكرنا سابقاً أنه حين ضمَّ الملك الآشوري / العموري / شمشي أدد، مدينة ماري إلى فاعلية مملكة آشور، فرَّ زمري ليم إلى حلب وبقي في عهدة البلاط اليمحاضي.

ومع استمرار فعل الضم الآشوري لحدود/15-20/ عاماً، أصبح زمري ليم في سن يستطيع من خلاله التفكير بإعادة عرش مدينة ماري لأسرة يجيد ليم، وقد ساعده في ذلك البلاط الحلبي كون أن مصالحه تنسجم مع هذا التفكير، وبالاضافة إلى الحذر الذي ينتاب البلاط الحلبي من نشاط المملكة الآشورية.

وإثر وفاة شمشي أدد، كانت الفرصة متاحة لزمري ليم أن يبدأ بمناوشاته ضد يسمع أدد حاكم ماري. واستطاع بدعم من مملكة يمحاض أن يعود إلى عرش ماري ممتلكاً رؤية رجل الدولة لكيفية إعادة ماري إلى مملكتها، وهذا ما تبيّناه فيما سلف.

وإثر عودته إلى دفة الحكم في ماري، قدّم تمثاله إلى الإله أدد الحلبي كتعبير عن شكره للإله.

وتشير الوثائق المارية، إلى ذاك التداخل الاعتقادي مع الواقع السياسي، حيث كان لأدد الحلبي / الإله /، " أنبياء " وترد في النصوص حرفياً " المستجيبون أو الملّبون " / الذين ينقلون رسائل الإله إلى ملوك ماري. / انظر فصل الحياة الاعتقادية لاحقاً /.

وهكذا فإن أدد حلب هو نفسه الذي أعطى مملكة ماري ليخدون ليم ثم شمشي أدد، وكان قراره أيضاً أخذ الحكم من شمشي أدد وتسليمه إلى زمري ليم ويتحدث نص من ماري أن الإله أدد الحلبي هو الذي أرسل قواتاً إلى ماري عند تنصيب زمري ليم وأنها هي التي أتاحت له الانتصار على إله البحر. / دوران 1993 /.

ويتحدث النص على طلب الإله أدد الحلبي من زمري ليم، تحقيق العدالة لأولئك الذين يلتمسون العدل وعلى ألا ينطلق في حملة عسكرية دون أن يطلب استخارة كاهن أدد.⊗

وعلى هذا كان هذا الإله يتلقى تقدمات ونذور وهدايا وتبرعات من ملك ماري، بحيث توضع في معبد أدد في مدينة حلب.

الجدير ذكره هنا، هو أن أسلحة أدد الحلبي المقدسة كانت البراق والهراوة اللذين يضرب بهما البحر المتوسط. واعتبر هذان السلاحان حاسمين في الصراعات السياسية، وقد أرسلت هذه الأسلحة من حلب إلى ماري، ثم حفظت في معبد ترقا.(28)

وبعد عودة زمري ليم إلى عرش ماري، سعى إلى الزواج من شيبتو ابنه ملك حلب ياريم ليم، والذي يبدو أنه تعرف عليها خلال وجوده هناك.

وإن كان زمن زواج زمري ليم وشيبتو غير محدد بدقة، لكنه تم بعد عودة زمري ليم إلى ماري، وأشار هورست كلينغل إلى أن هذا الزواج تم في العام التاسع من حكم زمري ليم،(29) غير أن فيصل عبد الله يذكر أن البعثة التي ذهبت من ماري إلى حلب لطلب الزواج، كانت في السنة التالية لعودة زمري ليم إلى عرش ماري.(30)

وقد تحدثت النصوص عن مراسم زواج زمري ليم وشيبتو، بحيث كان زواج بالوكالة، عبر بعثة من ماري من قبل زمري ليم وبرئاسة أصقدوم وراشيا، حيث توجهت البعثة إلى قصر ياريم ليم في حلب.

وقد أورد الدكتور فيصل عبد الله وقائع حركة البعثة من ماري إلى حلب وفق نصوص ماري، حيث أن البعثة في طريقها إلى حلب كانت تزود ملك ماري / العريس /

⊗ ثمة معلومات عن ممارسة الإستخارة في بلاط ماري حيث يستشار الإله من أجل اتخاذ مواقف في الأزمات الصعبة والحروب - انظر فيصل عبد الله - دراسات تاريخية 37 - 38 قراءة في خمس مجلدات من ماري.

برسائل عما يحصل من أخبار وأمور. / انظر الملحق الثاني في آخر الكتاب /. فثمة رسالة من مشارف مدينة تيلازيبوم / ربما تقع بين ماري وإيمار /. ثم رسالة من مدينة إيمار. ثم رسالة معلومات حول عملية الاستعجال بمراسم الزواج.

ورسالة أيضاً تتعلق بزيارة بلاد يمحاض، كما رسالة أخرى تتضمن أخباراً عن البلاط الحلبي.

ورسالة سادسة تتعلق بمسألة سكن العروس في ماري.

هذا في طريق اتجاه البعثة نحو حلب، أما في طريق العودة فثمة رسالتين، الأولى من إيمار والثانية بعد المرور بحصن دور يخدون ليم.

أما عن مراسيم ومجريات الزواج بالوكالة فقد ذكرت وثائق ماري أن مراسيم الزواج تمّت في قصر ياريم ليم في حلب. ويبدو أن تقاليد هذا الزواج لا تختلف عما يحصل في أيامنا هذه / فيصل عبد الله ـ 1997 /.[⊗]

فقد تمَّ وضع الغطاء على رأس العروس شيبتو من قبل موفدي زمري ليم.

الجدير ذكره هنا، هو أن المرأة المتزوجة كانت تضع غطاء على رأسها يسمى بالأكادية " كتموم ".

ويشير جان ماري ديوران إلى أن غانيات المعبد / بالأكادية حارمتوم / في ذلك العصر، كن يضعن الغطاء على رؤوسهن.

والطريف في الأمر، أن وزير البلاط الحلبي واسمه " شيمروم " أعلن للبعثة المارية بعد مقابلتها لياريم ليم، "

[⊗] إن أهم السجلات المتعلقة بالمجوهرات في ماري قدمتها نصوصها، حيث تتعلق بالمجوهرات التي قدمت إلى شيبتو ابنة ياريم ليم عندما طلب يدها زمري ليم. وقد سجلت جميعها في سجلات ملك ماري وتألفت هذه التقدمات من الذهب والفضة وغير ذلك.

انظر ـ فيصل عبد الله ـ دور السلالة الحلبية الأولى في تجارة الشرق وشمال سورية في القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد. الحوليات الأثرية السورية 43 ـ 1999.

امرأة مقابل امرأة "، حيث كان يرغب بالحصول على مغنية من ماري تدعى كرانا توم.[31]

وتشير وثيقة/رسالة من زمري ليم إلى حماته زوجة ملك حلب / ياريم ليم / جاشيرا، إلى أن عادة اتخاذ أكثر من زوجة أو خليلة كانت معروفة وسائدة في سورية آنذاك.[32]

ويتحدث الباحث حميدو حمادة عن وجود مغامرات عاطفية للملك زمري ليم خارج الزواج، حيث ثمة رُقيم يخبرنا عن وجود صديقة لزمري ليم أُبعدت إلى منطقة قاحلة في مدينة ناحور، لكنها تحاول أن تستلطف الملك وهي تريد أن ترى وجهه ولو مرة واحدة، حيث كانت تشكو له أوضاعها، فلا ماء ولا شجر ولا طعام / حميدو حمادة 2002 /. ونحن نعتقد أنها من زوجاته السابقات حيث أن له 11 بنتاً قبل زواجه من شيبتو.

وتشير المعطيات إلى احتواء نصوص ماري على ما يزيد عن 180 رسالة موجهة من شيبتو إلى زوجها زمري ليم ولا سيما حين يكون خارج ماري.

ومن هذه الرسائل نقرأ رسالة تزفُّ فيها شيبتو البشرى للملك الغائب فنقرأ:

" إلى مولاي، هكذا تقول شيبتو خادمتك، وضعت للعالم توأم، صبياً وبنتاً، فلتفرح نفس مولاي ".

وكانت شيبتو في غياب زوجها تقوم بدور المسؤول في بلاط ماري، وقد عثر على رسائل تخاطبها بـ " الملكة ". وعثر أيضاً على ختمها الشخصي الذي يتضمن: " شيبتو بنت ياريم ليم ، زوجة زمري ليم ".

ومن أسماء بناتها: كيروم، ونارام توم، نيغانوم، آحاتيا.

وقد عثر على رسائل من بناته إليه حيث تخاطب كيروم أباها بوصف " نجمتها " في حين أن نارام توم تدعوه " مولاها ".

وثمة وثيقة من ماري كتبها كبير الكهنة / نبو / أو المتنبئ، حيث كان ينقل للملك رؤياه، ويحتوي النص على

رؤيا لهذا " النبو "، التي نقلتها شيبتو إلى زوجها الملك الغائب في أحدى المعارك، حيث تطمئنه أن الإله وملائكته مصممون على حماية مدينة ماري وأن أحداً لا يستطيع المساس بها ".[(33)]

وثمة وثيقة/رسالة من زمري ليم إلى زوجنه شيبتو، تتعلق بمرض صديقة أو خليلة له تدعى ناتاما، ويبدو أنه كان خارج ماري وجاءته أخبار مرضها فيقول في رسالته لشيبتو:

" سمعت نبأ مرض ناتاما، لكنها ظلت تتنقل في أرجاء القصر وتختلط مع بقية النساء. أرجو منك يا شيبتو أن لا ينام أحد في فراشها، وألا تختلط ببقية النساء كي لا تنقل عدوى مرضها إلى البقية "[(34)]

إن هذه الرسالة تقدم ايضاحات حول مدى الوعي الصحي في تلك الفترة، بالاضافة إلى معرفة الملك بالتفاصيل الدقيقة والصغيرة لما يحصل في القصر بشكل خاص وماري بشكل عام.

وكان النبيذ[⊗] يأتي إلى ماري وقصرها، هدية من ملك حلب / ياريم ليم / أو من كركميش وملكها ابلاخاندا. ويبدو أن شيبتو كانت ذواقة هذا النبيذ لتحديد جودته، فقد أشارت وثيقة مارية إلى طلب زمري ليم منها، أن تتذوق له النبيذ الذي اختاره هدية لملك بابل "[(35)]

أيضاً قدمت وثائق ماري معلومات عن قيام أخت الملك زمري ليم واسمها " ني غاتوم " برعي الماشية في أرض قطنة.

وثمة رسالة من حاكم ترقا إلى زمري ليم، تتضمن أمراً من دجن الإله لزمري ليم، كي يقوم بتقديم القربان

[⊗] كانت طقوس استهلاك الخمر بصنوفه الرفيعة ذات أهمية بالغة، فعلى المتذوق أن يُطهر يديه قبل أن يلمس جراره، والذواقون، من هم في المراتب العليا مثل شيبتو / الملكة / وثمة متذوق آخر اسمه صدقوم ماصي ، وتذكر الوثائق أن هذا كُلف بتذوق النبيذ الأحمر المرسل من حمورابي ملك حلب إلى زمري ليم واختيار عشر جرار خاصة للاستهلاك من قبل ملك ماري والقصر. فيصل عبد الله - الحوليات الأثرية السورية 43 - 1999.

الجنائزي عن روح والده / يخدون ليم! / بحيث يتم هذا مرتين كل شهر.

وكون أن زمري ليم يتمتع بصفات رجل الدولة، فقد حفلت وثائق ماري آنذاك، بمدى اطلاعه ومتابعته لكل شاردة وواردة في شؤون المملكة، فمن تلقيه طلباً ورجاء لإرسال بنائين لإصلاح جدار في مدينة، إلى إرسال طبيب مختص لعلاج حالة التهاب أذن على بعد 100 كم من ماري، أو تعزيل قناة مسدودة أو ترميم سد متصدع أو مكافحة جراد.

حتى أنه وصلته رسالة حين مرّة على رأس أحد أعدائه واسمه ايشمي ـ حدو.

لا بل أن الرسالة من أدر ـ دوري / يبدو وأنها مسؤولة عن الخدم / إلى زمري ليم، تتحدث عن هروب خدم عبر نفق تحت مكان عملهم، فيجيبها الملك:

" لقد قرأت الرسالة التي أرسلتِها لي، والتي كتبتِ أن بعض الخدم شقوا طريقاً على شكل نفق إلى خارج الشغل في صبروم وهربوا ولكن تمّ الإمساك بهم ".

وطلب الملك منها أن تعمل بقوة حتى لا يصبح الهرب شائعاً. (36)

ويبدو ومن فحوى هذه الرسالة تمتع النساء في ماري بالمسؤولية الإدارية في أجهزتها المختلفة.

كما تتحدث احدى الوثائق عن إلقاء أهل المملكة القبض على أسد، حيث وضعوه في قفص، حتى يرسلونه كهدية إلى ملك ماري، لكن الأسد أتعبهم في تأمين طعامه، فأطعموه كلباً في اليوم الأول، ثم كلباً ثانياً في اليوم الثاني، ويبدو أن الأسد استطاع الهروب أخيراً بحيث أضحى خطراً على أهل المنطقة. / حميدو حماده 2002 /.

وثمة رسالة من زمري ليم إلى زوجته شيبتو تتحدث عن إرساله لثلاثين فتاة كي تختار الملكة منهن، اللائقات من أجل تشكيل فرقة رقص. / حميدو حماده 2002 /.

وفيما يعطي دلالة على أهمية موقع شيبتو كزوجة لملك ماري، تشير الوثائق إلى وجود شكاوى تصلها لإحقاق الحق، فثمة وثيقة/رسالة من امرأة تدعى طريش ـ حتو تتضمن ما يلي:

" إلى شيبتو أقول ما يلي:
هذا ما تفيدك به طريش ـ حتو:
أشاعت الفتاة بلتاني في ماري وقالت أيضاً
لوالدها كيبري ـ دجن،
بأن طريش ـ حتو كتبت إلى شخص هنا
تطلب منه أن يسرق منها أقراطها وأساورها الفضية
وعندما سمعت تلك الإشاعة اضطربت دقات قلبي
وأخذ مني الغضب.
أرجو ارسال من يلزم ليتثبت من صحة الختم على رسالتي المزعومة وإذا كنت فعلاً قد أمرت بسرقة مجوهرات تلك الفتاة. باسم صداقتنا يا مولاتي، أرجو منك أن تحيطي الملك، مولاي بأمر هذا الافتراء، وبانتظار جوابك العاجل.

والذي يبدو وأن هذه السيدة الشاكية هي ابنه حاكم ترقا.

الجدير ذكره هنا أن زمري ليم كان صياداً عظيماً للأسود وتتحدث وثائق ماري عن غزواته لصيدها / أندره بارو ـ سومر 1978 /.

فنون مملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد:

يعنينا في مقاربتنا لفنون ماري في هذه الفترة أن نشير إلى أننا الآن أمام مزيج متجانس بشري مشرقي، هو حصيلة كل التفاعلات الديمغرافية في المشرق العربي والتي تعود لعدة آلاف من السنين إلى الوراء.

وقد توّشح هذا المزيج الآن بالوشاح العموري الذي ساد كامل المشرق العربي، مع استمرارية للثقافة والكتابة الأكادية.

وفي الألف الأول قبل الميلاد، سنشهد انضمام الفاعلية الديمغرافية الآرامية إلى المزيج المشرقي، حيث ستوشحه بطابعها، ثم ومع الألف الأول الميلادي سنشهد الفاعلية العربية الديمغرافية سوف تطغى وتوّشح حصيلة كل التفاعل والتمازج الديمغرافي المشرقي العربي.

وإذا كنا أمام طابع عموري ـ كنعاني، والمستند على ما سلف، فإن هذا ما انسحب على مجمل أوجه الحياة في المشرق العربي، مع وجود حالة من التنوع بين مدن المشرق لجهة الإبداعات العمرانية والفنية والأدبية. وهذا ما يعبّر عن الثقافة الخاصة لكل مدينة أو مملكة والتي تلتقي جميعها في الهوية الواحدة الثقافية.

وثمة دليل مهم يُعّبر عن استمرارية الثقافة في مدينة ماري عبر وجود قصر زمري ليم، ومعروف عن هذا القصر أنه بُدء في بنائه في الثلث الأخير من الألف الثالث واستمر حتى عصر زمري ليم الذي دشَّنه، بما يعني أن حوالي 300 سنة مرت على بدء تعميره وإنشائه سوية فوق سوية.

ويبدو أن دوامة الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية ـ الروحية التي شملت كامل المشرق العربي، انسحبت على

الحياة الفنية بمختلف مجالاتها وقد أشار إلى ذلك أيضاً أندره بارو في قوله:
" من المعتاد لمؤرخي الفن القديم حين يصلون إلى هذا العصر / الألف الثاني في نصفه الأول / أن يدرسوا شواهده الحضارية، وذلك عن طريق ربطها جهد المستطاع مع مختلف السلالات الحاكمة .. فقد يقال مثلاً بأن مثل هذا النتاج من الفن، يعود إلى عصر ايسن ـ لارسا، وأنه يحمل طابع سلالة بابل الأولى.
وفي الأيام الأخيرة، تحدث المستشرق الأمريكي كوتسه GOETZE حتى عن عصر ماري.
ومع ذلك فإن مجموعة من الخبراء البارزين من بينهم هنري فرنكفورت قد اعترفوا بعدم قدرتهم على تمييز فن عصر حمورابي، أو فن خلفائه، عن فن عصر ايسن ـ لارسا الذي سبقه، إلا بعد أن أعانتنا النصب التي تحمل كتابات، على تحديد تاريخها بدقة.
ويشارك مؤلف هذا الكتاب في هذه الآراء. ومع ذلك فإن عدم التأكد هذا يمضي بعيداً ليبّين لنا الوحدة الملموسة لهذا الفن، وهي وحدة ناجمة عن حقيقة أن المنطقة برمّتها كانت مأهولة بذات الشعوب. فالفروق قائمة حقاً، ولكن لا يمكن اكتشافها إلا عن طريق الاستقصاء الدقيق، وإنها تكمن عادة في تفاصيل أعمال متشابهة بصفة أساسية ".[37]
ويضيف مكتشف ماري بارو:
" لم يتجاهل العموريون، كل كيان النتاج السومري الحديث، بل على العكس من ذلك أنهم لم يتبنوه فقط، بل استفادوا من قدرته ونقلوه إلى مراحل أبعد ".
وعليه، فقد أشرنا سابقاً إلى أن البنية التحتية العمرانية والمعمارية في ماري، تأسست وازدهرت في عصر فاعلية مملكة أور الرافدية في الثلث الأخير من الألف الثالث، وبذا فإن الفاعلية العمورية في ماري مع مطلع

الألف الثاني لم تأتِ من فراغ، بل استندت في مجملها على ما سبق وذلك في مختلف مناحي الحياة.

ففي مجال العمران وفن العمارة:

يُشكّل قصر زمري ليم، والذي بدأ بناءه في فترة فاعلية مملكة أور / عصر الشاكاناكو /، وعلى أيدي عدة ملوك ثم أخذ شكله النهائي في عصر زمري ليم، أبهى منجز معماري / إلى جانب منشآت الري والملاحة طبعاً /. والحقيقة أن هذا القصر، يُشكّل مجمعاً رئاسياً كبيراً لا يحتل فيه القصر سوى جزء صغير منه. وكنا قد أشرنا إلى نمط عمارة هذا القصر/ المجمع سابقاً.⊗

الجدير ذكره هنا، هو احتواء هذا المجمع الرئاسي على معابد، وتشير المعطيات إلى احتواء ماري على 25 معبداً، منها ما كان داخل المجمع الرئاسي لزمري ليم ومنها ما كان خارجه.

يحتل هذا المجمع مركز الوسط من المدينة، ومخططه ذو شكل مربع، محاط بأسوار وعلى حد تعبير بارو، إنه على شكل حصن يستطيع أن يصمد أمام الحصار.

أما سطوحه فمتفاوتة الارتفاع، كي توفر فراغات مكشوفة واسعة يستطيع ساكنوها أيام الحر، أن يستمتعوا بالرطوبة والبرودة، كما أن هذه الفراغات توفر في أوقات الحرب، نقاط مراقبة ودفاع عن المّجمع

ويشتمل سور المجمع على عدة أبواب، كل باب مخصص لفئة من الناس. وقد رصفت أرضيات الغرف والممرات والمداخل والباحات بالآجر. وقد جُعلت شوارع هذا المجمع واسعة كي تستوعب العربات والمركبات الداخلة إلى القصر. أيضاً، أبانت التقنيات عن آلية متطورة للصرف الصحي عبر أقنية تخرج إلى خارج المدينة.

⊗ تشير المعطيات الآثارية إلى أن قصر زمري ليم العائد للألف الثاني قبل الميلاد ام يشيد فوق قصر الألف الثالث بل امتد فوق جزء منه / أبو عساف 1990 /

كما تكثر الأقنية الفخارية التي توصل المياه النقية إلى كافة أرجاء القصر وغرفه ومنشآته.
وقد حوت جدران الجناح الملكي على رسومات جدارية تحمل مضامين مثيولوجية واعتقادية.
وتنبغي الإشارة إلى أن أحد الرُقم أشار إلى وجود نحو 400 رجل يخدمون في هذا المجمع.[38] ⊗
وفي إشارة إلى مبلغ الوحدة المعمارية الحضارية للمشرق العربي، إن كان لجهة مخططات القصور أو المعابد، يشير الدكتور أبو عساف إلى أن قصر ماري، قريب بشكله العام من قصور الرافدين القديمة.[39].
في حين يذكر الباحث انطوان مورتفات في معرض مناقشته عن قصر حمورابي بابل، أن القصر يُرّجح أنه يشبه قصر زمري ليم في ماري. وهذا يشي بامكانية تأثر عمارة القصور البابلية، بالعمارة العمورية في ماري، كون أن قصر زمري ليم، يعود إلى 300 سنة خلت من عصر زمري ليم.[40]
ويبدو أن هذا المجمّع / القصر، حُسّن وتمَّ تزيينه بشكل سخي وغني في عهد زمري ليم.
وكان جناح النساء يقع في الطابق العلوي من غرف، السكن الملكية الفاخرة التجهيز ويشير كاي كولماير إلى أنه من المرجح أن أقساماً كبيرة من القصر كانت مؤلفة من طابقين، مع الإشارة إلى عدم استعمال القرميد أو اللبن المشوي في البناء إلا في أماكن قليلة.[42]
وعلى الواجهة الجنوبية من القصر، حيث حوّتْ على رسوم جدارية، كان لابد من مخططي ومنفذي هذا القصر أن يعمدوا إلى تأمين حماية هذه الرسوم ولا سيما من أشعة الشمس وعوامل الطبيعة الأخرى وقد أشار دومنيك بوناتز وهارتموت كونه، في كتاب " الأنهار والبوادي، التراث

⊗ كان حرفيو القصر الملكي يدفعون 5 - 20 مينة / على كل عامل / من الفضة كتأمين في حال اختفائه أو تركه العمل دون تبليغ مسبق.

الحضاري للجزيرة السورية وما حولها " 1999، إلى أن تلك الحماية لهذه الرسوم تمَّ توفيرها من خلال نصب مظلة في الفناء أمام الواجهة بمسافة قدرها 4,50 م. وكانت هذه المظلة مرفوعة فوق أربع حوامل خشبية تُثبت في قواعد حجرية ذات شكل غير منتظم كانت مزودة بثقوب للأوتاد وموضوعة في الأرض كأنها أحجار مفاصل الأبواب. وهكذا فقد كانت غير مرئية على سطح الأرضية. وقد بلغت المسافات فيما بينها حوالي 4,50 م، في حين كانت تبعد عن جدران الفناء 6 أمتار تقريباً.

وكان كيان سقف الحماية هذا، عبارة عن ألواح ودعامات خشبية وُضعت فوقها الحلفاء التي تعلوها طبقة رقيقة من الطين مغطاة بطبقة من الجبس.

الجدير ذكره، أنه تم الكشف في ماري وفي القاعة رقم واحد من القصر الواقع إلى الشرق من القصر الكبير، عن قبر تحت الأرض مبني بالآجر وهذه الصفة أو الظاهرة في الدفن تحت أرضيات البيوت تعود بنا إلى العصر الحجري الحديث في المشرق العربي، وقد أبانت مواقع عديدة على وجودها في ماري أو الآلاخ أو إبلا. / أبو عساف 1990 /.

وتضمنت بعض القوائم الوثائقية في ماري، ذكراً لوجود 11 طالباً يتدربون على أيدي تسعة عشر بّناءً، كما أظهرت هذه القوائم وجود عمال مهرة من يمحاض وكركميش وإيمار وحاصور، حيث كانوا موضع ترحيب وحفاوة.

وكنوع من الضمان، فإن العامل في القصر، يجب أن يكفله زملائه في العمل، وإذا ما هرب وتكرر هربه أيضاً، فإن هذا يستوجب على زملائه أن يدفعوا كفالته ويبدو أنها كبيرة.

وفي مقاربة لأهمية قصر ماري والذي عُدّ آنذاك أعجوبة بين ممالك العالم القديم، يشار إلى أن الملك الكيشي، كدر يكلزو الثاني، أنشأ قصراً في " عقرقوف " في الرافدين، وذلك بعد أن سيطر الكاشيون عليها، حيث طالب

الفنانين بمحاكاة الرسوم الجدارية التي كانت في قصر ماري، على جدران قصره.

أما في مجال إنشاء المعابد، فقد شهدت مدينة ماري في الفترة العمورية، تأسيس معابد لعشتار ودجن ونينهور ساج وشمش، كما عثر على زقورة.

الجدير ذكره، أن بعض معابد ماري كانت تزّين واجهاتها، الأسود، في دلالة على حماية ما، وفي إنشاء يعطي دلالات فنية راقية.

ويشير جان لوي هيو إلى أن التنقيبات الأثرية التي أجريت في موقع مدينة حرادوم⊗ / خربة الدينية /، في الرافدين، أظهرت وحدة ثقافية عميقة للعالم العموري. فالأسود حامية المعبد التي وجدت في هذا الموقع / حرادوم / كانت شبيهة بتلك التي وجدناها في ماري وسوسة. / في معبد دجن في ماري /.

وكذلك المنتجات الفخارية تحمل العديد من الصفات والزخارف البابلية والشامية.[(41)]

ويبدو أن هذه الظاهرة الفنية، بقيت سائدة في نمط المعابد المشرقية عموماً وعلى مدى العصور اللاحقة، ولعل موقع عين دارا يقدم الدليل على وجود تماثيل في معابدها، أو لو انتقلنا إلى معابد تدمر في القرون الثلاثة الميلادية الأولى، حيث زينت واجهة المعبد هناك بالأسد، الذي كُتب على قائمته بالآرامية، " إن الربة اللات تبارك كل من لا يسفك دماً في المعبد ". وقد حوى تمثال الأسد هذا على احتضانه لوعل، ما يعني السلام والطمأنينة. كذلك حوى معبد إبلا المعروف بالمعبد (ث) على واجهته على نصبين لأسدين منحوتين. ⊗⊗

⊗ حرادوم ـ تقع في منطقة الفرات الأوسط وعلى بعد 10 كم إلى الجنوب من موقع مدينة ماري. وقد شكّلت محطة عبور للقوافل التجارية التي كانت تجوب المنطقة. وأنتهى دورها التجاري مع سقوط الفاعلية التاريخية لمملكة بابل.

⊗⊗ أسود إبلا كانت منحوتة في حجر البازلت، أما أسود معبد دجن في ماري فكانت مصنوعة من البرونز.

أما من جهة بيوت ماري، فقد كانت على شكل مستطيل أو شبه منحرف، تتجمع إلى بعضها البعض في كتل، تفصل بينها مسافات على شكل مساحات/ساحات محاطة ببوابات.

وكانت ماري تقسم إلى أحياء، ويسّمى كل حّي باسم كبير الحي / في السن أو المقام / ويطلق عليه اسم وكيل الحّي.

وكان البيت في ماري يشمل على باب على الشارع وغرفة أمامية وهناك فناء محاط بالغرف، وثمة بيوت سكنية مؤلفة من طابقين.

مادة البناء لهذه البيوت كانت من اللبن وكان الآجر يستعمل بكثرة في الأســس.

باحة المنزل والغرف معبدة ببلاط من فخار ناعم الجزيئات، أما المرافق الصحية فكان يبلط قاعها بالقار.

وتنبغي الإشارة هنا، إلى تقليد عمراني/طقسي كان يجري في ماري كما في لأغلب مدن المشرق العربي ويتجلى في ايداع ألواح ومسامير معدنية منقوشة تحت الأرضيات وأساسات الجدران، وهذا التقليد اعتقادي/طقسي، وهو عبارة عن حالة تعبدّية كانت تجري بشكل مرافق لتشييد معبد أو قصر.⊗

⊗أسود إيلا كانت منحوتة في حجر البازلت، أما أسود معبد دجن في ماري فكانت مصنوعة من البرونز.

⊗ انظر ـ دومنيك بوناتز. هارتموت كونه ـ دليل متحف دير الزور 1999.

فن النحت:

يشير أندره بارو إلى أن ماري كانت لفترة طويلة أحد مراكز الفن الشهيرة، فقد عثر في أثناء التنقيبات فيها على عدد لا يحصى من النصب التذكارية وأعمال النحت بصفة خاصة.

وفي معرض إشارته إلى القصر الملكي في ماري يشير الباحث إلى أنه " لم يكن ينقص قصر مدينة ماري شيء مرغوب فيه. لأن كل مباهج الحياة قد توفرت فيه، بل الواقع أنه لا يوجد قصر ملكي ولا قصر آخر كامل المعدات مثله.

كذلك لا يوجد قصر آخر تمت زخرفته بإفراط، ولا قصر آخر، في أية حالة، أنتج مثل هذه الكثرة من النتاجات كالتماثيل والرسوم "(43)

وخطا فن النحت بشكل عام في المشرق العربي آنذاك ضمن منحى روحي واحد، تنتابه بعض الإختلافات بين مدينة وأخرى، غير أن هذه الفترة شهدت نوعاً من التجانس الفني إن كان في الشكل أو في المضمون للأعمال المنجزة.

مع الإشارة إلى أن " المدارس الفنية في النحت في الممالك الكنعانية الأمورية / 2000 ـ 1600 ق.م / لم تكن سواء في التقليد، فقد لجأ فنانو الجناح الرافدي إلى تجسيد الأفكار القديمة باسلوب قديم، بينما اتجه فنانو ماري إلى تجسيد الأفكار القديمة باسلوب جديد.

ويبدو من خلال ذلك أن الارتباط بالتقاليد في الشرق أقوى منه في الغرب "(44)

ونستطيع هنا أن نعلل سبب هذا، كونه يعود إلى أن الجناح الغربي/الشامي للمشرق العربي، كان يُشكّل مرجلاً للتفاعل بين الشعوب بأكثر مما لدى الجناح الرافدي، لذا فإن التثاقف بين الحضارات المختلفة إن كان عبر التجارة أو عبر الحروب، شكّل رافعة للإبداع، ومحرضاً على انتهاج أساليب ابداعية جديدة. كما أن الأسلوب

السومري الذي ساد في الألف الثالث لجهة نحت التماثيل، الذي تبدّى في الصرامة وقوة التأثير الفني، نجد أنه تحوّل مع مطلع الألف الثاني إلى نوع من الإيحاء الهنيّ بعيداً عن تلك الصرامة التي ألفناها في الألف الثالث.

ويشير الدكتور أبو عساف إلى أن التنقيبات الأثرية في ماري وإبلا والالاخ أبانت عن وجود عدد من التماثيل، تفترق عن الأسلوب السومري ـ الأكادي وتشكل منعطفاً في فن النحت المشرقي. ويشير إلى أقدم التماثيل الكنعانية المنحوتة في الألف الثاني قبل الميلاد، وهو تمثال الإله شمش، حيث أمر يسمع أدد بأن ينحت له تمثالاً وينصب في المدينة ويعتبر هذا التمثال فريد من نوعه ولا يوجد نظير له.(45)

وقد كشفت تنقيبات بابل على تمثال يعود لحاكم ماري بوزو عشتار وثمة كتابة أخرى على التمثال تشير إلى اسم تورا دجن حاكم ماري.

ويرتدي التمثال تاجاً له زوج واحد من القرون / ما يشي بأن الحاكم منح نفسه صفة إلهية /، ويرتبط هذا التمثال مع تمثال آخر هو تمثال " ايدي ـ ايلوم " الذي عثر عليه في ماري وثمة تمثال للملك ايشتوب ـ إيلوم.

ويقارن بارو بين هذه التماثيل ولا سيما رأسها مع المنحوتات الناتئة علة ما سمي باسم " تابوت الاسكندر " الذي اكتشف في مدينة صيدا في لبنان، حيث ثمة تشابه متين بين الأشخاص المعممين في المنحوتة الهلينية / العصر الهليني / وبين التمثالين، حيث يفصل بينهما حوالي 1500 عام.⊗

وهذا إن أشار إلى شيء فإنه يؤكد على عمق التواصل الحضاري في حيزّه الفني بين مواقع المشرق العربي عبر العصور.

⊗ انظر ـ اندره بارو ـ سومر ـ مرجع سابق.

وفي مجال آخر، فإن تمثال ربة الينبوع الذي صنع من الحجر الأبيض والذي يدل على ربة الخصب التي تجلب الماء، سر الحياة. فهو تمثال ينطوي على خدعة، حيث أن الماء المسكوب في الخزان يرتفع شاقولياً حسب نظام الأواني المستطرقة في قناة محفورة في قلب التمثال وحتى الجرة التي تمسك بها الآلهة بيديها.
حيث يبدو للناظر أن هذه الآلهة تريق الماء، مع ملاحظة أنه يوجد على ثنيات ردائها أسماك صاعدة وهابطة.

ويشير بارو إلى أهمية هذا التمثال بالقول:
" يستحيل أن يكون تمثال آخر أكثر تعبيراً، ولم يعرف علم الآثار الشرقية وجهاً ذا تقاطيع أكثر دقة ".[46]
الجدير ذكره أن طول التمثال 1,42 م، ويبدو وأنه كان موضوعاً قرب حوض مشيد بباحة قصر زمري ليم. وبشكل عام " يبدو أن ثمة مدرسة فنية مؤثرة ومتأثرة بأساليب النحت الكنعاني مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، في المشرق العربي بمدنه ماري وبابل وإسين ولارسا وأشنونا وغيرها، حيث يبدو أن مجمل نحت هذه الفترة في تلك المدن ينتمي إلى مدرسة فنية واحدة".[47]
ويحيل بارو، موضوع المزهرية الغوارة / كما في ربة الينبوع / إلى الفاعلية الرافدية، حيث سبق للسومريين أن أولوا هذا الأمر مكانة رفيعة جداً في حقل الفن.
ويشير إلى اقتباسه من قبل العموريين الذين نقلوه بدورهم إلى الغير.
أيضاً كشفت التنقيبات في ماري عن وجود أسود برونزية منحوتة تحرس معبد دجن وساحته، حيث يحاكي نمطها الاسلوب الواقعي.
وبالنظر إلى هذه الأسود وما تبقّى منها، نجد وجه الأسد المعّبر عن التيقظ الوحشي، فالأعصاب متوترة،

والفك منفرج، وثمة احساس عال بالحركة والوثوب ضد أي دخيل على الحرم المقدس.

وقد عمد الفنان إلى انجاز العينين الكبيرتين اللتين صنعتا من حجراً أبيض اللون، أما بؤبؤهما فمن حجراً أزرق ملون ما يعطي بذلك صفة التعاكس اللوني التي تخلق ايحاء خوف وحذر.

ويشير بارو في حديثه عن هذا العمل الفني إلى أن الفنانين في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، كانوا هم الأساتذة السابقون في صنع الحيوانات.(48)

وبشكل عام فإن الاتجاه الذي ساد في ماري في مجال فن نحت التماثيل الحجرية، كان اتجاهاً واقعياً، فالتمثال يشبه صاحبه، إن كان في الحجم أو الشكل أو الإيحاء وثمة تناسب بين الأعضاء كافة، وتفوق في إظهار حالات الحكمة والهدوء والسكينة لدى الشخوص ".

وكانت التماثيل تلك توضع في المعبد كتماثيل نذرية. وغالباً ما صنعت التماثيل تلك من حجر الألباستر.

ويبدو أن ثمة حركة شعبية فنية تجارية في ماري / كما في تدمر لاحقاً / حيث أن ثمة ورشات تعمل على صنع هذه التماثيل، وكانت تتواجد في جانب المعابد لتسهيل العمل ونقل التماثيل إليها.

ويلاحظ في تماثيل ماري، الذكرية، وجوه ملتحية وكأنها لحية مستعارة ويبدو أنها تختص بطبقة في المجتمع.

وثمة تماثيل لرجال حليقي شعر الرأس، وكذلك حليفي الذقون.

أما تماثيل النساء، فمن كن يخدمن في المعبد، تظهر تماثيلهن وهن يلبسن قبعة متطاولة.

أيضاً ثمة تماثيل عبارة عن نسخ غير شخصية يمكن لمن يريد أن يشتريها ويكتب اسمه عليها وتوضع في المعبد أيضاً.

وتتشابه وجوه التماثيل في مدينة ماري، فالعيون محفورة ومنزلة بالصدف أو العاج لبياض العين، وبحجر اللازورد، وأحياناً القار لسواد العين.(49)

لعل من أهم هذه تماثيل هذه الفترة تمثال الرب شمش الذي نذره يسمع أدد حاكم ماري، حيث ثمة إصرار على تمثيل هذا الإله فوق الجبل تقليداً لسنن الفنانين السابقين في مدينة ماري بالذات.

يظهر التمثال في نصفه العلوي، عار، أما في نصفه السفلي فهو عبارة عن شكل مخروطي محبوك كالدرع ليرمز إلى الجبل، ويشد على خصره نطاقاً عريضاً، وثمة تشابك في اليدين، أما اللحية فمضفورة.

أيضاً ثمة رأس محارب من المرمر عثر عليه في ماري. لا يوجد مثيل له إلا في الرسوم الجذرية لقصر زمري ليم. ارتفاعه 20 سم وينمّ عن تعابير رجل وقور مبتسم له أنف طويل وحاد وذو شفتين رقيقتين ويرتدي خوذة يشدها زناق.

الرسوم الجدارية:

تشير المعطيات الدراسية والبحثية حول التكوينات والتلوينات والرسوم الجدارية في ماري، ولا سيما في القصر الملكي، إلى كونها تصّور وبوضوح الروح الإبداعية التي ألهمت الفنانين في منطقة الفرات الأوسط في تلك الفترة.

فجاءت نتيجة بنية فنية دمجت ما بين الآرث الفني الرافدي في الألف الثالث قبل الميلاد والباقي من ذلك العصر، والمذهب الطبيعي الواضح في المفهوم العموري للفن بشكل عام.

ويشير أندره بارو إلى أن عوامل عديدة ساهمت في ايجاد هذه المدرسة الجديدة في فن الزخرفة، ولو أتيح لها

الزمن الكافي للنضوج لأنتجت أحد أرقى العصور الفنية في تاريخ المشرق العربي.⊗

وإن كان قصر ماري الملكي قد شكّل متحفاً للتماثيل وفن النحت فإن ما أبانه من رسوم جدارية متبقية رغم عوادي الزمن يعطي دلالة على مبلغ الارتقاء الفني الذي وصل إليه فنانو ماري.

وقد حوت جملة من الغرف بالاضافة إلى ساحات القصر على تلك الرسوم منها من هو عائد إلى عصر الفاعلية التاريخية لمملكة أور في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد / عصر حكام الشكاناكو في ماري /.

هنا حيث كشفت التنقيبات الآثارية على وجود زخارف جدارية في قاعة الاستقبال 132 في قصر ماري، وتعود إلى عصر الحاكم بوزو عشتار 2050 ـ 2025 ق.م.

وقد أمكن تحديد مضمون هذه الزخارف المهشمة بعد ترميمها، حيث حوت على رسوم لإله يتقبل من الحاكم، الضحية، وثمة آلهة شفيعة ورجال من الحاشية.

الحاكم يبدو في الرسوم، مرتدياً قبعة تشبه الخوذة، وثوبه مشقف بكتف يسرى عارية، حيث يصب الماء من كأس في يده فوق إناءين كعبيهما مرتفعين، والماء يتدفق ليسقي الأرض الجبلية التي يجلس عليها الرب وخلفه الثور. ويعلو هذا المشهد تكريم الربة عشتار الجالسة على عرشها وخلفها إلهة، وكذلك أمامها التي تقدم لها قصعة. وضم المشهد أيضاً عناصر لثور مجنح له رأس إنسان.(50).

⊗ يشير، و. بارابر، إلى الرسوم والتلوينات الجدارية التي تزين احد صالات قصر ماري، تعّد من أقدم الرسوم الفنية في العالم، حيث تمَّ هذا العمل عبر رسمه على طبقة من الجبس وتحتها طبقة من الطين، وتم تنفيذ الرسم بعد جفاف الطبقتين. انظر فيصل عبد الله ـ قراءة في خمسة مجلدات عن ماري دراسات تاريخية 37 ـ . دمشق.

وفي العصر العموري وعهد زمري ليم، يبدو أن الفنانين حافظوا على هذا النسق الفني في مجال المحاكاة والتقليد. وتم تزيين جدران الباحة 106 بمشاهد ملونة وأشكال مختلفة.

حيث نشهد، مشهد موكب أضحية يقوده رجل / ملك أو كاهن / ويتبعه الخدم الذين يقودون الثور للذبح، وعلى رؤوسهم نلحظ قلنسوات مكورة وتتدلى من أعناقهم قلائد، مع ثياب يلبسونها ذات أطراف مزوقة بالخمائل. احتوى هذا المشهد على ألوان مثل الأحمر والأبيض والأسود والأزرق. وأسلوبه واقعي، ذو أشكال تتميز بالحيوية. ولعل من أهم الأعمال الفنية في هذا المجال ما عرف بلوحة تنصيب ملك ماري زمري ليم، " L'INVESTITURE DE ROI DE MARI " حيث عثر عليها في الجدار الخارجي المحاذي للمدخل المؤدي لغرفة العرش، حيث مكانها الأصلي.

يتألف التصميم من لوحتين، علوية وسفلية، في اللوحة العلوية يشاهد الملك وهو يرتدي زياً أنيقاً مزخرفاً وقبعة. حيث يستلم شعار الآلهة عشتار التي تضع إحدى قدميها على ظهر أسد. وثمة في المشهد عدد من الشخوص والآلهات. أما اللوحة السفلية فاشتملت على شكلين للآلهة والمزهرية التي يتدفق منها الماء.

ويلاحظ أن الآلهة ترتدي ثوباً ذي أهداب وتحمل إناء يتدفق منه جدول من الماء تسبح فيه الأسماك.

ويحيط بالمشهد كاملاً للوحتين، إطار مصنوع من بواسطة ألواح طويلة تصور النخيل وأشجار أخرى، تظهر بين أغصانها الطيور والحيوانات الأسطورية والآلهة.

وقد أجمعت معظم الدراسات ذات الصلة بهذه اللوحة، على أنها تمتلك قيمة فنية عظمى حيث نُفذت بأسلوب واقعي، ووزعت الأشكال على سطح اللوحة بحيث ملأت الفراغ مع مزيج لوني شمل طائفة من الألوان، الأحمر، البني الغامق، الأسود والأبيض بالاضافة إلى الأزرق.

الجدير ذكره أن هذه اللوحة كما معظم الرسوم الجدارية نفذت على الطينة.

وفي مناقشته لهذه اللوحة، يشير بارو إلى أن هذه التكوينات / الرسومات، كانت تصويرية بكل ما في الكلمة من معنى وهي تؤلف تكملة أو إيضاحاً على سطح مستو للتماثيل التي عثرنا عليها. ويشير في الوقت نفسه إلى وجود شجر مرسوم باسلوب هندسي مقابل شجر مرسوم باسلوب واقعي. ويلحظ في تلك اللوحة صدى لشجرة الجنة / الحياة والخير والشر /، والملائكة التي تحرس شجرة الحياة وتمنع الاقتراب منها، وأنهار الجنة الأربعة.

ومن بين اللوحات الجدارية المهمة ما احتوته قاعة الجمهور في القصر الملكي وهي ما أطلق عليها لوحة " تضحية الماء بالنار "، حيث تمثل مشاهد عبادة وتقديم الشراب، في حين تظهر أشكال اسطورية مروعة تذكر باسطورة " الإينوما ايليش " " عندما في الأعالي " عبر رموزها / تعامة وشمش /.

وبشكل عام فإن ما نقش من رسومات على الجدران من مضامين، سوف نشاهد مثيلاً له في الأختام الأسطوانية وكذلك على اللوحات الطينية المشوية. وجلَّ ما نتبينه هو اتجاه فني واقعي لجهة الأسلوب امتزج مع الأبعاد الاعتقادية، وحتى اليومية ليشكل في النهاية ذهنية فنية حضارية تميزت بها فنون ماري. ولسوف تَعْبر مع الزمن باتجاه الألف الأول حيث سنشهد مع الفاعلية الآشورية الحديثة تطوراً في مجالات الفنون هذه والتي استقت من منابعها الكائنة في الألف الثاني قبل الميلاد في المشرق العربي بعامة وماري بخاصة.

القوالب الطينية:

أبانت تنقيبات ماري عن وجود قوالب مصنوعة من الطين، عثر عليها في أنقاض القصر الملكي. وهذه القوالب منها ما هو دائري الشكل أو مستطيله.
وقد استخدمت لتشكيل مواد غذائية وحلوى مثل الجبن والمعجنات والزبدة واللبن. وتتراوح أقطار القوالب الدائرية من 18,6 ـ 28,7 سم، أما المستطيلة فتتراوح أبعادها بين 23,5 × 19 سم أو 23,6 × 12 سم.
وقد احتوت نقوش تلك القوالب على مشاهد طبيعية لنبات وحيوانات / شجرة فوق جبل، غصن شجرة يقفز عليها ماعزان / وتتميز هذه الأشكال بالواقعية.
كما احتوت بعض القوالب الأخرى على نقوش لحيوانات مثل سبع يهاجم ثوراً في حقل، ونقوش لصيد الأيائل حيث نجد صياداً يمسك بقرني الحيوان في وقت يهاجمه كلب الصيد من الأمام.
أيضاً نعثر على قوالب تحتوي نقوشاً لأربعة رجال ملتحين يرقصون الدبكة، حيث يسيرون إلى اليمين ويلتفتون لنفس الجهة وهم يمسكون بأيديهم، في حين رفع كل رجل، رجله اليسرى، بينما بقيت الأرجل الأخرى على الأرض في وضعية تشابك، أثبتت قدرة الفنان على رصد أدق الحركات والتعبير عنها بواقعية وفنية عالية.
وثمة قوالب أخرى احتوت على حيوانات مفردة أو طيور تحوم حول بعضها أو تسير في حلقات متموجة.[51].
وعلى حد قول الباحث حميدو حمادة من أن كل قطعة طعام مقولبة كانت تحكي قصة.
أيضاً ثمة قالب حلوى اشتمل على نقش لامرأة عارية تسند ثدييها، في حين زينت رقبتها بأطواق غليظة، ولُفّ شعرها بقماشة على شكل عمامة وقد اعتقد أنها تمثل إلهة الخصب وأطلق عليها اسم الإلهة العارية.

فن النقش على الأختام الأسطوانية:

نعتقد أنه قبل مقاربتنا لموضوع النقش على الأختام الأسطوانية، من أن نورد لمحة عن هذه الأختام ودورها

ووظائفها وزمن ظهورها، كي يمكن لنا أن نحيط بموضوعها كاملاً.

الختم الأسطواني:

يعود ظهوره إلى زمن اختراع الكتابة في المشرق العربي أي إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، ويبدو أن الدافع الأساسي وراء ظهوره يكمن في الشأن الاقتصادي والتجاري وأمور الملكية الفردية. ولا يعرف إلى الآن حضارة أخرى ابتكرت هذا المنجز الفني فهو إبداع مشرقي تميزت به حضارة المشرق العربي.

في الشكل، الختم هو عبارة عن قطعة أسطوانية يخترقها ثقب طولاني. وثمة أختام بطول يتراوح بين 5 ـ 7 سم وهي شائعة في حين كانت أبعادها مع أول ظهورها بين 8 ـ 10 سم.

وعلى السطح الخارجي للأسطوانة، يتم نقش أشكال ومواضيع ناتئة وغائرة وحين سحب هذا الختم على مادة طرية، فإن الأشكال والرسوم والنقوش تنطبع على تلك المادة وأكثر ما استخدمت هذه المادة من الطين.

وباطراد مع الزمن كان التطوير في تقنية صناعة الختم يؤكد نفسه.

فمع بدايات ابتكاره كان يصنع من أنواع هشة من الحجارة كالحجر الكلسي والالأباتر والستياتيت وحجر السرياتيتن واللازورد ولب القواقع البحرية.

وفي الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، تم التحول إلى استخدام المواد القاسية كالهيماتيت والعقيق اليماني واليشب والعقيق الأحمر والأماتيست والكريستال الصخري والكوارتز والجذع وحجر الكالسيدون.

وفي عصر الفاعلية المارية الأولى والتي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، شاع استخدام الهيماتيت.

وقد عثر في مواقع المشرق العربي على أعداد كبيرة من العلب المعدنية المخصصة لحفظ الأختام الأسطوانية في داخلها.

أما في مجالات استعمال الختم الأسطواني، فتشير المعطيات إلى عدة استعمالات له متوافقة مع الأزمنة منذ ابتكارها ثم مع اختراع الكتابة.

فاستخدمت كطمغة للسدادات الطينية التي كانت تستعمل في سد فوهات الجرار والأواني، منعاً من فتحها والوصول إلى ما تحتويه. وهذا كان مع بداية ظهور الختم.

أما طريقة العمل في ذلك، فتتم بوضع قطعة قماش أو جلد فوق فوهة الإناء أو الجرة مباشرة ثم تغطى هذه القطعة من كامل جهاتها بكتلة من الطين الطري، ثم يجري دحرجة الختم الأسطواني فوقها فيتم طبع رسوم الختم ونقوشه على الطين. وإن وصلت هذه الأواني المغلقة والمحكمة الإغلاق إلى هدفها فكان يتم كسر الكتلة الطينية المطبوعة بنقوش الختم وترفع قطعة القماش أو الجلد ويتم الوصول إلى محتويات الجرة أو الآنية.

ومع استخدام الكتابة على الألواح الطينية، استعملت هذه الأختام كطمغة لها، وذلك لغاية توثيق محتوياتها. وقد شاع هذا الأمر في الألف الثاني قبل الميلاد.

ولعل استخدام الختم في طمغ الأواني والجرار، يُعبّر عن شيوع الملكية الفردية، هذه الصفة الملازمة لعالم الألف الثاني قبل الميلاد ويعود أيضاً إلى فترة الفاعلية الأكادية في النصف الثاني للألف الثالث قبل الميلاد.

وبذا صار الختم هو المُعبّر عن الشخصية الفردية الاعتبارية للتاجر والحرفي وكافة النشاطات الاجتماعية والفاعليات الاقتصادية.

ومن الطريف أنه حين كان يفقد الختم الشخصي لأحد الأشخاص، كان عليه إخبار السلطات الرسمية التي تتجه إلى الإعلان عن فقدان الختم، حيث يتم نفخ البوق في

شوارع المدينة للحيلولة دون استعمال الختم المفقود من قبل شخص آخر.[52].

وفي موازاة ذلك، فإن استخدام وشيوع الختم الأسطواني كان متزامناً مع البنية السياسية للنظام في مدن المشرق العربي فإن كانت الفاعلية السومرية شهدت نظامها السياسي القائم على ثنائية القصر والمعبد، فإن الأختام اقتصرت على المؤسسات الرسمية.

ومع ظهور معالم فصل الدين/المعتقد عن الدولة ولا سيما في فترة الفاعلية الأكادية، شاع الختم الشخصي، الذي عَبّر عن شيوع الملكية الفردية في المجتمعات المشرقية وهذا ما يتبدى جلياً في الألف الثاني قبل الميلاد.

ومن طرائف تلك الفترة، أن الوثائق تشير إلى عدم وجود أختام لدى بعض المتعاقدين وهنا يلجأون إلى صنع أختام سهلة الصنع من الطين والخزف، أو يستخدمون أظفار اليدين أو طرف الرداء بديلاً عن الختم. كما يمكنهم استخدام ختم شخصي لرجل آخر ولكن يذكر في الوثيقة، نوع الختم البديل.

الجدير ذكره هنا، هو أن ثمة أختام لنساء تعود إلى الألف الثالث، مع قلة لهذه الظاهرة في الألف الثاني وكانت الأختام تنتقل من الأب إلى الأبن وإلى الأحفاد أيضاً.

وثمة دلائل على وجود أختام للآلهة، وهذا يشير إليه الدارسون، حيث أن الملك الآشوري أسرحدون / 680 ـ 669 ق.م /، استخدم طبعة الختم الإله آشور على أحد الوثائق الكتابية، وبدراسة اسلوب النقش لهذا الختم، دلَّ الأمر على أن هذا الختم ربما يعود لفترة الفاعلية الآشورية في الألف الثاني ق.م.

ما يعني أن بعض الأختام بقيت قيد التداول لفترة طويلة من الزمن.

وفي حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ظهرت الكتابة لأول مرة على الأختام الأسطوانية، حيث كانت

تتضمن اسم مالك الختم الأسطواني ومهنته. ومع الزمن أخذت الكتابة تتوسع لتشمل كلمات جديدة مثل الوالد والإله والملك، ثم أصبحت تحتوي صلوات وتعاويذ وأدعية.

المواضيع المنقوشة على الختم الأسطواني:

منذ ابتكار الأختام، تشهد التحريات الأثرية العثور على أختام أسطوانية تحمل مواضيع عدة⊗، منها:

مشاهد دينية وطقسية، معارك، حيوانات مفترسة، كائنات أسطورية وخرافية، حيوانات أليفة / بقر ـ أسماك /..

ومع الألف الثالث وباتجاه ثلثه الأخير، نجد تنوعاً في المواضيع المنقوشة على الختم، فثمة زخارف هندسية وحيوانية ونباتية غير مميزة، وقد تحولت أشكالها إلى زركشة شبيهة بزركشة الثياب وأطلق عليها اسم " البروكار ". كما عثر على طبقات أختام لأشكال بشرية وحيوانية، ويبدو سيطرة لموضوع حماية الإنسان للحيوانات الأليفة وقتله للحيوانات المفترسة على مجمل مواضيع الأختام.

أيضاً نجد مواضيع منقوشة تختص في تصوير مجالس الشراب وابتكرت في هذه الفترة أشكال جديدة تختص في الجمع بين الإنسان والثور المقدس.

كما ثمة دلالة عبر اللقى الأثرية على أن المواضيع المنقوشة قسمت إلى مشاهد على شكل مربعات، وتم

⊗ يشير الدكتور علي أبو عساف إلى أن الختم تطور عن التميمة التي كانت تستخدم لطرد الأذية والبلاء، وذلك منذ الألف الخامس قبل الميلاد. انظر ـ آثار الممالك القديمة في سورية. مرجع سابق.

إضافة اسم صاحب الختم على النقش أو اللوحة واسم الإله أو الآلهة.

مع الإشارة إلى أن فنان هذه الفترة، تجاسر وعمّق أشكاله في سطح الختم حتى تظهر بارزة عند الطبع.[53]

وفي عصر الفاعلية الأكادية التاريخية 2350 ـ 2150 ق.م، نحا الختم الأسطواني ولا سيما في عصر نارام سين، إلى الأخذ بمواضيع عديدة منها:

ـ مشاهد عراك الحيوانات، مجالس الشراب، المثول أمام الآلهة، تمثيل الآلهة.

وفي فترة الفاعلية العمورية ـ الكنعانية مع الألف الثاني قبل الميلاد،

استمرت المواضيع القديمة في الاستعمال والنقش، ولكن ظهرت مواضيع جديدة، ولا سيما موضوع تمثيل الأرباب مع شعاراتها. مثل، ربة الحرب التي تدوس بقدمها فوق الأسد وهي مسلحة، إله الشمس والمنشار بيده اليمنى والجبل تحت قدمه اليمنى. الرب ذي الصولجان، إله الطقس يقف فوق ثور ويحمل بيده صورة البرق.. الخ.

كما نعثر على نصوص خطية في وسط الأختام محاطة بها ربتان. بالاضافة إلى مواضيع لمصارعة بين اشخاص.

الأختام الأسطوانية في ماري في الألف الثاني قبل الميلاد⊗:

لم تفترق المواضيع المعالجة والمنقوشة على الأختام الأسطوانية والتي عثر عليها في ماري، سواء في الألف الثالث أو في الألف الثاني قبل الميلاد، عن الخط الفني ـ الذهني العام لحركة الفن في المشرق العربي.

⊗ اعتمدنا في مناقشة موضوع الأختام الأسطوانية بشكل عام على مؤلفات عديدة منها، آثار الممالك القديمة للدكتور علي أبو عساف، تاريخ الفن في العراق القديم ـ الجزء الأول ـ د. صبحي رشيد ـ بغداد ـ الأختام الأسطوانية في سورية ـ دليل معرض الأختام الأسطوانية في سورية هارتموت كونه وآخرين. 1980 ـ معهد اللغات الشرقية القديمة/جامعة توبنغن. ومصادر أخرى.

فمن منحى الحياة الاعتقادية ورموزها، إلى الحياة الأدبية والزراعية والبيئية نجد أننا أمام كم هائل من الأختام التي كشف عنها موقع مدينة ماري.

فثمة ختم أسطواني صنع من الحجر الأبيض نقش عليه مشهد اعتقادي يشمل الإله شمش يجلس فوق مرتفع جبلي، ويلاحظ ارتداؤه لثوب طويل يدعى " الكوناكس "، ونلحظ وجود تاج فوق رأسه مزين بعدة قرون، في حين تدلت من رقبته من الخلف، جديلة من الشعر، وقد أمسك الإله صولجاناً بيده اليمنى، له رأس كروي، وإلى أمامه نجد في السهل إلهة الخصب بلباس طويل ولها قرنان، ويخرج من جسمها بعض أغصان الشجر في حين تحمل بيدها شجرة باسقة. كما تشاهد خصلة شعر على ظهرها.

وإلى الخلف منها يقف إله الحقول وهو يحمل آلته الزراعية ويضرب الأرض بها. وخلف الإله شمش نجد ربة تشبه ربة الخصب تحمل إناء نذرياً في حين يخرج من جسمها بعض الأغصان. ونلحظ أيضاً نجمتان لها ثماني فروع، تدل إلى رمز الربوبية.

إن إيحاء هذا المشهد يعطي دلالة على حاجة إلهة الخصب إلى إله الشمس وتضرعها له من أجل الخصوبة والربيع. ويحمل ختم آخر، مشهداً يُعنى بمجريات ملحمة جلجامش، في مشهد صراع جلجامش مع الأسد. علماً أن موقع ماري أمدّنا بأختام كثيرة تختص بهذه الملحمة.

الجدير ذكره، أن بعض الرموز الاعتقادية / الآلهة / والذين نقشوا على الأختام، كانوا يشبهون تماثيلهم المنحوتة من الحجارة أو المصنوعة من المعدن، كما أن الضفائر التي نراها على نقوش الأختام نجد مثيلاً لها في الرسومات والتلوينات التي وجدت في قصر ماري وعلى الجدران.

وفي تل ليلان / شباط انليل /، عثر على رقيم طيني عليه طبعة ختم، حيث حوى هذا الرقيم على حقلين

منفصلين بضفيرة وقد مثل القسم العلوي مشهداً أسطورياً معقداً وفيه الآلهة تقتل ثوراً أما السفلي فيظهر مشهد صراع بين الحيوانات.

يعود هذا الرقيم المختوم إلى حوالي 1790 ق.م، وقد ورد في النص " ساميا، خادم شمشي أدد ".

ومن موقع ترقا/تل العشارة، ثمة ختم أسطواني يتحدث نقشه المرسوم عن إلهة على عرشها وأمامها ملك عابد وإلهة شفيعة ويعود إلى حوالي 1900 ـ 1800 ق.م.

كما قدم هذا الموقع ختماً آخر لإلهة مع طير ترحب بملك يحمل حية وغزالاً. وإلى جانبهما أسد وعقاب يهاجم غزالاً. وقد تم فصل المشهدين بضفيرة ويعود إلى حوالي 1750 ـ 1600 ق.م.[⊗]

[⊗] للمزيد انظر ـ دومنيك بوناتز ـ هارتموت كونه ـ الأنهار والبوادي ـ التراث الحضاري للجزيرة السورية وما حولها. دمشق 1999 ـ وزارة الثقافة.

التجارة والنشاط التجاري في مملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد:

إن مقاربة الحياة التجارية والتبادل التجاري لمملكة ماري في هذه الفترة، يجعلنا أمام جملة من المعطيات، أهمها أن النشاط التجاري والتبادل السلعي لمنتجات المملكة مع الممالك الآخرى، ساهم في ازدهارها. حيث أن ماري العمورية كانت تجني الأرباح من تربية الحيوانات والمواشي، أكثر من الزراعة. وكانت فقيرة نسبياًً كون أن النظام الزراعي مرتبط بنظام الري والذي لم يكن كافياً بحال من الأحوال ولا سيما في حالات المناخ الجاف. لهذا فإن الوثائق في ماري تشير إلى شح المحاصيل، ورغم أن الملك أمر باتخاذ الإجراءات الضرورية لتوسيع أقنية الري ونظامها، فإن المحاصيل بقيت عاجزة عن سد الاحتياجات الزراعية لهذه المملكة.

وتشير المعطيات الوثائقية إلى حصول مجاعة في ماري، في عهد زمري ليم، مما دفعه لطلب المساعدة من ملك يمحاض عبر مندوبه في القصر الحلبي، وقد طالب زمري ليم، بإرسال القمح الحلبي إلى ماري، من قبل ملك حلب ياريم ليم.[54] كما أن ثمة معلومات عن انتقال شحنات من الدقيق عبر إيمار إلى ماري.

وكون أن ماري، كانت تتميز بغزارة القطعان من الماشية، فقد اعتمدت على ذلك، في صنع الألبسة وبكميات كبيرة، وقيامها بالمبادلات التجارية بذلك وكان التجار يأتون إليها ليحصلوا على الإنتاج الصناعي كالملابس والبرونز والأسلحة.

" حيث كانت قطعان الماشية تنتقل من إيمار وعبر مملكة ماري إلى يمحاض، أو يتم نقلها فقط إلى ماري كمبادلات تجارية "(55)

فإذن يمكننا مقاربة العامل التجاري وطيفه في مملكة ماري وفق ثلاث دوائر:

الأولى: هي التجارة بين مملكة ماري وممالك المشرق العربي الأخرى المعاصرة لها.

الثانية: هي التجارة في مملكة ماري، بمعنى تجارتها الداخلية.

الثالثة: وهي تجارة المملكة مع مدن ما وراء المشرق العربي، شرقاً أو غرباً، كما جنوباً أو شمالاً.

كذلك، يرتبط مع كل هذا وفي موازاة المبادلات التجارية، عامل آخر يختص بعائدات المرور للقوافل التجارية، البرية والنهرية، والتي حققت منها ماري أرباحاً خيالية، وهذا مع ما نطلق عليه اصطلاح " الجمارك " على البضائع والسلع العابرة.

الجدير ذكره أن القصر الملكي في ماري، كان مركزاً لكل الفاعليات التجارية للمملكة⊗ .

تجارة ماري مع ممالك المشرق العربي المعاصرة لها:

لا تنفصل الحياة التجارية وأنشطتها بشكل عام عن الواقع السياسي الذي كان قائماً آنذاك ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، لذا فإن العلاقات التجارية بين ممالك المشرق كانت في وجهها الآخر، تعبيراً عن العلاقات السياسية فيما بينها، وعلى هذا نتوقع علاقات تجارية قوية لمملكة ماري مع ممالك يمحاض، وقطنة وبابل،

⊗ تشير المعطيات إلى أن تجارة القصر في ماري، كان يديرها وينظمها موظف ملكي يدعى وكيل التجار / وكيل تامكاري /، وكان هذا مسؤول أيضاً عن تحصيل رسوم الجمارك.
انظر ـ دول وحضارات في المشرق العربي القديم ـ فرزات ومرعي. مرجع سابق.

وحاصور وأوغاريت / التي لم تكتمل فاعليتها التاريخية بعد / وكذلك مع إيمار التي كانت تدور في فلك فاعلية يمحاض، ومع مملكة كركميش أيضاً وجبيل.

كما تنبغي الإشارة إلى أن نمط العلاقات الاقتصادية ـ التجارية، في الألف الثاني بين الممالك في المشرق العربي، يمنح دليلاً كافياً على طبيعة دورة الحياة الاقتصادية في شقها التجاري بين مختلف الممالك آنذاك. بحيث أن دورة الحياة الاقتصادية الواحدة، كان يمكن أن تُشكّل دفعاً باتجاه نوع من التوحيد السياسي بين الممالك، غير أن غلبة المصالح المدينية أو " الممالكية " على الوعي الاتحادي الأشمل، هو الذي كان يحكم نسق دورة الحياة الاقتصادية. فكما أسلفنا كان ثمة حالة تحالفية بين ممالك بابل ويمحاض وماري، أساسها التقاء المصالح بينهم، والوقوف في وجه تحالف أشنونا وعيلام. ونلحظ أنه في غياب هذا التحالف الأخير، فإن طبيعة العلاقات بين هذه الممالك تعود إلى اعتيادها الطبيعي وايقاعها المستمر وفق المصالح المدينية.

وعلى هذا لا نستغرب ذاك الصراع الخفي بين مملكة ماري ويمحاض على احتواء إيمار، لا بل وسعّي توتول إلى الانضمام لفاعلية يمحاض. في دليل على غياب الوعي الاتحادي الأشمل.

ثم سوف نذكر، أن دمار فاعلية مملكة ماري وإنهاء وجودها، كانت نتيجة لتضارب المصالح الاقتصادية ـ التجارية، بين مملكة بابل وبينها، ما حتمَّ ضرورة تدميرها لتعيش الفاعلية البابلية.

رغم أن كل هذا حصل في وقت كان الوشاح العموري يطغى على جميع الممالك، لا بل إن القرابة الدموية محققة، إن كان بين سلالة يمحاض مع سلالة ماري أو سلالة شمشي أدد الأشوري العموري والذي تعتبر ترقا مسقط رأسه.

ومع هذا فإن دورة الحياة الاقتصادية ـ التجارية المستندة إلى العامل الاجتماعي والروحي، والديمغرافي أيضاً، تتيح لنا فهم إيقاع الحركة والمبادلات التجارية بين ممالك المشرق العربي، وكأنها تتناغم وفق ناظم واحد، عنيتُ الناظم المديني والمصلحي لكل مملكة.

وعبر كل هذا فإن ماري شكّلت وفق موقعها الاستراتيجي والمحوري دوراً هاماً في العالم التجاري آنذاك، مستفيدة من موقعها ومن نهر الفرات كمعبر مائي لهذا فقد امتازت بدور مزدوج، فهي محطة لعبور القوافل، أو لتفريغ البضائع ثم إعادة شحنها إلى مدن أخرى. / علي أبو عساف 1991. /

وهنا تنبغي الإشارة إلى أنه في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، ازدهرت تجارة القصدير في المشرق العربي، حيث كان يستخرج من مواقع شمال غرب ايران، ولعبت ماري في القرن الثامن عشر دوراً أساسياً في تصديره إلى مدن المشرق مثل حلب وكركميش وقطنة وحاصور، حيث كان يخّزن في مستودعات قصر ماري. أما القصدير العابر في أرض المملكة فكان يخضع لضريبة عبور، حيث يذكر أحد النصوص ضريبة عبور " 5 مينات ونصف من القصدير ضريبة " ARM VII 233:19 ويبدو أن ماري لعبت دوراً مهماً في تجارة القصدير آنذاك، بين الجناح الرافدي والجناح الشامي الممتد من كركميش شمالاً وحتى شمال فلسطين جنوباً، كما وعبر أوغاريت إلى عالم البحر الايجي ولا سيما كريت وقبرص.

المبادلات التجارية بين مملكة ماري ومملكة يمحاض:

منذ أن ساهمت يمحاض في إعادة زمري ليم إلى عرش ماري، دخلتْ المملكتان في علاقة تحالفية متينة

أساسها المصالح المشتركة. كما ساهم الزواج السياسي بين العائلتين الحاكمتين في تمتين هذه العلاقات.

وبالإشارة إلى مملكة يمحاض في تلك الفترة حيث كانت تسيطر على طرق التجارة الدولية بين الجناح الشرقي للمشرق العربي، والأناضول وشمال سورية ومصر، وهذا الممر تسميه المراجع التاريخية بالممر السوري العظيم.[56]

وهذه السيطرة لم تأتِ من فراغ، ولعل ممكنات البيئة الطبيعية لهذه المملكة، بالإضافة إلى عدم دخولها في صرعات وحروب تنهكها / كما كان الوضع مع إبلا /، ساهمت في استقرار ازدهارها وقوتها على مدى العصور.

والمعلوم أن يمحاض / حلب كانت منطقة زراعية تنتج الزيوت والنبيذ وغيرها .. وتصدر القمح والزيت والخمور والألبسة المتقنة النوع والصنع. كما ساهمت في تجارة الأخشاب والأحجار الكريمة.

وكان من مصلحتها التجارية والاقتصادية القصوى، أن تكون علاقتها بماري تلك الواقعة على الفرات الأوسط، وهمزة الاتصال بين جناحي المشرق العربي، جيدة، بل وتحالفية أيضاً.

لذا فإن المعطيات الأثرية والتاريخية، تشير إلى أن ماري كانت الوسيط الأهم ليمحاض في علاقاتها مع مدن الجناح الشرقي للمشرق، كما أن لماري مصلحة تجارية مع يمحاض في علاقتها مع مدن الساحل السوري/ أوغاريت /. وقد كان النبيذ يأتي إلى ماري من يمحاض، كما السمسم الحلبي، وبالإضافة إلى السمسم القادم من مدن فلسطين عن طريق يمحاض ثم عبر الفرات إلى ماري.

كما أن النحاس كان ينتقل من الأناضول عبر يمحاض إلى ماري.⊗

الجدير ذكره هنا، هو وجود ممثل لملك ماري زمري ليم في حلب يدعى نورسن، حيث كان مسؤولاً عن تأمين مادة الزيت لملك ماري.(57)

وفي الاتجاه المعاكس، كانت ماري محطة تصدير القصدير القادم إليها من عيلام وايران باتجاه يمحاض وكركميش وأوغاريت.

واستوردت من يمحاض أيضاً العسل والصوف والأواني والزيوت والقمح والحليّ والأواني المعدنية والحبوب بشكل عام. ⊗⊗

وكان النبيذ الحلبي يعتبر من الهدايا التي يفتخر بها ملك ماري، وكان سعره أغلى عشر مرات من سعر القمح وأقل مرتين من سعر الزيت.(58)

كما وتذكر وثائق ماري أن سكانها كانت لهم قوافل لنقل القصدير / من كبادوكيا الآشورية / حيث كانت قيمة القصدير 1 / 10 من الفضة، وكان يباع في يمحاض وغيرها، ويشترون بما ربحوه، النبيذ.

وفي نص ماري ARM VII 86، نقرأ عن إرسال خمسين مينة / 25 كغ / من القصدير إلى ملك حلب ياريم ليم، وكذلك إرسال عشر مينات / 5 كغ / إلى رجلين هما / أبي ـ أدو، يابجور ـ أدو / مناصفة.

كما ثمة وثيقة أخرى تتحدث عن إرسال وزنة / BILTU / وثلاث وخمسين مينة وثلثي المينة / 56 كغ / إلى مدينتي يمحاض وقطنة.

⊗ يشير هورست كلينغل أيضاً إلى ذكر وثائق ماري / في السنة التاسعة من حكم زمري ليم / إلى إرسال كمية من القصدير من قبل حمورابي بابل، حيث أودعت في حلب، بينما أودعت كميات أخرى من هذا المعدن في أوغاريت من قبل تاجر من ماري. انظر تاريخ سورية السياسي. مرجع سابق.

⊗⊗ كان القمح يوّرد إلى ماري من يمحاض عبر مرفأ إيمار الواقعة تحت فاعلية يمحاض. أما الزيوت الحلبية فكانت تصدر إلى مدن الجناح الرافدي عبر ماري.

كما ثمة قصدير مرسل إلى يمحاض / 10 كغ / و / 9 / كغ.[59]

الجدير ذكره أنه في ماري أناس متخصصون في تجارة القصدير، ويبدو أن ثمة احترافاً لديهم في هذا الأمر، وقد أوردت نصوص ماري أسماء لبعض هؤلاء ومنهم: نانا ـ مانسي، أخوشينا، ماهنوب ـ إل.[60]

وتذكر إحدى الوثائق من ماري A.16، وهي عبارة عن رسالة أرسلها شخص يدعى " مبتو " يمكن أن يكون مسؤولاً في منطقة قرب أشنونا يخبر فيها ملك ماري عن إرسال قافلة من القصدير"/ 29 حماراً، 44 متاجراً بالبرونز / يحملون القصدير وصلوا هنا من أشنونا، سيّرتهم إلى سيدي".[61]

ومن مراسلات القصر حول المواد المستوردة نقرأ مثلاً:

ـ رسالة من أحد موظفي ماري إلى سيده يسمع أدد / حين كانت ماري تحت فاعلية آشور /:

" بالنسبة لزيت تونيب، الذي ذكره سيدي، لا يوجد أي زيت تونيبي في حوزتي. وهكذا لا أستطيع إرسال أي شيء. ولكن حالما سمعت ذلك كتبت إلى حلب بسرعة، فإذا أرسلوا إليّ بشيء، فسوف أرسله إلى سيدي". / ARM . V 63 /.

ويحتفظ الزيت بأهميته في الحضارة السورية، فهو المستخدم في الطقوس الاعتقادية كما في الإضاءة والطعام، والمآتم وأعمال وشؤون الدهن والتداوي به، كما كانت الزيوت تدخل في صناعة العطور التي برعت فيها مدينة ماري. وقد حوت مستودعات القصر الملكي على الزيوت وبكميات كبيرة، وقد تم احصاء حوالي 11 نوعاً من الزيوت، مستخدماً في ماري ARM VII P. 176 – 184 يمكننا تحديدها كما يلي:

زيت الزيتون، الزيت الممتاز، حيث كان يتألف من زيوت عديدة من الآس والقدور واللبان والدهن المعطر المصفى. زيت الزعفران، زيت السرو، زيت تامريروم TAMRIRUM، زيت

الأرز (زيت البلح)، زيت اللبان / علم الدين أبو عاصي.2002 /.

وكان لزمري ليم اهتمام خاص بعالم الزيوت والعطور.

أما عن طريق التجارة بين حلب وماري / الذاهب والراجع /، فإن المعطيات تشير إلى وجود كلا وسيلتي النقل، البريّ والنهري. فقد كانت قوافل الحمير تنقل البضائع من حلب إلى إيمار، ثم من مرفأ إيمار عبر السفن إلى ماري.

وفي معرض إشارته إلى الطريق التجاري الدولي للمواد الأولية، يشير الدكتور فيصل عبد الله إلى اتجاه آراء بعض الباحثين على أن هذا الطريق في فترة زمري ليم وحمورابي، كان يبدأ من الصين وأفغانستان وينتهي في حلب والآلاخ، حيث يتابع إلى بحر إيجه والأناضول. ويشير إلى أن أهم تلك الموارد على الإطلاق هو القصدير.[62]

وتنبغي الإشارة أيضاً إلى أن يمحاض وكونها كانت تُشكل وسيطاً بين ماري وأوغاريت، فإن البضائع التي كانت تصدر أو تستورد عبر أوغاريت مع قبرص وكريت، كانت تمرّ إلى حلب ثم إلى ماري أو من ماري إلى حلب فأوغاريت فالعالم الإيجي.

أيضاً تشير المعطيات إلى وجود أشخاص يعملون لخدمة قصر ماري في مدن متعددة، فأحد الأشخاص مثلاً وكان يمحاضياً / حلبياً، كان يعمل لصالح ماري كخبير في الخشب كما يقوم بتثبيت ألواح الأرز المستوردة من كركميش. ARM. VIII. 242.

ومن طرائف الوثائق في العلاقة بيم ماري ويمحاض، ثمة رسالة من رجل يدعى لاؤوم حيث يبدو أنه مرسل على رأس قافلة إلى البلاط الحلبي زمن حكم حمورابي الحلبي، ونتيجة تعّرض بعض أعضاء الوفد إلى الازعاج والمضايقات يكتب هذا إلى زمري ليم:

" أقول لمولاي، هكذا خادمك لاؤوم، ذهبنا من أجل وجبة مع حمورابي ودخلنا إلى القصر وقد أعطونا، أنا،

زمري ـ أدو ـ وياريم أدو، ثياباً لنلبسـها، ورجال يمحاض الذين ذهبوا معنا أخذوا ملابس ليرتدوها. وهكذا كل واحد كان يرتدي ملابس من يمحاض. ولكن خدم مولاي، رسـل SASIKKIM لم يأخذوا ثياباً، هكذا أتكلم عن سـلوكهم إلى سـن ـ بيل ـ أبليم قائلاً: " لماذا تفصلوننا وكأننا لصوص؟ خدم من نحن؟ خدم من هم رسـل SASIKKIM، كلنا خدم مولاي ". ARM II 76.

المبادلات التجارية بين ماري ومملكة كركميش / جرابلس /:

تشـير الوثائق إلى تصدير القصدير إلى كركميش / وزنة واحدة إلى ملك كركميش أبلا خاندا، و 2.5 مينة إلى شـخص آخر[⊗]. كما يذكر نص آخر 50 مينة من القصدير إلى أبلا خاندا الملك وسـبع مينات مرسـلة إلى صدقم لاناسـي وهذا هو سـفير ماري في كركميش ويبدو وأنه مهتم بالشـؤون التجارية.

واسـتوردت ماري الحلي والأواني المعدنية من كركميش وكذلك وصلها النبيذ من بلاط كركميش كهدية للقصر الملكي. كما اسـتوردت الزيوت منها / تذكر النصوص إرسـال 10 جرار من الزيت إلى ماري /.

وكان النبيذ يشـحن من كركميش عبر الفرات حيث يمر من ميناء إيمار في مراكب خاصة له، حيث كانت المراكب الصغيرة تتسـع لمئة جرة، بينما تتسـع المراكب الكبيرة لثلاثمئة جرة.

ويبدو أن نبيذ كركميش كان ذا أهمية كبيرة في ماري لمذاقه الطيب، وقد حفلت رسـائل الملوك والحكام بذكر تقدمات منه ويشـير نص رسـالة من ملك كركميش إلى يسـمع أدد / حاكم ماري زمن الفاعلية الآشـورية /:

[⊗] ARM VII 86.

" إنني أرسل لك نبيذاً ممتازاً لتشربه، وبنفس الوقت أرسل لك طعاماً لتأكل .. إذا لم يكن لديك نبيذ جيد لشرابك، أكتب إليّ وسأرسل نبيذاً ممتازاً لشرابك ".
. ARM V 5.6 , 13

كما يرسل أبلا خاندا ملك كركميش شحنة من النبيذ / 50 جرة / إلى زمري ليم ملك ماري.

وكان التجار يستأجرون مراكباً لنقل النبيذ على الفرات، وفي موقع مدينة ترقا، كان عليهم أن يسددوا الضرائب على الشحنة العابرة سواءً بمثاقيل الفضة أو من النبيذ نفسه، وكانت الضريبة تعادل 10٪ من قيمة الشحنة.

الجدير ذكره أن نصوص ماري تشير إلى عدة أنواع من النبيذ عادي وآخر أحمر بمواصفات جيدة، كما ورد ذكر نبيذ مُعتق ونبيذ وردي معتق ونبيذ المزاعتمار.[63]

ويشير فينيه إلى أن تجارة النبيذ كانت تراقب أحياناً من قبل ملك ماري شخصياً.[64]

كما استوردت ماري العسل من كركميش / ثمة ذكر لعشر جرار أرسلها أبلا خاندا إلى زمري ليم /، وتشير المعطيات أيضاً إلى أن كركميش صدّرت الأخشاب إلى ماري عبر الفرات.

كما استوردت ماري الخيول من كركميش.[⊗]

ومن طرائف العلاقات بين ماري وكركميش، رسالة من أبلا خاندا ملك كركميش إلى حاكم ماري الآشوري / يسمع أدد / حيث يقول له:

" هكذا ترى أن مركز توتول على البليخ / وكان واقعاً تحت الفاعلية المارية / قد حجز 30 خروفاً و50 جرة نبيذ،

[⊗] يشير الدكتور علي أبو عساف في دراسته غير المنشورة بعد " إيمار وحوض الفرات الأوسط بين مملكتي ماري وإبلا " 1991، إلى أن الوثائق / رسائل سفير ماري في كركميش / تشير إلى أنه كانت هناك عربات تجرها الثيران استخدمت في نقل العنب والحبوب.
وثمة رسالة من كركميش إلى زمري ليم جاء فيها: لقد تكلمت مع أبلا خاندا بخصوص الجياد البيضاء. وهو (أجاب) أنه لا يوجد جياد بيضاء للعربات .. سوف أكتب إلى حيث يوجد وسوف يرسلها إلي، حتى ذلك الوقت سأرسل جياداً حمراء من خارسمنا / الأناضول /. انظر ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق صـ 69 ـــ

حتى أنه حجز زوجة صاحب السفينة .. إكتب إذن إلى توتول لفك حجزها. وفي مملكتي قام الموظفون لدى سماعهم الخبر بحجز عدد كبير من البضائع المرسلة إلى ماري وأخرى إلى توتول ". ARM V 9

وتشير نصوص ماري إلى وجود رجال معتمدين من قصر ماري في كركميش لتسهيل والاشراف على المواد التجارية المستوردة، فتشير النصوص إلى رجل اسمه داريا، متخصص في استيراد منتوجات من كركميش إلى ماري ولا سيما الخشب والنبيذ.⊗ وثمة دلائل على وجود مركز له هناك يدير عبره أعماله المختلفة.

كما تشير النصوص إلى أن أي تجارة من قبل مراكز ومدن مملكة ماري مع المدن خارج المملكة يجب أن تمر على المركز / القصر في ماري، حيث يزود التاجر بتصريح للسماح له بذلك.

فثمة وثيقة / رسالة من حاكم ساغاراتوم التابعة لمملكة ماري ويدعى ياقيم أدو إلى سيده زمري ليم جاء فيها:

" أراد أحد سكان إيكالاتوم أن يذهب إلى كركميش، وكان في حوزته أربع إماء. قال له ياقيم ـ أدو: دون (إذن) سيدي لا تذهب الإرسالية إلى بلد ثان، كما سألته " لماذا لا تحمل أي لوح (تصريح) من سيدي. " ARM XIV 52

وثمة رسالة أخرى من نفس الحاكم إلى زمري ليم تتحدث عن أحد الخانيين " ورّد دون إذن من الملك، أحد العبيد إلى السوتيين، ولم يلاحظ حرس الحدود ذلك. وعندما عاد الرجل جالباً معه حمارين وثلاثة رؤوس من الأغنام كثمن للعبد، صادر حرس الحدود هذه الحيوانات. ARM XIV 79.

الجدير ذكره هنا، هو أن سعر العبد كان يتراوح بين 9 ـ 11 مثقال من الفضة. ARM I 29 : 11, VII 117;7;P.33i

---

⊗ ARM VIII 80 : IX 14 , 17.

وفي مجال الطرق التجارية بين ماري وكركميش، فإن نهر الفرات يقود من ماري إلى كركميش، كما أن الطريق الواصل بين ماري وإيمار تقود شمالاً إلى كركميش.

كما ثمة معطيات تشير إلى وجود طريق صحراوية بين إيمار وماري. ويعتقد أن هذه الطريق تمر جزئياً في حوض الفرات.⊗

وكنا ذكرنا آنفاً إلى أن كركميش كانت تصدّر الأخشاب إلى ماري، وقد أبانت نصوص ماري أهمية هدا الأمر، في رسالة من حاكم ساغاراتوم⊗⊗، ياقيم ـ أدو، إلى زمري ليم حيث يقول أن:

" 200 لوحاً من خشب الصنوبر الثقيل، وجذعين من الخشب / خشب الأرز / بطول 12 متراً و8 جذوع من الصنوبر بطول 12 م و8 جذوع من الصنوبر بطول 12م قد احتجزت في كركميش ". ARM XIV 31.

وثمة رسالة أخرى يعلمه فيها عن وصول خشب الأرز إلى سيلازيبوم بصحبة التاجر داريّا، والذي يبدو أنها قادمة من كركميش.

كما ثمة وثيقة / رسالة يعلم فيها موكانيشوم، زمري ليم، عن وصول خشب الأبواب التي طلبها من كركميش، حيث يرد " محور ارتكاز الباب الذي جلبوه من كركميش ـ لم ألمس ذلك المحور حتى يفحصه سيدي ". ARM XIII ,7

الجدير ذكره، هو أن موقع مدينة كركميش في شمال المشرق الغربي إلى الغرب وعلى ضفة نهر الفرات، شكّل منها، حجر ارتكاز تجاري، نحو مناطق الأناضول وطوروس. وكانت علاقاتها بشكل عام، متوازنة مع الممالك الأخرى.⊗⊗⊗

⊗ انظر ـ علي أبو عساف ـ دراسة غير منشورة ـ مرجع سابق.

⊗⊗ ـ كان لمدينة ساغاراتوم مرفأ غير بعيد عن ملتقى الخابور مع الفرات.

⊗⊗⊗تشير الوثائق في ماري إلى إرسال ملك كركميش أبلا خاندا أحجاراً إلى ماري وقت وقوعها تحت فاعلية آشور ARM V 13 : 9-10 .

المبادلات التجارية بين ماري ومملكة قطنة:

لعل العلاقات بين ماري وقطنة، تأخذ بُعداً أساسياً في تجارة الجناح الغربي الشامي للمشرق العربي.
فالمدينتان، تجاريتان بامتياز، وتشكّلان محطات للعبور التجاري، وإن كانت قطنة اعتمدت على الطريق البري، فإن ماري استحوذت على كلا الطريقين التجاريين المائي والبري.
وكون ذلك، كان طبيعياً أن تكون العلاقة بين كلا المدينتين / المملكتين، علاقات مصالح قصوى وحقيقية وثابتة. فقطنة هي توّجه ماري نحو سواحل المتوسط، وماري هي حاجة قطنة، للعبور إلى الجناح الرافدي وهذا ما استطاع ملك آشور، شمشي أدد من استثماره حين ضمَّ ماري إلى فاعلية آشور وحين زوّجَ ابنه حاكم ماري يسمع أدد، من ابنة ملك قطنة بغية تعميق التحالف بين المملكة الأشورية / عبر ماري / وقطنة. حيث كانت قطنة تشكل محور المواصلات التجارية، بحيث تخرج منها، الطرق التجارية إلى نهر الفرات شرقاً، وإلى حلب شمالاً، وإلى الساحل السوري عبر جبيل وأوغاريت، وإلى حاصور في شمال فلسطين.
وكنا قد ناقشنا في تجارة الألف الثالث في ماري، أهمية قطنة بالنسبة إليها. وقلنا أن المسافة بين قطنة وماري تبلغ حوالي 350 كيلومتراً، وان الطريق بينهما يعبر من تدمر، عبر البادية، حيث أن تدمر تقع في الوسط بينهما. ولعل هذا الطريق استمد أهميته القصوى في فترة الفاعلية الأشورية، كون أن العلاقة المتوترة بين مملكة يمحاض ومملكة آشور حتّمت الاعتماد على هذا الطريق تحاشياً للطريق الشمالي.
ويشير هورست كلينغل إلى أن العلاقة بين ماري وقطنة أكدتها نصوص ماري التي تذكر مسافرين وتجاراً

عبروا البادية السورية إلى قطنة، جبيل، حاصور، قبارة، أشنونا، وعيلام في جنوب غرب ايران.[65]

صدّرتْ ماري القصدير إلى قطنة⊗، وتتحدث النصوص عن إرسال 50 مينة إلى ملك قطنة آموت ـ بيل، وكذلك عشرين مينة أخرى.

وكنا ذكرنا سابقاً، كيف أن ملك قطنة اشخي ـ أدد امتعض من حاكم ايكالاتوم الآشوري إشمي ـ دجن، بسبب إرساله قصديراً رديئاً / حوالي عشرين مينة / مقابل حصانين.

كما أن قطنة شكّلت عبوراً للقصدير المصدّر من ماري إلى مدن الساحل السوري والبحر الإيجي / كريت وقبرص /.

وتشير المعطيات الآثارية أيضاً إلى أن تجار ماري كانوا يذهبون إلى عيلام لشراء المعادن الثمينة والمطلوبة، ومن ثم يفاوضون عليها بشأن توزيعها إلى قطنة ويمحاض وكركميش وأوغاريت.[66]

وكانت ماري تستورد الخيول من قطنة، وثمة رسالة من زمري ليم إلى أدد ـ دوري، تتحدث عن أحصنة بيضاء تم إرسالها إلى ماري ARM X 147.⊗

ونعتقد في هذا المجال أن ماري كانت تستورد الأخشاب من مدن الساحل السوري والداخل، وتنقلها عبر قطنة، غير أن الوثائق لم تقدم شيئاً في هذا المجال حتى الآن، ويشير الدكتور هورست كلينغل إلى ذلك بالقول، " عبر الطريق بين قطنة وماري كانت البضائع السورية القادمة من شمال فلسطين، ومن مناطق سورّية أخرى، كالأخشاب والخيول .. الخ، تنتقل إلى الفرات، ومن هناك إلى بلاد الرافدين ".

⊗ خوان فينولوس ـ التعدين في حوض العاصي الأوسط ـ ملخص الندوة الدولية / سورية الوسطى من البحر إلى البادية. 1999

⊗ جاء في وثائق ماري وصف للخيول البيضاء الواردة من قطنة. " التي تسمع دائماً أنها أحصنة أنيقة حقيقية ".

كما يشير إلى وجود مركز تجاري لمدينة ماري في قطنة.[67]

" وتذكر نصوص ماري أن حاكم قطنة / آموت بي ايل / أرسل إلى قصر ماري عربات خشبية سريعة، وجراراً من الخمر وأواني معدنية ذهبية وفضية، وبالإضافة إلى القصدير، كانت ماري ترسل الألبسة والمنسوجات والأحذية الجلدية إلى ملك قطنة ".[68]

كما تذكر النصوص خبر أخشاب وردت إلى ماري من قطنة، مرسلة إلى آشور من الساحل المشرقي، وقد أودعت موقتاً في مدينة صبروم / بين ترقا وماري /.[69]

الجدير ذكره هنا، هو أن معظم مدن المشرق ذات الفاعلية التجارية، كان يوجد فيها جمعيات أو منظمات تجارية، / كاروم / للبت والاشراف على الحركة التجارية ومعوقاتها ومشاكلها، كما وتمّثل الوساطة بين التجار والقصر وبين السكان والقصر من جهة أخرى.[70]

المبادلات التجارية بين مملكة ماري وأوغاريت:

كانت أوغاريت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، تشكل فاعلية تجارية يعتمد عليها، ولكن فاعليتها السياسية والتاريخية، لم تكن قد نضجت واكتملت بعد حيث أننا سننتظر حوالي 300 عام كي يتم ذلك.

وفي هذه الفترة / القرن الثامن عشر قبل الميلاد / كانت علاقتها قوية بيمحاض، ويبدو من الوثائق أن العلاقة بين ماري وأوغاريت كانت تتم بوساطة مملكة يمحاض.

وهذا الأمر يتجلى وثائقياً في طلب زيارة أمير أوغاريتي مع مهندسيه، إلى قصر ماري للاطلاع عليه، وتمَّ ذلك عبر وساطة ملك يمحاض مع ملك ماري زمري ليم.

الشـيء الآخر، أن أوغاريت شـكلت مركزاً للتجارة في هذه الفترة بين العمق المشـرقي وكريت وقبرص. وثمة دلائل على زيارة قام بها زمري ليم إلى أوغاريت.

وأيضاً، تذكر الوثائق وجود ممثل لزمري ليم في أوغاريت ويدعى داريش ـ ليبور.(71)

ويشـير هورسـت كلينغل إلى أن تجار ماري كانوا يلتقون في أوغاريت مع تجار من جزيرتي كريت وقبرص، حيث يتم عقد الصفقات التجارية بمساعدة مترجمين.

وليس هذا الأمر مختص بماري فقط، فالوثائق المارية تشـير إلى أن حمورابي ملك بابل، أرسـل كمية من القصدير، قسـم منها أودع في حلب، وقسـم أخرى في أوغاريت، وتم ذلك عبر تاجر من ماري.(72)

كما تذكر نصوص ماري زيارة ياريم ليم ملك يمحاض إلى أوغاريت، حيث رافقته الأميرة " يتار أيا " وأعضاء من بلاط ماري. وثمة شـواهد على أن زمري ليم ملك ماري رافق شـخصياً ملك يمحاض حتى أوغاريت.

وقد كانت أوغاريت في عهد زمري ليم، تمتلك أهمية خاصة، كونها محطة لتجارة القصدير والنحاس. فالقصدير يأتيها من ماري، في حين أن النحاس كان يسـتورد من قبرص عن طريق أوغاريت.(73)

إذن، المدينتان شـكلتا مفتاح التجارة المتبادلة والعابرة، ماري عبر تجارتها ومحطتها للجناح الرافدي وما وراءه، وأوغاريت عبر تجارتها ومحطتها لعالم المتوسـط / كريت ـ قبرص ـ آكاريا /.

أما طريق التجارة من ماري نحو أوغاريت، فثمة طريق يخرج من ماري إلى حلب، ماراً بإيمار شـمالاً، ثم نحو قطنة مروراً بتدمر، ثم أوغاريت.

وثمة طريق مباشـر بين ماري وقطنة، فالسـاحل المشـرقي. وكنا ناقشـنا طرق التجارة بين قطنة والسـاحل المشـرقي سـابقاً.

الجدير ذكره، أن النحاس الذي كان يَرِدُ إلى ماري من قبرص، كان يتم معالجته في ماري. وكان النحاس ينتقل بالسفن إلى مرفأ أوغاريت ثم عبر الطريق البري / قوافل الحمير / كان يصل إلى ماري.[74]

المبادلات التجارية بين مملكة ماري وإيمار:

تشير المعطيات التاريخية إلى أن إيمار كانت تدور في فلك مملكة يمحاض، وهذا يعني أن لمملكة حلب مرفأ على الفرات، هو إيمار.

لهذا فإن العلاقات بين ماري وإيمار، في هذه الفترة، كانت تمر حكماً عبر العلاقة بين ماري وحلب، وكون أن العلاقات كانت حميمية ومصلحية وتحالفية بين المدينتين، فهذا ما سوف ينعكس على علاقة ماري وإيمار.

ومع هذا فثمة حالات تمرد من إيمار، تختص في طرق تعاملها السيئة مع المسافرين عبرها، ومنهم أحد الفارّين من حاصور إلى زمري ليم، حيث وضع نفسه تحت حمايته.

وذكرنا سابقاً أن مدن كركميش وحلب وماري فرضت حصاراً على إيمار لمعاقبتها.

وثمة وثيقة / رسالة من زمري ليم إلى ملك يمحاض، يشكو فيها ملك ماري، أن سكان إيمار يتعرضون للمسافرين عبرها⊗[75]

أيضاً نلمس علاقة ماري مع إيمار، في منحنى آخر، ذكرته وثائق ماري، حيث أن إيمار عبر غرفة تجارتها / كاروم /، منعت رئيس الجوقة الموسيقية المارية من متابعة سفره إلى ماري / حيث كان الموسيقيون في حلب /، وتم حجز المعدات والحاجيات العائدة للجوقة، بسبب أن لتجار إيمار ديوناً على تجار ماري التي لم تسددها.

⊗ انظر الملحق الثالث آخر الكتاب.

وهذا ما دفع زمري ليم إلى إرسال ممثليه لتسوية هذا الأمر.(76)

وبشكل عام فمعظم صادرات يمحاض إلى ماري، كان يتم نقلها إلى إيمار، ثم نحو ماري. وهذا ما أشارت إليه الوثائق في تصدير القمح الحلبي إلى ماري، حيث ورد أن ياقيم ـ أدو ذكر في أحد رسائله عن تعبئة قوارب من إيمار ARM XIV 33;1 – 13. كما ذكرت رسالة أخرى استيراد ماري لـ 180 لتراً من السميد من إيمار. ARM XI 14.

وثمة رسالة للمدعو ياسيم ـ سومو، حيث يقترح على زمري ليم، استئجار 10 سفن لنقل 300 أوكار من الشعير. ARM T XIII 35.

كما تذكر الوثائق أيضاً، وجود تاجر إيماري، يدعى هاباتان، في ماري حيث في حوزته حوالي 15 كيلوغراماً من البرونز وأنواع الصوف وثلاثة حراب وستون قطعة ملابس. وقد جاء إلى ماري لشراء هذه المواد من ثم للسفر إلى منطقة البليخ. وكان لهذا التاجر بيتاً في ماري ولديه 5 عبيد⊗⊗ (77).

ويشير الدكتور أبو عساف إلى أن تجار إيمار كانوا يأتون إلى ماري لشراء البرونز.

كما أن ثمة تجاراً من إيمار يبيعون زيت الريحان في ماري ARM XXI 210.

وكانت ماري تشتري الصوف / عند الحاجة / من إيمار / حيث تشير المعطيات الوثائقية إلى شراء ما يعادل طن ونصف من الصوف من أحد سكان إيمار.

كما أبانت الوثائق عن وجود عقود شراء للصوف من قصر ماري بحيث تراوح سعر الكيلوغرام الواحد بين 0.6 – 12. غراماً من الفضة.(78) وتتحدث الوثائق المارية عن قافلة

⊗⊗ يشير الدكتور علي أبو عساف إلى أن هذا التاجر كان له مقر في ماري، يعمل به موظفون لتنظيم حركة نقل بضائع هذا التاجر بين ماري وإيمار. انظر ـ علي أبو عساف ـ دراسات تاريخية 39 - 40.

تنقل الحبوب من حلب إلى إيمار تتألف من 1000 حمار، لعلها نحو ماري⊗.
أما طرق التجارة بين ماري وإيمار فقد ذكرناها آنفاً، ولا سيما الطريق النهري، وذلك الطريق الصحراوي المحاذي لضفة الفرات. الجدير ذكره أن إيمار في فترة زمري ليم كانت تشكل مركزاً مهماً لتجارة الحبوب وكانت تمتلك ميناء ضخماً يتم فيه تأجير السفن.(79)

المبادلات التجارية بين مملكة ماري ومملكة بابل:

قلنا في مناقشتنا للواقع السياسي سابقاً أن ممالك ماري وبابل ويمحاض، شكّلت تحالفاً ضد تحالف اشنونا وعيلام، وبذا فإن العلاقة بين ماري وبابل، حتمتها مصالح كلا الطرفين مع بعضهما البعض. رغم أن عالم الوثائق يشي بوجود حذر في تعامل زمري ليم مع حمورابي بابل، يبدو أنه يرجع إلى طموحات حمورابي وتدفق فاعلية بابل لتوسيع مملكتها، بالاضافة إلى البنية التحتية القوية التي تستند إليها بابل في العمق الرافدي والتي جعلتها عبر مكامن قوتها، تفوق مكانة ماري وقوتها.
وقد شكّلت ماري بوابة من البوابات التجارية المتوسطية والشامية لبلاد بابل، ويبدو أن حمورابي البابلي، كان يدرك أهمية منطقة الفرات الأوسط التي تتزعمها ماري، لهذا بقيت علاقته معها تحالفية إلى حين اكتمال " نضج " المملكة البابلية واكتمال فاعليتها للإجهاز على منطقة الفرات الأوسط، ووراثة عوامل حيويتها التجارية وغيرها.⊗

⊗ لا يخفى أن ماري كانت تصنع الألبسة بكميات كبيرة وتذكر الوثائق وجود تجار من إيمار يحملون من ماري النبيذ والحبوب د. أبو عساف ـ دراسة غير منشورة ـ مرجع سابق.
⊗ من المعتقد أنه يعد أن دمر حمورابي البابلي، مدينة ماري فإنه ورث تجارة القصدير وتصديره من شمال غرب ايران إلى المدن السورية. فرزات ـ مرعي ـ دول وحضارات 1991.

ويبدو أن ماري كانت تشكّل محطة تجارية بين بلاد بابل وبين العمق المشرقي، فالنبيذ كان يستورد من إيمار وكركميش وينقل عبر ماري إلى بابل. وأيضاً كان النحاس يستورد من قبرص ويعبر أوغاريت ثم ماري في طريقه إلى بابل. وكذلك منتجات جزيرة كريت/ كما استوردت بابل الأخشاب عبر ماري.

وقد أبانت وثائق ماري وآلالاخ أن مجتمع بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، يمثل جزءاً من مجتمع الدول العمورية التي انتشرت في كامل المشرق العربي.[80]

وثمة إشارة إلى درجة الحذر التي يبديها زمري ليم تجاه حمورابي بابل، فقد ذكرنا سابقاً أن ماري كانت تعاني أحياناً من مواسم جفاف ما يستتبع أن تؤمن حاجاتها الغذائية وأصوافها من الحلفاء، ويبدو وأنه في أحدى الأزمات تلك، أظهر حمورابي البابلي أنه سيقدم العون لزمري ليم وماري، غير أن ملك ماري فضّل أن يشتري ما تحتاجه ماري من أسواق إيمار.[81]

ومع هذا وفي منحى دبلوماسي، كان ملك ماري يرسل النبيذ، كهدية إلى ملك بابل⊗⊗، وتشير الوثائق إلى إعطاء زمري ليم ختمه الشخصي لزوجته شيبتو كي تنتقي من مخزن الخمور، بعضها، كي يرسله إلى ملك بابل كهدية .ARM X 133.

كما تشير المعطيات إلى أن زمري ليم كان يرسل مبعوثين وممثلين عنه ليشاركوا في احتفالات القصر في بابل .ARM XXI.P.5 O7 وكذلك يرسل زمري ليم إلى حمورابي، أنسجة وآنية وسلعة كريتية / جورج دوسان /.

وبشكل عام، شكّلت ماري بوابة لعبور مواد الزيوت والمواد الصمغية والنبيذ والأخشاب والحجارة إلى الجناح

⊗⊗ في إشارة إلى مدى قوة وهيبة بابل آنذاك، فقد أقام حمورابي، محطة تفتيش في باصوم القريبة من سيبار وعلى الضفة اليمنى لنهر الفرات، حيث كانت السفن تفتش ولا سيما تلك القادمة من مرفأ إيمار والتي كانت تنقل البضائع مصدرة من حلب. انظر: هورست كلينغل ـ الحوليات الأثرية السورية 34 / مرجع سابق.

الشرقي الرافدي. وذكرنا سابقاً أن بابل أرسلت قصديراً إلى حلب وأوغاريت عبر تاجر من ماري.

كما ذكرت وثائق ماري أيضاً أن اللازورد كان يجلب من أفغانستان عن طريق وادي ديالى وبابل.

وكان أهم طريق تجاري يربط بين ماري وبابل، ذلك الذي يصعد بموازاة نهر الفرات من الجنوب الرافدي نحو بابل ثم ماري حيث يلتقي قرب ترقا بطريقين قادمين من آشور وشوباط انليل ثم يتابع نحو حلب ومنها إلى أوغاريت عبر الآلاخ ومناطقها.

الجدير ذكره، أنه كان لملك ماري قوافل تجارية خاصة به يرسلها إلى الديلمون وبابل.[82]

المبادلات التجارية بين مملكة ماري ومدينتي جبيل وحاصور:

قيما يخص مدينة حاصور في شمال فلسطين، كنا أشرنا إلى معالم التفاعل لهذه المدينة مع عمقها المشرقي عند اكتمال فاعليتها السياسية مع الألف الثاني قبل الميلاد، أما مدينة جبيل على الساحل السوري فإنها تعود إلى ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد، لكنها الآن باتت تشكل مرفأ مهماً إلى جانب أوغاريت في تواصل المشرق العربي التجاري مع عالم المتوسط.

وقد شكلت ماري / كما بالنسبة لأوغاريت / بوابة تجارية للمدينتين الساحليتين تجاه العمق الرافدي.

وقد حوت نصوص ماري معلومات عن وجود تجار من حاصور في ماري ويمحاض وإيمار.

ولعل العلاقات بين ماري وساحل المتوسط وشمال فلسطين، شهدت استمراريتها ولوحظت من خلال النصوص والوثائق الأثرية إن كان في ماري أو أوغاريت.⊗

⊗ للاستزادة يمكن الرجوع إلى دليل معرض الآثار السورية، فيينا، 1985.

وتشير المعطيات إلى تلقي زمري ليم هدية من ملك جبيل هي عبارة عن إناء من الذهب وزنه ثلثا مينة، كما تشير الوثائق / الرسائل إلى وصول ماري، كمية من الذهب والفضة والأحجار الكريمة مرسلة من حاصور التي ربما استوردتها من مصر آنذاك.[83]

كما استوردت الملابس إلى ماري من جبيل حيث كانت منسوجات جبيل مرغوبة بشدة في ماري.

وتشير الوثائق إلى استقبال ملك ماري زمري ليم مبعوثاً من جبيل حاملاً هدية هي عبارة عن ثوب كما يصل القصر أيضاً، قطعة قماشية من شخص عائد من جبيل.[84]

وقد صدرت ماري القصدير إلى حاصور أيضاً.

ومن طرائف الوثائق أنه جرى ايقاف قافلة تجارية في حاصور ذلك لأن ساقياً قادماً من حاصور قد سُلب في إيمار، من المواد التي يحملها ولا سيما المعادن الثمينة المرسلة إلى زمري ليم. حيث نجد أن زمري ليم يطلب من ياريم ليم ملك حلب، البحث عن الجاني في إيمار واسترداد ما سلب منه.[85]

وكان يجري في قصر ماري تكريم البعثات والوفود من الممالك الأخرى، وقد حوت وثائق ماري على ذكر ارساليات لمبعوثين من حاصور وجبيل.

أما عن طريق التجارة من ماري إلى كلا المدينتين فكان يتبع عدة اتجاهات:

الاتجاه الأول: ينطلق من ماري بمحاذاة الفرات / شمال غرب / حتى مدينة إيمار ثم ينعطف نحو الغرب إلى حلب ومن ثم إلى ساحل المشرق العربي,

الاتجاه الثاني: من ماري عبر بادية الشام ليصل إلى سهول حمص فالساحل المشرقي، أو ينعطف عند تدمر باتجاه الجنوب الغربي إلى القريتين نحو دمشق ثم إلى فلسطين.[86]

ويبدو أن الاتجاه الثاني كان أكثر استخداماً كونه مستخدم للسفر أيضاً.

وثمة طريق ينطلق من حلب نحو حاصور مروراً بقطنة.

البُنى والقواعد التجارية الناظمة للتبادل التجاري بين ممالك المشرق العربي في الألف الثاني قبل الميلاد:

ذكرنا في معرض مناقشتنا للتجارة في الألف الثالث، على أنه كان هناك نواظم تنظم قواعد العمل التجاري وتبادل السلع. وان كانت وثائق الألف الثالث في ماري لم تشر إلى ذلك بوضوح لقّلتها، غير أن مدينة إبلا عبر وثائقها قدمت تلك المعلومات والتي يمكن أن تنسحب على ممالك الألف الثالث في المشرق.
وبالنظر إلى نواظم التبادل والنشاط التجاري في الألف الثاني، نلحظ أن مثل هكذا تعامل وناظم العلاقات التجارية، لا يمكن أن يولد فجأة، بل ثمة عراقة في هذا تعود إلى عصور خلت. خصوصاً وأن مدن المشرق في الألف الثالث كانت ذات فعالية تجارية نشيطة ومفيدة، وعلى الرغم من هذا فإن كل تلك النواظم للعمل التجاري ومبادلاته، اتسمت بالعقلانية، وتحقيق المصالح لكل مدينة ومملكة ضمن خط حضاري واحد وهذا ما نتبينه في أن مثلاً سعر الثور في ماري لم يزد عن 20 مثقالاً من الفضة، وحين نقرأ قوانين حمورابي / المادة 241 / نجد أن سعر الثور في ماري لم يزد عن ذلك الثمن.(87)
وذكرنا أن غرف التجارة / كاروم / كانت تؤمن حقوق التجار وتحّل مشاكل العمل وتأمين الحقوق جراء هذه النشاطات. ويمكن الرجوع إلى فترة التجارة والتبادل التجاري في الألف الثالث لتباين بعض القواعد السائدة في الألف الثاني والتي لا تشذ عما كان سائداً في الألف الثالث قبل الميلاد.

ففي مجال النقل البري التجاري، كانت الطرق التجارية البرّية يحّفها الخطر من غزوات قطاع الطرق، لهذا فثمة على ما يبدو اتفاقيات بين المدن والقبائل المتواجدة في مجالات الطرق، حيث أن كل قبيلة تتواجد في منطقة تعبرها القوافل التجارية لابد لهذه القوافل والمسافرين أيضاً أن يدفعوا رسوماً لها لقاء تأمين الحماية والأمن ووسائل الحاجة الأخرى من قبل القبيلة.

وكانت المدن التجارية على الفرات، تفرض رسوماً على السفن والقوافل العابرة سواء، في النهر أو البر، وتتم جباية الضرائب حسب الحمولة ونوعية البضائع وكميتها.

وفي ماري، كانت تقام مراكز الجمارك التابعة للمملكة ككل، على ضفة الفرات، ويعتقد أنها قريبة من ترقا. وكذلك على فروع الأنهار والطرق البرية وعلى أبواب المدن.

كما تذكر الوثائق أنه لماري اسطولاً نهرياً بقيادة " لاريم بحلي "، كما كانت تُصّنع القوارب⊗، كما توتول. وكانت الطرق المائية الطبيعية والصناعية تلعب دوراً مهماً، ولا سيما حين يكملها النقل البري، وتذكر وثائق ماري عل جلب زمري ليم 350 طناً من القمح بعد رحلة عسيرة من الطرق تمثل رحلة مائية لحوالي 400 كم في قافلة من 10 سفن حمولة الواحدة منها 36 ـ 40 طناً.[88]

الجدير ذكره هنا هو أن الفضة كانت المُعادل الرئيسي في التبادل التجاري, فالحبة تساوي 1/16غ، والمثقال يساوي 8 غ والمينة تساوي 500 غ

وكون أن النقد لم يبتكر بعد بل سننتظر حتى الألف الأول قبل الميلاد، غير أن بعض المعطيات الآثارية تشي باستخدام معادن ثمينة في مجال المبادلة / الفضة ـ

⊗ تشير الوثائق فترة الفاعلية الآشورية إلى اهتمام ملك آشور بصناعة السفن، وثمة رسالة من شمشي أدد إلى ابنه / يسمع أدد / حاكم ماري، تتحدث عن ضرورة بناء سفن لنقل الحبوب،
" ابنِ ستين سفينة، وقد أمرت بإرسال صيلي ـ إيا بنّاء السفن. اكتب من أجل أن تجلب صيلي ـ إيا لبناء ستين سفينة في توتول. يجب عدم التهاون من أجل السفن ". ARM I 102. ومعلوم أن توتول كانت متميزة بصناعة القوارب.

الذهب / حيث عثر على قطع متناسقة تعطي إيحاء باستخدامها في ما يشبه النقد.⊗⊗
الجدير ذكره هنا ، هو أن القوافل البرية اقتصرت على استخدام الحمير.
وكانت ضرائب عبور القوافل من خلال أراضي المملكة يسدد إما بالفضة أو بعيّنات من المواد المتاجر بها، وقد بلغت نسبة ضريبة العبور حوالي 10% من قيمة البضاعة. (⊗ (89

كما صنعت ماري العربات لغاية النقل وثمة رسالة من إشمي دجن إلى يسمع أدد تشير إلى تمّيز ماري في هذا المجال:
" صنعت ماري عربات أفضل من أي عربات أخرى " ARM IV 79.
وقد تبيّن وجود عربات بأنواع عديدة، منها عربات ذات عَجلتين، ويعتقد وجود عربات تجرّها خمسة دواب وثمة عربات نقل. ARM VII P 291,358
وتذكر بعض الوثائق حالات تهرّب من دفع الرسوم الجمركية عبر تهريب البضاعة بشكل مخفي، وثمة رسالة من ياستيوم إلى إدينيا توم تشي بذلك:
" بالنسبة لقاربي النبيذ العائدان إلى إيباتان ، أحد القاربين قد ملئت جوانبه بجرار النبيذ، وقد وصل منذ شهر مضى. وقد دفع على ذلك الجزء حصته / ضريبة /. خذ ثلاثين جرة من النبيذ ضريبة من 600 جرة من النبيذ التي يحملها "..ARM XIII 99
أيضاً ثمة إشارة في الوثائق إلى طرق نقل الأخشاب عبر الأنهار، فمنها ما هو في السفن، وهو غالي الثمن، ومنها ما ينقل عبر تطويفه في النهر نزولاً، وثمة رسالة من

⊗⊗ عرفت الخواتم / الحلقات / كأحد أشكال استخدام الفضة بمثابة النقود قبل العملة ـ انظر، علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
⊗ تظهر الوثائق أن بعض الضرائب كانت تستوفى عينياً بنسبة 10% على الشعير، 5% - 10% على النبيذ. انظر: علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.

حاكم ترقا كبري ـ دجن إلى زمري ليم يخبره أنه أرسل له أخشاباً على مياه النهر، وأنه سيرسل له أخشاباً فوق المياه أيضاً.(90)

ويبدو أن أكثر ما كان يسبب المتاعب للقوافل البرية، التجارية، هو هجمات قطاع الطرق، وتزخر وثائق ماري بأخبار غزواتهم على المسافرين وعلى القوافل التجارية.

وتشير النصوص إلى تعرض أحد السقاة للسطو، وكان في طريقه من حاصور إلى ماري، وكان يحمل مواداً ثمينة وأحجار كريمة. وحين مرَّ بإيمار، تم السطو عليه وسلب كل ما يحمله، لكنه تمكّن من أن ينجو بحياته ويهرب إلى ماري.

كما تذكر النصوص حادثة سطو أخرى على قافلة متجهة إلى الإخوث في أعالي الرافدين، حيث قتل قائد القافلة و13 شخصاً، وتمَّ سلب 10 حمير محمّلة بخشب الأرز الأبيض، وحصان. ولم يتمكن سوى رجلين من ماري من الإفلات من الهجوم بالاضافة إلى 8 رجال من الإخوث. ARM II 123.

وكان المبعوثون والوافدون إلى مدن، يتمتعون بحماية المدينة أو المملكة، وتذكر النصوص رسالة من بخدي ليم حيث وصلت وفود إلى ترقا:

" مجموعة من المبعوثين من يمحاض وقطنة قد وصلت. أبي اشتارت، باباني ـ إيل ، أتلي ـ عشتار، ثلاثة مبعوثين من بابل، قد وصلوا أيضاً من يمحاض مع حارسهم سامسو ـ إيشار، ونفسه مبعوثاً من يمحاض، هم مسافرون إلى بابل. سن ـ إمي، مبعوث من إيكالاتوم، مع زودان، حارسه من يمحاض، يسافر غداً إلى إيكالاتوم، يربا ـ أدد، مبعوث من قطنة، وقد أُرسل إلى سيدي: وقد جاء بدون حارس. الآن، قد جهزت أحد الرجال ليرافقهم وقد أرسلته إلى سيدي ". ARM VI 14

ومن طرائف الوثائق حول هذا الأمر، هو امتعاض حمورابي البابلي من ملك عيلام فيرسل له:

" سوف أرسل المبعوثين العيلاميين عائدين إلى سيدهم بدون أي حراس ".[91].
ويشير هورست كلينغل إلى أن القوافل والرسل كانوا يتوقفون في ماري للراحة والتزود بالطعام والماء والحاجيات، ولإصلاح معداتهم وعرباتهم، أو للتبادل السلعي. ومقابل هذا كانت ماري تجني الرسوم والأرباح.[92]

طرق التجارة والتبادل التجاري بين ممالك المشرق العربي في الألف الثاني / عصر زمري ليم /:

إزاء مجمل التبادلات الاقتصادية ـ التجارية، بين ممالك تلك الفترة في المشرق العربي، والتي توحي وكأن ثمة دورة حياة اقتصادية ـ تجارية قائمة على وحدة المصالح وعلى البعد الاجتماعي ـ الروحي، نجد أننا أمام شبكة من العلائق التجارية المتينة أساسها تحقيق مصالح كل مملكة في أمورها الاقتصادية والسلعية.
وفي موازاة هذا كان لابد أن نشهد وجود شبكة من الطرق التجارية، تصل بين مدن هذه الممالك ضمن المشرق العربي. مع ملاحظة أن نهر الفرات لم يكن فاصلاً بين الجناحين، بل كان عامل توحيد للمصالح وأحياناً عامل حروب ونزاعات لأهميته التجارية.
وقد أمدتنا نصوص ماري وبابل بمعلومات عن طرق التجارة في منطقة الفرات الأوسط، بحيث يمكننا تصنيف الأماكن التي كانت تأتي منها القوافل إلى أربع مجموعات:

المجموعة الأولى: وتشمل مدن أواسط الرافدين/ بابل ـ اشنونا ـ سيبار / حيث كان للأخيرة مكتسب تجاري في ماري /، وكذلك عيلام.

المجموعة الثانية: وتشمل مدن شمال الرافدين: ارابخا ـ قبارة ـ آشور ـ إيكالاتوم ـ كرانه ـ كحت ـ شوباط انليل ـ كردا.

وهنا في هذا الطريق لعب نهر الخابور الذي يسير جنوباً ليصب في نهر الفرات الأوسط، الدور الأمثل لسلوكه من قبل تلك المدن والامارات.

المجموعة الثالثة: وتشمل مدن الساحل الشرقي، حيث تذكر الوثائق المسمارية عن ذهاب جماعات تجارية من شمالي الرافدين إلى مدن الساحل والعودة منها.

وكان اسم قطنة يتردد باستمرار بسبب وجود حلف عسكري بين كل من شوباط انليل وماري من جهة مع قطنة من جهة أخرى.

ويبدو أن الطريق البري المار من البادية الشامية عبر تدمر حظي بأهمية كونه يستخدم للسفر إلى قطنة وجبيل وحاصور.

المجموعة الرابعة: وتشمل مدن شمال الجناح الشامي، حيث كان يتم الوصول إليها عبر ميناء إيمار.

ويشير كلينغل إلى أن الطرق بين مدن ومراكز المجموعات الأربع، تلتقي عند نقطة التقاء الخابور بالفرات. لهذا فقد حظيت ماري بأهمية استراتيجية تجارية.[93]

أما عن طرق التجارة في عصر ماري العموري، والتي تربط بين المشرق العربي بساحله السوري، الفلسطيني، فتشمل ثلاث طرق تتداخل مع ما سبق من المجموعات التي ذكرناها، وهي:

الطريق الشمالي: الذي يصعد بموازاة الفرات من الجنوب الرافدي نحو بابل ثم ماري ويلتقي قرب ترقا بطريقين قادمين من آشور وشوباط انليل، ثم يتابع نحو إيمار وحلب ومنها إلى أوغاريت عبر ألآلاخ.

وقبل إيمار كان هناك طريق يتفرع منه يمتد عبر الرصافة والطيبة على أطراف البادية الشامية حتى قطنة.

الطريق الأوسط: حيث ينطلق من ترقا ويجتاز البادية الشامية نحو الغرب باتجاه السخنة ثم تدمر فقطنة ومن قطنة يتجه إلى جبيل عبر منعطف حمص.

وكان الطريق من ترقا إلى قطنة يستغرق 10 أيام.

الطريق إلى الجنوب المشرقي: حيث ينطلق من حلب إلى الجنوب نحو حاصور عبر قطنة، ويمكن للقوافل أن تترك طريق البادية عند تدمر لتسير نحو نشالا، ثم تلتقي بالطريق العام من حلب وتتابع رحلتها عليه.[94]

وكنا قد ذكرنا في طرق تجارة الألف الثالث، الطرق التجارية المتجهة من قطنة نحو الساحل المشرقي.

ولعل وجود ماري في الفرات الأوسط، جعل منها عقدة الوصل بين مجموعة من الطرق التجارية في اتجاهاتها الأربع:

فبالاضافة إلى طريق ماري ـ قطنة فالساحل المشرقي وفلسطين ثم مصر، نجد طريق ماري إلى حلب، عبر إيمار. ثم يتابع من حلب نحو المتوسط. أو يتجه شمالاً إلى كركميش وهضبة الأناضول، أو جنوباً إلى طريق البادية وثمة طريق يصل بين ماري وآشور، وهو محاذ للخابور، ويصل إلى هضبة الأناضول.[95]

وبشكل عام كانت طرق التجارة النهرية أكثر أماناً من طرق التجارة البرية، لكنها أغلى كلفة.

ويشير كلينغل إلى أهمية الطريق التجاري الذي كان يقطع البادية الشام مروراً بتدمر، حيث أنه يختصر المسافة بين بلاد ما بين النهرين وساحل المتوسط اختصاراً كبيراً.

كما تنبغي الإشارة إلى أن أوغاريت لم تكن وفق كل ما ذكر، قاعدة تجارية لا تمتلك الهوية الحقيقية بها، بل وكما ذكر اسحاق شيغمان في كتابه ثقافة أوغاريت، " أن الثقافة الأوغاريتية بمختلف مظاهرها كانت جزءاً مكملاً للحضارة الكنعانية العمورية، وقد عسكت في مرحلة

تطورها الثقافي الذي وصلنا عبر الوثائق الكتابية الأوغاريتية المستوى الذي وصلته الحضارة الكنعانية الأمورية في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد وأن الكثير من الظواهر التي وصلتنا من مختلف مجتمعات العالم الكنعاني العموري الواقع في آسيا الأمامية المطلة على ساحل المتوسط يعود في نهاية المطاف إلى تقاليد واحدة مشتركة ليست ثمرة تأثير مجتمع واحد ".⊗

التجارة الدولية لمملكة ماري الأمورية:

بيّنا في الفقرة السابقة أن منظومة العلاقات التجارية للمشرق العربي في هذه الفترة، قامت على أساس المصالح الاقتصادية ـ التجارية المتبادلة بين ممالك المشرق آنذاك، فما هو موجود في يمحاض، قد تفتقد إليه في ماري، وما تمتلكه ماري من موقع استراتيجي، يقابله ما تملكه أوغاريت أو جبيل من موقع استراتيجي في حركة التجارة آنذاك. ولكن، ما يجب برأينا أن نأخذه بعين الاعتبار، هو وحدة الحياة الواحدة هذه بين ممالك المشرق العربي، والتي تبدت في وحدة المصالح، وإرادة الحياة المشتركة رغم غياب أي وعي اتحاديّ بين هذه الممالك، وجلَّ ما توصلت إليه هو تحالفات ظرفية لمواجهة أخطار داهمة. حتى أن هذه التحالفات شابها بعض طغيان المصالح على ما سواها.

ونعتقد لو أن ماري امتلكت القاعدة الزراعية المتينة والبنية الاقتصادية القوية، إلى جانب غناها التجاري وقوتها في هذا المجال لكانت استطاعت أن تقف في وجه

⊗ انظر اسحاق شيغمان ـ ثقافة أوغاريت ـ دار الأبجدية ـ ت ـ د. حسان اسحاق 1988

دمارها، وهذا ما سوف نناقشه في فصل نهاية ماري. إذن، إن كان الألف الثالث قبل الميلاد قد تميّز باتجاه التجارة المشرقية إلى الشرق من المشرق العربي العربي، فإن الألف الثاني يتميز باتجاهها نحو الغرب وبلدان المتوسط.

وإن كانت معطيات الألف الثالث، تشير إلى أن مدن الجناح الرافدي قد مارست التجارة الدولية مع المواقع الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي، فإن الاتجاه مع الألف الثاني انتقل إلى عالم المتوسط عبر الجناح الشامي. ويعود هذا إلى أن فاعلية المواقع الايرانية قد خبت، ولا سيما تلك التي مارست تجارة اللازورد وذلك عبر طريقه من أفغانستان إلى المشرق العربي ثم مصر.

أيضاً شهدت حضارة وادي السند، ضعفاً في فاعليتها التجارية وكذلك موقع الديلمون في الخليج العربي.

لذا فإن وثائق بابل في هذه الفترة، تشهد اختفاء ذكر مدن تجارية أو مواقع ساهمت بقوة في التجارة الدولية في الألف الثالث ولا سيما ماجان، مالوحة والديلمون.

وفي موازاة ذلك، يبدو أن مواقع جديدة انبثقت في عالم المتوسط ولا سيما كريت وقبرص. حيث ساهمت منذ الآن في حركة التجارة الدولية.

وقد ذكر اسم قبرص في نصوص ماري / كأقدم ذكر / تحت اسم آلاشا في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.[96]

" كما ذكرت كريت في وثائق الألف الثاني قبل الميلاد في نصوص ماري، وذلك في إشارة إلى استلام قصدير من عدة أشخاص ومن بينهم شخص من جزيرة كريت وشخص آخر من جزيرة كأريا، حيث كان التفاهم يحصل بوجود مترجم. وقد تمَّ استلام البضاعة في أوغاريت التي كانت الوسيط في التجارة مع الجزر الإيجية. ولعل وجود مترجم يؤكد على أن وجود جماعة من العالم الإيجي قد تطلب توظيف شخص قادر على فهم لغة الآخرين آنذاك. "[97]

ويشير هورست كلينغل إلى أن " نصوص ماري ومصادر أخرى من العصر البابلي القديم، تشير صراحة إلى أهمية

وديان نهر الفرات والخابور للأغراض التجارية. وكمعادل لاضمحلال التجارة الرافدية في منطقة الخليج العربي، بزغت منطقة جديدة على جانب كبير من الأهمية في شرق البحر المتوسط لتكون محطة التبادل الحضاري الدولي. وهكذا تحولت جزيرتا قبرص وكريت إلى شريكتين في التجارة ".[98]

ويبدو وأن فاعلية كريت لم تكتمل إلا مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وتشير المعطيات إلى أن القصر الملكي في تلك الجزيرة كان يشرف على التجارة والإنتاج الاقتصادي، وهذا ما أتاح المجال لقيام تجارة بحرية نائية بعثت على تحريك الطلب إلى المصنوعات الأجنبية وبخاصة السلع الثمينة والنحاس والقصدير.

ويشير كلينغل إلى أن كل هذا تحقق اعتماداً على تزايد السكان العاملين في الزراعة وبخاصة جمع العنب والزيتون، وكذلك تطورات في تعدين النحاس وابتكارات تقنية في الملاحة البحرية ولا سيما تجهيزات الشراع[99].

ونتيجة لكل ذلك أصبحنا أمام الألف الثاني قبل الميلاد وفي مطلعه أمام توجه تجاري لجزيرة كريت نحو شواطئ المتوسط الشرقية / الساحل المشرقي /.

وقد أكدت المعطيات الأثرية عن وجود خناجر من صنع كريت في جزيرة قبرص، كما أن الفخار الكريتي بدأ يظهر في قبرص ومدن سواحل بلاد الشام.

أما لجهة جزيرة قبرص، فقد قدمت المعطيات الأثرية أدلة على اتصالات بينها وبين كريت من جهة، وبين بلدان الساحل المشرقي من جهة أخرى.

فمنذ 2300 ق.م شهدت قبرص، نشاطاً في الاستقرار البشري فيها، ترافق مع أهمية متنامية لتعدين النحاس. ولقد تطورت قبرص بصفتها شريكاً تجارياً جذاباً ومنفتحة على جيرانها على الصعيد التجاري، فالفخار القبرصي ظهر في كيليليا السورية / طرسوس / وفي سهل العمق / لواء اسكندرون / وفي تل براك شمالي الحسكة، وفي مواقع

عديدة في الجناح الرافدي، كما في الجناح الشامي وكذلك في أوغاريت وتل سوكاس وتل الكزل وجبيل.
" وقد سُجّل وجود عملاء للبلاط الكريتي في الساحل السوري والمناطق المحاذية له "[100]

الجدير ذكره هنا، هو أن التفاعل بين مدن المشرق العربي والعالم الإيجي يعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث، ويبدو أن المبادهة في ذلك صدرت عن جزيرة كريت.

وقد توصل الباحث هورست كلينغل إلى جملة معطيات هي عبارة عن أسباب هذا التطور الاقتصادي والإتصال السياسي والتبادل الحضاري مع مواقع المشرق العربي عبر مدنه الساحلية وذلك عبر:

1 ـ التطور الكامل للبلاط الكريتي وتجارته البحرية.
2 ـ ازدياد أهمية النحاس القبرصي الذي وصل إلى مناطق الفرات والتقى هناك بالنحاس المستورد من منطقة الخليج العربي.
3 ـ ظهور مملكة يمحاض في حلب والطلب على السلع الكمالية المعدنية.
4 ـ عودة مصر للظهور بصناعاتها اليدوية الرفيعة المستوى والمواد الخام المستوردة من أفريقيا، فضلاً عن ازدياد طلب الأسرة الحاكمة إلى المصنوعات المستوردة من بلاد الشام والعالم الإيجي.
5 ـ التغيير الذي طرأ على وجهة التجارة في الجنوب الرافدي / باتجاه الجناح الشامي وعالم المتوسط /.[101]

اذن، نحن ازاء بوابات تجارية نحو العالم الخارجي إن كان في مواقع ايران أو مواقع البحر المتوسط والأناضول. ولعبت أوغاريت دوراً مهماً في ذلك عبر التجارة المارية مع كريت وقبرص. كما لحاصور دورها في التجارة مع مصر. وكركميش كانت بوابة نحو الأناضول كما بابل بوابة نحو

المواقع الإيرانية. بالاضافة إلى قطنة ويمحاض كمعابر نحو ساحل المشرق العربي.

وبتنا نعلم أن لماري وجهان تجاريان، الأول كونها محطة للعبور والتبادل السلعي التجاري، والثاني، كونها مصدرة ما ينتج في أسواقها.

وعلى هذا فالتجارة المارية في عهد زمري ليم، شملت كريت وقبرص وحاتوشا في الأناضول، والديلمون / البحرين / في الخليج العربي وعيلام في جنوب غرب ايران.

وقد كانت بوابة كركميش مهمة لماري لجهة الوصول إلى مواقع الأناضول مثل موقع زلبا وخاشوم كما إلى مواقع جنوب شرق الأناضول.

ويبدو أن مدينة سيبار في أواسط الرافدين، وتل الدير كانتا بوابة ماري نحو شرق الرافدين / عيلام.

وتشير نصوص ماري / النص ARM VIII 32 / إلى وجود عيلاميين في ماري / ربما وفد أو تجار / حيث يتحدث النص عن أحوال حفل مقام في ماري:

" إلى سيدي يقول هكذا ياسيم ـ سومو: تماماً كما كتب لي مولاي، قد جلبوا جرة من النبيذ وكبشين جيدين وبعض الجليد من مولاي، وأخذوا إلى العيلاميين. وكتب لي مولاي قائلاً:

العيلاميون قلقون من الوجبة، وهم مستاؤون من الوجبة، ومن قيمة هداياهم. فإما أن تنظروا أنتم في هذه المسألة أو أحد أفراد حاشيتكم .. وهكذا أرسلت يتار ـ أدو لينظر على القارب وعلى مؤونتهم، وقد اكتشف أنهم ليسوا مستائين بالنسبة إلى هداياهم أو وجباتهم ولكنهم مستاؤون بالنسبة لأعمال القصر. وقد أخبر يتار ـ أدو كل شيء حول ذلك. وهكذا قد أرسلت يتار ـ أدو إليك حيث مولاي قد يسأله عن التقدير الكامل ".

وفي فترة الفاعلية الآشورية، تشير الوثائق إلى قدوم رسل من الديلمون إلى ماري وتسلّم بعضهم في شوباط انليل هدايا بأمر من الملك شمشي أدد.⊗(102)

كما تذكر نصوص ماري وجود رسل في ماري من عيلام. كما أن يسمع أدد أرسل رسالة حين كان حاكماً على ماري، إلى حمورابي بابل حول بعض المعوقات التي رافقت بعثة ماري إلى الديلمون. ARM V 14

إذن، وعبر تجارتها الدولية، استوردت ماري القصدير من شمال غرب ايران وذلك عن طريق مواقع الجناح الرافدي.⊗⊗ ومن عيلام وإنشان أو الهضبة الإيرانية أو أبعد شرقاً وشمالاً، من تخوم القوقاز.

ولا يستبعد ب. لاند سبرغر أن يكون " الحزام القصديري " في بورما وسيام وملايو مصدراً للقصدير القادم إلى المشرق العربي.(103)

وقد أشارت حسابات خزانة القصر الملكي في ماري / زمري ليم / إلى كميات من قصدير مرسلة من ملك سوسة (في عيلام)(104) ويتفق الباحث جورج دوسان مع جورج بوتيرو في أن طريق استيراد القصدير كان ينطلق من دارنكيانا، سوسة، أشنونا، ماري ثم بلاد أمورو في الغرب. DOSSIN OP.CIT.P. 106

وكانت ماري تقوم بدور الوسيط ما بين بلاد الرافدين وبلاد البحر المتوسط في المنطقة الممتدة من كركميش شمالاً حتى مدن شمال فلسطين جنوباً.

أما لجهة التجارة مع جزيرة قبرص، فإن النحاس الموجود في هذه الجزيرة في جبل ناغاتا، كان يتم استيراده إلى ماري، حيث يعالج في مصاهرها.

⊗ شملت الهدايا، زيت، سمسم، صناديق خشبية، صنادل. ARM I 17.

⊗⊗ يشير W.F. LEEMANS إلى أن تجارة القصدير كانت تنظم بين آشور ولارسا عبر دجلة، وكانت ماري تحصل على القصدير عبر طريق بري من آشور. / علم الدين أبو عاصي 2002 /

ويشير دوسان إلى أن العلاقة بين قبرص وماري كانت مستمرة في المدة الأخيرة من زمن زمري ليم.⊗

وتشير المعطيات إلى جلب ذهب إلى قصر ماري من مصر، وذلك بوساطة مدينة حاصور، ولا يمكن للنصوص أن تقدم أدلة على وجود علاقات مباشرة بين ماري ومصر آنذاك.

أيضاً كان الرصاص يأتي إلى ماري من الأناضول. أما العقيق الأحمر فكان يستورد من أفغانستان وشبه القارة الهندية.

وتشير النصوص أيضاً إلى ورود أوان ذهبية وملاقط وجرار وأسلحة مرصعة بالذهب واللازورد من كريت والبحر الإيجي. كما أن زمري ليم حصل على بعض الحاجات الفنية والصناعات الجميلة من كانيش في الأناضول.(105)

إذن إن النظر إلى التجارة الدولية لمملكة ماري في عهد زمري ليم، ينبغي أن تدرس من خلال شبكة العلاقات التجارية ـ الاقتصادية للمشرق العربي ككل في ذلك العصر، هذه الشبكة التي استندت على دورة حياة اقتصادية ـ اجتماعية واحدة، ولمزيج ديمغرافي أصبح أساسه عمورياً، جبَّ كل ما سبقه وأضاف عليه وما كان بتقص دورة الحياة هذه، هو دورة حياة سياسية واحدة متأصلة في ذاتها وفي تفاعلها مع الظروف الموضوعية آنذاك, والدولية أيضاً.

⊗ DOSSIN O.P.CIT.P. 169 – 170.

مراجع الفصل الرابع

1 ـ اندره بارو ـ ماري ـ مرجع سابق
2 ـ علي أبو عساف ـ دراسة 1990
3 ـ المرجع السابق
4 ـ فاروق اسماعيل ـ ماري وشوباط انليل. وثائق الآثار السورية ـ مرجع سابق.
5 ـ المرجع السابق.
6 ـ المرجع السابق.

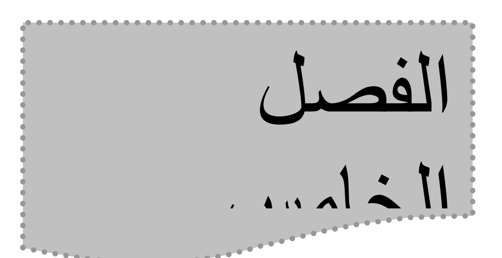
7 ـ حميد وحمادة ـ تل ليلان ـ دراسات تاريخية 37 ـ 38 ـ 1990
8 ـ كاي كولماير ـ دليل معرض الآثار السورية ـ فيينا ـ 1985.
9 ـ دومنيك شاربان ـ المحفوظات الملكية في ماري ـ المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية IFAPO 1989.
10 ـ اندره بارو ـ مرجع سابق.
11 ـ المرجع السابق.
12 ـ علي أبو عساف ـ مرجع سابق.
13 ـ فاروق اسماعيل ـ قطنا في وثائق العهد البابلي القديم ـ الحوليات الأثرية السورية 42 ـ 1996.
14 ـ المرجع السابق.
15 ـ فيصل عبد الله ـ دور السلالة الحلبية الأولى في تجارة الشرق وشمال سورية في القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد. الحوليات الأثرية السورية ـ مجلد 43 ـ 1999.
16 ـ ألفونسو آركي ـ حلب في عهد إبلا ـ الحوليات الأثرية السورية 43 ـ 1999.
17 ـ هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ مرجع سابق.
18 ـ فيصل عبد الله ـ مرجع سابق.
19 ـ حميدوحمادة ـ مرجع سابق.
20 ـ علي أبو عساف ـ مرجع سابق.
21 ـ فيصل عبد الله. المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الآشوريات ـ دراسات تاريخية 27 ـ 28.
22 ـ هورست كلينغل. حمورابي، ملك بابل وعصره ـ ت ـ غازي شريف ـ بغداد ـ دار الشؤون الثقافية 1987 .
23 ـ المرجع السابق.
24 ـ فاروق اسماعيل ـ ماري وشوباط انليل وثائق الآثار السورية ـ مرجع سابق.

25 ـ المرجع السابق.
26 ـ المرجع السابق.
27 ـ المرجع السابق.
28 ـ هورست كلينغل ـ إله الطقس السوري والعلاقات التجارية ـ الحوليات الأثرية السورية 43 .
29 ـ هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ مرجع سابق
30 ـ فيصل عبد الله ـ المرأة في مملكة حلب / يمحاض / في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ـ دراسات تاريخية 27 ـ 28 / 1987
31 ـ المرجع السابق.
32 ـ المرجع السابق.
33 ـ فيصل عبد الله ـ قراءة في خمس مجلدات من ماري ـ مرجع سابق.
34 ـ ايفا شترومنغر ـ ماري أكبر حاضرة في سورية ـ ت ـ قاسم طوير ـ المديرية العامة للآثار والمتاحف دمشق 1983
35 ـ فيصل عبد الله ـ دور السلالة الحلبية ـ مرجع سابق.
36 ـ علم الدين أبو عاصي ـ اقتصاد مملكة ماري ـ مرجع سابق.
37 ـ اندره بارو . سومر ـ مرجع سابق.
38 ـ عدنان الجندي , الفن العموري ـ 1972 ـ دمشق.
39 ـ علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية ـ مرجع سابق.
40 ـ انطون مورتفات. تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ ت ـ توفيق سليمان ـ علي أبو عساف ـ قاسم طوير ـ 1967 ـ دمشق
41 ـ جان لويس هيو ـ الجزيرة السورية وعلاقتها مع وادي الرافدين ـ وثائق الآثار السورية ـ مرجع سابق.

42 ـ كاي كولماير. العصر السوري القديم ـ كتاب معرض الآثار السورية.
43 ـ اندره بارو ـ مرجع سابق
44 ـ علي أبو عساف ـ فنون الممالك القديمة ـ مرجع سابق.
45 ـ المرجع السابق.
46 ـ اندره بارو ـ ماري ـ مرجع سابق.
47 ـ علي أبو عساف ـ فنون الممالك ـ مرجع سابق.
48 ـ اندره بارو ـ سومر ـ مرجع سابق.
49 ـ عدنان الجندي ـ مرجع سابق.
50 ـ علي أبو عساف المرجع السابق.
51 ـ المرجع السابق.
52 ـ د. فاضل علي ـ مجلة سومر ـ العراق ـ المجلد 20 ـ 1964
53 ـ علي أبو عساف ـ آثار الممالك القديمة ـ مرجع سابق.
54 ـ فيصل عبد الله ـ مقدمة في علم ا~لأكاديات ـ دار الأبجدية ـ دمشق
55 ـ علي أبو عساف ـ دراسة غير منشورة ـ مرجع سابق.
56 ـ شوقي شعث. الحوليات الأثرية السورية. 34
57 ـ فيصل عبد الله ـ دور السلالة الحلبية ـ الحوليات الأثرية ـ مرجع سابق.
58 ـ المرجع السابق.
59 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
60 ـ المرجع السابق.
61 ـ المرجع السابق.
62 ـ فيصل عبد الله ـ دور السلالة الحلبية ـ الحوليات الأثرية ـ مرجع سابق
63 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
64 ـ FINET . LE VIN A' MARI .

65 ـ هورست كلينغل ـ تدمر والتجارة العالمية في عصر البرونز ـ الحوليات الأثرية السورية 42
66 ـ هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ مرجع سابق.
67 ـ المرجع السابق.
68 ـ فاروق اسماعيل ـ قطنا في وثائق العهد البابلي القديم ـ مرجع سابق.
69 ـ المرجع السابق.
70 ـ المرجع السابق.
71 ـ هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ مرجع سابق.
72 ـ المرجع السابق.
73 ـ المرجع السابق.
74 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
75 ـ علي أبو عساف ـ دراسة غير منشورة ـ مرجع سابق.
76 ـ المرجع السابق.
77 ـ المرجع السابق.
78 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
79 ـ المرجع السابق.
80 ـ فيصل عبد الله ـ الأرض والإنسان في الآلاخ في القرن 18 و 15 ق.م ـ دراسات تاريخية 35 ـ 1990/36 .
81 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
82 ـ علي أبو عساف ـ طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم ـ دراسات تاريخية 39 ـ 40 / 1991 .
83 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
84 ـ المرجع السابق.
85 ـ المرجع السابق.
86 ـ محمد حرب فرزات ـ عيد مرعي ـ دول وحضارات ـ مرجع سابق.
87 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.

88 ـ جان كلود مارجرون ـ وثائق الآثار السورية ـ مرجع سابق.
89 ـ فيصل عبد الله ـ الحوليات الأثرية السورية 43 ـ مرجع سابق.
90 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
91 ـ المرجع السابق.
92 ـ هورست كلينغل ـ الحوليات الأثرية السورية 34 ـ مرجع سابق
93 ـ المرجع السابق.
94 ـ فاروق اسماعيل. قطنا في وثائق العهد البابلي القديم ـ الحوليات 42 مرجع سابق.
95 ـ علي أبو عساف ـ طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم ـ دراسات تاريخية مرجع سابق.
96 ـ هورست كلينغل ـ التجارة في بلدان الشرق القديم والتفاعل مع جزيرة كريت في الألف الثالث ق.م أضواء جديدة في تاريخ وآثار بلاد الشام ـ ترجمة قاسم طوير. 1989 .
97 ـ المرجع السابق.
98 ـ هورست كلينغل ـ التجارة ووسائل العيش في فجر العصور التاريخية للجزيرة ـ وثائق الآثار السورية ـ مرجع سابق.
99 ـ هورست كلينغل ـ التجارة في بلدان الشرق القديم ـ مرجع سابق.
100 ـ المرجع السابق.
101 ـ المرجع السابق.
102 ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.
103 ـ المرجع السابق.
104 ـ المرجع السابق.
105 ـ المرجع السابق.



الحياة الاعتقادية في مملكة ماري العمورية

الحياة الإعتقادية في مملكة ماري العمورية:

إن الذهنية الإعتقادية في ماري العمورية، والتي استندت إلى العامل الاقتصادي ـ التجاري، الذي أدى إلى حالة التنوع في الألوهة، سواء لجهة الألوهة السومرية أو لجهة الألوهة العمورية، كانت تسير في حالة من التعايش والتآلف الديمغرافي ـ الاجتماعي.

وتخلو وثائق ماري من ذكر لصراعات بين رموز إلهية وأتباعها. وهذا يُعبّر عن خاصية مهمة في حضارة المشرق العربي حيث ثمة انفتاح وتفاعل وتعايش تحت سقف الولاء للدولة.

وكما ذكرنا فقد حفلت الحياة الاعتقادية في ماري بالرموز الإلهية ومعابدها، فمن معبد عشتار إلى معبد شمش، ونينهور ساج وعشتارات ونيني زازا، فإن فيض هذه المعابد، يمنح دليلاً على حالة التعايش الاجتماعي، والتألف اللذين ساهما في ازدهار ماري أيضاً.

ووسط كل هذا يحتل دجن، المرتبة الأولى في نسق الألوهة المارية، وكذلك عشتار. وهذا يتوضح أكثر في فترة السيادة العمورية.

ويعود ظهور هذا الإله بفاعليته الاعتقادية إلى فترة الفاعلية الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. ولا سيما في منطقة الفرات الأوسط، ولا سيما أيضاً في مدينتي ماري وترقا. حيث أن ترقا شكّلت مركز أو العاصمة الاعتقادية الأولى للإله دجن.⊗

ويظهر اسم هذا الإله في وثائق فاعلية أور الثالثة / في الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد / في موقع / بوزريش دجن / القريب من موقع مدينة نفر.

ويبدو أنه إله كنعاني ـ عموري، سرعان ما انتشر في مدن المشرق العربي في الألف الثاني، إن كان في إيسن أو آشور أو إبلا وتوتول ومواقع فلسطين.

زوجة هذا الإله / حسب الاعتقاد العموري / هي شالا ذات الأصل الحوري وزوجة إله الطقس الأكادي، أدد. وإحدى الوثائق العائدة إلى مواقع شمال الرافدين تذكر أن دجن هو والد إله الطقس، وهذا ما نجده أيضاً في وثائق أوغاريت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

⊗ له معبدان في ترقا واسميهما " بيت راحة الموتى " وبيت رعشة البرد ". فولكرت هاز ـ انظر: وثائق الآثار السورية 2002.

كما ورد ذكره في نصوص ماري مع إله الطقس / إتور مير /.

ويشير ويلغرد لامبيرت، إلى هذا الإله / اتور مير / والذي ظهر اسمه في وثائق ماري، ويعني اسمه " بوابة ماري". هو أصل تسمية مدينة ماري.(1)

وفي معرض مقابلة اسم الإله دجن، مع اللغة العربية، نجد أن هذا الاسم يرد / دُجْن، دِجَان، دُجون / تعني الغيم المطبق، المطر الكثير.(2)

ويُلّقب في منطقة الفرات الأوسط بملك البلاد وسيد الآلهة، ويشار إلى أنه إله الحبوب / وهذا يرد في وثائق أوغاريت /. غير أن صفته غير معروفة في الجناح الشرقي الرافدي.

يكتب اسم دجن في اللغة الأكادية على شكل مقاطع: / دا ـ جان / وكذلك / دا ـ جا ـ ان / و / دا ـ جا ـ نا / وفي الكنعانية يلفظ داجون، وفي الأوغاريتية كان يكتب بالحروف الساكنة / د. ج. ن /. وكما عثر على معبد لدجن في ماري وترقا، كذلك عثر على معبد له في أوغاريت يوحي بشعبية واسعة له.⊗

الجدير ذكره هنا، هو أنه وفي حوالي 1100 ق.م، كان معبوداً عند الفلستينين في غزة. حيث أنه يتربع قمة مجمع الآلهة لديهم وتقدم له النذور والأضحيات.

أيضاً تحظى عشتار بأهمية جيدة في النسيج الإعتقادي في ماري، لا بل وفي المشرق العربي بعامة.

فنجد معابدها في ماري وأوروك وكيش ونينوى ونوزي وآشور وإبلا .. الخ.

وفي الأسطورة المشرقية أن إنانا / عشتار هي ابنة إله السماء / آن /، وثمة رواية أخرى على أنها ابنة إله

⊗ تشير سلفي لاكن باخر، إلى وثيقة / رسالة من ماري إلى أوغاريت تعود لنهاية القرن الثالث عشر ق.م تشير إلى مكانة آلهة ماري في أوغاريت .. انظر ـ فيصل عبد الله ـ قراءة في خمس مجلدات في ماري، دراسات تاريخية ـ مرجع سابق.

القمر / نانا / وثمة روايات من أنها ابنة انليل. كما عند الآشوريين أنها ابنة آشور.

اعتبرت عشتار آلهة الخصب وتتصف بأنها آلهة بلا زوج.

شعارها عبارة عن حلقة قصب: ويبدو ـ أن صفاتها تتمدد إلى اعتبارها إلهة حرب كما عند الآشوريين. ويطلق عليها حمورابي قي مقدمة قوانينه/سيدة الكفاح والمعارك /.

تظهر في الرسوم الجدارية في قصر ماري ولا سيما في لوحة تنصيب الملك زمري ليم، ويشير أندره بارو إلى هذه اللوحة باعتبارها وثيقة غير اعتيادية ليس بالنسبة إلى تاريخ الفن فقط، بل وإلى الدين.[3]

فهي تقدم أئتلافاً مدهشاً للعقليتين " السامية " والسومرية، أي الكهنوتية المتمسكة بالتقاليد من ناحية، والخيال الجميل من الناحية الأخرى.

فالقسم الكهنوتي هو القسم الأعلى من المشهد المركزي الذي يبين الملك يلمس الشعارين الذين قدمتهما إليه عشتار في حفل التنصيب الذي كان حضور عدد من الآلهة فيه يضفي وقاراً إضافياً.

كما أن الكهنوتية تمثلت ثانية في تلك الحيوانات الرمزية التي يبدو وأنها كانت تؤلف حاجزاً وقائياً.

ويبدو أن كل تفصيل في هذه اللوحة، له تفسيره في اعتقادات المشرق العربي، غير أن عشتار الظاهرة بأسلحتها وأسدها وتابعها الحيوان، تشي بحضور لذهنية الملك الذي يأخذ السلطة من الإله.

كما أن الرسم الجداري في غرفة الاجتماع في قصر ماري / الغرفة 132 / والذي يضم خمسة حقول، بان منها ثلاثة فقط، حيث تبين وجود رسم لملك يقدم قرباناً إلى إله جالس فوق جبل، وعلى رأسه هلال. تصحب الملك كائنات سماوية وثمة ثوران يسيران على كل جانب من المشهد.

وكان ثمة عيد لعشتار في ماري، حيث يدوم يومين، وكان النبيذ يسيل فيه متدفقاً.

ويشير بوردروي إلى انتشار عبادة عشتار المارية إلى أوغاريت حيث يبدو أن الأفكار والعبادات كانت تنتقل من الجناح الشرقي والفرات الأوسط إلى الجناح الغربي والساحل المشرقي، وهذا ينقله إلى عالم بحر إيجة.[4]

ويشير فولكرت هاز إلى أنه " في احتفال شعائري لعشتار في ماري، تلا خلاله المغنون الشعائريون، تراتيلاً، حيث قدمت الأضاحي لأرواح الموتى، وأقيمت الاحتفالات لأرواح الملوك الموتى ".[5] .

الجدير ذكره، أنه في معبد عشتار في ماري، عثر على تمثال ملك ماري، لمجي ماري. حيث كان الملوك يقدمون تماثيلهم إلى معابد الآلهة تقرباً ومنحاً لبركة الآلهة عليهم.

وذكرنا سابقاً، عن وثيقة / رسالة في نصوص ماري تتحدث عن أن حاكم ترقا ذكّر زمري بأمر من دجن، أن عليه تقديم القربان الجنائزي عن روح والده مرتين كل شهر. ما يمنح دليلاً على تقليد يختص بالطقوس الجنائزية.

الجدير ذكره أيضاً، أن الأضاحي كانت من الخراف الذكور. وقد قدمت نصوص ماري أسماء أكثر من 25 إلهاً، فبالإضافة إلى دجن وعشتار هناك، أدد وإنكي ونينهور ساج وشمش وتموز الذي جاء تحت اسم أماعوشمغال، وكان بجانب الآلهة الأم، عشتار التي تجلت بأربع ظهورات. كما نجد إلهات مثل، أبيرتوم، ننكور ويرجح أن يكونا صورتين لدجن.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنه في فترة فاعلية أور الثالثة، حدث توسع أساسي في عالم الآلهة في ماري حيث ثمة ذكر لإلهات عديدات وبشكل كثيف مثل، بيليت ـ إيكاليم، نين ايفالا وتسمى هذه، سيدة القصر التي كانت ذات أهمية قصوى في منطقة الفرات الأوسط. وثمة إلهة " نينغال " السيدة الكبيرة وزوجة إله القمر.

كما ثمة آلهة ذكور مثل، لامار، إتور مير، نوغال، وثمة إلهان توأمان هما مشتابة وإشار وميشار.(6).

إن كثرة تعدد الآلهة في ماري يدل على أنها مدينة ذات تنوع وتعددية، حكمتها منظومة تجارية ولا سيما في مجال العبور التجاري والذي يشكّل أداة تفاعل بين ثقافات مختلفة، مع الإشارة إلى أن جلَّ هذا التفاعل يتم تحت سقف الولاء لدولة المدينة ولخطها الحضاري المشرقي الضارب في القدم.⊗

وكذلك فإن الخط الذهني الإعتقادي في كافة مدن المشرق العربي في الألف الثاني قبل الميلاد، ولكونه يتبع الواقع الديمغرافي ـ الاجتماعي، فإننا نلاحظ تعدداً في الآلهة بين المدن واختلاف في الرموز، ولكن هذا يتبع خطاً واحداً في البانثيون العموري والذي يستند في روائزه العامة على البانثيون السومري ـ الأكادي.

وعلى هذا فإن شمشي أدد العموري / أبن ترقا /، نلحظ أنه يستند في مشروعه السياسي على الإله انليل / إله الرياح، وقد ادعى في وثائقه أن الإله انليل / سيد البانثيون السومري / هو من منحه السلطة وجعله ملكاً.

وعلى هذا فقد أنشأ معبداً للإله انليل في مدينة آشور، وأطلق على المدينة في أعالي الرافدين اسم " شوباط انليل " وتعني مسكن الإله انليل.

أيضاً نلحظ أسماء ولديه، يسمع أدد، والتي تعني كما تفهم بالعربية يسمع الإله أدد، في إشارة إلى اعتبار متقدم للإله أدد. وكذلك في اسم ولده الآخر " إشمي دجن " ويعني في الأكادية " الإله دجن، سمع ". وهذا يعطي أهمية لحضور دجن في الحياة اليومية بالاضافة إلى أدد وانليل في آشور.

⊗ يشير ويلفرد جورج لامبيرت إلى أن نصوص ماري قدمت أسماء أكثر من 25 إلهاً مقدساً. فيصل عبد الله. دراسات تاريخية 37 - 38.

وبالمقابل، نلحظ أن حلب، كانت تقدم الإله أدد على أي إله آخر، ونعتقد أن هذا معزو إلى كونها مدينة زراعية، يعنيها الإله أدد في صفاته، إله الطقس والرعد وما يتصل بالخصب.

وكون أن المُلك يأتي من الإله، فإن مثلاً ياريم ليم، ملك حلب، وهو ممثل ونائب للإله على الأرض، حتى أنه يستطيع أن يحكي باسمه عبر الوحي الإلهي.

وكنا ذكرنا مضمون وثيقة / رسالة من ياريم ليم إلى زمري ليم، وردت إلى زمري ليم من الإله أدد الحلبي عن طريق الوحي وكان الوجه الآخر من الرسالة / الرقيم يحتوي على الرسالة التالية:

" ألست أنا، أدد سيد حلب، الذي فقّهك من بين الرعية، والذي أوصلك إلى العرش، وإلى منزل والدك ... لقد مسحتك بزيت انتصاري ".⊗

الجدير ذكره، أن مملكة يمحاض / حلب، كانت بفاعلية تاريخية قوية، وهذا ما أسبغ على إلهها أدد، صفة القوة أيضاً، وعلى هذا نلحظ أن الملوك من الممالك أو المدن الأخرى، كانوا يحرصون حين زيارة يمحاض على تقديم الأضاحي لهذا الإله، وقد ذكرت الوثائق عن زيارة لزمري ليم إلى يمحاض وتقديمه الأضاحي لهذا الإله.(7)

كما كان يرسل باستمرار القرابين والأضاحي للإله أدد الحلبي، وقد أمر بصنع تمثال من البرونز تقدمة له، بمناسبة عودته إلى عرش ماري.

وتذكر النصوص، أن الخلاف الذي وقع بين يمحاض وقطنة، والذي ساهمت ماري / زمري ليم / في حلّه، كان من شروط ملك يمحاض للصلح أن يحضر ملك قطنة إلى حلب ليقدم الأضاحي ويحلف أمام الإله أدد في حلب وبشكل عام، وكون أن نموذج المجتمع الذي ساد في ماري شبيه في بابل وآشور في فترة السلالة البابلية

⊗ انظر: ألفونسو آركي ـ حلب عهد إبلا ـ الحوليات الأثرية 43.

الأولى، فإن المعلومات التي يمكن الحصول عليها من نصوص ماري يمكن أن يقال أنها تنطبق على بلاد آشور وبابل.⊗⊗

وكذا العكس، حيث أنه يمكننا مناقشة الطقوس والاعتقادات والشعائر والتي قدمتها مدينة بابل في الألف الثاني ونسحبها على ماري مستندين إلى النسيج الاجتماعي العموري أولاً، وإلى التماثل بين مدن المشرق العربي آنذاك.⊗⊗⊗

ويذكر صموئيل هوك في مناقشته للإله شمش في بابل، حيث أن رمزه منقوش على مسلة قوانين حمورابي، وقد كان هذا الإله معنياً بتفسير الوحي إلى جانب الإله أدد. وكان رمزه الذي ينقش على الأختام والأنصاب مؤلفاً من قرص الشمس وله نجم ذو أربعة شعاب في داخله، والأشعة تنبثق من بين تلك الشعاب.

أما الإله أدد، فقد وصف في كتابات " جوديا " بأنه " الراعد " فهو إله العاصفة، ورمزه، الصاعقة التي يمسك بها في يده اليمنى وبيسراه يحمل فأساً وحيوانه المقدس هو الثور المقدس.⊗

أما عشتار / التي باركت زمري ليم في لوحة تنصيبه الجدارية / فقد كان رمزها نجماً ذو ثماني شعب أو 16 شعبة. وتمثل عموماً وهي راكبة ممتطيا المقدسة / الأسد / وهذا ما تبيناه في لوحة التنصيب.

وكنا ذكرنا سابقاً أن الكهان أو المتنبؤن كان لهم دوراً مهماً في ماري ويدعى واحدهم / نبو /، حيث يقدمون

⊗⊗ انظر الفرد هالدار العموريون ـ مرجع سابق.

⊗⊗⊗ ذلك كون وثائق ماري في تلك الفترة، كانت تتجه نحو الاهتمام بالشؤون التجارية والعلاقات السياسية.

⊗ حتى في الألف الأول قبل الميلاد، بقي الملوك المشرقيون يقدمون الأضاحي للإله أدد الحلبي، وقد ذكر الملك الآشوري شلم نصر الثالث، في أحد نقوشه / نقش الثور / أنه قدم قرباناً للإله أدد الحلبي في أثناء حملة له على الجناح الغربي الشامي في العام السادس من حكمه. صموئيل هوك ـ ديانة بابل وآشور ـ ت ـ نهاد خياطة.

للملك رؤاهم حول مجريات الأمور والأخطار المحدقة بالمدينة.

وكنا أشرنا إلى وثيقة من ماري، خطّها " نبو " / المتنبئ أو العراف، وهو كبير الكهنة، وهذا كان ينقل للملك رؤاه ولاسيما في الحالات المصيرية والخطيرة في حياة المملكة.

وتحتوي هذه الوثيقة على رؤيا العراف التي نقلتها شيبتو الملكة إلى زوجها الغائب في المعارك، حيث تطمئنه إلى أن الإله وملائكته مصممون على حماية مدينة ماري وأن أحداً لا يستطيع المساس بها.[8]

وتحدثنا أيضاً ، عن استخدام الاستخارة من قبل العرافين في ماري، حيث تتم استشارة الإله، من أجل اتخاذ قرارات مصيرية في حياة المملكة / جان ماري دوران / قراءة في خمس مجلدات من ماري ـ فيصل عبد الله /.

وثمة منحى آخر في مقاربتنا للحياة الاعتقادية في المشرق العربي العموري / كما قبله /، يختص في النظر إلى الإله وفكرة الألوهة بشكل عام.

ولعل أول ما نلحظه خلال جولاتنا في النصوص المسمارية، أن الآلهة مؤنسـسنة، فهي أولاً صنع إنساني، وابتكار إنساني آنذاك وهذا نتج عن مجمل قيم التفاعل ومعاييره بين المجتمع وبيئته الطبيعية ووسطه الحيوي. وعلى هذا فإن الطبيعة بتجلياتها المختلفة هي التي حفزت الإنسان آنذاك لابتكار رموز لها، وهذا الأمر استند على فكرة الخوف والغموض، وعدم ايجاد تفسيرات منطقية أو علمية للظواهر الطبيعية، كالطوفان، والبرق والرعد، الخ.

والغريب هنا، هو أن المجتمع آنذاك استطاع السيطرة على الطبيعة، إن كان في تلك المنشأت المائية من سدود أو أقنية .. الخ .. غير أنه بقي في مجال البنية الدماغية قاصراً عن الوصول إلى تفسيرات لتلك الظواهر المخيفة والمدمرة.

لذا فإن النصوص المشرقية تحفل بذكر أن الإنسان خلق من أجل خدمة الآلهة DULLU / دُلُّو /.

وكون تلك الآلهة ابتكار للعقل الإنساني، فقد أُنسنتْ، " وبذا فهي تأكل وتشرب وتسمع الموسيقى وترقص. كما أنها ـ تحتاج إلى أسرّة لتنام عليها، ولديها زوجات أو أزواج أو أبناء. كما أنها تغتسل وتتعطر "[9]

وذكرنا سابقاً أنه في ماري كان ثمة ورش لصناعة التماثيل تكون إلى جانب المعابد، والتماثيل تلك ممكن أن تكون شخصية، أو لا شخصية / عامة /. كما أن هناك ورشات لصنع تماثيل الآلهة. وفي هذه الـ " بتْ ـ مُحُّو " أي بيت الصانع، كانت تصاغ التماثيل وتصنع ثم تنصب في حرمات المعابد.

وكان ثمة طقس يعرف باسم " مِس ـ في " أي غسل الفم، وكذلك " فِتْ ـ في " أي فتح الفم. حيث يتم عبرهما سريان الحياة في تماثيل الآلهة.

أما ما يجري في المعبد من طقوس يومية، ففي المقام الأول يتم غسل التماثيل وكسوتها وإطعامها. وزودت حرم المعابد بمنصات توضع عليها الأضحيات والمشروبات والورود. وثمة مباخر للبخور. وكان على الكهنة، رش الحرم بالماء الطاهر، حيث كانت تقام الولائم.

أما طعام الآلهة فكان يتألف من الخبز والكعك ولحوم الحيوانات / عجل ـ ماعز ـ غنم ـ غزال / وكذلك السمك والدواجن /.

أما الكاهن المولج بذبح الأضحيات فيلقب بـ " نَسْ ـ فَتْري " أي حامل الخنجر.

وكانت الذهنية الاعتقادية آنذاك تعتقد أن تقديم القرابين للآلهة، يجعلها في مزاج حسن وبالتالي تجنب غضبها، وهذه القرابين كانت تسمى " تهدئة كبد " الآلهة.

وفي السنة الجديدة، كان الكاهن في اليوم الخامس يقوم مع " حامل الخنجر "، بعد قطع رأس أضحية، بتمريغ حرم المعبد باباً وجدراناً بجسد الأضحية، وبذا حسب

اعتقادهم يتم طقسياً امتصاص كل الخبائث ونقلها إلى الأضحية / خروف أو عجل ../ المذبوحة ثم تلقى الشاة برأسها وجسمها في النهر الذي يذهب بها و بالخبائث التي تحملها.

والطريف هنا، أن الكاهنين الذين قاما بعملية التطهير أصبحا غير طاهرين طقسياً، لذا توجب عليهما مغادرة المدينة حتى انقضاء فترة الإحتفالات بالسنة الجديدة.

وكان الاعتقاد السائد آنذاك أن لكل حادث معنى اعتقادياً ويُعبّر عن مزاج القوى فوق الطبيعية أو الرموز الإلهية. لذا فثمة مراقبة لطيران الطيور، وكذلك علاقة الأجرام السماوية فيما بينها، وطاوع الشمس والقمر، وأحشاء الحيوان وأكبادها / وهذا الأمر موثق في لقى مدينة ماري /.[⊗]

ويبدو أن قراءة الطالع أو التنبؤ كان يستند على جملة هذه الظواهر.

وكانت الولادة لتوائم، تعتبر ظاهرة جديرة بالملاحظة، وهذا محقق في وثائق ماري برسالة شيبتو لزوجها الملك تخبره مسرورة، بأنها أنجبت توأمين.

ومن طرائف الاعتقادات المشرقية عامة:

ـ إذا ولدت المرأة ولداً له رأس أسد، فمعنى ذلك أن ملكاً شديد البأس سوف يحكم البلاد.

ـ إذا ولدت المرأة ولداً أصلم الأذن اليمنى، فهذا يعني أن أيام الملك قد اقتربت من نهايتها.

ـ إذا بال كلب أبيض على شخص، فإن الفقر محقق عليه، وإذا كان الكلب أسوداً، فإن مرضاً سوف يصيبه. وإذا كان الكلب أسمراً، فهذا يعني أن فرحاً سيلقى.

[⊗] لعل قراءة طوالع الكبد تعود إلى فترة الفاعلية الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. وقد عثر في ماري على مجموعة من نماذج أكباد طينية كانت تستخدم في أغراض العرافة / وهذا ما يعرف بدرس الكبد HEPATOSCOPY / بحيث حوّتْ على نقوش ذات صلة بمواضيع واستعمال قراءة الطالع. وقد انتقلت هذه العرافة إلى عالم المتوسط، حيث استخدمها العرافون الرومان والإتروسك، وقد عثر على نموذج برونزي لكبد في باتشنيسا عام 1877.

ـ إذا كان صقر الصيد، أثناء الصيد ومرّ من يمين الملك إلى يساره، فمعنى هذا أن الملك سوف يحقق النصر أينما ذهب.
ـ إذا سقطت حية خلف إنسان في الأول من نيسان وحتى الثلاثين منه، فمعنى هذا أن صديقه سوف ينقلب عليه ويصبح عدواً له.
ـ اليد اليمنى تدل على فأل حسن واليسرى عكس ذلك حيث أن وجهة هذه تكون نحو بلاد عيلام المعادية.
ومعلوم أن بابل وماري ويمحاض شكّلت حلفاً سياسياً وعسكرياً ضد تحالف إشنونا وعيلام.
وكان الاعتقاد الذهني المشرقي، والذي يختص بالحيوان المذبوح / الأضحية /، يستند على أن القلب هو مركز التفكير، أما الأمعاء والكبد فهي مركز العواطف، وتشير نصوص المشرق ولاسيما البابلية إلى تهدئة كبد الآلهة.
وكانت قراءة الأمعاء لكشف الطالع تسمى " إرّي ساحيروتي " أي الأحشاء المضفورة.
وثمة وثائق تعود إلى فترة الفاعلية الأكادية تشير إلى نوع العرافة هذا حيث جاء في النص:
" عندما تحيط المرارة بالأحشاء إحاطة تامة، فهذا علامة على طالع شاروكين الذي بتأثير هذا الفأل، اجتاح بلاد عيلام وقهر العيلاميين وأحاط بهم من كل صوب وقطع عنهم الامدادات ".(10)
أما طالع الكبد، فقد كانت الكبد تخطط بدقة، ويطلق على مختلف أقسامها ونتؤاتها أسماء مثل الإصبع، الفم، القصر، الراية .. الخ.
وقد عثر على كبد طيني يعود إلى مطلع الألف الثاني، حيث قُسّم الكبد إلى أكثر من 50 قسماً بواسطة خطوط طولانية وعرضانية. ولدى الكاهن مجموعة من الموجزات التي تفسر له معنى مختلف أجزاء الكبد.

" فعندما تكون العلامات الملائمة كثيرة وغير الملائمة قليلة، يكون الطالع فألاً حسناً، ولكن عندما تكون عكس ذلك فيكون الفأل، سيئاً "[11]

" وعندما تكون العلامات الملائمة وغير الملائمة متساوية، فيجب على الإنسان ألا يتكل على الخط في مثل هذا الطالع "[12]

وكان يمكن في حال كان نتيجة الاستطلاع أنه غير ملائم، أن يعاد ثانية بما يمكن أن يؤدي إلى استجابة ملائمة.

وهذا موثق في استمرارية هذا الطقس حتى الألف الأول قبل الميلاد، حيث ثمة وثيقة تعود إلى أيام الملك أسرحدون، تتحدث عن إجراء جلب الطالع هذا بطلب من الملك إلى الإله شمش عن طلب الملك الإسكيثي " برطاطو " الزواج من ابنة أسرحدون، وقد كانت نتيجة الاستفسار عبر طالع الكبد، غير ملائمة، وبعد إجراء الاستطلاع الثاني، تبين أن النتيجة ملائمة، وهذا ما أدى إلى أن يقبل الملك الآشوري تزويج ابنته إلى الملك ذاك.[13]

إن محاولتنا في مقاربة استخدام طالع الكبد، وتفسيراته ومعانيه، تنبع من العثور على أكباد طينية في ماري ربما لم تقدم وثائقها تفسيراً لعملها وآليتها وبذا فإننا نحاول الإضاءة عليها عبر الوثائق المشرقية الأخرى، المتعاصرة معها أو التي جاءت من الألف الأول قبل الميلاد، حيث حوت وثائقه على تفسير لكيفية قراءة طالع الكبد. ولعل نصوص مكتبة آشور بانيبال، وكذلك نصوص المعابد البابلية تقدم هذه الإضاءات.

وقد كان الشكل الهرمي في نموذج الكبد الطيني يُعرف باسم " الإصبع " حيث تشير النصوص إلى ما يلي:

" إذا كان الإصبع كرأس الأسد، فمعنى ذلك أن الخدم سوف يطردون ملكهم، وإذا كان الإصبع كأذن الأسد، فهذا يعني أن الملك لن يجد منافساً له. أما إذا كان الإصبع

كرأس النعجة، فهذا يدل على أن الملك سوف يكون موفقاً تماماً "[14]

وفي قراءة طالع الكليتين، نجد أنه:

" إذا كانت الكلية اليمنى تالفة، فهذا يدل على موت الملكة، وإذا كان المستطلع يحمل سلاحاً / كما في الحرب / فهذا يعني الهزيمة لمولاي.

وإذا كانت الكلية اليسرى تالفة، فهذا يعني أن ملكة البلد المعادي سوف تموت، وإذا كان المستطلع له سلاحاً، فهذا يدل على هزيمة الملك، لملك العدو "[15]

نصل من هذا إلى مقاربة لمسألة الطالع عبر أجزاء جسم الضحية، بحيث بتنا أمام عنصر اعتقادي سائد، يقول أن مجمل البنى والأحداث المعتقدة إنما تحدث بإرادة الآلهة.

ويذكر صموئيل هوك أنه كان ثمة هيئة للعرافين / البآروتُو /، ربما يكونوا ظواهر نبوة، أو ما يسمى آنذاك " مَحُّو "، وهذا يشابه حالة الوجد أو التوحد مع الإله أو حالة صوفية حميمة، ويبدو أن مؤلفي هذه النبوءات كانوا من النساء، وثمة نص من أيام أسرحدون الآشوري في الألف الأول قبل الميلاد يقول على لسان الآلهة:

" لا تخف، (أسرحدون) فأنا الإله " بل " أخاطبك. نياط قلبك أنا أشدّها، كأمك التي كانت سبب وجودك، ستون إلهاً عظيماً يقفون جميعاً معي ويولونك حمايتهم. الإله سن إلى يمينك، والإله شمش إلى يسارك، ستون إلهاً عظيماً يحفّون بك من كل جانب وقد تأهبوا للقتال.

لا تأمن الناس! أدر عينيك صوبي، انظر إليّ! فأنا عشتار الأربيلية، لقد حولتُ عطف آشور إليك. عند ما كنت صغيراً، آزرتك.

لا تخف، أثنِ عليّ. أين ذلك العدو الذي مرَّ بك ولم ألاحظه؟ المستقبل كالماضي! فأنا الإله نابو، رب قلم اللوح، أثنِ عليّ ! وحيٌ نطقت به شفتا المرأة بايا الأربيلية ".[16]

ولعل هذا يضيء بشكل كبير على المعطى العام لذهنية الإلوهة والاعتقادات السابقة لظهور الأديان السماوية، والمستمرة إلى العصور اللاحقة وصولاً إلى العصر الحديث.

ولعل مجمل تلك المعطيات تؤكد على وحدة الذهنية الحضارية المشرقية واستمراريتها عبر الزمن.

ولعل الإشارة إلى المجموعة المؤلفة من 47 أعجوبة رافقت سقوط أكاد وانتهاء الفاعلية الأكادية، تشير إلى معالم الاعتقادات في المشرق العربي عبر العصور .. لنقرأ:

" رأس مقطوع صاح بصوت عال، فرس ذات قرن في شمال جبينها، في بابل، شجر نخيل مذكر حمل ثمراً، أسد وضبع وخنزير بري دخل المدينة "[17]

ألا يذكرنا هذا بما درجت عليه ذهنية المشرق في العصور اللاحقة عند دمار المدن أو موت زعماء أو أنبياء!.

وفي مجال مراقبة الأفلاك والنجوم لغايات استطلاعية واعتقادية أيضاً، نشير إلى أن الزقورات التي بنيت في مدن المشرق العربي ومنها ماري، كان من غايتها، رصد النجوم كما أنها أبراج مراقبة. وثمة معابد كانت تحتوي على حجرة خاصة للمنّجمين تعرف باسم " بت تَمَرْتي " أي بيت الرصد، حيث كانوا يراقبون القمر ويرصدونه، وقد عثر على مدونة في مواقع المشرق العربي تمتلك فرادتها كون أنها تشكّل موجزاً استرولوجياً قديماً، جاء تحت اسم " عندما آنووانليل " ويعتقد أنه يعود إلى فترة الفاعلية السومرية في الجناح الرافدي.

وقد قّسمت هذه المدونة العالم آنذاك إلى أربعة أقسام: بلاد أكاد، عيلام، سوبرتو، أمورو، والغريب أن هذا التقسيم يعود إلى الحقب الأولى في حين يرد أسماء ملوك أكاديين مثل ريموش وإبيسين، ثم نجد ذكراً للحثيين والأخلامو، بما يحمل على الظن أن هذه المدونة شهدت على مر القرون التالية إضافات وزيادات اشتملت على ملاحظات دونتها أجيال لاحقة من المنجمين "[18]

وهذا ما يقدم دليلاً على التواصل الذهني / الاعتقادي لحضارة المشرق العربي.

كانت مراقبة القمر ورصده من أساسات العرافة، وكان لمواعيد بزوغه أو احتجابه أو تغير شكله انعكاساً على حياة المدينة ومصيرها كما ساد الاعتقاد آنذاك.

فنقرأ في أحد النصوص:

" في هذا الشهر، إذا شوهد القمر في اليوم السابع والعشرين كما يشاهد في أول يوم بزوغه، كان هذا شؤم على عيلام. وإذا شوهد في اليوم الثامن والعشرين كما يشاهد في أول بزوغه، كان ذلك شؤم على أمورو "[19]

" إذا شوهدت الشمس والقمر معاً في اليوم الثالث عشر، فمعنى ذلك الفتنة وبوار التجارة، وتطأ البلاد قدمُ عدوّ، وينهب العدو كل شيء.

وإذا شوهدت الشمس والقمر معاً في اليوم الرابع عشر، فهذا يبشر بالازدهار، ويعّم الفرح البلاد "[20]

وكانت من الحوادث الأكبر دفعاً للتشاؤم والخوف، خسوف القمر، وقد حفلت وثائق المشرق بذكر هذه الظاهرة لا بل وثمة أسطورة تتحدث عن هذه الظاهرة.

ويتحدث رقيم طقسي عن حالة خسوف القمر وما يجري خلالها في المدن المشرقية:

" يوم خسوف القمر، يعمد كهان بيوت الآلهة تيرّانا إلى جَراكّو / مذبح / ويجعلونه في بيت ألهتهم. وعندما يخفت الضوء، يصرخون بصوت عال ألا تقترب كارثة أو فتنة أو خسوف من أوروك والقصر وحَرَمي إنانا وبيوت آلهة تيرانا، وأن يرفعوا أصواتهم بالنواح، ويصرخوا بصوت عال حتى ينجلي الكسوف ".

ويرافق هذا المجيء بالآلات الموسيقية المقدسة من المعابد:

" يوم الخسوف، ليخرجوا من البيت الـ " هالهالتو " النحاسي / آلة موسيقية / والـ " إرّشِمّا " النحاسية، والـ " ليليسو " النحاسي⊗ ".[21]

أما عن زمن حصول الخسوف وانعكاسه على الممالك والمدن المشرقية نقرأ في النصوص:

" إذا حدث الخسوف في شهر نيسان، وفي الهزيع الأول من الليل، يكون دمار ويقتل الأخ أخاه.

وإذا حدث في شهر أيار، يموت الملك ولا يخلفه ابنه على العرش.

وإذا حدث في تموز، أخصب الزرع وارتفعت الأسعار.

وإذا حدث في آب أرسل أدد طوفاناً على البلاد ".[22]

أما عن الرعد، وهو صوت الإله أدد، فكان زمن حصوله ذو معنى على حياة المملكة أو المدينة، وتشير النصوص المشرقية إلى هذا الأمر:

" عندما يُسمِع أدد صوته في شهر نيسان، يكون ذلك إيذاناً بانتهاء حكم العدو.

وعندما يحدث في تموز، يخصب الزرع.

وعندما يحدث في آذار، تخرج البلاد عن الملك.

وعندما يرعد مثل كلب كبير، ينهض (الأعداء) ولا من يباريهم.

وعندما يزأر كالليث، يسقط الملك ".[23]

وكذلك كان البرق مدعاة للتنبؤ بأحوال المدن، " فإذا لمع البرق ليلاً في الجنوب، أرسل أدد طوفاناً وإذا لمع البرق ليلاً في الشمال، غرّق أدد بلاد جوتيوم "[24]

أما الزلازل فكانت تحمل معنى فاجعياً، في حين أن قوس قزح يظلل المدينة بالفرح العارم.

وبشكل عام، فإن طقوس واعتقادات ماري العمورية لا تشذ عن الخط الذهني العام الذي حكم الحضارة

⊗ ليليُّسو: هو الطبل المقدس النحاسي، له دور هام في المناسبات الدينية والطقوس. وتشير المعطيات النصّية إلى وجود طقوس معينة لصنع هذا الطبل أو إصلاحه.
ويبدو أن المشرقيين بعامة كانوا ينظرون إلى الطبل المقدس ويعاملونه معاملتهم لإله.

المشرقية في الألف الثاني قبل الميلاد، مع وجود اختلاف واحد بين المدن، في تراتبية الآلهة المعبودة، ونعتقد أن هذا يرتبط بالواقع الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ البيئي الطبيعي، والذي جعل علاقة المجتمعات تلك مع فكرة الألوهية، علاقة مصلحية تستند على الخوف وعدم انجلاء المظاهر الطبيعية بعد، في العقل الإنساني.

بقي أن نشير هنا، إلى أن الباحثة ماري تيريز بارليت، أشارت إلى نص ختم من ماري يحمل عبارة:

" إله العموريون حامل سلاح الحرب في يده، المخّلص من الخطيئة ".[25]

وفي مقاربة لمعبد نيني زازا في ماري، يشير أندره بارو إلى اكتشاف مهم، حيث يظهر في باحته مايشي باحتفال مختلف وغير متوقع: ممر أرضه مطلية بالقار، ويحيط بالباحة، جدرانه مزينة بتجويفات يحيط بها من الطرفين عضادات. وفي الوسط، ثمة حجر بازلتي كبير منحوت على هيئة مخروط قاعدته ذات أطراف مشدوفة قليلاً.

يقول بارو: " إن هويته تفرض نفسها فلا يمكن أن يكون إلا نصباً. وإن وجود هذا النوع من الملحقات وعلى هذا الشكل، قاعدة عامة في طقوس العبادة الكنعانية .. على ضفاف الفرات الأوسط.

إن الممر المطلي بالقار .. يتطلب لا محالة القيام باحتفالات طواف ديني، ويمكننا أن نتصور ببساطة جموع الكهنة أو المؤمنين يمرون بخشوع قبل أن يدخلوا إلى قاعة القدس، مكان العبادة الأخير، كما نتصورهم خارجين بعد أن أتموا فروض الطاعة. وليس من الضروري أن نجد النص المسماري عن الاحتفال الذي يدور في الباحة لكي نعرف صفاته الكبرى. لأن هذا مقروء بوضوح كبير على الأرض ".[26]

وإن كان هذا المعبد يرقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد، غير أن استمرارية الطقوس والعبادات، تحتم النظر

إلى مجمل اعتقادات ماري كحالة متجانسة، كون أن الهوية الأكادية العمورية هي السائدة آنذاك.

وقد أوردت نصوص ماري أسماء الكثير من العرافين / نبو / حيث نجد: أدو ـ باني، اسكودوم، آشار ـ ايليشو، ايبي ـ آموروم ـ إيلوشو ـ نصر، اينيب ـ شمش، ايشي ـ أدو، شمش ـ ناصر، زيمري ـ دجن، زونام.

ويجدر الذكر أيضاً، إلى ظاهرة مهمة، عنيتُ بها التنجيم، والذي كان يجري بوساطة الطيور أو بشرب مشروبات قد تكون كحولية.

وللكشف عن المستقبل، كانت تجري طقوس يقوم بها رجلان، الأول وهو عراف متخصص بفحص الأحشاء / للحيوانات /، وآخر يسمى " خادم الإله ".

حيث بعد أن يفرغ العراف من فحص أحشاء الحيوان يعلن نتيجة الكشف بملائم أو غير ملائم. ومن فم خادم الإله " الملهم "، يفصح الإله عن ذاته بشكل واضح ومفصّل وبنبرة غنائية وتنبؤية خاصة.(27)

وفي إشارة إلى الإله أدد والذي كان الإله الوطني ليمحاض / حلب، والذي هو محارب يقود وبمهارة، ويتحكم بهواطل المطر والبرد والثلج، يشير دوران إلى فكرة مهمة حيث أن هذا الإله وبدل أن يكون أحد الآلهة العديدة المشتركة المتعطشة إلى النذور الثمينة والغنى، يشدد على أن من يريد تكريمه يجب أن يقنع بممارسة العدل.

ولعل هذا الأمر يدل بصورة لا لبس فيها، على سمو فكرة القيّم عند العموريين، حيث أن الإله والذي هو ابتكار إنساني آنذاك، كان في تماهٍ مع النفس البشرية فجاء عاكساً ومرآة لها في تحقيق قيم الحق والخير والجمال.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن هذا الإله كانت له شعبية واسعة في مدن المشرق ومع العصور اللاحقة، حيث أنه في أوغاريت في القرن الرابع والثالث عشر، لم يعد يدعى باسمه وإنما بلقبه: بعل BA ’AL أي السيد. وشكّل منذ الفاعلية العمورية إلهاً حامياً للمملكة / يمحاض /.

وذكرنا أيضاً أن عبادته انتقلت إلى الممالك الأخرى، حيث مثلاً، أن زمري ليم لم يكتف بإرسال نصب يمثله إلى معبد أدد في حلب، بل أمر بصنع طبل ضخم من البرونز، وقد كان ثقله عائقاً في نقله إلى إيمار ثم حلب ومع هذا وصل بصعوبة إلى حلب.(28)

مراجع الفصل الخامس

1 ـ فيصل عبد الله ـ قراءة في خمس مجلدات من ماري ـ مرجع سابق.
2 ـ ادزارد ـ بوب ـ رولينغ ـ قاموس الآلهة والأساطير ـ ت ـ محمد وحيد خياطة ـ مكتبة سومر ـ حلب 1987 .
3 ـ اندره بارو ـ سومر ـ مرجع سابق.
4 ـ فيصل عبد الله ـ مرجع سابق.
5 ـ فولكرت هاز ، الآلهة والعبادات والأساطير ـ وثائق الآثار السورية ـ مرجع سابق.
6 ـ المرجع السابق.
7 ـ شوقي شعث ـ العلاقة بين ماري ويمحاض في مطلع الألف الثاني ق.م ـ الحوليات الأثرية السورية 34.
8 ـ فيصل عبد الله ـ قراءة في خمس مجلدات من ماري ـ مرجع سابق.
9 ـ صموئيل هوك ـ ديانة بابل وآشور ـ ت ـ نهاد خياطة ـ دار العربي 1987. دمشق
10 ـ ID. OP,CIT.,VOL.II,P.274
11 ـ MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.270
12 ـ ID. OP,CIT.,VOL.II,P.270
13 ـ ID. OP,CIT.,VOL.II,P.270 -1
14 ـ MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.273
15 ـ ID., OP,CIT.,VOL.II,P.274
16 ـ PRITCHARD.OP,CIT.,P.450
17 ـ MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.277
18 ـ صموئيل هوك ـ مرجع سابق.
19 ـ MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.284
20 ـ المرجع السابق P.284 – 9
21 ـ صموئيل هوك ـ مرجع سابق.
22 ـ MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.249

23 ـ ID., OP,CIT.,VOL.II,P.258
24 ـ المرجع السابق.
25 ـ فيصل عبد الله ـ دراسات تاريخية 37 ـ 38 ـ مرجع سابق.
26 ـ اندره بارو ـ ماري ـ مرجع سابق.
27 ـ جان ماري دوران ـ دراسات تاريخية ـ 45 ـ 46 /1993.
28 ـ المرجع السابق.

الحياة الاعتقادية في مملكة ماري العمورية.............................258

مراجع الفصل الخامس 279

الفصل السادس

الحياة اليومية في مملكة ماري

الحياة اليومية في مملكة ماري العمورية:

لا تختلف الحياة اليومية بمجرياتها كافة، في ماري عن أي حياة يومية لمدينة تجارية عبر التاريخ. فمن شرطها التجاري وكونها معبراً تجارياً، نستطيع أن نخمن أننا أمام مدينة دافقة الحيوية والتنوع والغنى.

وكون أ، العامل التجاري يدعم إشراطات المثاقفة بين الحضارات والشعوب، فإن هذا الأمر يتحقق في ماري، بما يؤدي إلى إخصاب في توجهها الإبداعي المستند إلى قيم التفاعل والغنى الإنساني.

وهذا سوف ينسحب على مجمل المجالات الحياتية وإيقاعها، بدءاً من الحِرَف مروراً بتقنيات الصناعات، إلى كافة المناحي الاجتماعية والروحية.

وعلى هذا يمكننا مقاربة الحياة اليومية في مملكة ماري وفق نصوصها، والتي تلتقي في محاورها الأساسية مع أي مدينة قامت وتأسست على شرط تجاري عبر العصور، إن كان في أور أو إيمار أو إبلا وغيرها الكثير .

عالم الزراعة في ماري:

ذكرنا سابقاً أن مملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد، امتدت على مدى منطقة الفرات الأوسط، من ماري المدينة إلى توتول وبلاد خانة وحول مجرى نهر الخابور إلى الشمال، وامتلكت حدوداً مشتركة مع قطنة. رغم أنها سعت إلى إنشاء أنظمة للري من أقنية وسدود ومنشآت مائية، للسيطرة على ممكنات الطبيعة، ورغم أنها امتلكت أراضٍ واسعة / كمملكة / ولا سيما وادي الفرات والخابور، غير أنها كانت فقيرة نسبياً.

ويشير د. أبو عساف إلى " أن الوثائق التجارية من إيمار أبانت أن تجار ماري كانوا يستوردون منتجات المواد التي كانت تزرع في المدينة مثل زيت السمسم والنبيذ والحبوب. ومن المؤكد أن إنتاج المملكة الزراعي كانت

مرتبطاً بنظام الري الذي لم يكن كافياً، وبالتالي فإن المحاصيل كانت قليلة ".[1]

هذا بالرغم من أن مثلث الخابور شكّل منطقة استراتيجية مهمة لجهة الزراعة، حيث كان مستودعاً للقمح ومنتجعاً لقطعان الغنم في الصيف.

وتتحدث النصوص عن وجود حالة من التخصص في مجال الزراعة في ماري، فحسب وثيقة / رسالة من يسمع أدد حاكم ماري إلى والده شمشي أدد حاكم آشور، نتبين هذا، حيث جاء في الوثيقة:

" اكتب لتوتول حتى يرسلوا لك مزارعاً قادراً على مسك المحراث ومتابعة الأثلام [2]

وقد أبانت وثائق ماري عن وجود منتجات زراعية مثل الشعير، القمح / بشكل قليل / ، الحمص، الفول، العدس، ومن النباتات العطرية ورد ذكر الطيب، حبات السونو، البنج SAKIRU.

كذلك زرع النخيل في منطقة الفرات الأوسط في الألف الثاني قبل الميلاد.

وقد أشار دوران إلى زراعة الكرمة في ترقا، ما يدل على وجود صناعة للنبيذ فيها. [3]

وفي مجال الحياة الحرفية، قدمت وثائق ماري معطيات مهمة في هذا المجال ولا سيما ما ارتبط بأعمال المجمع الرئاسي في ماري.

ويبدو أن ثمة تنظيماً مركزياً لموظفي القصر الملكي عند زمري ليم حيث يُستفاد من الوثائق عن وجود تنظيم إداري للعمل. فنجد مثلاً مسؤولاً في القصر لجهة شؤون النسيج والأعمال المعدنية والزينة الاصطناعية والجلود والزيوت، ويدعى موكانيشوم، كذلك كان مولجاً بالإشراف على أعمال السجينات من النساء.

وثمة مسؤول آخر ويدعى ياسيم – سومو، ويعتبر مفتش في قصر ماري وقصور المملكة أيضاً. وهو مكلف باقتراح التعيينات للسنة الجديدة.

كذلك تذكر النصوص وجود مسؤول عن المعدن وهو: قيشتي- ماما، ومسوؤل عن أمور الصرف والنقد واسمه زيكراتوم، وحين غياب الملك عن القصر يتنكب نجدي – ليم مسؤولية القصر.

كما وتقدم وثائق ماري أن من يتم أسره في الحروب، يلحق للعمل في ورش القصر الملكي / DALLEY / . وإذا كن نسوة فيتم إلحاقهن بورشات النسيج في القصر. علماً أن الصناعات النسيجية والغذائية في ماري كانت من اختصاص النساء. وتشير وثيقة من زمري ليم إلى زوجته، وذلك بعد انتصاره على أشلاكا/ إلى طلبه منها أن تحتفظ بالنساء الأسيرات كعاملات نسيج، مع استثناء الأكثر جمالاً منهن. (5)

وكانت أجور العمال عينية وتدفع بشكل أسبوعي وهي عبارة عن صوف وحبوب وثياب.

وتشير نصوص ماري إلى وجود تقسيمات لبعض الحرف على شكل قطاعات، فثمة قطاع زابينوم, حيث يضم 13 حداداً. وقطاع موت – راما وبضم أربعة صناع للبّاد. وثمة قطاع يضم 12 صانع معدن، وقطاع يضم خمسة نوتيين. في حين يضم قطاع أنا – إيا – تلاكو، 6 نجارين، ويضم قطاع يدين – تبور – مير ثلاثة عمال لصناعة البيرة.

الجدير ذكره، أن الحياة والنشاط الحرفي في القصر الملكي كان من مهامه الأولى، تأمين حوائج القصر اليومية إن كان في الغذاء أو الثياب أو الأواني وكذلك الهدايا والقرابين والأثاث. (6)

بالإضافة إلى صناعة العربات والجلود⊗ وغيرها.

وفي مجال الصناعات الغذائية ومنتجاتها، تشير نصوص ماري مثلاً إلى أصناف من الطحين، فنهاك الطحين العادي،

⊗ كانت تصنع الأحذية والصنادل العازلة للماء من الجلود المدبوغة، وصنعت الطبول من جلود الأبقار.

وطحين مصنوع من لباب القمح ويدعى ساسقو، وطحين ممتاز ربما هو طحين الشعير، وكذلك طحين البقول الخ...

ويشير الباحث حميدو حمادة إلى وجود تسعة أنواع من البيرة في ماري، كما عثر على مستودعات للثلج في القصر وذلك لتخزين النبيذ. / حميدو 2002/ وثمة وثيقة تأسيسية تعود إلى 1775 ق.م يفتخر فيها زمري ليم بأنه شيّد في ترقا مصنعاً للثلج / بيت الثلج /⊗ .

كما يشير جان بوتيرو إلى أنه استطاع إحصاء ما يزيد على عشرة أنواع من العطور في ماري.(7)

و26 نوعاً من الحلي والمجوهرات و31 نوعاً من أواني الشرب، سواء أباريق أو جرار، وأغلبها كانت على شكل رؤوس حيوانات/ رأس وعل – رأس ثور – رأس غزال – رأس أسد /.

كما استطاع بوتيرو تصنيف 21 نوعاً من الألبسة الداخلية في ماري.

الجدير ذكره هنا، هو أن وثائق ماري أشارت إلى استخدام الستائر وأغطية الأسرّة والبطانيات، كذلك ثمة أغطية للأسرّة يمكن استخدامها على الوجهين، وكذلك وجود ستائر بوجهين.

وقد كان الصوف هو المادة الأولى في صناعة النسيج في ماري، ولم يكن القطن سائداً آنذاك.

وصُبغت الملابس بألوان منها الأرجواني، والأبيض، والأسود والأزرق والأخضر، ولون التفاح ولون الزجاج.(8)

أما عن اللباس عند أهل ماري، فيذكر الباحث علم الدين أبو عاصي إلى أن الجزء الأساسي من اللباس كان ما يشبه الجلباب المصنوع من الجوخ المزين أو من الكتان.

وكان الملك يرتدي ثوباً يلتصق بجسمه، يثبته حزام. ورداء علوي يتم ارتداؤه من جهة الرأس، وأحياناً يرتدي

⊗ جورجيو بوتشيلاني – قرقا – مرجع سابق.

غطاء للكتفين فضفاضاً، ويعتمر على رأسه قلنسـوة تعـرف بالقلنسوة البابلية. [9]

وتشير نصوص ماري إلى أهميـة تفصـيل عمامـة مزينـة بالأحجار الكريمة، أو أرديـة مجهـزة بمشـابك صـغيرة. وفـي مجـال صـناعة الأسـلحة، كانـت مـاري تصـنع الأسـلحة البرونزية ويشير نص من ماري إلى رسـالة مـن زمـري لـيم إل مكانيشوم جاء فيها:

" حالمـا تقـرأ هـذه الرسـالة أصـنع 50 رأس سـهم مـن البرونـز، وزن كـل واحـد 40 غرامـاً، 50 رأس سـهم وزن كـل واحد 24 غرامـاً، 100رأس سـهم وزن كـل واحـد 16 غرامـاً، 200 رأس سـهم وزن كـل واحـد 10 غرامـات، اصـنعها كأفضـلية، وهكذا تنتهـي بسـرعة، يبـدو أن حصـار أنـداريق قـد يـدوم، ولهذا أكتب إليك من أجل هذه السهام " [10]

وفـي تطـور لافـت، أمكـن لورشـات مـاري مـن تحقيـق الوصول إلى معجونة الزجاج، وقد أبانت التنقيبات عن وجود قطعة صغيرة علـى شـكل زهـرة منزّلـة فـي صـحيفة مـن الحجر، حيث حفرت عليها إلهة تستنشق عبير الزهرة. [11]

ويشير الباحث دوران في كتابه الحيـاة فـي مـاري إلـى أن القصر الملكي في ماري كان يمتلك حديقـة للحيوانـات، وكانت تجري في المناسبات والمهرجانات، سباق للخيول، وكان أهل ماري يفضلون الخيول البيض.

وفي مجـال صـناعة الأوانـي مـن المعـادن تقـدم وثـائق ماري العديد من المعطيات، وفـي إحـدى الوثـائق / رسـالة من موكانيشوم إلى الملك زمري ليم يخبره فيها أنه أرسـل له ما يلي:

" وعـاءان للشـرب علـى شـكل رأس ثـور، يـزن الواحـد منهما 650 غراماً.

ثمانية أوعية للشرب على شكل رأس وعل.

وعاء شرب من الذهب الأحمر، يزن حوالي 3 كغ.

وعاء للشــرب فضـي علـى شـكل رأس غـزال ويـزن 200 غ.⊗

وفي إشارة إلى مبلغ تدخّل الملك، حتـى فـي تصـميم صـنع بعـض الأوانـي والأوعيـة فـي القصـر، تشـير وثيقـة / رسـالة مـن ياسـيم – سـومو إلـى موكانيشـوم إلـى أن " الملك أعطى تعليماته له حول زخارف حامل وعاء الشـرب، رؤوس الأسـود، قرون الغزال والأيائل : / IBID.55. /.

وقــدمت وثــائق مــاري، معلومــات عــن وجــود أطبــاء مختصين، في دلالة على وجود وعي صحي كبير سبق أن أشرنا إليه.

وأيضاً هناك الموسـيقيون والمنشـدون والراقصـون، وقـد أشرنا إلى رسالة من زمري لـيم إلـى زوجتـه مـن أجـل أن تختار من ثلاثـين فتـاة، مـن يليـق بهـن أن يكـنّ فـي فرقـة رقص. / حميدو حمادة 2002/.

وتظهر وثائق فترة حكم ماري من قبل يسـمع أدد، عـن وجود مغنيات في ماري، مثل المغنية نارو.

" وكــان يوجــد فــي مــاري مســرحاً، تعــرض عليــه مسرحيات غنائية تحت إشـراف موكانيشـوم، وتـذكر لـوائح التعيينات، موسيقيين وموسـيقيات يتلقـون الطعـام والنبيـذ مـن القصـر، كمـا تفصـح إحـدى الرسـائل عـن موسـيقيين مسافرين مع قوافل " (12) .

وسبق أن أشرنا أيضاً إلـى احتجـاز إيمـار لـرئيس فرقـة موسيقية من ماري مع آلاتهـم، وكـانوا قـادمين بعـد إقامـة حفلـة فـي حلـب، وتـم احتجـازهم حتـى تـدفع مـاري مـا يتوجب من ديون عليها إلى إيمار.

ويشــار أيضاً إلـى وجـود صـناعة للمراكـب فـي مـاري/ إضافة إلى توتول /. كما وتميزت ماري بصنع العربـات أيضـاً. وكانت الخدمة العسكرية مطبقة في مملكة ماري، ويشـير أنــدره بــارو إلــى أن الوثــائق أشــارت إلــى حمــل أحــد

⊗ ARM XI II.8.

المسؤولين العسكريين في ماري، رأس شخص يدعى حانيان، رفض واعترض/ ويبدو أنه هرب/ على الخدمة العسكرية، بحيث جال هذا المسؤول في المملكة ليجعله عبرة لكل معترض أو هارب من الجيش (13).

ويشير دومنيك شاربان إلى أنه في عام 1769 ق.م، تم إجراء إحصاء عام في البلاد / مملكة ماري/، كان الهدف منه مراجعة اللوائح العسكرية⊗ (14)

الجدير ذكره أيضاً هو أنه استخدمت في ماري الإشارات الضوئية لتأمين الاتصالات السريعة في فترات الطوارئ أو الحوادث، ولطلب النجدات وحالات الإنذار بخطب ما.

أما في مجال العلاقات الاجتماعية ونظام المجتمع في ماري، فكنا أشرنا في معرض مناقشتنا لمجتمع ماري في الألف الثالث إلى عدة أمور يبدو أنها بقيت سائدة في الألف الثاني، مع الإشارة أيضاً إلى الطلاق في ماري / كما عند السورين بعامة / آنذاك كان يتم من قبل الزوج وعلامته، اقدام الزوج على خلع معطف زوجته أو تمزيقه بحضور شهود، كما كان للزوجة الحق بالمبادرة بقطع العلاقة الزوجية، بمعنى أن العصمة بيدها.(15)

وقبل أن نختم فصل الحياة اليومية في شقها حول النشاط الحرفي، ينبغي أن نشير إلى ما يقوله المؤرخ الفرنسي جان بوتيرو في مؤلفه "بابل والكتاب المقدس" حيث جاء فيه: " يوجد في ملفي حوالي 80 رقيماً صغيراً، صادرة عن " معطرة " قصر ماري. وقد اكتشفت فيها ليس فقط ميلاً واضحاً لدى هؤلاء الناس القدماء للدهون والعطور، حيث كان يوجد حوالي عشرة أنواع منها بعضها مركّب ودون شك مكلف.

⊗ يشير الباحث ألفرد هالدار في كتابه " العموريون " إلى أن وثائق ماري كشفت على أنه في فترة الفاعلية الآشورية على ماري، تم إجراء إحصاء عام للسكان في ماري من أجل جباية الضرائب.

وقد كان بوسع عطاري قصر ماري، أن يصنعوا منها 600 ليتراً في الشهر على الأقل. ولعل هذه المنتجات المكررة تستخدم لعدد من الاستعمالات الممكنة، الطبية، الدينية، التبرج، نفقات الزوجة وآداب المعاشرة " [16].

شعائر الموت ومعتقداته في ماري العمورية:

على مدى مواقع المشرق العربي، ومع الألف الثالث قبل الميلاد، نلاحظ أن ثمة خطاً واحداً يحكم ذهنية المجتمع المشرقي تجاه الموت. وإن كان ثمة اختلافات بين مدينة وأخرى، فإن هذا يعزى إلى ممكنات البيئة حيث أن ما تقدمه البيئة الطبيعية يحتم مثلاً نوع القبر ومواده، كما أن طبيعة التضاريس تساهم في تعدد ظواهر الدفن لجهة الضريح، من منطقة سهلية إلى جبلية وهكذا.

ولكن الفارق الوحيد بين الجناح الغربي الشامي والجناح الرافدي، هو ظهور ضحايا بشرية في قبور بعض الملوك الرافديين ولا سيما في موقع أور الرافدي والذي يرقى إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد⊗ ، وكذلك موقع كيش.

⊗ حوى موقع مدينة أور في الجنوب الرافدي على مقبرة تشمل 16 قبراً ملكياً، تعود إلى حوالي 2900-2750 ق.م. ونجد في هذه المقبرة وجود ضحايا بشرية / مرافقين/ مع الملك في العالم السفلي.

أما الجناح الشامي فقد خلا من وجود هذه الظاهرة الاستعبادية.

ولعل الخوض في شعائر الموت في ماري ومعتقداته، لا يشذ عن الخط الذهني السائد في الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، بشكله الأساسي.

فالميت يجب أن يدفن، وتجب إقامة الطقوس الجنائزية على روح الميت في يوم الندب، وكنا أشرنا إلى رسالة من حاكم ترقا إلى زمري ليم، يطلب فيها الأول من الثاني، أن يقيم الشعائر الجنائزية لروح والد الملك زمري ليم.

وقد جاء هذا الطلب من الإله دجن بواسطة الكاهن.

كما أن المرفقات الجنائزية واجبة مع الميت، حيث أن اعتقادهم، بأن هناك حياة أخرى في العالم السفلي ولا بد أن تكون المرفقات مع الميت بالإضافة إلى الشراب والغذاء وسكب الماء الدائم.

وكان ثمة يوم يوصف بيوم سكب الماء / يوم القرابين الجنائزية/ يوم الندب / يوم الكآبة / حيث كان يعتقد أن أرواح الموتى تتجمع في ذلك اليوم آن يكون القمر محاقاً.

أما عن طرق الدفن، فهناك الدفن البسيط في التراب، وكذلك الدفن في ضريح ولا سيما للموسرين والأغنياء، بالإضافة إلى مدافن الملوك وأضرحتهم.

وقد شاع في المشرق العربي الدفن في جرار فخارية⊗وقدّم موقع مدينة ماري نماذج لهذا الدفن.

مقابر ماري:

أبانت التنقيبات في ماري عن وجود مقابر تعود للألف الثالث والثاني وكذلك الألف الأول قبل الميلاد.

حيث وصل عدد المرافقين 45 شخصاً للملك المتوفى، وثمة قبر آخر لملك آخر عثر فيه على ثلاث مرافقين، وثمة حفرة حبيرة حوت على 62 ضحية بشرية من بينها نساء.

للمزيد انظر كتابنا – دراسات في حضارات المشرق العربي القديم - مرجع سابق.

⊗ للمزيد انظر كتاب د. نائل حنون – عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة – بغداد 1985.

فأثناء التنقيب في القصر الملكي، كشف في القاعة رقم 1 من القصر الواقع إلى الشرق من القصر الكبير، عن قبر تحت الأرض مبني بالآجر.

ونحن نعلم أن ظاهرة الدفن تحت أرضيات المساكن تعود إلى الألف الثامن قبل الميلاد، ويبدو أن هذه الظاهرة استمرت مع العصور اللاحقة، في مدن المشرق العربي، حيث نجدها أيضاً في إبلا والآلاخ وغيرها.

ويبدو أن هذا القبر يعود لملك من ملوك ماري، حيث أن ملوك ماري في الألف الثالث اهتموا ببيوت " الأبدية ". وقد كشف عن قبور حجرية كبيرة، مبنية من بلاطات كبيرة من الجص ومنسقة بحيث تشكل ملجأين توأمين مسقوفين بكتل ضخمة تحملها دعائم مائلة على شكل خرجة.

وتقع هذه القبور إلى الشمال الشرقي من الكتلة الحمراء.

كما أبانت الكشوفات عن ثلاثة قبور حجرية رائعة من الطراز السابق في قطاع معبد عشتار.

الجدير ذكره أن هذه المجموعات من القبور تعود إلى الألف الثالث.

أما حالات الدفن الشعبي ، لعامة الناس، فقد كان يتم دفن الميت في التراب دون أي وقاية أو تابوت (17) . ويكون محاطاً بطبقة من الجرار الصغيرة، تحوي مرفقات جنائزية للمتوفى.

وفي الألف الثاني، شاع الدفن في الجرار الفخارية في ماري. حيث يتميز هذا الدفن بالبساطة، فتوضع الجثة في حلل من الفخار أو في جرات كبيرة توضع عمودية مع ميل بسيط. وثمة جرار تحوي مرفقات جنائزية للميت.

وقد عثر على جرار فخارية تحمل تزيينات نافرة ومحفورة. ويبدو أحد الأوعية التي تم العثور عليها، وقد حوى مشهداً دينياً حيث نلاحظ أسدين نافرين، ورجل يجلب شاة إلى الإله الجالس على عرشه / كرسي/. ويلاحظ وجود قرنين على جبين الإله.

كما عثر على مقابر حقيقية للأطفال، تضمنت أوانٍ فخارية ذات غطاء متحرك، حيث جُمعت ورُصفت في إحدى الغرف أسفل الجدران.

وقد شُغل موقع مدينة ماري بعد هدمها، ولا سيما في الألف الأول، بالتواجد الآشوري العسكري، حيث أبانت الكشوفات عن أدلة تشير إلى وجود حامية عسكرية، دفنت أمواتها في الباحات الكبرى لما كان يُشكل قصر زمري ليم / الباحة 106-131/.

كما عثر على قبور إلى شرقي الزقورة. وقد قدمت هذه المقابر أدلة عديدة عن ن مط الدفن آنذاك.

فثمة الدفن الشعبي أو البسيط في التراب، حيث توضع الجثة بوضعية منكمشة تُذكر بوضعية الجنين. كما يبدو استمرار الدفن في الجرار الفخارية، حيث توضع الجثة داخل جرتين كبيرتين تكون فوهاتها متقابلة، وتكون الجثة بوضعية انكماش أو مثنية.

وقد تم تحديد اتجاه الجثث نحو اتجاهين فقط ، الأول، شمال- جنوب، والثاني شرق – غرب.

وقد تم الكشف عن مرفقات جنائزية مهمة وغنية في مقابر هذه الفترة، فثمة أوانٍ أنيقة من مسحوق الزجاج اللامع. وعلب ملبس ذات غطاء بالإضافة إلى حبابات وكؤوس وجرار صغيرة وأقداح.

كما تم العثور على علبة ملبس من الألباتر بالإضافة إلى علب خشبية حافظت على وضعها.

وكذلك قطع برونزية، هي عبارة عن أساور وخواتم ومرآة وجعبة مع سهامها الحديدية.

وفي أحد القبور عثر على ثلاث أقنعة لرجال مرد مع زوائد متطاولة تمثل الأذنين، صنعت من مسحوق الزجاج. وثمة ثقوب ثلاثة تمر منها خيوط تثبت القناع على صدر الميت.

الجدير ذكره أن هذه الأقنعة عثر عليها في مواقع أخرى في المشرق ولا سيما في أوغاريت.

أما تعليل وجود هذه الأقنعة، فيقترح بارو أنها تمثّل حارساً شاباً يتجلى فيه توق النفس الإنسانية للهرب من ظلال الموت والبقاء في حالة شابة وحيوية.

بالإضافة إلى هذا، عثر على ثلاثة قبور حوت على قطع ثمينة، مثل أكاليل على شكل ورود من الذهب، طوق من لآلئ من الكورنالين والعنبر المرصع، وعقد من اللآلئ من الكورنالين على شكل رمان بالإضافة إلى حلق ومخازم من الذهب.

ويعتقد أن هذه تخص نساء آشوريات.

وفي فترة الفاعلية الكلدانية/ منتصف الألف الأول قبل الميلاد/ ، عثر في ماري على قبور تمثّل جراراً متقابلة كما في السابق، مع ملاحظة أن وضعية الجثث كانت غير مثنية وعلى ظهرها. مع شحّ في المرفقات الجنائزية.

وفي العصر السلوقي/ القرون الثلاثة الأخيرة من الألف الأول قبل الميلاد وحتى 69 ق.م/ أبانت كشوفات ماري عن قبور تتميز بطراز دفن مميز.

فهنا اختفت عادة الدفن في الجرار المتقابلة، في مقابل العثور على أوعية دفنية كبيرة لها غطاء، وتشبه قشرة الجوز الكبيرة.

كذلك عثر على خوابي عريضة وطويلة، بحيث يوضع فيها الجسد بعد أن يتم قطع قطعة من بطن الخابية كي يتم إدخال الجثمان، ثم بعد ذلك تعاد القطعة إلى مكانها.

وأيضاً أبان التنقيب عن وجود قبر / القبر 420/ يتألف من وعائين من الطين المشوي، حيث ترقد امرأة وعلى صدرها سلة مدورة من القصب المجدول فوق صندوق خشبي.

كما تم العثور على جثث لا تزال ملفوفة بأكفان من القماش أو الجلد تحمي الرأس والساقين.

وقد شملت المرفقات الجنائزية على أباريق فخارية ذات آذان، وأقراط آذان من الفضة وأساور من البرونز مزينة برؤوس أفاعي متقابلة. [18]

هـذا مـن جهـة اللقـى والمعطيـات الدفنيـة. وقـد حـوت نصوص ماري علـى موضـوعات تخـتص بشـعائر المـوت، ولا سيما في مملكة يمحاض/ حلب أو كركميش.

ففي وقائع مراسم دفن الملكـة سـومونابي الحلبيـة أو في مراسـم دفن ملك كركميش إبلاخانـدا، تشـير النصـوص إلى أن تلك المراسـم كانت تجري وفق سرّية / مقدسـة – شبه سرية /، وتعتبر شأناً عائلياً في الحالة الأولى.

ونعتقـد أن هـذا الأمـر ينسـحب علـى شـعائر الـدفن ومراسمه في كافـة مـدن العـالم العمـوري آنـذاك بمـا فيـه مدينة ماري. أما في حال موت الملـك، فـإن الحيـاة العامـة تتوقف كلياً.

ويطلق علـى طقـوس الـدفن اسـم " كيسـبوم " حيـث تجرى في القصر مراسـم الدفن، وتكون على شـكل وليمـة جنائزيـة تحضـرها الآلهـة والعائلـة الملكيـة والأصـدقاء المتميـزون للعائلـة. وقـد يـدعى إليهـا سـفراء مثـل سـفير ماري مثلاً.

ويشـير دوران إلـى أن هـذا المظهـر العـائلي المنزلـي للشـعائر يسـاعد علـى فهـم سـبب وجـود المـدافن فـي البيوت الخاصة. ونحن نعلم أن مسألة الدفن تحـت أرضيات المنازل تعود إلى ثقافة العصر الحجري الحديث وهنـا فهـي اسـتمرارية لهـا، ولـيس فقـط كمـا يـذكر دوران بسـبب الاحتفال الجنائزي العائلي.

أما القرابين الجنائزية فكانت تتضمن حيوانات ميتة حيث كـان يقـدمون " بجـروم " PAGRUM مقابـل مـا يجـري فـي الطقوس العادية من تغذيـة الإلـه بإراقـة دم الحيـوان / رمـز الحياة /.

علماً أن الكلمة البابليـة المقابلـة لكلمـة أضحية هـي: نقوم NIQUM .

بالإضافة إلى ذلك، ثمة وجه آخر لهذه الطقوس يتجلـى في مناجاة أرواح الأسلاف الميتين / الأرواحية/[19] .

مراجع الفصل السادس

1- علـى أبـو عسـاف- دراسـة غيـر منشـورة – مرجـع سابق.

2- ARM I 63.

3- علم الدين أبو عاصي – مرجع سابق.

4- المرجع السابق.

5- J – M.DURAND.LA VIE Á MARI

6- علم الدين أبو عاصي – المرجع السابق.

7- جان بوتيرو – بابل والكتـاب المقـدس – دار كنعـان - دمشق 2000.

8- علم الدين أبو عاصي- مرجع سابق.

9- المرجع السابق.

10- IBID. P.304,353

11- أندره بارو- ماري – مرجع سابق.

12- علم الدين أبو عاصي- مرجع سابق.

13- أندره بارو- ماري- مرجع سابق.

14- D.CHANPIN.HISTOIRE DE MARI

15- فيصل عبد الله – المـرأة فـي يمحـاض – دراسـات تاريخية 27/28– مرجع سابق.

16- جان بوتيرو- مرجع سابق.

17- أندره بارو- ماري- مرجع سابق.

18- المرجع السابق.

19- جان ماري دوران- تـاريخ حلـب فـي بدايـة الألـف الثاني قبل الميلاد من خـلال نصـوص مـاري. دراسـات تاريخية 45-46 / 1993.

الفصل السابع

تدمير مدينة ماري وإنهاء فاعليتها التاريخية

في مقاربة لعوامل سقوط ماري عبر الفاعلية البابلية العسكرية، لا يمكننا إلا أن نعيد هذا الأمر إلى ما اتفقنا عليه في مساق هذا البحث بعامة.

فـالوعي الاتحـادي أو الوحـدوي بـين ممالـك المشـرق العربي العمورية لم يكن قد نضج، وجلّ ما تمّ تحقيقـه بـين الممالك هو عبارة عن تحالفات مصلحية في مواجهة خطـر وجودي ما، وطارئ أيضاً.

لذا فقد وجدنا في مناقشـتنا للواقـع السياسـي سـواء في الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، أن مصلحة المدينة – الدولة، فوق مصالح المـدن والـدول الأخـرى، وهكـذا كنـا أمام صراعات عسكرية/ مصلحية بين تلك المدن الدول.

وهنا في مثال علاقـة مملكـة بابـل مـع مملكـة مـاري، نجـد أن العلاقـة المتبادلـة بينهمـا، كانـت متعـددة الوجـوه، فمن تحالف مصلحي بينهما وكـذلك مملكـة يمحـاض، ضـد خطـر تحـالف إشـنونا وعـيلام، لدرجـة أن الوثـائق تـذكر أن زمري ليم في سنوات حكمه الأولى، ذهب إلى بابل على رأس جيش لنجدتها[⊗]، ثم عن تنظيم ماري لنقل قـوات مـن مملكة يمحاض إلى بابل عبرهـا، وكـذلك حـول مسـاعدات عسـكرية بابليـة لمـاري.. وكـذلك إرسـال قـوات مـن مـاري لبابل في السنة الحادية عشرة من حكم زمري ليم.

ولكن مع كل هذا، تشـي الوثـائق بـأن زمـري لـيم ملـك مـاري، كـان فـي تفكيـره الـدائم، خشـية مـن تعـاظم قـوة مملكة بابل، وذكرنا سابقاً أنه حتى في فترة تعرض مـاري لمجاعة، وسعي حمورابي بابل تقديم المساعدة لها، فإن زمري ليم فضّل أن يشتري ما تحتاجه ماري من إيمار، فـي رفض ضمني لعرض حمورابي بابل ـ وهذا يؤكـد أن العلاقـة بـيم الـرجلين كـان ينتابهـا الكثيـر مـن الشـكوك والحـذر ولا سيما من قبل زمري ليم إضافة إلى أن حمورابي بابل كـان

[⊗] يشير دومينيك شاربان إلى أن نصوص ماري، أظهرت أقدم معاهدة تحالف، بين حمورابي بابل وزمري ليم، حيث يتعهد الطرفان فيها بمحاربة ملك عيلام وبعدم تفرد أي منهما بعقد الصلح معه.
دومينك شاربان – المحفوظات الملكية في ماري. المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية. IFAPO 1989.

يتميـز بـدهاء رجـل الدولـة فضـلاً عـن القـوة المتعاظمـة لمملكته والتي كانت تخشاها ماري⊗.

ولعل مـوت شـمشـي أدد، الملـك الآشـوري، أدى إلـى نقطة انعطاف حاسـمة في معالم تبلـور الفاعليـة التاريخيـة لبابل، واسـتطاع حمـورابي مـن توطيـد علاقـات جيـدة مـع المـدن والممالـك لحـين تمكّنـه مـن تحقيـق مشـروعه السياسـي.

فمـثلاً، نجـد أن حـاكم مدينـة لارسـا الرافديـة، كانـت تربطه علاقة جيدة مع حمـورابي/ وهـذا لـيس فـي مطلـق الأحوال/، وثمة رسـالة في نصوص ماري تشـير إلى أن ريـم سـن حـاكم لارسـا عـرض علـى حمـورابي إقامـة تحـالف بينهما، لكن حمورابي لم يحبذ ذلك، حيث نجـد أن الوثـائق البابلية تشـير إلى جمع حمورابي لجنـده لقتـال ريـم سـن، حيث اسـتطاع احتلال المدينتين لارسا وأور ونقـل كنوزهمـا إلى بابل وقد تم له ذلك في 1763 ق.م.

وفي سـنة 1762 ق.م احتل حمورابي إشـنونا ودمّرها.

ويبدو في هذه الفترة أن العلاقة بين حمـورابي وزمـري ليم بدأت بالتدهور، لا سـيما حين رأى ملك ماري هذا المـدّ العسكري والامتداد القوي لمملكـة بابـل، وتشـير النصـوص إلى رسـالة جوابية من زمري ليم إلى حمورابي، يفهم مـن خلالها أن حمورابي كان يُطلع زمـري لـيم علـى مـا يفعـل، كنوع من الدهاء السياسـي أولاً، وثانياً لتبديد مخاوف زمري ليم، والذي يبدو أن حمورابي كان يمتلكه تصـور واضـح لمـا سـتؤول إليـه أحـوال مملكتـه وهـي فـي ذروة فاعليتهـا التاريخية.

يقول زمري ليم فـي رسـالته الجوابيـة إلـى حمـورابي/ وذلك بعد احتلال إشـنونا/:

⊗ يشير هورست كلينغل إلى أن حمورابي بابل كان المستفيد من تحالفه مع ماري واستطاع تحقيق أكبر المنافع أكثر من استفادة ماري من هذا التحالف.
انظر . حمورابي – ملك بابل وعصره. هورست كلينغل. بغداد 1987

" إذا اعتُرف بك ملكاً على إشنونا، فتكون أنت إذن الحاكم الشرعي، إذا لم يعترف بك ، فنصّب..من هو لديك كي يحكمها "[1] .

الجدير ذكره هنا، هو أن تدمير مدينة توليباش / إشنونا/ تم بتدمير السدود حيث تشير وثائق الأخبار السنوية، البابلية إلى أن حمورابي " ونتيجة الحكمة التي حباه بها مردوخ، قد دمّر توليباش بكميات هائلة من المياه "[2].

ويبدو أن حمورابي وبعد أن حقق سيادة فاعلية مملكته على جنوب وأواسط وادي الرافدين، أخذ يفكر بمناطق الشمال/ عنيتُ منطقة الفرات الأوسط/ حيث بذلك سوف تكتمل فاعلية المملكة في حدّها الأقصى.

ويبدو أن زمري ليم أحس بهذا الخطر القادم حيث أن الجيش البابلي بقوامه المؤلف من 10.000 - 20.000 جندي وبعد أن فرغ من حربه في بلاد يموت بعل، كان يعدّ العدة عبر هذه القوات لاحتلال ماري وبذا سوف يمزق حمورابي عقد التحالف مع مملكة ماري ويوجّه قواته إليها، ويتصادم الجيشان وتسقط ماري محتلة بحيث يعثر على بطاقتين تحملان عبارة " سلة رسائل خدم زمري – ليم " وعلى الوجه الآخر ذكر الشهر والسنة 32 من حكم حمورابي " [3] ما يشير إلى احتلال أو تواجد للجيش البابلي في مدينة ماري.

كما أشارت اللوحات التي عثر عليها في ماري إلى أسماء " جنود بابليين مقيمين في ماري في تلك السنة نفسها/ الثانية والثلاثين من حكم حمورابي /.

ويبدو أنه في هذه السنة قد احتلت ماري من قبل بابل، وبعد سنتين سوف تنتفض ماري، وهنا سوف يلجأ حمورابي إلى تدمير أسوراها وحرقها بالكامل وذلك في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه حيث تشير الوثائق إلى : " بأمر آنو وإنليل دمّر/ حمورابي / سور ماري " .[4] وكان ذلك في حوالي 1760 ق.م.

وبذا تمّ إلحاق ماري وضمّها إلى فاعلية مملكة بابل التاريخية.

في وقت وتبعاً للمتوالية التاريخية، فقد تأسست في ترقا مملكة قوية / حيث كانت ترقا سابقاً تحت سيطرة فاعلية مملكة ماري/ عرفت بمملكة عانا والتي استمرت فاعليتها حتى حوالي 1500ق.م ⊗

الجدير ذكره أن تدمير ماري وإحراقها شمل كافة الأسوار والقصور والمعابد وكافة مآثرها العمرانية والتزيينية، وتم نقل الكنوز المارية إلى بابل [5].

وفي معرض مناقشته لانتهاء فاعلية ماري، يشير الباحث الفرنسي جان كلود مارجرون إلى أن " أفول نجم ماري لم يكن في الحقيقة ناتجاً ببساطة عن الأعمال العسكرية التي قادها حمورابي ضد زمري ليم.

فانتصار حمورابي قد أزال ماري من الساحة الدولية، وما ذلك إلا لأن المدينة لم تعد تمسك بأسس القوة.

فماري أصبحت غنية بصورة أساسية من خلال فرض الضرائب على البضائع العابرة، وعندما خفت كثافة النقل، تناقص بالتالي دخل ماري سريعاً. وهذه النقطة تتيح لنا فهم الدرجة التي وصلت إليها ثروة ماري خلال عهد الشكاناكو / فترة فاعلية مملكة أور الثالثة / لأن عظمة المدينة كانت نتيجة ثروتها " [6].

ولا نعلم هنا، إذا كان ثمة وثائق تؤكد أن كثافة النقل التجاري قد خفّت، ما أدى إلى إضعاف ماري وبالتالي إلى إضعاف ماري وبالتالي سقوطها لقمة سائغة في يد الجيش البابلي.

غير أن آخرين يذكرون أن نصوص ماري، تفيد في أنها تمادت في فرض الرسوم والضرائب على السفن التجارية،

⊗ يشير مارجرون إلى أن ترقا وإن ورثت ماري في قيادة الفرات الأوسط، وأصبحت عاصمة إقليمية، لكنها لم تصل أبداً إلى مستوى ماري في روعتها وسلطانها.

مارجرون – ماري- معرض الآثار السوري – الأوروبي 1996.

لا بل ومضايقتها أيضاً، وهذا ما دفع بحمورابي البابلي إلـى تدميرها. [7]

وهنا أيضاً نفتقد إلى الوثيقة التي تشير إلى ذلك.

وتجـاه كـل هـذا فـنحن نعتقـد أن إنهـاء فاعليـة مـاري التاريخية، ناتج عن معطيات عدة:

أولها: أن ثمة مخطط استراتيجي لـدى حمـورابي، نـابع من اكتمال الفاعلية الاقتصادية – التجاريـة – الاجتماعيـة – السياسـية لمملكة بابل.

وهذا المخطط عبّر عـن نفســه بحيويـة أملتهـا موجبـات حركــة التــاريخ بعامــة. ولا نعتقــد أن بقــاء مملكــة مــاري المســيطرة علــى منطقــة الفـرات الأوســط، ســوف يكـون إيجابياً، تجاه امتداد وثبات وقوة وتعاظم الفاعليـة التاريخيـة للمملكة البابلية.

فشــرط تعـاظم واكتمـال هـذه الفاعليـة كـان إنهـاء دور ماري في منطقة الفـرات الأوســط وهـذا مـا حصـل. فـإذن، احـتلال مـاري كـان هـدفاً سياسـياً آزرتـه القـوة العسـكرية البابلية.

ثانيها: أنه وبالنظر إلى الفاعلية التجارية التي امتلكتهـا مملكــة مــاري، إن كــان عبــر النشــاط التجــاري والعبــور التجاري، وموقعها الاستراتيجي فـي هـذه المنطقـة لجهـة ذلك، فإن المصلحة الاقتصادية والتجاريـة للمملكـة البابليـة كانت تحـتم إنهـاء هـذا الـدور التجـاري لمـاري والـذي كـان محورياً بشـكل أساسـي.

وفـي إشــارة إلـى تجّـذر الـوعي المـديني المصـلحي والذي يحمل أوجهـاً سـلبية، فـإن الملاحـظ لحركـة التـاريخ عند سقوط مـاري، أن ملـك يمحـاض / حمـورابي الحلبـي/ والذي كانت تربطه علاقات جيدة مـع زمـري لـيم، بالإضـافة إلى صلات القرابة بين الأسـرتين الحاكمتين، لم يسـعَ إلـى مسـاعدة مـاري فـي محنتهـا وإنقاذهـا مـن المـدّ البـابلي. ويبـدو أن مصـالح يمحـاض آنـذاك جعلتهـا فـي منـأى عــن

الاصطدام مع الجيش البابلي، رغم أن يمحاض كانت آنـذاك مملكة مهابة وقوية.⊗

ويشير الدكتور فيصل عبد الله إلى ذلك بقوله:

" لم يساعد حمورابي حلب، صهره / زمري ليم / حين دمر حمورابي بابل، ماري، ويبدو أن هذا كـان مقصوداً فـي سياسة ذلك الزمن إذ أن الملك الحلبي الجديد / وهـو ابـن ياريم لـيم / ربمـا كـان يهـتم أكثـر بمنقطـة أعـالي الجزيـرة والفرات، ولا يعنيه خوض حرب قد تكون خاسـرة مـع بابـل " (8).

والذي يبدو أنه بعد سقوط ماري ودمارها، ظهـر مـاريّون في موقع مدينـة عانـة علـى الفـرات، وقـد أظهـرت وثائقهـا أسماء لملوك صغار قد يكونون من ماري حيـث نجـد إيشـار ليم – إيكيش دجن.

الجدير ذكره أن يخدون ليم كان " ملك ماري وعانة فـي آن واحد " (9).

كما وفي نفس هذا المنحى يشير جورجيو بوتشيلاني إلى أنه ربما يكون زمري لـيم وعائلتـه متحـدرين مـن ترقـا، وعليه ربما أنه وبعد دمار ماري عادت العائلة المتبقيـة إلـى موطنها الأصلي في ترقا. (10)

وإن كان ماري قد تهدمت وأحرقـت، غيـر أن الـذي يبـدو هـو حصـول اسـتمرارية بسـيطة فـي موقعهـا فالباحثـة مارغريـت يـون تشـير إلـى أن العلاقـة بـين منطقـة مـاري والساحل المشرقي لم تنته بانتهاء ماري، حيـث عثـر فـي أوغاريت على نص مسـماري يعـود إلـى حـوالي 1300 ق.م يرد فيه اسـم مـاري. (11) وتشـير آنـي كوربيـه فـي معـرض مناقشتها لعلاقات بين ماري وأوغاريـت فـي القـرن الثالـث عشر قبل الميلاد إلى أن هذه الفترة تشهد تواجداً آشـورياً

⊗ عند سقوط ماري بدأ تفكير حمورابي حلب يتجه نحو التغلغل في مناطق الخابور وسنجار التي كانت تحت سيطرة ماري سابقاً/ فاروق اسماعيل – دراسات تاريخية 45-46 /.

في ماري، حيث كانت منفتحة تجارياً مع بابل وآشور مع بقائها متأثرة بإبداعات أوغاريت.

وتشير إلى أوان طينية خزفية وحيدة اللون، صنعت من طينة السيليس عبر قالب وجعل عليها طبقة خزفية واحدة ملونة بالنحاس ومتدرجة الألوان من السماوي وحتى الأزرق القاتم.

وتشير هذه الباحثة إلى أنها ترقى إلى العصر البرونزي الحديث / 1600-1200 ق.م / وانتشرت مثل هذه الأواني في عدة مواقع مشرقية، من الشاطئ السوري / أوغاريت/ وحتى الفرات الأوسط / إيمار- ماري – بلاد آشور – أور – أوروك – تل الرماح /.

وتصل الباحثة إلى أن إبداعات الحضارة المادية دلت على العلاقة بين أوغاريت وماري في القرن الثالث عشر قبل الميلاد [12].

وبعد،

فكما كان اكتمال الفاعلية الأكادية التاريخية يستوجب تدمير إبلا، كذلك فإن اكتمال فاعلية بابل، كان من إشراطاته تدمير الفاعلية التاريخية لماري.

ويبدو أن المشرق العربي عبر تاريخه آنذاك لم يكن ليصل إلى تحقيق وعيه الاتحادي الذي كان قميناً في حال توفره، أن يغيّر وجه التاريخ بأكثر مما غيّر . واستمرت فاعلية مملكة بابل حتى 1595 ق.م حيث سقطت فاعليتها بفعل الهجوم الحثي بقيادة ملكهم مورشيلي الأول.

مراجع الفصل السابع

1- توفيق سليمان – دراسات في حضارات غرب آسية القديمة – مرجع سابق.
2- هورست كلينغل – حمورابي – بغداد – 1987.
3- أندره بارو – ماري – مرجع سابق.

4- هورست كلينغل – مرجع سابق.
5- جان كلود مارجرون – ماري – معرض الآثار السوري الأوروبي – 1996.
6- مارجرون – الوثائق الأثرية السورية – مرجع سابق.
7- قاسم طوير – آثار حوض الفرات – الحوليات الأثرية السوري 34.
8- فيصل عبد الله – دور السلالة الحلبية – الحوليات الأثرية – مرجع سابق.
9- أندره بارو – ماري – مرجع سابق.
10- جورجيو بوتشيلاني – ترقا – أضواء جديدة على تاريخ آثار بلاد الشام – مرجع سابق.
11- مارغريت يون – أوغاريت وماري – الحوليات الأثرية السورية مجلد 34.
12- آني كوربيه – أوغاريت وماري – المرجع السابق.

الملاحق

الملحق الأول:

ثبت بأسماء ملوك مدينة ماري في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد :

الألف الثالث قبل الميلاد:

- بين 2900 ق.م – 2600ق.م، حكم ماري ستة ملوك / وربما غيرهم / لمدة 136 عاماً . وأولهم : أنسود – الخمسة الآخرون كان النص مشوهاً فلم يتم تحديد أسمائهم.
- بين 2600-2350 ق.م: حَكم ماري عدد من الملوك هم :
  1. إيكوشمش
  2. سوم
  3. إيشتوب شار
  4. إيبلول إيل
  5. نيزي
  6. إنا دجن
  7. لمجي ماري
  8. إيكو شماكان
  9. حيدار
- وفي الفترة بين 2266-2008 ق.م: حَكم ماري:
  1. يوديش
  2. شو دجن ولده
  3. يشمع دجن
  4. نور مير ولده

5. يشدب إيل أخوه
6. يشكن أدد
7. آبيل / آخل كين ولد يشمع دجن /
8. يدين آيل ولده
9. يلي يشا أخوه
10. ترام دجن
11. بوزو عشتار ولده
12. هتلال آرْزا ولده
13. هانون دجن ولده ⊗

وبين فترة 2015-1920 ق.م، ربما كان هناك سبعة حكّام في ماري ⊗⊗

وفي الفاعلية العمورية لماري مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، حَكم ماري:

1. يجيد ليم
2. يخدون ليم
3. سومو يمام
4. يسمع أدد
5. زمري ليم

الملحق الثاني :

وثائق / رسائل عن الزواج السياسي بين العائلتين الملكيتين في ماري وحلب ⊗

⊗ اقترح هذا الثبت لهؤلاء الحكام الدكتور جان ماري دوران، وتمّ نشره في كتاب الدكتور علي أبو عساف – فنون الممالك القديمة في سوريا – دار شمأل – 1993 . دمشق.

⊗⊗ المرجع السابق – أبو عساف.

⊗ استندنا في مواد هذا الملحق على بحث الدكتور فيصل عبد الله في الندوة العالمية حول " تاريخ سورية والشرق الأدنى القديم " 1992. والذي نشر في مجلة دراسات تاريخية 46/45 1993/ حزيران.

زمري ليم – شيبتو ابنة ياريم ليم :

ترجم هذه الوثائق الدكتور جان ماري دوران عن الأكادية – المارية. وقد نقلها الدكتور فيصل عبد الله، مستعيناً بترجمة الباحث الفرنسي.

عدد الرسائل ، سبع. وكانت موجهة من وفد ماري إلى الملك زمري ليم في ماري. حيث وردته من مدينة حلب وإيمار.

مرسل الرسائل هو أصدقوم ومعاونه ريشييا.

وتصنف الرسائل وفق مواضيعها على الشكل التالي:

1. رسالة من حلب إلى ماري: تتعلق بمراسم الزواج التي تمت بعد موافقة ملك حلب ياريم ليم، وقبل موت الملكة الأم سومو نابي.
2. رسالة من حلب أيضاً: تتحدث عن زيارة المبعوثين لبلاد يمحاض في فترة مرض الملكة الأم سومونابي.
3. رسالة من حلب: تتحدث عن أنباء لمشاركة الوفد بحل بعض الخلافات في منطقة حلب.
4. رسالة من حلب: تتعلق بمكان إقامة العروس / شيبتو / في ماري.
5. رسالة من حلب: وفيها أن أحد أعضاء الوفد واسمه ساميتار، يعترض على اختيار موعد انطلاق موكب العروس في شدة الحر ويقترح التريث لانتهائه، وانتهاء فيضان الفرات.
6. رسالة من إيمار: تتحدث عن وصول الموكب إلى إيمار، ويتوقعون وصولهم إلى ماري خلال أيام.
7. رسالة بالقرب من ماري: حيث وصول الموكب إلى مناطق قريبة من ماري تبدأ من زبناتوم ثم ترقان وإلى صبروم فماري.

واستطاع الباحث دوران أن يقّدر زمن انطلاق المهمة المارية إلى حلب بين 15 كانون الأول و15كانون الثاني.

وذلك تحاشياً لاشتداد البرودة، كما بالنظر إلى مناسبة الملاحة الجيدة في حوض الفرات.

ويبدو أن رحلة العودة من حلب إلى ماري بدأت في شهر أيلول وفي مطلعه. كما أن إقامة البعثة في حلب استغرقت حوالي تسعة أشهر.

ويعتقد أن وصول موكب العروس إلى ماري حصل في بداية السنة الثانية من حكم زمري ليم.

الرسالة الأولى من ريشييا إلى زمري ليم:

" الوصول إلى حلب وبدء مفاوضات الزواج..

قل إلى مولاي
هكذا (تحدث) ريشييا
خادمك:
موكب (حملة) مولاي، سالمة،
5 وصلت، والملك (ياريم ليم) كان مسرور جداً.
الأوامر، لأصقدوم
وإليّ بالذات، التي وجهها مولاي،
قد عرضت أمام شمروم (وزير البلاط الحلبي).
أوامر مولاي..
10 قد أثلجت (صدر) شمروم.
وموضوعنا، أمام الملك ياريم ليم
بالذات سيعرضه شمروم،
(ويفصل له) موضوع أوامر مولانا.
15 ويشير علينا بما يلزم
شمروم أمام الملك،
شارحاً (بالتفصيل).
ثانياً، شمروم،
قال لنا ما يلي:
20 " ما لمولاي، والمغنية
التي كتبت له عنها، لم يرسلها ! " (مغنية من ماري تدعى كارانا توم)

الآن ، يوم، اللوحة (الرسالة) هذه
يسمعها مولاي،
المغنية كاراناتوم
على بغل لياسيم دجن
25 أو لآخرين ليركبوها
وفي اليوم التالي لوصول لوحتي (رسالتي)
هذه.
فلتغادر، لتصل بسرعة.
هذا لكي:
30 يتمكن شمروم من
عرض الموضوع أمام
الملك.
كي تصل هذه المغنية،
ليبذل مولاي كل جهده..

الرسالة الثانية: من أصقدوم وريشيبا إلى زمري ليم:

" مرض الملكة الأم الحلبية وتعثر المفاوضات بسبب ذلك "
قل لمولانا ما يلي:
هكذا تحدث أصقدوم
ريشيبا
خادماك:
5 ياريم – ليم:
أحاطنا علماً بالموضوع، كما يلي:
لقد أحضرتم المقدّم – ببلوم
ولكن أمي مريضة
وأخشى من حدوث مأتم
10 في قصري
وقربت أيامكم (يوم رحيلكم).
ولهذا وبسرعة
قد سلمنا المقدم – ببلوم

الذي حمّلنا إياه مولانا.
ووضعنا الحجاب على رأس العروس
وبعد ثلاثة أيام
من تقديمنا المقدم – ببلوم
فإن سومو نابي
قد لاقت مصيرها.
20 الملك ياريم ليم
بوساطة طب بلاطي، / الوزير الثاني في بلاط حلب /
قد أحاطنا علماً كما يلي:
اذهبوا، فمدني القوية
وقصوري، شاهدوها كلها.
25 نحن
تساءلنا
وكتبنا للملك ما يلي
" لماذا بعث لنا مولانا
هذه الأسطر :
30 " هذه مدني القوية، قصوري
شاهدوها كلها ! "
هذا ما كان جوابنا
ثم كتبنا له ما يلي:
أليست السيدة سومونابي
35 مولاتنا ! إذا لم يكن
لنا مقعدنا بجانب مولانا
فإن هذا الأمر سيسمع في ماري !
وزيادة على ذلك مجلس خدم
ابنك معنا
إلى هنا، لا جواب!
40 وهو قد اكتفى بإعادة خدمه قائلين:
" ألم تروا بلادي.."
اذهبوا ! . قلت

....
....
....
....
في قصر مولانا
55 ومن ممتلكاته، 20 نمريقاً أو
مزهرية مذهبة
ليرسلها لنا، لتودع في النهاية
في قن (أو مستودع)
مولانا .

الرسالة الثالثة: من أصقدوم وريشيبا إلى زمري ليم :

(تذكر الرسالة الهدايا المرسلة من قصر ماري إلى قصر حلب).

إلى مولانا
قل ما يلي:
2 هكذا تكلم أصقدوم
4 وريشيبا
خادماك
6 كما أن " الملكة " سومونابي
قد ماتت، فإن ياريم ليم
8 قد قال لنا ما يلي:
" ريثما ينتهي هذا المأتم
10 اذهبوا إلى وسط (لب) بلادي
وشاهدوها " خمسة عشر يوماً
12 في أوساط بلاده
ونحن نتجول
14 ثم عدنا

ومنذ أن عدنا فإن الخرفان الأولى
16 أضحية البنت (بنت ياريم ليم)
المتبقية
18 وكذلك ما تبقى من خرفان
كانت لدي،
20 قد قمت بتحضيرها
خام واحد من الذهب (وزنه)
6 وزنات (ثقل)
22 ثوب واحد (ساكوم) وثوب
قماش " نوع أول " 5 أثواب
قماشية خشنة نوع 2 واحد
وعشرون ثوباً عادياً
24 ومائتا خروف (تيشاني)
وخرفان "بإلية " أو طيور
26 إلى ياريم ليم
ثوب واحد رقيق، وشكلتان
ذهبيتان وزنهما (ثقلان) .
28 وشكلتان ذهبيتان بثقل واحد
وعشرون خروفاً إلى السيدة
جاشيرا
30 ثوب واحد من نوع (مراتو) وأربع
شكلات ذهبيات بثقلين،
إلى البنت شيبتو
32 الهدايا الأولى وكذلك
الثانية، قد وفت (بالأمر).
34 ياريم ليم،
وجهه كان مشرقاً جداً.
36 وقال
هداياك التي أمامي ماذا أعمل بها ؟
حتى الآن الملوك لم يكونوا هنا
38 أما الآن

فإن حكام البلاد قد اجتمعوا
اجتمعوا كلهم
40 من أجل هذا فإن ياريم ليم
كان مسرور جداً
وبعد الأضحى (خيارى)
42 وألحّ على ذلك
وبسرعة سنغادر
فالأمر قد تم

الرسالة الرابعة: تتحدث عن حل خلاف في يمحاض شارك به ممثلا زمري ليم[⊗]

الرسالة الخامسة : من أصقدوم إلى زمري ليم
(حول مكان إقامة العروس):
2 إلى مولاي
قل:
هكذا تكلم أصقدوم
خادمك:
ياريم ليم
6 قد أحاطني علماً بما يلي:
غالباً ما سمعت
8 أن آلهة القصر
(حاضرة) قوية
10 فأين ستوضع
أغراض ابنتي !
12 أجبته بيت ابنتك
سيكون جميلاً !
14 فقال: أغراض ابنتي

[⊗] يمكن الرجوع إليها في مجلة دراسات تاريخية – د. فيصل عبد الله – رسائل جديدة عن تاريخ حلب وشمال سورية في القرن 18 ق.م 1993/46/45.

لتوضع في بيتها .
16 ولتعش ابنتي مع زوجها،
ومن خمسة إلى ستة أيام
18 لتترك قصرها
للعدة (مدة الدورة الشهرية)
20 والآن، ليأمر مولاي
ويختار بيتاً لابنته (لابنة ياريم ليم).
ولينسقه (ينظمه)
كيما، خدمه
24 الذين سيأتون معي
يرونه، وإلى مولاهم
26 يرفعون تقريراً
والآن ما سمعته من فم ياريم ليم
28 إلى مولاي
قد كتبته، فليتفكر مولاي
30 بمسكن البنت هذه
لنستقر على خيار
32 ثانياً، والآن..
....
....
....
....
40 .. لنعد ....
فيما يتعلق بالحمالين (للكراسي)
42 الذين كتبت له عنهم
ليرسلهم لي مولاي
44 كيما، وقبل سفري
أتمكن من ترتيب هذا البيت

الرسالة السادسة: من مساميتار إلى زمري ليم
(عن حالة الطقس وموعد رحلة موكب العرس من حلب إلى ماري) :

إلى مولاي
2 قل (ما يلي):
هكذا تكلم مساميتار
4 خادمك
فيما يتعلق بالموكب الذي
سيقوده أصقدوم
6 ويؤمن سلامة مولاتي
سمعت أن كثيراً من النساء
8 سيذهبن مع مولاتي
والنساء اللواتي سيذهبن هن
ناعمات
10 والطريق هذه، مدبرة، وقفراء،
وما من أحد يرتحل في مثل هذه
الأيام.
12 إنها أيام خطرة
وأخشى بسبب العطش
14 أن تتضرر نفوس أو
أي شيء آخر.
16 مما سيندم عليه
مولاي . في هذا الشهر
18 ما من أحد يسلك هذا الدرب
ففي الربيع أو الخريف
20 تُسلك هذه الدرب.
الدرب في هذا الشهر ليست
22 سالكة . هذا الشهر
بعد خمسة أيام سينتهي
24 وفي اشهر القادم وفي إيجي كور،
في اليوم العاشر إذا لم يكن في اليوم الخامس

26 فالأيام ستبرد، والفرات
سيبدأ فيضانه، والرحلة مناسبة
28 " نص مهشّم "
....
....
....
....
35 ....
كخادم
36 إلى مولاي
قد كتبت
38 وليتساءل مولاي (ويتفكر)
وليتصرف بسلطانه !

الرسالة السابعة: من أصقدوم وريشيا إلى زمري ليم

" الموكب تجاوز إيمار وعلى مشارف ماري " :
إلى مولانا
2 قل ما يلي:
هكذا تكلم أصقدوم
4 وريشيا
خادماك
6 هذا الرقم / الرسالة / من إيمار
أرسلناها إلى مولانا، في اليوم
العاشر
8 وسنصل ماري بعد تسعة أيام !
2 آ .. كما يرى ويصطحب إخوته
ثانياً أوامر مولانا
4 آ لتصدر لنا، فيما إذا كانت

البنت (العروس) ستطلع
6 آ إلى دور يخدون ليم أو
إلى مدينة ساجاراتوم
8 آ إلى قصر ترقا أو أي قصر
آخر ..
ساع، أو مراسل سريع
10 آيجب أن يصل
12 آ إلينا بسرعة
كي نتدبر الأمر .

الرسالة الثامنة : من سوموخادو إلى زمري ليم

" استقبال شيبتو في دور يخدون ليم من قبل أحد موظفي زمري ليم المدعو سومو خادو"

إلى مولاي قل ما يلي:
2 هكذا تكلم سومو خادو
خادمك
4 هذا الرقم من دور يخدون ليم
قد أرسلته إلى مولاي
6 في هذا اليوم، مولاتي
إلى دور يخدون ليم، مساء
8 ستصل
فقد كتب إلى أصقدوم
10 وجبة طعام لمولاتنا
وجماعة العرس، أحضرها من
12 دور يخدون ليم، إلى تيلازيبوم
وبما أنني لم أوافق
14 فقد أدخلت مولاتي
إلى دور يخدون ليم
16 الركب
في " مدينة " جانيباتوم
18 قد انتظر

وبما أن، شاتمنى في مدينة خوران
20 فقد خشيت
من بني يمين ولم أرسلهم
22 إلى جانيبام توم
انطلاقاً من خوران. الركب
24 سيركب. يوم في دور يخدون ليم
ستبيت، ويومها الثاني
26 في ريبنا توم، وفي ثالث
يوم في ترقا
28 وفي اليوم الرابع
إلى صبروم ستصل
30 وستبيت في صبروم
وستنهض في اليوم الخامس
32 حيث ستدخل إلى ماري
في الظلام. وهكذا .. !
....
....

الملحق الثالث :

وثيقة / رسالة من الملك زمري ليم إلى ملك حلب / يمحاض، ياريم ليم [⊗]

1. إلى ياريم ليم
2. يقول،
3. هكذا زمري – ليم
4. ولدك:
5. بخصوص الساقي ؟ أنت كتبت لي كما يلي:
6. هكذا أنت (تقول): " هذا الرجل
7. رافق من حاصور الفضة والذهب و
8. الأحجار الكريمة وذهب
9. إليك. و (لذلك) الحاصوري

[⊗] وثيقة من مجموعة وثائق اقتصادية نشرها جان بوتيرو في المجلد السابع من سلسلة منشورات أرشيف ماري الملكي ARM VII ووردت في كتاب الأستاذ علم الدين أبو عاصي. اقتصاد مملكة ماري – وزارة الثقافة السورية 2002

10. أوقف الحمير والرجال الذين
11. حضروا من أجل التجارة، قال كما يلي: الساقي (؟)
12. رافق الفضة والذهب و
13. الأحجار الكريمة وذهب إلى
14. زمري – ليم " هذا ما كتبت لي.
15. بدون شك هذا الرجل
16. لم يُحضر
17. إليَّ أية
18. فضة أو ذهباً أو أحجاراً كريمة
19. عند إيمار ذلك الرجل
20. قبض عليه وسُرق
21. كلياً، سلب كل ذلك الذي
22. حمله. الخاتم
23. الذي اشتراه الرجل بالمال
24. أخذ أيضاً، حقاً ، هذا(الرجل) لينقذ
25. حياته، هرب
26. إليّ. الآن والدي، بخصوص ذلك الرجل

.....(12 سطراً مهشماً)

أرجو أن يُكتب إلى إيمار

وأن يُعطى والدي ممتلكات هذا الرجل

* * *

وثيقة / رسالة من مبتو / مسؤول في القصر الملكي في ماري إلى زمري ليم الملك/

1. إلى سيدي
2. يقول
3. هكذا (تكلم) مبتو،
4. خادمك

5. فيما سبق، عن فقدان التصدير من القصر
6. وعن حاجة القصدير في القصر، من فم سيدي سمعت
7. (تكلم)
8. والآن، حالياً
9. 29 حماراً و44 متاجراً (مهرباً) بالبرونز
10. يحملون القصدير
11. وصلوا هنا من أشنونة
12. سيّرتهم
13. إلى سيدي
14. إذا كان سيدي بالقصدير
15. يرغب، ليقول لرئيس التجار
16. ليقوم
17. رئيس التجار بالبحث عن القصدير
18. وإلاّ، إن سيدي لملاقاة الحمير
19. إما باتجاه خيدان أو باتجاه دير
20. يرسل مفتشين
21. لنقل القصدير
22. لكي لا نتقل القصدير ليد أخرى
23. مختلف قصديرهم
24. صادرت ولكن لم أختمه،
25. بخصوص الرسائل بحثت عنها
26. قلت في نفسي : " ربما
27. أخفوا عبر مكان ما الرسائل .."
28. المنطقة على أحسن حال.



مملكة ماري في عهد زمري ليم

1782 ـ 1759 ق.م

المتغيرات الإقليمية في المشرق العربي في عهد زمري ليم⊗: 1782ق.م ـ 1759 ق.م

مع تراجع فاعلية المملكة الآشورية، أصبح المشرق العربي أمام صعود لفاعليات تاريخية جديدة، فبابل بدأت بقيادة حمورابي في التعبير عن اكتمال فاعليتها ونموها، وإشنونا ولارسا ويمحاض وماري وقطنة. ويتجلى الوضع السياسي آنذاك موثقاً في رسالة من إتور ـ أسدو، حاكم ناحور إلى زمري ليم حيث يقول: " لا يوجد ملك واحد قوي حقاً بمفرده: ثمة عشر (أو) خمسة عشر ملكاً يسيرون في ركاب حمورابي ملك بابل، ومثلهم في ركاب ريم ـ سن ملك لارسا، ومثلهم في ركاب إيبال ـ بي ـ إيل ملك إشنونا، ومثلهم في ركاب أموت ـ بي ـ إيل ملك قطنة، وعشرون ملكاً يتبعون ياريم ـ ليم ملك يمحاض ".[1]

إذن كان على زمري ليم، ملك ماري، أن يسعى لإيجاد فاعلية لمملكته وسط هذا الواقع المفكك والذي لا يمكن من تحقيقها ما لم يوطد شؤون المدينة ومجالها الحيوي.

⊗ تختلف الآراء بين الباحثين حول تأريخ استلام زمري ليم لحكم ماري، فبعضهم يؤرخ ذلك على حوالي 1782 ق.م، في حين يعيده آخرون إلى 1775 ق.م ويعتبر عهده من أفضل العهود لجهة الغزارة في وجود سجلات كتابية تختص بتلك الفترة. وهذا ينسحب على فترة انتهاء فاعلية مملكة ماري بين 1759 ق.م، أو 1761 ق.م.

وكرجل دولة، نلحظ أن زمري ليم استطاع استيعاب حركة التاريخ آنذاك، عبر صراع المصالح بين المدن . الدول تلك. وكون أن منطقة الخابور الأعلى كانت دائماً محط أنظار زمري ليم، فقد سعى إلى احتوائها تحت فاعليته.⊗⊗

" كما أن بنو يمين / البنياميين /، ساءت علاقتهم معه، وتتحدث المعطيات الآثارية والوثائقية إلى رسالة، من أمير سمانم البنياميني إلى إيمار، يستنجد بها ضد زمري ليم.

ويبدو أن إيمار وتوتول وقفتا إلى جانب عشائر البنيامين ضد زمري ليم حفاظاً على مصالحهما التجارية واتقاء لشرّهم حيث رغبوا بالسيطرة على هاتين المدينتين حتى يستطيعوا مقاومة ماري وربما حلب.

والذي يبدو أن إيمار وتوتول وبسبب كونهما مدينتين تجاريتين، لم تستمرا في تأييد البنياميين، ولم ترسلا قواتاً معهم ضد زمري ليم، لا بل ان بحارة إيمار ابلغوا ماري عن استعداد البنياميين لشن هجوم على ماري، ويبدو أن الصراع حُسم لصالح ماري واكتفت المدينتان بأن منحتا اللجوء لفلول الجيش البنياميني "(2)

⊗⊗ تشير المعطيات إلى أن منطقة أعالي الجزيرة والفرات كانت مجال الصراع للسيطرة بين ماري ويمحاض - فيصل عبد الله - 1999 .

وعبر كل هذا استطاع زمري ليم من ايجاد التفاهم بين ماري والبنياميين طبقاً لاستراتيجيته.

وتشير وثيقة إلى أن أفراد من بني يمين حجزوا قمحاً لماري، وقد جرت محادثات بين ماري وإيمار والبنياميين لحل هذه المسألة.[3] وفي النهاية يبدو أن البنياميين أقاموا في مملكة ماري وقد حظي شيخهم سموا . دابي بالمكانة الخاصة عند زمري ليم.

ويبدو أن أخطر ما كان يواجه ماري هو مدينة إشنونا المتحالفة مع عيلام، وهذا ما استطاع مجابهته عبر إنشاء تحالف بين ماري ويمحاض وبابل ضد إشنونا وعيلام وأنداريق.

ففي النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، " كان سكان الهلال الخصيب من القبائل حضراً وبدواً. والبدو هم الأكثر، وتقوم بيئتهم على الارتحال وتخليف المنازل والرسوم، فيتشتت شمل القبيلة الواحدة، أو يجتمع، فتصبح قوة سياسية وتكتسح غيرها، أو تبني لها كياناً سياسياً في منطقة خلاء ... وكان الكنعانيون/ العموريون ينقسمون إلى قبائل مستقل بعضها عن بعض، ظهرت على أشكال ممالك كانت تتحالف واحدة مع الأخرى أو مع أكثر من واحدة أحياناً ضد مملكة أخرى أو مجموعة ممالك.

وكان أبناء القبيلة الواحدة يتوزعون بين الحضر والبدو، وتنشأ بينهم النزاعات على السلطة فينقسمون على أنفسهم أو يخضعون لغيرهم. والنزعة إلى الانفصال والإستقلال كانت قوية، وإلا لما انقسموا إلى ممالك صغيرة وكبيرة. كثيرة العدد. / علي أبو عساف 1993 /.

الجدير ذكره أيضاً، هو أن كل مملكة مشرقية، كانت تسعى إلى توسيع نفوذها وتحقيق وجودها، فإن كانت يمحاض في عهد ياريم ليم قد امتد نفوذها إلى منطقة شرق دجلة / ديرو دينكتوم /، وهذا ما سبّب إحساس إشنونا بالخطر.

في وقت كان حمورابي يوطد مملكته عبر احتلاله لأوروك وإيسن ولارسا. وتشير المعطيات أيضاً إلى محاربته لإشنونا متحالفاً مع ماري.

وكنا أشرنا في سياق عهد يخدون ليم إلى وجود تحالفان في منطقة الفرات الأوسط، حيث كان الأول يضّم:

ايمار . أباتم . توتول . سمانم.

والثاني: ترقا . ماري . سكاراتوم.

وكان هذان الحلفان متناوأن، والذي يبدو الآن في عصر زمري ليم أن التفاهم قد حصل بين الحلفين.

ويشير د. فاروق اسماعيل إلى عدة إمارات خضعت لفاعلية ماري في عهد زمري ليم، متواجدة في منطقة مثلث الخابور وهي: شوباط انليل . إيلان صورا . كخت . أوشنكوم . ناحور وغيرها.[4]

والجدير ذكره أن احتواء هذه الإمارات جرى بالتدريج وبأشكال مباشرة وغير مباشرة.

وفي منطقة جبل سنجار وبلاد يموت ظهرت ممالك قوية مثل: كردا / بلد سنجار. / قطارا / تل الرماح. كرنا / تل عتر . أندريق / تل خوشي / . ألخد / تل هذيل / . رزاما وغيرها.

ويشير الباحث إلى أن زمري ليم ترك إدارة هذه الممالك الإمارات لحكامها المحليين ولكن كان له في معظمها، رسل أو مندوبون مراقبون، أو حاميات عسكرية لترعى مصالح ماري.

كما كان يتدخل في شؤونها عند بروز خطر داخلي يمس سيادته فيها، كما يشارك في الدفاع عنها عند التعرض لهجوم خارجي، ويسهم في حل الخلافات بينها أحياناً. وكان لا يلجأ إلى الاحتلال الكامل إلا عندما يكون ذلك مبرراً.

ويلحظ د. اسماعيل في مقاربته لشخصية زمري ليم:

أن موقفه هذا معبر عن حكمته، إذ لم يكن يرغب الحكم بالقوة ولا يريد خلق أعداء له وهو في بداية عهده، بل كان يسعى

إلى إرضاء سكان المنطقة وبالتالي تحقيق شيء من الوحدة فيها.[5]

ويبدو وأنه في السنة الثالثة من حكم زمري ليم، تعرضت منطقة مثلث الخابور لغزو من إشنونا، حيث احتلت قوات إشنونا/ ملكها ايبال . بي . إيل /، شوباط انليل وتمكّن من قتل حاكمها. وتحرك هذا الجيش نحو ماري.

وتشير وثيقة / رسالة من زمري ليم إلى خنتورابي / ملك كرنا / إلى موقفه من هذا الهجوم وحاجته لقوات دعم:

" لقد كتبتُ إليك مرات طالباً امدادات عسكرية، ولكن طالما أن قواتك لم تصل، فسوف أقتلع أظفار حاكم إشنونا من قلب مقاطعتي بقواتي الخاصة وسأمزقه كي لا يعود إلى مقاطعتي مرة أخرى ".[6]

وهذا ما يشير إليه الباحث حميدو حماده من أن زمري ليم " لم يحاول فرض هيمنته على أي منطقة نائية عن بلاده، بل اكتفى بالاعتماد على ملوك أتباع كان يدعمهم وفي الوقت نفسه، ويرصد تحركاتهم بواسطة مبعوثيه وقواد جيشه ".[7] وقد سعى زمري ليم إلى تزويج بناته الإحدى عشر زيجات دبلوماسية ولغايات سياسية مع حكام مدن مملكته وكبار ضباطه . وبشكل عام، يبدو أن فاعلية مملكة ماري في عهد زمري ليم امتدت من

توتول على مصب البليخ، إلى بلاد خانه على الفرات جنوباً وحول مجرى الخابور شمالاً. وامتلكت حدوداً مشتركة مع مملكة قطنة ترافقت مع الطريق التجاري عبر البادية الشامية.

فإذن، كان الوضع السياسي، مهماً لزمري ليم والذي استطاع من خلاله ومن خلال دراسة أحواله، أن يسعى إلى ايجاد موطئ قدم لمملكته بين ممالك تلك الفترة.

كما أن الواقع التجاري والزراعي فرض نفسه مع الواقع الاقتصادي من أجل ازدهار ماري.

فكما هو معلوم أن ماري تتواجد في بيئة شبه صحراوية، والمعطيات الطقسية المناخية، تشير إلى أن الأيام الممطرة لا تزيد عن 40 يوماً في السنة، أما الجفاف فيشمل من شهر أيار حتى تشرين الأول.

ولهذا كان على إدارة ماري وبشكل دائم من أن تسيطر على احوال البيئة الطبيعية وتجعلها مطواعة لحاجاتها، وهذا ما شهدناه في المنشآت الملاحية وعالم الري، والأقنية سواء، تلك المستخدمة للشرب أو للري الصناعي كما استطاعت استثمار الأراضي الصالحة للزراعة في وديان الخابور والفرات.

ويشير كاي كولماير إلى أن الأراضي الزراعية المحيطة بماري، شكّلت قاعدة اقتصادية زراعية لها.[8]

لذا فإن نظرة ماري إلى مجالها الحيوي بالاضافة إلى أهمية الفرات شكّلت رافعتان أساسيتان في ازدهارها، الأول في المنحى الاقتصادي . الزراعي والثاني في المنحى التجاري.

وفي العلاقات السياسية، استطاع زمري ليم إقامة علاقات سياسية وحتى تحالفية متينة مع ممالك المشرق العربي الأخرى.

فمع يمحاض/حلب، تميزت علاقات مملكة ماري معها بالتحالفية والراسخة، توّجها زواج زمري ليم من ابنة ملك يمحاض . شيبيتو ابنة ياريم ليم. / وكون أن كركميش كانت واقعة تحت نفوذ يمحاض، فبالتالي، كانت علاقة ماري معها جيدة[⊗]/ وهذا هو ما أعاد زمري ليم إلى عرش ماري حيث ورد في أحدى رسائل " حقاً إنه والدي الذي سبّب استعادة عرشي ". ومع بابل، كانت علاقة ماري في بادئ الأمر تحالفية ومتينة، وتشير محفوظات ماري إلى وجود معاهدة تحالف تعتبر من أقدم المعاهدات بين حمورابي بابل وزمري ليم ملك ماري، حيث يتعهد فيها الطرفان بمحاربة ملك عيلام وبعدم تفرد أي منها بعقد الصلح معه.(9)

⊗ ثمة وثيقة تعبر عن العلاقة الجيدة بين ماري وكركميش، تتحدث عن إرسال ملك كركميش إلى ملك ماري حبوباً وخموراً، / تاريخ سوريا السياسي ـ هورست كلنغل / كما تشير الوثائق أيضاً إلى رسالة من زمري ليم إلى سفير ماري في كركميش واسمه ساتران ـ ناصر، يطلب زمري ليم من ملك كركميش فرقاً عسكرية من يمحاض وقطنة وزكاتوم وبعد تسلم تيار
آمي الحكم في كركميش خلفاً لوالده أرسل رسالة إلى زمري ليم حيث أطلق على نفسه لقب " ابن زمري ليم " وعلى زمري ليم " أبي ".

ورغم هذا فإن الخشية كانت تنساب العلاقة بين المملكتين ولا سيما من ماري التي كانت تخشى من تعاظم قوة الفاعلية البابلية لا سيما وأنها تستند على العمق الرافدي بالكامل.

وتشير الوثائق إلى أن زمري ليم ذهب بجيشه لنجدة بابل(10).

كما أن حمورابي بابل استطاع أن يؤمن تحالفات أدت إلى تعاظم قوة بابل، حيث ثمة تحالفاً بينه وبين ملك لارسا الرافدية أوضحته رسالة من ملكها ريم . سين إلى حمورابي، حيث جاء فيها:

" لقد احتشد الرجال في مملكتي، فليحتشد الرجال في مملكتك أيضاً, اذا عزم العدو على مهاجمتك فإن رجالي وسفني ستلحق بك، أما اذا عزم العدو علة مهاجمتي فليلحق بي رجالك وسفنك ".(11)

ويبدو أن العدو هنا هو إشنونا أو عيلام أو تحالفهما معاً

كما تشير وثائق/رسائل من حمورابي بابل إلى وكيل قصر ماري يتحدث عن إرسال جيوش عديدة إلى ماري.

وأما علاقة ماري مع إيمار:

فقد انتابها بعض المشاكل رغم تبعية هذه إلى فاعليات يمحاض وكركميش وماري حيث كانت تدفع الجزية لهم. وتشير

وثيقة/رسالة من سفير ماري في بلاط كركميش واسمه صُدقم . لاناسي، إلى أن حلب وكركميش وماري فرضت مقاطعة على إيمار للسيطرة عليها ومعاقبتها.

وفي وثيقة أيضاً لزمري ليم هي عبارة عن رسالة منه إلى ملك يمحاض يشير الأول إلى أن سكان إيمار يتعرضون للمسافرين عبرها ومنهم أحد الفارّين من حاصور في فلسطين والذي كان ينشد حماية زمري ليم.

ويبدو وأن مواقف إيمار السلبية دفعت تلك الممالك إلى مقاطعتها وفرض الحصار عليها، حيث لجأت كركميش إلى منع ابحار السفن في حوض الفرات من كركميش إلى إيمار.

أما ماري فعرقلت ابحار السفن باتجاه مجرى النهر عبر توتول وقاطونان.

في حين أن حلب قطعت عليها الطريق البرية الذاهبة نحو الغرب.(12)

ومع قطنة، كانت علاقات ماري جيدة وغالباً ما كانت ماري وسيطاً جيداً لحلّ الخلافات بين قطنة ويمحاض. وبرغم ذلك فقد كان زمري ليم وبرغم علاقاته المتينة والتحالفية مع الممالك آنذاك، كان يسعى لبث عيون المراقبين والمخبرين في تلك الممالك وثمة وثيقة تشير إلى غموض في علاقة بين عيلام

وقطنة. حيث أن الوثيقة هي عبارة عن رسالة من أحد كبار موظفي القصر في ماري إلى زمري ليم يعلمه فيها بالتالي:

" لقد عبر رسول حاكم عيلام إلى حلب، وعندما وصل إلى إيمار أرسل أثنين من أتباعه إلى قطنة، عندما سمع حمورابي / ملك حلب وابن ياريم ليم / بذلك أرسل جنوداً إلى المنطقة الحدودية فقبضوا على الرجلين عند عودتهما. وعندما حققوا معهما أقرا أن حاكم قطنا أرسل معهما إلى سيدهما/ملك عيلام / الخبر التالي:

[البلاد ممنوحة لك، تعال إليّ، اذا قدمت فلن نختلف]. ثم يعلم الموظف زمري ليم بأن حاكم قطنة أرسل رسلاً إلى عيلام ويطلب منه " ليت سيدي يتخذ قراراً ويكتب إلى حاكم بابل طالباً منه ألا يدع هؤلاء الرسل يتجاوزون بلاده ".(13)

وفي المقابل، في مثلث ماري يمحاض، قطنة، يشير د. فاروق اسماعيل إلى أن يمحاض كانت على اتفاق تام مع ماري وتسعى إلى تأجيل الصراع مع قطنة وتلزم الهدوء حرصاً على مصلحة ماري لا بل أن ياريم ليم ملك يمحاض، أبدى رغبته في حل الخلاف المزمن مع قطنة شرط أن يحضر حاكم قطنة، اموت بي إيل إلى حلب وأن يؤديا القسم الإلهي ويعقدا اتفاقية

سلام بينهما، وكانت ماري هي المرشحة للتوسط في إنهاء هذا الخلاف كما رأى حمواربي ملك بابل.(14)

وفي موازاة ذلك فإن عالم الوثائق في ماري يقدم لنا الإضاءات تلو الإضاءات لواقع الحياة في الألف الثاني قبل الميلاد، في كافة مناحيها ولا سيما بين الممالك.

ففي معرض مناقشتنا لعلاقات ماري ويمحاض التحالفية والمتينة والتي وصلت إلى حد القرابة العائلية، نجد أن المصالح كانت تتحكم بقوة في هذه العلاقات، فمثلاً ثمة ما يعرف بأزمة الحبوب التي وقعت بين حلب وماري، حيث أن ياريم ليم سيطّر على تجارة الحبوب وحاول استخدام ذلك للضغط السياسي على صهره زمري ليم من مركزه التجاري الفراتي إيمار.(15)

ويشير ألفونسو آركي إلى أن في جوار حلب كانت ثمة منطقة تتبع ملكية زمري ليم، ويعلمنا رقيم مسماري، بأن أدد الحلبي (ربما هو ياريم ليم كون أن الملك في العرف السائد آنذاك يستمد ملكه من الإله) أعلم زمري ليم عن طريق الوحي الإلهي بما يلي:

" اذا لم يُسلمها فإنني قادر على الإستيلاء عليها، وأنا سيد العرش، سيد الأرض والمدينة. أما اذا حقق رغبتي فسأهبه عرشاً

إثر عرش، منزلاً تلو منزل، أرضاً إثر أرض، مدينة تلو مدينة، وقد أسلّمه بلده من الشرق إلى الغرب ".

كما أن الوجه الآخر للرقيم يحوي رسالة من أدد الحلبي إلى زمري ليم يقول فيها:

" ألست أنا أدد سيد حلب، الذي فقّهك من بين الرعية والذي أوصلك إلى العرش وإلى منزل والدك .. ويختم: لقد مسحتك بزيت انتصاري ".[16]

الجدير ذكره هنا هو وجود رسائل من زمري ليم إلى ياريم ليم تصفه بـ " الوالد " وهذا يعطي دلالة الاحترام والتقدير، بالاضافة إلى كون زمري ليم صهر ملك يمحاض.⊗ / انظر الملحق الثالث في نهاية الكتاب /.

أما علاقات ماري مع أوغاريت في فترة زمري ليم، فإن المعطيات تدل على أن أوغاريت كانت عبارة عن مدينة صغيرة تتدرج في منحى الاكتمال لخلق فاعليتها التاريخية مع منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. غير أنها في هذه الفترة امتلكت أهمية خاصة كونها ساهمت في تجارة القصدير والنحاس، فالأول يأتي

⊗ تشير نصوص ماري إلى إرسال فرق عسكرية للمساعدة إلى ماري من يمحاض وذلك خلال السنين الأولى من حكم ومري ليم، حيث توضعت هذه القوات في مدينة سكاراتوم التابعة لفاعلية ماري. / هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي /.

أوغاريت من ماري أو عبرها، في حين أن النحاس كان يستورد من قبرص عن طريق أوغاريت.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن العالم التجاري وطرقه وآليته، شهد في المشرق العربي آنذاك، لا بل منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد تحركاً باتجاه عالم المتوسط ولا سيما كريت وقبرص. وقد تواقت هذا مع ضعف المصادر التجارية الايرانية والآسيوية / الهندية /.

وشكّلت قبرص حلقة الاتصال بين عالم المتوسط والمشرق العربي ولا سيما عبر تجارة النحاس حيث ترد في نصوص ماري العائدة لأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أسماء كريت وقبرص كمشارك في عالم التجارة الدولية آنذاك. وهذا ما سوف نتحدث عنه في مناقشتنا اللاحقة لحركة التجارة والتبادل التجاري في عهد زمري ليم.

وأيضاً تذكر وثائق ماري عن زيارة لملك يمحاض ياريم ليم إلى أوغاريت، حيث رافقته زوجنه، وأعضاء من بلاط مدينة ماري، ويشير هورست كلينغل إلى أن ثمة شواهد تدل على أن زمري ليم قد رافق ملك يمحاض شخصياً حتى أوغاريت.(17).

ويبدو أن علاقة ماري مع أوغاريت في تلك الفترة، لم تكن في المنحى السياسي قوية ومباشرة، بل إن علاقة أوغاريت

بيمحاض/حلب كانت مباشرة وأقوى. حيث أن الوثائق تشير إلى رسالة من حاكم أوغاريت إلى ملك يمحاض⊗، يطلب منه السعي لدى زمري ليم لزيارة أمير أوغاريت لماري وقصر زمري ليم الذائع الصيت آنذاك. ويشير د. فيصل عبد الله إلى أنه ومن خلال نصوص ماري التي نشرت مؤخراً، يبدو وأن ملك ماري زمري ليم قام بأكثر من رحلة إلى بلاد يمحاض ولابد أنه زار مدينة حلب وأوغاريت.(18).

ويشير إلى وجود اتصالات وثيقة بين ياريم ليم وزمري ليم من جهة وأوغاريت وجوارها من جهة أخرى حيث قاما برحلة إلى تلك المناطق على ما يبدو، وكان لزمري ليم ممثلاً في أوغاريت واسمه داريش ليبور.

أيضاً احتفظت ماري بعلاقات جيدة مع مدينة جبيل على الساحل السوري، وكذلك علاقات جيدة مع مدينة حاصور في شمال فلسطين.⊗⊗

⊗ كان ملك يمحاض في هذه الفترة هو حمورابي ابن ياريم ليم.

⊗⊗ تشير المعطيات إلى انه مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد بدأت مدن الجنوب السوري / فلسطين / بالنشاط التاريخي وربما يعزى هذا المجال إلى الأحوال المناخية حيث يلاحظ تفاعل تلك المدن مع العمق المشرقي ومع مصر. وتقدم وثائق مصر في هذه الفترة معلومات عن عشرات المدن مثل عسقلان وحاصور وشكيم والقدس. ولعل موقع حاصور/ تل القدح / من أهمها ولم يقل أهمية عن حلب أو إبلا أو كركميش أو ماري. وتشير وثائق ماري إلى أن هذه المدينة / حاصور / كانت تصدر القصدير الذي يعتبر عنصراً هاماً في صناعة البرونز.

وفي مجال مملكة ماري بالخاصة، تبعت مدينة شوباط انليل فاعلية ماري في هذه الفترة وعبر ملوكها:

توروم ناتكي . زوزو . حيا آبوم.[19].

ويبدو أن إيمار كانت في علاقة متذبذبة مع ماري / لا سيما أنها تقع تحت فاعلية يمحاض / حيث كان ثمة تضامن بين إيمار ومدينة توتول / تل البيعة /. وتشير وثيقة هي عبارة رسالة من لاناسُم حاكم مدينة توتول / التابعة لفاعلية ماري / إلى زمري ليم / سيّدهُ /، أنه حين كان يطلب إلى سكان توتول دفع الجزية، فإنهم يتهرّبون، ويكتبون إلى إيمار يسألونهم النصيحة، فيجيبهم الإيماريون:

نحن ندفع الجزية إلى ثلاثة ملوك وأنتم لا تدفعونها إلى سيدكم زمري ليم، فذهب التوتوليون إلى إيمار وأقاموا احتفالاً وتشاوروا وعادوا ليخبروا زمري ليم أنهم لن يدفعوا الجزية له.

وبذا يبدو أن توتول تحاول التضامن والتحالف مع إيمار ضد مصالح زمري ليم / ماري /.[20].

كما تشير الوثائق إلى رغبة توتول في أن تشارك في طقوس عبادات حلب بواسطة إيمار. ما يعني أنها ربما تتململ من انضوائها تحت فاعلية مملكة ماري وترغب مثل إيمار أن تكون تحت فاعلية مملكة يمحاض وهذا وفقاً لمصالحها. الجدير

ذكره هنا هو أن توتول كان تشكّل مركزاً دفاعياً مهماً لماري ومركزاً لصنع القوارب الملاحية.⊗

أيضاً سعى زمري ليم وبعد توطيد دعائم مملكته إلى ترسيخ هذا الأمر عبر تزويج بناته إلى عدد من الأمراء والقادة التابعين له في المملكة. حيث " يشير برتراند لافون في دراسته إلى أحد عشر ابنه للملك زمري ليم، حيث يوضح هذا الباحث سياسة الملك في تزويج بناته إلى نوابه في المناطق والمقاطعات وفق اسلوب مدروس لإحكام السيطرة على البلاد ".[21].

فقد زوّج اثنتين من بناته إلى الأمير إلا . نصورا، وزوّج أخرى إلى شاريا، من الإخوث. وكذلك إلى ايسبال . أدد ملك أشلاكا، وربما إلى خمديا ملك أنداريق، وإلى ايلي . عشتار ملك شونا، وربما إلى أشكور . أدد، ملك كارانا.

وبالعودة إلى علاقة ماري مع بابل، وكون هذه العلاقة تحمل خصوصية، كون أن بابل هذه، وبقيادة ملكها حمورابي، سوف تنهي عسكرياً فاعلية مملكة ماري بعد اصطدام المملكتين مع بعضهما البعض.

حيث أن علاقة حمورابي مع زمري ليم كانت علاقات متينة وتحالفية أيضاً، رغم تضارب المصالح في بعض الأحيان.

⊗ هذا بالإضافة إلى كون مدينة توتول تشكّل مركزاً مهماً للتجارة عبر مينائها وفاصلاً بين مملكتي إبلا وماري.

وكان لملك ماري سفيراً في بابل وكان لهُ مخبرون فيها أيضاً، كما كان لحمورابي معتمدين في بلاط ماري.

وقد أمدتنا وثائق ماري بأخبار عن طبيعة العلاقات التحالفية التي كانت قائمة بين بابل وماري ويمحاض في مواجهة تحالف إشنونا وعيلام، حيث أن ماري وضعت تحت تصرف بابل قواتها، وأنها كانت تتوسط في تعبئة قوات من يمحاض، حيث تشير المعطيات إلى ارسال قوات يمحاضية إلى بابل بقيادة زمري ليم / فاروق اسماعيل 1993 /.

فثمة وثيقة عن مبعوث لبابل إلى زمري ليم، أخبر حمورابي أن قواتاً من يمحاض قد وصلت، وتذكر أن عدد هذه القوات هو 30.000 جندي.⊗

وثمة رسالة لزمري ليم إلى حمورابي تتحدث عن " القوات المساعدة التي بسببها كررت الكتابة إليّ، فقد كتبتُ إلى الملك حمورابي/ ملك حلب، ليرسل إلي قواته وقد أرسل الآن قواته ووصلت عندي ".[22].

وتشير المعطيات أيضاً إلى أن حمورابي بابل قدّم مساعدات عسكرية وقوات لماري بين حين وآخر، وفي السنة

⊗ يشير د. فاروق اسماعيل إلى وثيقة تتحدث عن أن زمري ليم وحمورابي بابل كانا يقودان جيشاً قوامه ثلاثين آلف مقاتل في حربهما المشتركة ضد إشنونا و عيلام.
انظر ـ فاروق اسماعيل ـ ماري وشوباط انليل ـ وثائق الآثار السورية 2002.

الحادية عشرة من حكم زمري ليم، قدّمت ماري مساعدة عسكرية لبابل، وقد أكد مختلف سفراء ماري، وصول هذه القوات من منطقة ماري إلى بابل.

الجدير ذكره هنا، أن نقل القوات العسكرية من ماري إلى بابل كان أسهل من نقلها من بابل إلى ماري.

فطريق ماري نحو بابل يتميز بالحركة السريعة على مجرى النهر بواسطة السفن. ويبدو وأن هذا الأمر هو ما دفع حمورابي في بعض الأحيان لعدم إرسال قواته إلى ماري حين الضرورة.

أيضاً، في صراع حمورابي بابل مع إشنونا، تذكر النصوص أن حمورابي " ونتيجة الحكمة التي حباه بها مردوخ، قد دمّر تولبياش بكميات هائلة من المياه.

ويعتقد هورست كلينغل أن هذا يبدو على أنه فيضان مصطنع نتيجة خراب سدّ ما.

ومن طرائف الوثائق، أن زمري ليم أرسل وفداً إلى بابل في أثناء احتفال بابلي، والذي يبدو أن البلاط البابلي لم يسمح لبعض أعضاء وفد ماري بالمشاركة في الحفل بسبب عدم ارتدائهم اللباس الخاص بالإحتفال، ويبدو من رسالة سفير ماري

في بابل أن ملك بابل أمر بإعادتهم ومنحهم ملابس الاحتفال الخاصة.[23]

وقد كان لمملكة ماري سفراء لدى الممالك الأخرى، كما كان لملك ماري مندوبين في مدن المملكة.

وتشير وثائق ماري إلى وجود سفراء في كركميش، يمحاض، كوردا، كحت، وثمة أيضاً سفراء جوّالون. وفي شوباط انليل كان لزمري ليم ممثلاً عنه هو ينوخ سمر الذي كان قائداً للحامية العسكرية التابعة لماري في شوباط انليل. وربما يكون مستشاراً لحاكم شوباط انليل خايا أبوم.[24]

إن كل ما سبق، يدفعنا للاستنتاج على أن زمري ليم، شكّل نمطاً من رجال الدولة النابهين والتاريخيين، الذين استطاعوا ايجاد مكان لهم تحت الشمس وسط الصراعات المتبدية آنذاك، ورغم وجود ممالك قوية تنافس فاعلية مملكته.

وذكرت الوثائق مبلغ طموحه لتأسيس المملكة العمورية باقتدار، وكانت منطقة مثلث الخابور تعنيه مباشرة، كعامل في قوة المملكة وازدهارها. لذا كان عليه أن يعيد النظام إلى كامل مناطق ضفاف الفرات.

وتذكر الوثائق حملته على كحت وأشلكا. وثمة رسالة من حاكم خالبا / بونو عشتار / إلى حاكم كرنا /

خنتورابي / تتحدث عن ضرورة دعم زمري ليم في سعيه إلى تنظيم تلك المنطقة في وقت كانت قوات إشنونا تتحرك نحوها حيث نقرأ:

" عندما تقرأ هذه الرسالة، اخرجوا أنت وشرايا / ملك رزاما / والملوك الذين بجانبك معاً، وجندوا من عندكم 4000 مقاتل، وأنا من هنا سأجند ألفين، فيكونون ستة آلاف مقاتل مقدام، دعنا نجمعهم ونرسلهم بسرعة لنجدة زمري ليم ".(25)

والذي يبدو أن قوات إشنونا / بقيادة ملكها إيبال بي إيل، احتلت شوباط انليل وقتل حاكمها توروم نتكي، فتولى الحكم ابنه زوزو، حيث دامت فترة احتلال شوباط انليل أقل من سنة.

ونتيجة انتظام وقوة وتمكّن قوات أشنونا، فقد قرر ملكها أن يتجه نحو ماري، ويبدو أنه تم أخبار زمري ليم بذلك، فأرسل إلى خنتورابي ملك كرنا رسالة جاء فيها:

لقد كتبتُ لك سابقاً تقريراً مفصلاً، بل اثنين عن خبر سير قوات حاكم إشنونا باتجاهي، والآن أرسل لك هذه الرسالة لأعلمك بأني أدّعم مواقع منطقتي منذ ثلاثة أيام لمواجهة حاكم إشنونا.

إذا ما تراجعت تلك القوات فقد ارتدت، وإذا لم تتراجع فسوف أقود الحرب ضدها بقواتي الخاصة ولن أتراجع.

لقد كتبتُ إليك مرات طالباً إمدادات عسكرية، ولكن طالما أن قواتك لم تصل، فسوف أقتلع أظافر حاكم إشنونا من قلب مقاطعتي بقواتي الخاصة، وسأمزقه كي لا يعود إلى مقاطعتي مرة أخرى "(26)

الجدير ذكره هنا، هو أن هذا الأمر حصل في السنة الثالثة من عهد زمري ليم. وتتحدث وثائق ماري وغيرها، عن زمري ليم الذي استطاع أن يُعبر بشخصه عن مجتمعه وخصائصه، ونقرأ في الوثائق:

في السنة الرابعة من حكم زمري ليم، أقام معبداً للإله شمش.

في السنة الخامسة طهرّ بلاده.

في السنة السادسة بنى سور يخدون ليم.

في السنة السابعة أقام عرشاً / معبداً /للإله ختّا.

وفي السنة الثامنة ذهب لنجدة عيلام.(27)

ولا بأس هنا الإضاءة على ملك ماري زمري ليم كما أمدتنا بذلك وثائق ماري.

زمري ليم ـ ملك ماري:

ذكرنا سابقاً أنه حين ضمَّ الملك الآشوري / العموري / شمشي أدد، مدينة ماري إلى فاعلية مملكة آشور، فرَّ زمري ليم إلى حلب وبقي في عهدة البلاط اليمحاضي.

ومع استمرار فعل الضم الآشوري لحدود/15-20/ عاماً، أصبح زمري ليم في سن يستطيع من خلاله التفكير بإعادة عرش مدينة ماري لأسرة يجيد ليم، وقد ساعده في ذلك البلاط الحلبي كون أن مصالحه تنسجم مع هذا التفكير، وبالاضافة إلى الحذر الذي ينتاب البلاط الحلبي من نشاط المملكة الآشورية.

وإثر وفاة شمشي أدد، كانت الفرصة متاحة لزمري ليم أن يبدأ بمناوشاته ضد يسمع أدد حاكم ماري. واستطاع بدعم من مملكة يمحاض أن يعود إلى عرش ماري ممتلكاً رؤية رجل الدولة لكيفية إعادة ماري إلى مملكتها، وهذا ما تبيّناه فيما سلف.

وإثر عودته إلى دفة الحكم في ماري، قدّم تمثاله إلى الإله أدد الحلبي كتعبير عن شكره للإله.

وتشير الوثائق المارية، إلى ذاك التداخل الاعتقادي مع الواقع السياسي، حيث كان لأدد الحلبي / الإله /، " أنبياء " وترد

في النصوص حرفياً " المستجيبون أو الملّبون " / الذين ينقلون رسائل الإله إلى ملوك ماري. / انظر فصل الحياة الاعتقادية لاحقاً /.

وهكذا فإن أدد حلب هو نفسه الذي أعطى مملكة ماري ليخدون ليم ثم شمشي أدد، وكان قراره أيضاً أخذ الحكم من شمشي أدد وتسليمه إلى زمري ليم ويتحدث نص من ماري أن الإله أدد الحلبي هو الذي أرسل قواتاً إلى ماري عند تنصيب زمري ليم وأنها هي التي أتاحت له الانتصار على إله البحر. / دوران 1993 /.

ويتحدث النص على طلب الإله أدد الحلبي من زمري ليم، تحقيق العدالة لأولئك الذين يلتمسون العدل وعلى ألا ينطلق في حملة عسكرية دون أن يطلب استخارة كاهن أدد.⊗

وعلى هذا كان هذا الإله يتلقى تقدمات ونذور وهدايا وتبرعات من ملك ماري، بحيث توضع في معبد أدد في مدينة حلب.

الجدير ذكره هنا، هو أن أسلحة أدد الحلبي المقدسة كانت البراق والهراوة اللذين يضرب بهما البحر المتوسط. واعتبر هذان

⊗ ثمة معلومات عن ممارسة الإستخارة في بلاط ماري حيث يستشار الإله من أجل اتخاذ مواقف في الأزمات الصعبة والحروب - انظر فيصل عبد الله - دراسات تاريخية 37 - 38 قراءة في خمس مجلدات من ماري.

السلاحان حاسمين في الصراعات السياسية، وقد أرسلت هذه الأسلحة من حلب إلى ماري، ثم حفظت في معبد ترقا.(28)

وبعد عودة زمري ليم إلى عرش ماري، سعى إلى الزواج من شيبتو ابنه ملك حلب ياريم ليم، والذي يبدو أنه تعرف عليها خلال وجوده هناك.

وإن كان زمن زواج زمري ليم وشيبتو غير محدد بدقة، لكنه تم بعد عودة زمري ليم إلى ماري، وأشار هورست كلينغل إلى أن هذا الزواج تم في العام التاسع من حكم زمري ليم،(29) غير أن فيصل عبد الله يذكر أن البعثة التي ذهبت من ماري إلى حلب لطلب الزواج، كانت في السنة التالية لعودة زمري ليم إلى عرش ماري.(30)

وقد تحدثت النصوص عن مراسم زواج زمري ليم وشيبتو، بحيث كان زواج بالوكالة، عبر بعثة من ماري من قبل زمري ليم وبرئاسة أصقدوم وراشيا، حيث توجهت البعثة إلى قصر ياريم ليم في حلب.

وقد أورد الدكتور فيصل عبد الله وقائع حركة البعثة من ماري إلى حلب وفق نصوص ماري، حيث أن البعثة في طريقها إلى حلب كانت تزود ملك ماري / العريس / برسائل عما يحصل من أخبار وأمور. / انظر الملحق الثاني في آخر الكتاب /.

فثمة رسالة من مشارف مدينة تيلازيبوم / ربما تقع بين ماري وإيمار /. ثم رسالة من مدينة إيمار. ثم رسالة معلومات حول عملية الاستعجال بمراسم الزواج.

ورسالة أيضاً تتعلق بزيارة بلاد يمحاض، كما رسالة أخرى تتضمن أخباراً عن البلاط الحلبي.

ورسالة سادسة تتعلق بمسألة سكن العروس في ماري.

هذا في طريق اتجاه البعثة نحو حلب، أما في طريق العودة فثمة رسالتين، الأولى من إيمار والثانية بعد المرور بحصن دور يخدون ليم.

أما عن مراسيم ومجريات الزواج بالوكالة فقد ذكرت وثائق ماري أن مراسيم الزواج تمّت في قصر ياريم ليم في حلب. ويبدو أن تقاليد هذا الزواج لا تختلف عما يحصل في أيامنا هذه / فيصل عبد الله. 1997 /.[⊗]

فقد تمَّ وضع الغطاء على رأس العروس شيبتو من قبل موفدي زمري ليم.

[⊗] إن أهم السجلات المتعلقة بالمجوهرات في ماري قدمتها نصوصها، حيث تتعلق بالمجوهرات التي قدمت إلى شيبتو ابنة ياريم ليم عندما طلب يدها زمري ليم. وقد سجلت جميعها في سجلات ملك ماري وتألفت هذه التقدمات من الذهب والفضة وغير ذلك.
انظر ـ فيصل عبد الله ـ دور السلالة الحلبية الأولى في تجارة الشرق وشمال سورية في القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد. الحوليات الأثرية السورية 43 - 1999.

الجدير ذكره هنا، هو أن المرأة المتزوجة كانت تضع غطاء على رأسها يسمى بالأكادية " كتموم ".

ويشير جان ماري ديوران إلى أن غانيات المعبد / بالأكادية حارمتوم / في ذلك العصر، كن يضعن الغطاء على رؤوسهن.

والطريف في الأمر، أن وزير البلاط الحلبي واسمه " شيمروم " أعلن للبعثة المارية بعد مقابلتها لياريم ليم، " امرأة مقابل امرأة "، حيث كان يرغب بالحصول على مغنية من ماري تدعى كرانا توم.[31]

وتشير وثيقة/رسالة من زمري ليم إلى حماته زوجة ملك حلب / ياريم ليم / جاشيرا، إلى أن عادة اتخاذ أكثر من زوجة أو خليلة كانت معروفة وسائدة في سورية آنذاك.[32]

ويتحدث الباحث حميدو حمادة عن وجود مغامرات عاطفية للملك زمري ليم خارج الزواج، حيث ثمة رُقيم يخبرنا عن وجود صديقة لزمري ليم أُبعدت إلى منطقة قاحلة في مدينة ناحور، لكنها تحاول أن تستلطف الملك وهي تريد أن ترى وجهه ولو مرة واحدة، حيث كانت تشكو له أوضاعها، فلا ماء ولا شجر ولا طعام / حميدو حمادة 2002 /. ونحن نعتقد أنها من زوجاته السابقات حيث أن له 11 بنتاً قبل زواجه من شيبتو.

وتشير المعطيات إلى احتواء نصوص ماري على ما يزيد عن 180 رسالة موجهة من شيبتو إلى زوجها زمري ليم ولا سيما حين يكون خارج ماري.

ومن هذه الرسائل نقرأ رسالة تزفُّ فيها شيبتو البشرى للملك الغائب فنقرأ:

" إلى مولاي، هكذا تقول شيبتو خادمتك، وضعت للعالم توأم، صبياً وبنتاً، فلتفرح نفس مولاي ".

وكانت شيبتو في غياب زوجها نقوم بدور المسؤول في بلاط ماري، وقد عثر على رسائل تخاطبها بـ " الملكة ". وعثر أيضاً على ختمها الشخصي الذي يتضمن: " شيبتو بنت ياريم ليم ، زوجة زمري ليم ".

ومن أسماء بناتها: كيروم، ونارام توم، نيغانوم، آحاتيا.

وقد عثر على رسائل من بناته إليه حيث تخاطب كيروم أباها بوصف " نجمتها " في حين أن نارام توم تدعوه " مولاها ".

وثمة وثيقة من ماري كتبها كبير الكهنة / نبو / أو المتنبئ، حيث كان ينقل للملك رؤياه، ويحتوي النص على رؤيا لهذا " النبو "، التي نقلتها شيبتو إلى زوجها الملك الغائب في

أحدى المعارك، حيث تطمئنه أن الإله وملائكته مصممون على حماية مدينة ماري وأن أحداً لا يستطيع المساس بها ".[(33)]

وثمة وثيقة/رسالة من زمري ليم إلى زوجنه شيبتو، تتعلق بمرض صديقة أو خليلة له تدعى ناتاما، ويبدو أنه كان خارج ماري وجاءته أخبار مرضها فيقول في رسالته لشيبتو:

" سمعت نبأ مرض ناتاما، لكنها ظلت تتنقل في أرجاء القصر وتختلط مع بقية النساء. أرجو منك يا شيبتو أن لا ينام أحد في فراشها، وألا تختلط ببقية النساء كي لا تنقل عدوى مرضها إلى البقية "[(34)]

إن هذه الرسالة تقدم ايضاحات حول مدى الوعي الصحي في تلك الفترة، بالاضافة إلى معرفة الملك بالتفاصيل الدقيقة والصغيرة لما يحصل في القصر بشكل خاص وماري بشكل عام.

وكان النبيذ[⊗] يأتي إلى ماري وقصرها، هدية من ملك حلب / ياريم ليم / أو من كركميش وملكها ابلاخاندا. ويبدو أن شيبتو كانت ذواقة هذا النبيذ لتحديد جودته، فقد أشارت وثيقة

[⊗] كانت طقوس استهلاك الخمر بصنوفه الرفيعة ذات أهمية بالغة، فعلى المتذوق أن يُطهر يديه قبل أن يلمس جراره، والذواقون، من هم في المراتب العليا مثل شيبتو / الملكة / وثمة متذوق آخر اسمه صدقوم ماصي ، وتذكر الوثائق أن هذا كُلف بتذوق النبيذ الأحمر المرسل من حمورابي ملك حلب إلى زمري ليم واختيار عشر جرار خاصة للاستهلاك من قبل ملك ماري والقصر. فيصل عبد الله - الحوليات الأثرية السورية 43 - 1999.

مارية إلى طلب زمري ليم منها، أن تتذوق له النبيذ الذي اختاره هدية لملك بابل "[35]

أيضاً قدمت وثائق ماري معلومات عن قيام أخت الملك زمري ليم واسمها " ني غاتوم " برعي الماشية في أرض قطنة.

وثمة رسالة من حاكم ترقا إلى زمري ليم، تتضمن أمراً من دجن الإله لزمري ليم، كي يقوم بتقديم القربان الجنائزي عن روح والده / يخدون ليم! / بحيث يتم هذا مرتين كل شهر.

وكون أن زمري ليم يتمتع بصفات رجل الدولة، فقد حفلت وثائق ماري آنذاك، بمدى اطلاعه ومتابعته لكل شاردة وواردة في شؤون المملكة، فمن تلقيه طلباً ورجاء لإرسال بنائين لإصلاح جدار في مدينة، إلى إرسال طبيب مختص لعلاج حالة التهاب أذن على بعد 100 كم من ماري، أو تعزيل قناة مسدودة أو ترميم سد متصدع أو مكافحة جراد.

حتى أنه وصلته رسالة حين مرّة على رأس أحد أعدائه واسمه ايشمي . حدو.

لا بل أن الرسالة من أدر . دوري / يبدو وأنها مسؤولة عن الخدم / إلى زمري ليم، تتحدث عن هروب خدم عبر نفق تحت مكان عملهم، فيجيبها الملك:

" لقد قرأت الرسالة التي أرسلتِها لي، والتي كتبتِ أن بعض الخدم شقوا طريقاً على شكل نفق إلى خارج الشغل في صبروم وهربوا ولكن تمّ الإمساك بهم ".

وطلب الملك منها أن تعمل بقوة حتى لا يصبح الهرب شائعاً.[36]

ويبدو ومن فحوى هذه الرسالة تمتع النساء في ماري بالمسؤولية الإدارية في أجهزتها المختلفة.

كما تتحدث احدى الوثائق عن إلقاء أهل المملكة القبض على أسد، حيث وضعوه في قفص، حتى يرسلونه كهدية إلى ملك ماري، لكن الأسد أتعبهم في تأمين طعامه، فأطعموه كلباً في اليوم ألأول، ثم كلباً ثانياً في اليوم الثاني، ويبدو أن الأسد استطاع الهروب أخيراً بحيث أضحى خطراً على أهل المنطقة. / حميدو حماده 2002 /.

وثمة رسالة من زمري ليم إلى زوجته شيبتو تتحدث عن إرساله لثلاثين فتاة كي تختار الملكة منهن، اللائقات من أجل تشكيل فرقة رقص. / حميدو حماده 2002 /.

وفيما يعطي دلالة على أهمية موقع شيبتو كزوجة لملك ماري، تشير الوثائق إلى وجود شكاوى تصلها لإحقاق الحق، فثمة وثيقة/رسالة من امرأة تدعى طريش . حتو تتضمن ما يلي:

" إلى شيبتو أقول ما يلي:

هذا ما تفيدك به طريش ـ حتو:

أشاعت الفتاة بلتاني في ماري وقالت أيضاً

لوالدها كيبري ـ دجن،

بأن طريش ـ حتو كتبت إلى شخص هنا

تطلب منه أن يسرق منها أقراطها وأساورها الفضية

وعندما سمعت تلك الإشاعة اضطربت دقات قلبي وأخذ منـي الغضب.

أرجو ارسال من يلزم ليتثبت من صحة الختم على رسالتي المزعومة وإذا كنت فعلاً قد أمرت بسرقة مجوهرات تلك الفتاة. باسم صداقتنا يا مولاتي، أرجو منك أن تحيطي الملك، مولاي بأمر هذا الافتراء، وبانتظار جوابك العاجل.

والذي يبدو وأن هذه السيدة الشاكية هي ابنه حاكم ترقا.

الجدير ذكره هنا أن زمري ليم كان صياداً عظيماً للأسود وتتحدث وثائق ماري عن غزواته لصيدها / أندره بارو ـ سومر 1978 /.

فنون مملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد:

يعنينا في مقاربتنا لفنون ماري في هذه الفترة أن نشير إلى أننا الآن أمام مزيج متجانس بشري مشرقي، هو حصيلة كل التفاعلات الديمغرافية في المشرق العربي والتي تعود لعدة آلاف من السنين إلى الوراء.

وقد توّشح هذا المزيج الآن بالوشاح العموري الذي ساد كامل المشرق العربي، مع استمرارية للثقافة والكتابة الأكادية.

وفي الألف الأول قبل الميلاد، سنشهد انضمام الفاعلية الديمغرافية الآرامية إلى المزيج المشرقي، حيث ستوشحه بطابعها، ثم ومع الألف الأول الميلادي سنشهد الفاعلية العربية الديمغرافية سوف تطغى وتوّشح حصيلة كل التفاعل والتمازج الديمغرافي المشرقي العربي.

وإذا كنا أمام طابع عموري . كنعاني، والمستند على ما سلف، فإن هذا ما انسحب على مجمل أوجه الحياة في المشرق العربي، مع وجود حالة من التنوع بين مدن المشرق لجهة الإبداعات العمرانية والفنية والأدبية. وهذا ما يعبّر عن الثقافة

الخاصة لكل مدينة أو مملكة والتي تلتقي جميعها في الهوية الواحدة الثقافية.

وثمة دليل مهم يُعّبر عن استمرارية الثقافة في مدينة ماري عبر وجود قصر زمري ليم، ومعروف عن هذا القصر أنه بُدء في بنائه في الثلث الأخير من الألف الثالث واستمر حتى عصر زمري ليم الذي دشَّنه، بما يعني أن حوالي 300 سنة مرت على بدء تعميره وإنشائه سوية فوق سوية.

ويبدو أن دوامة الحياة الاقتصادية . الاجتماعية . الروحية التي شملت كامل المشرق العربي، انسحبت على الحياة الفنية بمختلف مجالاتها وقد أشار إلى ذلك أيضاً أندره بارو في قوله:

" من المعتاد لمؤرخي الفن القديم حين يصلون إلى هذا العصر / الألف الثاني في نصفه الأول / أن يدرسوا شواهده الحضارية، وذلك عن طريق ربطها جهد المستطاع مع مختلف السلالات الحاكمة .. فقد يقال مثلاً بأن مثل هذا النتاج من الفن، يعود إلى عصر ايسن . لارسا، وأنه يحمل طابع سلالة بابل الأولى.

وفي الأيام الأخيرة، تحدث المستشرق الأمريكي كوتسه GOETZE حتى عن عصر ماري.

ومع ذلك فإن مجموعة من الخبراء البارزين من بينهم هنري فرنكفورت قد اعترفوا بعدم قدرتهم على تمييز فن عصر حمورابي، أو فن خلفائه، عن فن عصر ايسن . لارسا الذي سبقه، إلا بعد أن أعانتنا النصب التي تحمل كتابات، على تحديد تاريخها بدقة.

ويشارك مؤلف هذا الكتاب في هذه الآراء. ومع ذلك فإن عدم التأكد هذا يمضي يعيداً ليبّين لنا الوحدة الملموسة لهذا الفن، وهي وحدة ناجمة عن حقيقة أن المنطقة برمّتها كانت مأهولة بذات الشعوب. فالفروق قائمة حقاً، ولكن لا يمكن اكتشافها إلا عن طريق الاستقصاء الدقيق، وإنها تكمن عادة في تفاصيل أعمال متشابهة بصفة أساسية ".(37)

ويضيف مكتشف ماري بارو:

" لم يتجاهل العموريون، كل كيان النتاج السومري الحديث، بل على العكس من ذلك أنهم لم يتبنوه فقط، بل استفادوا من قدرته ونقلوه إلى مراحل أبعد ".

وعليه، فقد أشرنا سابقاً إلى أن البنية التحتية العمرانية والمعمارية في ماري، تأسست وازدهرت في عصر فاعلية مملكة أور الرافدية في الثلث الأخير من الألف الثالث، وبذا فإن الفاعلية العمورية في ماري مع مطلع الألف الثاني لم تأتِ من

فراغ، بل استندت في مجملها على ما سبق وذلك في مختلف مناحي الحياة.

ففي مجال العمران وفن العمارة:

يُشكّل قصر زمري ليم، والذي بدأ بناءه في فترة فاعلية مملكة أور / عصر الشاكاناكو /، وعلى أيدي عدة ملوك ثم أخذ شكله النهائي في عصر زمري ليم، أبهى منجز معماري / إلى جانب منشآت الري والملاحة طبعاً /.

والحقيقة أن هذا القصر، يُشكّل مجمعاً رئاسياً كبيراً لا يحتل فيه القصر سوى جزء صغير منه. وكنا قد أشرنا إلى نمط عمارة هذا القصر/ المجمع سابقاً.[⊗]

الجدير ذكره هنا، هو احتواء هذا المجمع الرئاسي على معابد، وتشير المعطيات إلى احتواء ماري على 25 معبداً، منها ما كان داخل المجمع الرئاسي لزمري ليم ومنها ما كان خارجه.

يحتل هذا المجمع مركز الوسط من المدينة، ومخططه ذو شكل مربع، محاط بأسوار وعلى حد تعبير بارو، إنه على شكل حصن يستطيع أن يصمد أمام الحصار.

[⊗] تشير المعطيات الآثارية إلى أن قصر زمري ليم العائد للألف الثاني قبل الميلاد ام يشيد فوق قصر الألف الثالث بل امتد فوق جزء منه / أبو عساف 1990 /

أما سطوحه فمتفاوتة الارتفاع، كي توفر فراغات مكشوفة واسعة يستطيع ساكنوها أيام الحر، أن يستمتعوا بالرطوبة والبرودة، كما أن هذه الفراغات توفر في أوقات الحرب، نقاط مراقبة ودفاع عن المّجمع

ويشتمل سور المجمع على عدة أبواب، كل باب مخصص لفئة من الناس. وقد رصفت أرضيات الغرف والممرات والمداخل والباحات بالآجر. وقد جُعلت شوارع هذا المجمع واسعة كي تستوعب العربات والمركبات الداخلة إلى القصر. أيضاً، أبانت التقنيات عن آلية متطورة للصرف الصحي عبر أقنية تخرج إلى خارج المدينة.

كما تكثر الأقنية الفخارية التي توصل المياه النقية إلى كافة أرجاء القصر وغرفه ومنشآته.

وقد حوت جدران الجناح الملكي على رسومات جدارية تحمل مضامين مثيولوجية واعتقادية.

وتنبغي الإشارة إلى أن أحد الرُقم أشار إلى وجود نحو 400 رجل يخدمون في هذا المجمع.[38] ⊗

وفي إشارة إلى مبلغ الوحدة المعمارية الحضارية للمشرق العربي، إن كان لجهة مخططات القصور أو المعابد، يشير

⊗ كان حرفيو القصر الملكي يدفعون 5 - 20 مينة / على كل عامل / من الفضة كتأمين في حال اختفائه أو تركه العمل دون تبليغ مسبق.

الدكتور أبو عساف إلى أن قصر ماري، قريب بشكله العام من قصور الرافدين القديمة.[39].

في حين يذكر الباحث انطوان مورتفات في معرض مناقشته عن قصر حمورابي بابل، أن القصر يُرّجح أنه يشبه قصر زمري ليم في ماري. وهذا يشي بامكانية تأثر عمارة القصور البابلية، بالعمارة العمورية في ماري، كون أن قصر زمري ليم، يعود إلى 300 سنة خلت من عصر زمري ليم.[40]

ويبدو أن هذا المجمّع / القصر، حُسّن وتمَّ تزيينه بشكل سخي وغني في عهد زمري ليم.

وكان جناح النساء يقع في الطابق العلوي من غرف، السكن الملكية الفاخرة التجهيز ويشير كاي كولماير إلى أنه من المرجح أن أقساماً كبيرة من القصر كانت مؤلفة من طابقين، مع الإشارة إلى عدم استعمال القرميد أو اللبن المشوي في البناء إلا في أماكن قليلة.[42]

وعلى الواجهة الجنوبية من القصر، حيث حوّتْ على رسوم جدارية، كان لابد من مخططي ومنفذي هذا القصر أن يعمدوا إلى تأمين حماية هذه الرسوم ولا سيما من أشعة الشمس وعوامل الطبيعة الأخرى وقد أشار دومنيك بوناتز وهارتموت كونه، في كتاب " الأنهار والبوادي، التراث الحضاري للجزيرة

السورية وما حولها " 1999، إلى أن تلك الحماية لهذه الرسوم تمَّ توفيرها من خلال نصب مظلة في الفناء أمام الواجهة بمسافة قدرها 4,50 م. وكانت هذه المظلة مرفوعة فوق أربع حوامل خشبية تُثبت في قواعد حجرية ذات شكل غير منتظم كانت مزودة بثقوب للأوتاد وموضوعة في الأرض كأنها أحجار مفاصل الأبواب. وهكذا فقد كانت غير مرئية على سطح الأرضية. وقد بلغت المسافات فيما بينها حوالي 4,50 م، في حين كانت تبعد عن جدران الفناء 6 أمتار تقريباً.

وكان كيان سقف الحماية هذا، عبارة عن ألواح ودعامات خشبية وُضعت فوقها الحلفاء التي تعلوها طبقة رقيقة من الطين مغطاة بطبقة من الجبس.

الجدير ذكره، أنه تم الكشف في ماري وفي القاعة رقم واحد من القصر الواقع إلى الشرق من القصر الكبير، عن قبر تحت الأرض مبني بالآجر وهذه الصفة أو الظاهرة في الدفن تحت أرضيات البيوت تعود بنا إلى العصر الحجري الحديث في المشرق العربي، وقد أبانت مواقع عديدة على وجودها في ماري أو الآلاخ أو إبلا. / أبو عساف 1990 /.

وتضمنت بعض القوائم الوثائقية في ماري، ذكراً لوجود 11 طالباً يتدربون على أيدي تسعة عشر بّناءً، كما أظهرت هذه

القوائم وجود عمال مهرة من يمحاض وكركميش وإيمار وحاصور، حيث كانوا موضع ترحيب وحفاوة.

وكنوع من الضمان، فإن العامل في القصر، يجب أن يكفله زملائه في العمل، وإذا ما هرب وتكرر هربه أيضاً، فإن هذا يستوجب على زملائه أن يدفعوا كفالته ويبدو أنها كبيرة.

وفي مقاربة لأهمية قصر ماري والذي عُدّ آنذاك أعجوبة بين ممالك العالم القديم، يشار إلى أن الملك الكيشي، كدر يكلزو الثاني، أنشأ قصراً في " عقرقوف " في الرافدين، وذلك بعد أن سيطر الكاشيون عليها، حيث طالب الفنانين بمحاكاة الرسوم الجدارية التي كانت في قصر ماري، على جدران قصره.

أما في مجال إنشاء المعابد، فقد شهدت مدينة ماري في الفترة العمورية، تأسيس معابد لعشتار ودجن ونينهور ساج وشمش، كما عثر على زقورة.

الجدير ذكره، أن بعض معابد ماري كانت تزّين واجهاتها، الأسود، في دلالة على حماية ما، وفي إنشاء يعطي دلالات فنية راقية.

ويشير جان لوي هيو إلى أن التنقيبات الأثرية التي أجريت في موقع مدينة حرادوم⊗ / خربة الدينية /، في الرافدين، أظهرت وحدة ثقافية عميقة للعالم العموري. فالأسود حامية المعبد التي وجدت في هذا الموقع / حرادوم / كانت شبيهة بتلك التي وجدناها في ماري وسوسة. / في معبد دجن في ماري /.

وكذلك المنتجات الفخارية تحمل العديد من الصفات والزخارف البابلية والشامية.(41)

ويبدو أن هذه الظاهرة الفنية، بقيت سائدة في نمط المعابد المشرقية عموماً وعلى مدى العصور اللاحقة، ولعل موقع عين دارا يقدم الدليل على وجود تماثيل في معابدها، أو لو انتقلنا إلى معابد تدمر في القرون الثلاثة الميلادية الأولى، حيث زينت واجهة المعبد هناك بالأسد، الذي كُتب على قائمته بالآرامية، " إن الربة اللات تبارك كل من لا يسفك دماً في المعبد ". وقد حوى تمثال الأسد هذا على احتضانه لوعل، ما يعني السلام والطمأنينة.

⊗ حرادوم ـ تقع في منطقة الفرات الأوسط وعلى بعد 10 كم إلى الجنوب من موقع مدينة ماري. وقد شكّلت محطة عبور للقوافل التجارية التي كانت تجوب المنطقة. وأنتهى دورها التجاري مع سقوط الفاعلية التاريخية لمملكة بابل.

كذلك حوى معبد إبلا المعروف بالمعبد (ث) على واجهته على نصبين لأسدين منحوتين. ⊗⊗

أما من جهة بيوت ماري، فقد كانت على شكل مستطيل أو شبه منحرف، تتجمع إلى بعضها البعض في كتل، تفصل بينها مسافات على شكل مساحات/ساحات محاطة ببوابات.

وكانت ماري تقسم إلى أحياء، ويسّمى كل حّي باسم كبير الحي / في السن أو المقام / ويطلق عليه اسم وكيل الحّي.

وكان البيت في ماري يشمل على باب على الشارع وغرفة أمامية وهناك فناء محاط بالغرف، وثمة بيوت سكنية مؤلفة من طابقين.

مادة البناء لهذه البيوت كانت من اللبن وكان الآجر يستعمل بكثرة في الأسس.

باحة المنزل والغرف معبدة ببلاط من فخار ناعم الجزيئات، أما المرافق الصحية فكان يبلط قاعها بالقار.

وتنبغي الإشارة هنا، إلى تقليد عمراني/طقسي كان يجري في ماري كما في لأغلب مدن المشرق العربي ويتجلى في ايداع ألواح ومسامير معدنية منقوشة تحت الأرضيات وأساسات

⊗⊗ أسود إبلا كانت منحوتة في حجر البازلت، أما أسود معبد دجن في ماري فكانت مصنوعة من البرونز.

⊗أسود إبلا كانت منحوتة في حجر البازلت، أما أسود معبد دجن في ماري فكانت مصنوعة من البرونز.

الجدران، وهذا التقليد اعتقادي/طقسي، وهو عبارة عن حالة تعبدّية كانت تجري بشكل مرافق لتشييد معبد أو قصر.[⊗]

[⊗] انظر ـ دومنيك بوناتز. هارتموت كونه ـ دليل متحف دير الزور 1999.

فن النحت:

يشير أندره بارو إلى أن ماري كانت لفترة طويلة أحد مراكز الفن الشهيرة، فقد عثر في أثناء التنقيبات فيها على عدد لا يحصى من النصب التذكارية وأعمال النحت بصفة خاصة.

وفي معرض إشارته إلى القصر الملكي في ماري يشير الباحث إلى أنه " لم يكن ينقص قصر مدينة ماري شيء مرغوب فيه. لأن كل مباهج الحياة قد توفرت فيه، بل الواقع أنه لا يوجد قصر ملكي ولا قصر آخر كامل المعدات مثله.

كذلك لا يوجد قصر آخر تمت زخرفته بإفراط، ولا قصر آخر، في أية حالة، أنتج مثل هذه الكثرة من النتاجات كالتماثيل والرسوم "(43)

وخطا فن النحت بشكل عام في المشرق العربي آنذاك ضمن منحى روحي واحد، تنتابه بعض الإختلافات بين مدينة وأخرى، غير أن هذه الفترة شهدت نوعاً من التجانس الفني إن كان في الشكل أو في المضمون للأعمال المنجزة.

مع الإشارة إلى أن " المدارس الفنية في النحت في الممالك الكنعانية الأمورية / 2000 . 1600 ق.م / لم تكن سواء في التقليد، فقد لجأ فنانو الجناح الرافدي إلى تجسيد الأفكار

القديمة باسلوب قديم، بينما اتجه فنانو ماري إلى تجسيد الأفكار القديمة باسلوب جديد.

ويبدو من خلال ذلك أن الارتباط بالتقاليد في الشرق أقوى منه في الغرب "(44)

ونستطيع هنا أن نعلل سبب هذا، كونه يعود إلى أن الجناح الغربي/الشامي للمشرق العربي، كان يُشكّل مرجلاً للتفاعل بين الشعوب بأكثر مما لدى الجناح الرافدي، لذا فإن التثاقف بين الحضارات المختلفة إن كان عبر التجارة أو عبر الحروب، شكّل رافعة للإبداع، ومحرضاً على انتهاج أساليب ابداعية جديدة. كما أن الأسلوب السومري الذي ساد في الألف الثالث لجهة نحت التماثيل، الذي تبدّى في الصرامة وقوة التأثير الفني، نجد أنه تحوّل مع مطلع الألف الثاني إلى نوع من الإيحاء الهنيّ بعيداً عن تلك الصرامة التي ألفناها في الألف الثالث.

ويشير الدكتور أبو عساف إلى أن التنقيبات الأثرية في ماري وإبلا والالاخ أبانت عن وجود عدد من التماثيل، تفترق عن الأسلوب السومري . الأكادي وتشكل منعطفاً في فن النحت المشرقي. ويشير إلى أقدم التماثيل الكنعانية المنحوتة في الألف الثاني قبل الميلاد، وهو تمثال الإله شمش، حيث أمر يسمع أدد

بأن ينحت له تمثالاً وينصب في المدينة ويعتبر هذا التمثال فريد من نوعه ولا يوجد نظير له.(45)

وقد كشفت تنقيبات بابل على تمثال يعود لحاكم ماري بوزو عشتار وثمة كتابة أخرى على التمثال تشير إلى اسم تورا دجن حاكم ماري.

ويرتدي التمثال تاجاً له زوج واحد من القرون / ما يشي بأن الحاكم منح نفسه صفة إلهية /، ويرتبط هذا التمثال مع تمثال آخر هو تمثال " ايدي . ايلوم " الذي عثر عليه في ماري وثمة تمثال للملك ايشتوب . إيلوم.

ويقارن بارو بين هذه التماثيل ولا سيما رأسها مع المنحوتات الناتئة علة ما سمي باسم " تابوت الاسكندر " الذي اكتشف في مدينة صيدا في لبنان، حيث ثمة تشابه متين بين الأشخاص المعممين في المنحوتة الهلينية / العصر الهليني / وبين التمثالين، حيث يفصل بينهما حوالي 1500 عام.⊗

وهذا إن أشار إلى شيء فإنه يؤكد على عمق التواصل الحضاري في حيزّه الفني بين مواقع المشرق العربي عبر العصور.

⊗ انظر ـ اندره بارو ـ سومر ـ مرجع سابق.

وفي مجال آخر، فإن تمثال ربة الينبوع الذي صنع من الحجر الأبيض والذي يدل على ربة الخصب التي تجلب الماء، سر الحياة. فهو تمثال ينطوي على خدعة، حيث أن الماء المسكوب في الخزان يرتفع شاقولياً حسب نظام الأواني المستطرقة في قناة محفورة في قلب التمثال وحتى الجرة التي تمسك بها الآلهة بيديها.

حيث يبدو للناظر أن هذه الآلهة تريق الماء، مع ملاحظة أنه يوجد على ثنيات ردائها أسماك صاعدة وهابطة.

ويشير بارو إلى أهمية هذا التمثال بالقول:

" يستحيل أن يكون تمثال آخر أكثر تعبيراً، ولم يعرف علم الآثار الشرقية وجهاً ذا تقاطيع أكثر دقة ".(46)

الجدير ذكره أن طول التمثال 1,42 م، ويبدو وأنه كان موضوعاً قرب حوض مشيد بباحة قصر زمري ليم. وبشكل عام " يبدو أن ثمة مدرسة فنية مؤثرة ومتأثرة بأساليب النحت الكنعاني مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، في المشرق العربي بمدنه ماري وبابل وإسين ولارسا وأشنونا وغيرها، حيث يبدو أن مجمل نحت هذه الفترة في تلك المدن ينتمي إلى مدرسة فنية واحدة".(47)

ويحيل بارو، موضوع المزهرية الغوارة / كما في ربة الينبوع / إلى الفاعلية الرافدية، حيث سبق للسومريين أن أولوا هذا الأمر مكانة رفيعة جداً في حقل الفن.

ويشير إلى اقتباسه من قبل العموريين الذين نقلوه بدورهم إلى الغير.

أيضاً كشفت التنقيبات في ماري عن وجود أسود برونزية منحوتة تحرس معبد دجن وساحته، حيث يحاكي نمطها الاسلوب الواقعي.

وبالنظر إلى هذه الأسود وما تبقّى منها، نجد وجه الأسد المعبّر عن التيقظ الوحشي، فالأعصاب متوترة، والفك منفرج، وثمة احساس عال بالحركة والوثوب ضد أي دخيل على الحرم المقدس.

وقد عمد الفنان إلى انجاز العينين الكبيرتين اللتين صنعتا من حجراً أبيض اللون، أما بؤبؤهما فمن حجراً أزرق ملون ما يعطي بذلك صفة التعاكس اللوني التي تخلق ايحاء خوف وحذر.

ويشير بارو في حديثه عن هذا العمل الفني إلى أن الفنانين في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، كانوا هم الأساتذة السابقون في صنع الحيوانات.[48]

وبشكل عام فإن الاتجاه الذي ساد في ماري في مجال فن نحت التماثيل الحجرية، كان اتجاهاً واقعياً، فالتمثال يشبه صاحبه، إن كان في الحجم أو الشكل أو الإيحاء وثمة تناسب بين الأعضاء كافة، وتفوق في إظهار حالات الحكمة والهدوء والسكينة لدى الشخوص ".

وكانت التماثيل تلك توضع في المعبد كتماثيل نذرية. وغالباً ما صنعت التماثيل تلك من حجر الألباستر.

ويبدو أن ثمة حركة شعبية فنية تجارية في ماري / كما في تدمر لاحقاً / حيث أن ثمة ورشات تعمل على صنع هذه التماثيل، وكانت تتواجد في جانب المعابد لتسهيل العمل ونقل التماثيل إليها.

ويلاحظ في تماثيل ماري، الذكرية، وجوه ملتحية وكأنها لحية مستعارة ويبدو أنها تختص بطبقة في المجتمع.

وثمة تماثيل لرجال حليقي شعر الرأس، وكذلك حليقي الذقون.

أما تماثيل النساء، فمن كن يخدمن في المعبد، تظهر تماثيلهن وهن يلبسن قبعة متطاولة.

أيضاً ثمة تماثيل عبارة عن نسخ غير شخصية يمكن لمن يريد أن يشتريها ويكتب اسمه عليها وتوضع في المعبد أيضاً.

وتتشابه وجوه التماثيل في مدينة ماري، فالعيون محفورة ومنزلة بالصدف أو العاج لبياض العين، وبحجر اللازورد، وأحياناً القار لسواد العين.[49]

لعل من أهم هذه تماثيل هذه الفترة تمثال الرب شمش الذي نذره يسمع أدد حاكم ماري، حيث ثمة إصرار على تمثيل هذا الإله فوق الجبل تقليداً لسنن الفنانين السابقين في مدينة ماري بالذات.

يظهر التمثال في نصفه العلوي، عار، أما في نصفه السفلي فهو عبارة عن شكل مخروطي محبوك كالدرع ليرمز إلى الجبل، ويشد على خصره نطاقاً عريضاً، وثمة تشابك في اليدين، أما اللحية فمضفورة.

أيضاً ثمة رأس محارب من المرمر عثر عليه في ماري. لا يوجد مثيل له إلا في الرسوم الجذرية لقصر زمري ليم. ارتفاعه 20 سم وينمّ عن تعابير رجل وقور مبتسم له أنف طويل وحاد وذو شفتين رقيقتين ويرتدي خوذة يشدها زناق.

الرسوم الجدارية:

تشير المعطيات الدراسية والبحثية حول التكوينات والتلوينات والرسوم الجدارية في ماري، ولا سيما في القصر الملكي، إلى كونها تصّور وبوضوح الروح الإبداعية التي ألهمت الفنانين في منطقة الفرات الأوسط في تلك الفترة.

فجاءت نتيجة بنية فنية دمجت ما بين الآرث الفني الرافدي في الألف الثالث قبل الميلاد والباقي من ذلك العصر، والمذهب الطبيعي الواضح في المفهوم العموري للفن بشكل عام.

ويشير أندره بارو إلى أن عوامل عديدة ساهمت في ايجاد هذه المدرسة الجديدة في فن الزخرفة، ولو أتيح لها الزمن الكافي للنضوج لأنتجت أحد أرقى العصور الفنية في تاريخ المشرق العربي.[⊗]

وإن كان قصر ماري الملكي قد شكّل متحفاً للتماثيل وفن النحت فإن ما أبانه من رسوم جدارية متبقية رغم عوادي الزمن يعطي دلالة على مبلغ الارتقاء الفني الذي وصل إليه فنانو ماري.

وقد حوت جملة من الغرف بالاضافة إلى ساحات القصر على تلك الرسوم منها من هو عائد إلى عصر الفاعلية التاريخية

[⊗] يشير، و. بارابر، إلى الرسوم والتلوينات الجدارية التي تزين احد صالات قصر ماري، تعّد من أقدم الرسوم الفنية في العالم، حيث تمَّ هذا العمل عبر رسمه على طبقة من الجبس وتحتها طبقة من الطين، وتم تنفيذ الرسم بعد جفاف الطبقتين. انظر فيصل عبد الله ـ قراءة في خمسة مجلدات عن ماري دراسات تاريخية 37 - . دمشق.

لمملكة أور في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد / عصر حكام الشكاناكو في ماري /.

هنا حيث كشفت التنقيبات الآثارية على وجود زخارف جدارية في قاعة الاستقبال 132 في قصر ماري، وتعود إلى عصر الحاكم بوزو عشتار 2050 ـ 2025 ق.م.

وقد أمكن تحديد مضمون هذه الزخارف المهشمة بعد ترميمها، حيث حوت على رسوم لإله يتقبل من الحاكم، الضحية، وثمة آلهة شفيعة ورجال من الحاشية.

الحاكم يبدو في الرسوم، مرتدياً قبعة تشبه الخوذة، وثوبه مشقف بكتف يسرى عارية، حيث يصب الماء من كأس في يده فوق إناءين كعبيهما مرتفعين، والماء يتدفق ليسقي الأرض الجبلية التي يجلس عليها الرب وخلفه الثور. ويعلو هذا المشهد تكريم الربة عشتار الجالسة على عرشها وخلفها إلهة، وكذلك أمامها التي تقدم لها قصعة. وضم المشهد أيضاً عناصر لثور مجنح له رأس إنسان.(50).

وفي العصر العموري وعهد زمري ليم، يبدو أن الفنانين حافظوا على هذا النسق الفني في مجال المحاكاة والتقليد. وتم تزيين جدران الباحة 106 بمشاهد ملونة وأشكال مختلفة.

حيث نشهد، مشهد موكب أضحية يقوده رجل / ملك أو كاهن / ويتبعه الخدم الذين يقودون الثور للذبح، وعلى رؤوسهم نلحظ قلنسوات مكورة وتتدلى من أعناقهم قلائد، مع ثياب يلبسونها ذات أطراف مزوقة بالخمائل. احتوى هذا المشهد على ألوان مثل الأحمر والأبيض والأسود والأزرق. وأسلوبه واقعي، ذو أشكال تتميز بالحيوية. ولعل من أهم الأعمال الفنية في هذا المجال ما عرف بلوحة تنصيب ملك ماري زمري ليم، " L'INVESTITURE DE ROI DE MARI " حيث عثر عليها في الجدار الخارجي المحاذي للمدخل المؤدي لغرفة العرش، حيث مكانها الأصلي.

يتألف التصميم من لوحتين، علوية وسفلية، في اللوحة العلوية يشاهد الملك وهو يرتدي زياً أنيقاً مزخرفاً وقبعة. حيث يستلم شعار الآلهة عشتار التي تضع إحدى قدميها على ظهر أسد. وثمة في المشهد عدد من الشخوص والآلهات. أما اللوحة السفلية فاشتملت على شكلين للآلهة والمزهرية التي يتدفق منها الماء.

ويلاحظ أن الآلهة ترتدي ثوباً ذي أهداب وتحمل إناء يتدفق منه جدول من الماء تسبح فيه الأسماك.

ويحيط بالمشهد كاملاً للوحتين، إطار مصنوع من بواسطة ألواح طويلة تصور النخيل وأشجار أخرى، تظهر بين أغصانها الطيور والحيوانات الأسطورية والآلهة.

وقد أجمعت معظم الدراسات ذات الصلة بهذه اللوحة، على أنها تمتلك قيمة فنية عظمى حيث نُفذت بأسلوب واقعي، ووزعت الأشكال على سطح اللوحة بحيث ملأت الفراغ مع مزيج لوني شمل طائفة من الألوان، الأحمر، البني الغامق، الأسود والأبيض بالاضافة إلى الأزرق.

الجدير ذكره أن هذه اللوحة كما معظم الرسوم الجدارية نفذت على الطينة.

وفي مناقشته لهذه اللوحة، يشير بارو إلى أن هذه التكوينات / الرسومات، كانت تصويرية بكل ما في الكلمة من معنى وهي تؤلف تكملة أو إيضاحاً على سطح مستو للتماثيل التي عثرنا عليها. ويشير في الوقت نفسه إلى وجود شجر مرسوم باسلوب هندسي مقابل شجر مرسوم باسلوب واقعي. ويلحظ في تلك اللوحة صدى لشجرة الجنة / الحياة والخير والشر /،

والملائكة التي تحرس شجرة الحياة وتمنع الاقتراب منها، وأنهار الجنة الأربعة.

ومن بين اللوحات الجدارية المهمة ما احتوته قاعة الجمهور في القصر الملكي وهي ما أطلق عليها لوحة " تضحية الماء بالنار "، حيث تمثل مشاهد عبادة وتقديم الشراب، في حين تظهر أشكال اسطورية مروعة تذكر باسطورة " الإينوما ايليش " " عندما في الأعالي " عبر رموزها / تعامة وشمش /.

وبشكل عام فإن ما نقش من رسومات على الجدران من مضامين، سوف نشاهد مثيلاً له في الأختام الأسطوانية وكذلك على اللوحات الطينية المشوية. وجلَّ ما نتبينه هو اتجاه فني واقعي لجهة الأسلوب امتزج مع الأبعاد الاعتقادية، وحتى اليومية ليشكل في النهاية ذهنية فنية حضارية تميزت بها فنون ماري. ولسوف تَعْبر مع الزمن باتجاه الألف الأول حيث سنشهد مع الفاعلية الآشورية الحديثة تطوراً في مجالات الفنون هذه والتي استقت من منابعها الكائنة في الألف الثاني قبل الميلاد في المشرق العربي بعامة وماري بخاصة.

القوالب الطينية:

أبانت تنقيبات ماري عن وجود قوالب مصنوعة من الطين، عثر عليها في أنقاض القصر الملكي. وهذه القوالب منها ما هو دائري الشكل أو مستطيله.

وقد استخدمت لتشكيل مواد غذائية وحلوى مثل الجبن والمعجنات والزبدة واللبن. وتتراوح أقطار القوالب الدائرية من 18,6 . 28,7 سم، أما المستطيلة فتتراوح أبعادها بين 23,5 × 19 سم أو 23,6 × 12 سم.

وقد احتوت نقوش تلك القوالب على مشاهد طبيعية لنبات وحيوانات / شجرة فوق جبل، غصن شجرة يقفز عليها ماعزان / وتتميز هذه الأشكال بالواقعية.

كما احتوت بعض القوالب الأخرى على نقوش لحيوانات مثل سبع يهاجم ثوراً في حقل، ونقوش لصيد الأيائل حيث نجد صياداً يمسك بقرني الحيوان في وقت يهاجمه كلب الصيد من الأمام.

أيضاً نعثر على قوالب تحتوي نقوشاً لأربعة رجال ملتحين يرقصون الدبكة، حيث يسيرون إلى اليمين ويلتفتون لنفس الجهة وهم يمسكون بأيديهم، في حين رفع كل رجل، رجله اليسرى، بينما بقيت الأرجل الأخرى على الأرض في وضعية تشابك،

أثبتت قدرة الفنان على رصد أدق الحركات والتعبير عنها بواقعية وفنية عالية.

وثمة قوالب أخرى احتوت على حيوانات مفردة أو طيور تحوم حول بعضها أو تسير في حلقات متموجة.[51].

وعلى حد قول الباحث حميدو حمادة من أن كل قطعة طعام مقولبة كانت تحكي قصة.

أيضاً ثمة قالب حلوى اشتمل على نقش لامرأة عارية تسند ثدييها، في حين زينت رقبتها بأطواق غليظة، ولُفّ شعرها بقماشة على شكل عمامة وقد اعتقد أنها تمثل إلهة الخصب وأطلق عليها اسم الإلهة العارية.

فن النقش على الأختام الأسطوانية:

نعتقد أنه قبل مقاربتنا لموضوع النقش على الأختام الأسطوانية، من أن نورد لمحة عن هذه الأختام ودورها ووظائفها وزمن ظهورها، كي يمكن لنا أن نحيط بموضوعها كاملاً.

الختم الأسطواني:

يعود ظهوره إلى زمن اختراع الكتابة في المشرق العربي أي إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، ويبدو أن الدافع الأساسي وراء ظهوره يكمن في الشأن الاقتصادي والتجاري وأمور الملكية

الفردية. ولا يعرف إلى الآن حضارة أخرى ابتكرت هذا المنجز الفني فهو إبداع مشرقي تميزت به حضارة المشرق العربي.

في الشكل، الختم هو عبارة عن قطعة أسطوانية يخترقها ثقب طولاني. وثمة أختام بطول يتراوح بين 5 ـ 7 سم وهي شائعة في حين كانت أبعادها مع أول ظهورها بين 8 ـ 10 سم.

وعلى السطح الخارجي للأسطوانة، يتم نقش أشكال ومواضيع ناتئة وغائرة وحين سحب هذا الختم على مادة طرية، فإن الأشكال والرسوم والنقوش تنطبع على تلك المادة وأكثر ما استخدمت هذه المادة من الطين.

وباطراد مع الزمن كان التطوير في تقنية صناعة الختم يؤكد نفسه.

فمع بدايات ابتكاره كان يصنع من أنواع هشة من الحجارة كالحجر الكلسي والالأباتر والستياتيت وحجر السرياتيتن واللازورد ولب القواقع البحرية.

وفي الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، تم التحول إلى استخدام المواد القاسية كالهيماتيت والعقيق اليماني واليشب والعقيق الأحمر والأماتيست والكريستال الصخري والكوارتز والجذع وحجر الكالسيدون.

وفي عصر الفاعلية المارية الأولى والتي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، شاع استخدام الهيماتيت.

وقد عثر في مواقع المشرق العربي على أعداد كبيرة من العلب المعدنية المخصصة لحفظ الأختام الأسطوانية في داخلها.

أما في مجالات استعمال الختم الأسطواني، فتشير المعطيات إلى عدة استعمالات له متوافقة مع الأزمنة منذ ابتكارها ثم مع اختراع الكتابة.

فاستخدمت كطمغة للسدادات الطينية التي كانت تستعمل في سد فوهات الجرار والأواني، منعاً من فتحها والوصول إلى ما تحتويه. وهذا كان مع بداية ظهور الختم.

أما طريقة العمل في ذلك، فتتم بوضع قطعة قماش أو جلد فوق فوهة الإناء أو الجرة مباشرة ثم تغطى هذه القطعة من كامل جهاتها بكتلة من الطين الطري، ثم يجري دحرجة الختم الأسطواني فوقها فيتم طبع رسوم الختم ونقوشه على الطين. وإن وصلت هذه الأواني المغلقة والمحكمة الإغلاق إلى هدفها فكان يتم كسر الكتلة الطينية المطبوعة بنقوش الختم وترفع قطعة القماش أو الجلد ويتم الوصول إلى محتويات الجرة أو الآنية.

ومع استخدام الكتابة على الألواح الطينية، استعملت هذه الأختام كطمغة لها، وذلك لغاية توثيق محتوياتها. وقد شاع هذا الأمر في الألف الثاني قبل الميلاد.

ولعل استخدام الختم في طمغ الأواني والجرار، يُعبّر عن شيوع الملكية الفردية، هذه الصفة الملازمة لعالم الألف الثاني قبل الميلاد ويعود أيضاً إلى فترة الفاعلية الأكادية في النصف الثاني للألف الثالث قبل الميلاد.

وبذا صار الختم هو المُعبّر عن الشخصية الفردية الاعتبارية للتاجر والحرفي وكافة النشاطات الاجتماعية والفاعليات الاقتصادية.

ومن الطريف أنه حين كان يفقد الختم الشخصي لأحد الأشخاص، كان عليه إخبار السلطات الرسمية التي تتجه إلى الإعلان عن فقدان الختم، حيث يتم نفخ البوق في شوارع المدينة للحيلولة دون استعمال الختم المفقود من قبل شخص آخر.(52).

وفي موازاة ذلك، فإن استخدام وشيوع الختم الأسطواني كان متزامناً مع البنية السياسية للنظام في مدن المشرق العربي فإن كانت الفاعلية السومرية شهدت نظامها السياسي القائم على

ثنائية القصر والمعبد، فإن الأختام اقتصرت على المؤسسات الرسمية.

ومع ظهور معالم فصل الدين/المعتقد عن الدولة ولا سيما في فترة الفاعلية الأكادية، شاع الختم الشخصي، الذي عَبّر عن شيوع الملكية الفردية في المجتمعات المشرقية وهذا ما يتبدى جلياً في الألف الثاني قبل الميلاد.

ومن طرائف تلك الفترة، أن الوثائق تشير إلى عدم وجود أختام لدى بعض المتعاقدين وهنا يلجأون إلى صنع أختام سهلة الصنع من الطين والخزف، أو يستخدمون أظفار اليدين أو طرف الرداء بديلاً عن الختم. كما يمكنهم استخدام ختم شخصي لرجل آخر ولكن يذكر في الوثيقة، نوع الختم البديل.

الجدير ذكره هنا، هو أن ثمة أختام لنساء تعود إلى الألف الثالث، مع قلة لهذه الظاهرة في الألف الثاني وكانت الأختام تنتقل من الأب إلى الأبن وإلى الأحفاد أيضاً.

وثمة دلائل على وجود أختام للآلهة، وهذا يشير إليه الدارسون، حيث أن الملك الآشوري أسرحدون / 680 . 669 ق.م /، استخدم طبعة الختم الإله آشور على أحد الوثائق الكتابية، وبدراسة اسلوب النقش لهذا الختم، دلَّ الأمر على أن هذا الختم ربما يعود لفترة الفاعلية الآشورية في الألف الثاني ق.م.

ما يعني أن بعض الأختام بقيت قيد التداول لفترة طويلة من الزمن.

وفي حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ظهرت الكتابة لأول مرة على الأختام الأسطوانية، حيث كانت تتضمن اسم مالك الختم الأسطواني ومهنته. ومع الزمن أخذت الكتابة تتوسع لتشمل كلمات جديدة مثل الوالد والإله والملك، ثم أصبحت تحتوي صلوات وتعاويذ وأدعية.

المواضيع المنقوشة على الختم الأسطواني:

منذ ابتكار الأختام، تشهد التحريات الأثرية العثور على أختام أسطوانية تحمل مواضيع عدة⊗، منها:

مشاهد دينية وطقسية، معارك، حيوانات مفترسة، كائنات أسطورية وخرافية، حيوانات أليفة / بقر . أسماك /.. ومع الألف الثالث وباتجاه ثلثه الأخير، نجد تنوعاً في المواضيع المنقوشة على الختم، فثمة زخارف هندسية وحيوانية ونباتية غير مميزة،

⊗ يشير الدكتور علي أبو عساف إلى أن الختم تطور عن التميمة التي كانت تستخدم لطرد الأذية والبلاء، وذلك منذ الألف الخامس قبل الميلاد. انظر ـ آثار الممالك القديمة في سورية. مرجع سابق.

وقد تحولت أشكالها إلى زركشة شبيهة بزركشة الثياب وأطلق عليها اسم " البروكار ". كما عثر على طبقات أختام لأشكال بشرية وحيوانية، ويبدو سيطرة لموضوع حماية الإنسان للحيوانات الأليفة وقتله للحيوانات المفترسة على مجمل مواضيع الأختام.

أيضاً نجد مواضيع منقوشة تختص في تصوير مجالس الشراب وابتكرت في هذه الفترة أشكال جديدة تختص في الجمع بين الإنسان والثور المقدس.

كما ثمة دلالة عبر اللقى الأثرية على أن المواضيع المنقوشة قسمت إلى مشاهد على شكل مربعات، وتم إضافة اسم صاحب الختم على النقش أو اللوحة واسم الإله أو الآلهة.

مع الإشارة إلى أن فنان هذه الفترة، تجاسر وعمّق أشكاله في سطح الختم حتى تظهر بارزة عند الطبع.[53]

وفي عصر الفاعلية الأكادية التاريخية 2350 . 2150 ق.م، نحا الختم الأسطواني ولا سيما في عصر نارام سين، إلى الأخذ بمواضيع عديدة منها:

. مشاهد عراك الحيوانات، مجالس الشراب، المثول أمام الآلهة، تمثيل الآلهة.

وفي فترة الفاعلية العمورية . الكنعانية مع الألف الثاني قبل الميلاد،

استمرت المواضيع القديمة في الاستعمال والنقش، ولكن ظهرت مواضيع جديدة، ولا سيما موضوع تمثيل الأرباب مع شعاراتها. مثل، ربة الحرب التي تدوس بقدمها فوق الأسد وهي مسلحة، إله الشمس والمنشار بيده اليمنى والجبل تحت قدمه اليمنى. الرب ذي الصولجان، إله الطقس يقف فوق ثور ويحمل بيده صورة البرق.. الخ.

كما نعثر على نصوص خطية في وسط الأختام محاطة بها ربتان. بالاضافة إلى مواضيع لمصارعة بين اشخاص.

الأختام الأسطوانية في ماري في الألف الثاني قبل الميلاد⊗:

لم تفترق المواضيع المعالجة والمنقوشة على الأختام الأسطوانية والتي عثر عليها في ماري، سواء في الألف الثالث أو في الألف الثاني قبل الميلاد، عن الخط الفني ـ الذهني العام لحركة الفن في المشرق العربي.

⊗ اعتمدنا في مناقشة موضوع الأختام الأسطوانية بشكل عام على مؤلفات عديدة منها، آثار الممالك القديمة للدكتور علي أبو عساف، تاريخ الفن في العراق القديم ـ الجزء الأول ـ د. صبحي رشيد ـ بغداد ـ الأختام الأسطوانية في سورية ـ دليل معرض الأختام الأسطوانية في سورية هارتموت كونه وآخرين. 1980 ـ معهد اللغات الشرقية القديمة/جامعة توبنغن. ومصادر أخرى.

فمن منحى الحياة الاعتقادية ورموزها، إلى الحياة الأدبية والزراعية والبيئية نجد أننا أمام كم هائل من الأختام التي كشف عنها موقع مدينة ماري.

فثمة ختم أسطواني صنع من الحجر الأبيض نقش عليه مشهد اعتقادي يشمل الإله شمش يجلس فوق مرتفع جبلي، ويلاحظ ارتداؤه لثوب طويل يدعى " الكوناكس "، ونلحظ وجود تاج فوق رأسه مزين بعدة قرون، في حين تدلت من رقبته من الخلف، جديلة من الشعر، وقد أمسك الإله صولجاناً بيده اليمنى، له رأس كروي، وإلى أمامه نجد في السهل إلهة الخصب بلباس طويل ولها قرنان، ويخرج من جسمها بعض أغصان الشجر في حين تحمل بيدها شجرة باسقة. كما تشاهد خصلة شعر على ظهرها.

وإلى الخلف منها يقف إله الحقول وهو يحمل آلته الزراعية ويضرب الأرض بها. وخلف الإله شمش نجد ربة تشبه ربة الخصب تحمل إناء نذرياً في حين يخرج من جسمها بعض الأغصان. ونلحظ أيضاً نجمتان لها ثماني فروع، تدل إلى رمز الربوبية.

إن إيحاء هذا المشهد يعطي دلالة على حاجة إلهة الخصب إلى إله الشمس وتضرعها له من أجل الخصوبة

والربيع. ويحمل ختم آخر، مشهداً يُعنى بمجريات ملحمة جلجامش، في مشهد صراع جلجامش مع الأسد. علماً أن موقع ماري أمدّنا بأختام كثيرة تختص بهذه الملحمة.

الجدير ذكره، أن بعض الرموز الاعتقادية / الآلهة / والذين نقشوا على الأختام، كانوا يشبهون تماثيلهم المنحوتة من الحجارة أو المصنوعة من المعدن، كما أن الضفائر التي نراها على نقوش الأختام نجد مثيلاً لها في الرسومات والتلوينات التي وجدت في قصر ماري وعلى الجدران.

وفي تل ليلان / شباط انليل /، عثر على رقيم طيني عليه طبعة ختم، حيث حوى هذا الرقيم على حقلين منفصلين بضفيرة وقد مثل القسم العلوي مشهداً أسطورياً معقداً وفيه الآلهة تقتل ثوراً أما السفلي فيظهر مشهد صراع بين الحيوانات.

يعود هذا الرقيم المختوم إلى حوالي 1790 ق.م، وقد ورد في النص " ساميا، خادم شمشي أدد ".

ومن موقع ترقا/تل العشارة، ثمة ختم أسطواني يتحدث نقشه المرسوم عن إلهة على عرشها وأمامها ملك عابد وإلهة شفيعة ويعود إلى حوالي 1900 ـ 1800 ق.م.

كما قدم هذا الموقع ختماً آخر لإلهة مع طير ترحب بملك يحمل حية وغزالاً. وإلى جانبهما أسد وعقاب يهاجم غزالاً. وقد

تم فصل المشهدين بضفيرة ويعود إلى حوالي 1750 ـ 1600 ق.م.[⊗]

[⊗] للمزيد انظر ـ دومنيك بوناتز ـ هارتموت كونه ـ الأنهار والبوادي ـ التراث الحضاري للجزيرة السورية وما حولها. دمشق 1999 ـ وزارة الثقافة.

التجارة والنشاط التجاري في مملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد:

إن مقاربة الحياة التجارية والتبادل التجاري لمملكة ماري في هذه الفترة، يجعلنا أمام جملة من المعطيات، أهمها أن النشاط التجاري والتبادل السلعي لمنتجات المملكة مع الممالك الآخرى، ساهم في ازدهارها. حيث أن ماري العمورية كانت تجني الأرباح من تربية الحيوانات والمواشي، أكثر من الزراعة. وكانت فقيرة نسبياًً كون أن النظام الزراعي مرتبط بنظام الري والذي لم يكن كافياً بحال من الأحوال ولا سيما في حالات المناخ الجاف. لهذا فإن الوثائق في ماري تشير إلى شح المحاصيل، ورغم أن الملك أمر باتخاذ الإجراءات الضرورية لتوسيع أقنية الري ونظامها، فإن المحاصيل بقيت عاجزة عن سد الاحتياجات الزراعية لهذه المملكة.

وتشير المعطيات الوثائقية إلى حصول مجاعة في ماري، في عهد زمري ليم، مما دفعه لطلب المساعدة من ملك يمحاض

عبر مندوبه في القصر الحلبي، وقد طالب زمري ليم، بإرسال القمح الحلبي إلى ماري، من قبل ملك حلب ياريم ليم.[54] كما أن ثمة معلومات عن انتقال شحنات من الدقيق عبر إيمار إلى ماري.

وكون أن ماري، كانت تتميز بغزارة القطعان من الماشية، فقد اعتمدت على ذلك، في صنع الألبسة وبكميات كبيرة، وقيامها بالمبادلات التجارية بذلك وكان التجار يأتون إليها ليحصلوا على الإنتاج الصناعي كالملابس والبرونز والأسلحة.

" حيث كانت قطعان الماشية تنتقل من إيمار وعبر مملكة ماري إلى يمحاض، أو يتم نقلها فقط إلى ماري كمبادلات تجارية "[55]

فإذن يمكننا مقاربة العامل التجاري وطيفه في مملكة ماري وفق ثلاث دوائر:

الأولى: هي التجارة بين مملكة ماري وممالك المشرق العربي الأخرى المعاصرة لها.

الثانية: هي التجارة في مملكة ماري، بمعنى تجارتها الداخلية.

الثالثة: وهي تجارة المملكة مع مدن ما وراء المشرق العربي، شرقاً أو غرباً، كما جنوباً أو شمالاً.

كذلك، يرتبط مع كل هذا وفي موازاة المبادلات التجارية، عامل آخر يختص بعائدات المرور للقوافل التجارية، البرية والنهرية، والتي حققت منها ماري أرباحاً خيالية، وهذا مع ما نطلق عليه اصطلاح " الجمارك " على البضائع والسلع العابرة.

الجدير ذكره أن القصر الملكي في ماري، كان مركزاً لكل الفاعليات التجارية للمملكة⊗ .

تجارة ماري مع ممالك المشرق العربي المعاصرة لها:

لا تنفصل الحياة التجارية وأنشطتها بشكل عام عن الواقع السياسي الذي كان قائماً آنذاك ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، لذا فإن العلاقات التجارية بين ممالك المشرق كانت في وجهها الآخر، تعبيراً عن العلاقات السياسية فيما بينها، وعلى هذا نتوقع علاقات تجارية قوية لمملكة ماري مع ممالك يمحاض، وقطنة وبابل، وحاصور وأوغاريت / التي لم تكتمل فاعليتها التاريخية بعد / وكذلك مع إيمار التي كانت تدور في فلك فاعلية يمحاض، ومع مملكة كركميش أيضاً وجبيل.

⊗ تشير المعطيات إلى أن تجارة القصر في ماري، كان يديرها وينظمها موظف ملكي يدعى وكيل التجار / وكيل تامكاري /، وكان هذا مسؤول أيضاً عن تحصيل رسوم الجمارك.
انظر - دول وحضارات في المشرق العربي القديم - فرزات ومرعي. مرجع سابق.

كما تنبغي الإشارة إلى أن نمط العلاقات الاقتصادية ـ التجارية، في الألف الثاني بين الممالك في المشرق العربي، يمنح دليلاً كافياً على طبيعة دورة الحياة الاقتصادية في شقها التجاري بين مختلف الممالك آنذاك.

بحيث أن دورة الحياة الاقتصادية الواحدة، كان يمكن أن تُشكّل دفعاً باتجاه نوع من التوحيد السياسي بين الممالك، غير أن غلبة المصالح المدينية أو " الممالكية " على الوعي الاتحادي الأشمل، هو الذي كان يحكم نسق دورة الحياة الاقتصادية. فكما أسلفنا كان ثمة حالة تحالفية بين ممالك بابل ويمحاض وماري، أساسها التقاء المصالح بينهم، والوقوف في وجه تحالف أشنونا وعيلام. ونلحظ أنه في غياب هذا التحالف الأخير، فإن طبيعة العلاقات بين هذه الممالك تعود إلى اعتيادها الطبيعي وايقاعها المستمر وفق المصالح المدينية.

وعلى هذا لا نستغرب ذاك الصراع الخفي بين مملكة ماري ويمحاض على احتواء إيمار، لا بل وسعّي توتول إلى الانضمام لفاعلية يمحاض. في دليل على غياب الوعي الاتحادي الأشمل.

ثم سوف نذكر، أن دمار فاعلية مملكة ماري وإنهاء وجودها، كانت نتيجة لتضارب المصالح الاقتصادية ـ التجارية،

بين مملكة بابل وبينها، ما حتمَّ ضرورة تدميرها لتعيش الفاعلية البابلية.

رغم أن كل هذا حصل في وقت كان الوشاح العموري يطغى على جميع الممالك، لا بل إن القرابة الدموية محققة، إن كان بين سلالة يمحاض مع سلالة ماري أو سلالة شمشي أدد الأشوري العموري والذي تعتبر ترقا مسقط رأسه.

ومع هذا فإن دورة الحياة الاقتصادية . التجارية المستندة إلى العامل الاجتماعي والروحي، والديمغرافي أيضاً، تتيح لنا فهم إيقاع الحركة والمبادلات التجارية بين ممالك المشرق العربي، وكأنها تتناغم وفق ناظم واحد، عنيتُ الناظم المديني والمصلحي لكل مملكة.

وعبر كل هذا فإن ماري شكّلت وفق موقعها الاستراتيجي والمحوري دوراً هاماً في العالم التجاري آنذاك، مستفيدة من موقعها ومن نهر الفرات كمعبر مائي لهذا فقد امتازت بدور مزدوج، فهي محطة لعبور القوافل، أو لتفريغ البضائع ثم إعادة شحنها إلى مدن أخرى. / علي أبو عساف 1991. /

وهنا تنبغي الإشارة إلى أنه في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، ازدهرت تجارة القصدير في المشرق العربي، حيث كان يستخرج من مواقع شمال غرب ايران، ولعبت

ماري في القرن الثامن عشر دوراً أساسياً في تصديره إلى مدن المشرق مثل حلب وكركميش وقطنة وحاصور، حيث كان يخّزن في مستودعات قصر ماري. أما القصدير العابر في أرض المملكة فكان يخضع لضريبة عبور، حيث يذكر أحد النصوص ضريبة عبور " 5 مينات ونصف من القصدير ضريبة " ARM VII 233:19 ويبدو أن ماري لعبت دوراً مهماً في تجارة القصدير آنذاك، بين الجناح الرافدي والجناح الشامي الممتد من كركميش شمالاً وحتى شمال فلسطين جنوباً، كما وعبر أوغاريت إلى عالم البحر الايجي ولا سيما كريت وقبرص.

المبادلات التجارية بين مملكة ماري ومملكة يمحاض:

منذ أن ساهمت يمحاض في إعادة زمري ليم إلى عرش ماري، دخلتْ المملكتان في علاقة تحالفية متينة أساسها المصالح المشتركة. كما ساهم الزواج السياسي بين العائلتين الحاكمتين في تمتين هذه العلاقات.

وبالإشارة إلى مملكة يمحاض في تلك الفترة حيث كانت تسيطر على طرق التجارة الدولية بين الجناح الشرقي للمشرق العربي، والأناضول وشمال سورية ومصر، وهذا الممر تسميه المراجع التاريخية بالممر السوري العظيم.[56]

وهذه السيطرة لم تأتِ من فراغ، ولعل ممكنات البيئة الطبيعية لهذه المملكة، بالإضافة إلى عدم دخولها في صرعات وحروب تنهكها / كما كان الوضع مع إبلا /، ساهمت في استقرار ازدهارها وقوتها على مدى العصور.

والمعلوم أن يمحاض / حلب كانت منطقة زراعية تنتج الزيوت والنبيذ وغيرها .. وتصدر القمح والزيت والخمور والألبسة المتقنة النوع والصنع. كما ساهمت في تجارة الأخشاب والأحجار الكريمة.

وكان من مصلحتها التجارية والاقتصادية القصوى، أن تكون علاقتها بماري تلك الواقعة على الفرات الأوسط، وهمزة الاتصال بين جناحي المشرق العربي، جيدة، بل وتحالفية أيضاً.

لذا فإن المعطيات الأثرية والتاريخية، تشير إلى أن ماري كانت الوسيط الأهم ليمحاض في علاقاتها مع مدن الجناح الشرقي للمشرق، كما أن لماري مصلحة تجارية مع يمحاض في علاقتها مع مدن الساحل السوري/ أوغاريت /. وقد كان النبيذ يأتي إلى ماري من يمحاض، كما السمسم الحلبي، وبالإضافة إلى السمسم القادم من مدن فلسطين عن طريق يمحاض ثم عبر الفرات إلى ماري.

كما أن النحاس كان ينتقل من الأناضول عبر يمحاض إلى ماري.⊗

الجدير ذكره هنا، هو وجود ممثل لملك ماري زمري ليم في حلب يدعى نورسن، حيث كان مسؤولاً عن تأمين مادة الزيت لملك ماري.(57)

وفي الاتجاه المعاكس، كانت ماري محطة تصدير القصدير القادم إليها من عيلام وايران باتجاه يمحاض وكركميش وأوغاريت.

واستوردت من يمحاض أيضاً العسل والصوف والأواني والزيوت والقمح والحليّ والأواني المعدنية والحبوب بشكل عام. ⊗⊗

وكان النبيذ الحلبي يعتبر من الهدايا التي يفتخر بها ملك ماري، وكان سعره أغلى عشر مرات من سعر القمح وأقل مرتين من سعر الزيت.(58)

كما وتذكر وثائق ماري أن سكانها كانت لهم قوافل لنقل القصدير / من كبادوكيا الآشورية / حيث كانت قيمة القصدير 1

⊗ يشير هورست كلينغل أيضاً إلى ذكر وثائق ماري / في السنة التاسعة من حكم زمري ليم / إلى إرسال كمية من القصدير من قبل حمورابي بابل، حيث أودعت في حلب، بينما أودعت كميات أخرى من هذا المعدن في أوغاريت من قبل تاجر من ماري. انظر تاريخ سورية السياسي. مرجع سابق.

⊗⊗ كان القمح يوّرد إلى ماري من يمحاض عبر مرفأ إيمار الواقعة تحت فاعلية يمحاض. أما الزيوت الحلبية فكانت تصدر إلى مدن الجناح الرافدي عبر ماري.

/ 10 من الفضة، وكان يباع في يمحاض وغيرها، ويشترون بما ربحوه، النبيذ.

وفي نص ماري ARM VII 86، نقرأ عن إرسال خمسين مينة / 25 كغ / من القصدير إلى ملك حلب ياريم ليم، وكذلك إرسال عشر مينات / 5 كغ / إلى رجلين هما / أبي . أدو، يابجور . أدو / مناصفة.

كما ثمة وثيقة أخرى تتحدث عن إرسال وزنة / BILTU / وثلاث وخمسين مينة وثلثي المينة / 56 كغ / إلى مدينتي يمحاض وقطنة.

كما ثمة قصدير مرسل إلى يمحاض / 10 كغ / و / 9 / كغ.[59]

الجدير ذكره أنه في ماري أناس متخصصون في تجارة القصدير، ويبدو أن ثمة احترافاً لديهم في هذا الأمر،

وقد أوردت نصوص ماري أسماء لبعض هؤلاء ومنهم: نانا . مانسي، أخوشينا، ماهنوب . إل.[60]

وتذكر إحدى الوثائق من ماري A.16، وهي عبارة عن رسالة أرسلها شخص يدعى " مبتو " يمكن أن يكون مسؤولاً في منطقة قرب أشنونا يخبر فيها ملك ماري عن إرسال قافلة من

القصدير"/ 29 حماراً، 44 متاجراً بالبرونز / يحملون القصدير وصلوا هنا من أشنونا، سيّرتهم إلى سيدي".[61]

ومن مراسلات القصر حول المواد المستوردة نقرأ مثلاً: . رسالة من أحد موظفي ماري إلى سيده يسمع أدد / حين كانت ماري تحت فاعلية آشور /:

" بالنسبة لزيت تونيب، الذي ذكره سيدي، لا يوجد أي زيت تونيبي في حوزتي. وهكذا لا أستطيع إرسال أي شيء. ولكن حالما سمعت ذلك كتبت إلى حلب بسرعة، فإذا أرسلوا إليّ بشيء، فسوف أرسله إلى سيدي". / ARM . V 63 /.

ويحتفظ الزيت بأهميته في الحضارة السورية، فهو المستخدم في الطقوس الاعتقادية كما في الإضاءة والطعام، والمآتم وأعمال وشؤون الدهن والتداوي به، كما كانت الزيوت تدخل في صناعة العطور التي برعت فيها مدينة ماري. وقد حوت مستودعات القصر الملكي على الزيوت وبكميات كبيرة، وقد تم احصاء حوالي 11 نوعاً من الزيوت، مستخدماً في ماري ARM VII P. 176 – 184 يمكننا تحديدها كما يلي:

زيت الزيتون، الزيت الممتاز، حيث كان يتألف من زيوت عديدة من الآس والقدور واللبان والدهن المعطر المصفى. زيت الزعفران، زيت السرو، زيت تامريروم TAMRIRUM، زيت

الأرز (زيت البلح)، زيت اللبان / علم الدين أبو عاصي.2002 ./

وكان لزمري ليم اهتمام خاص بعالم الزيوت والعطور.

أما عن طريق التجارة بين حلب وماري / الذاهب والراجع /، فإن المعطيات تشير إلى وجود كلا وسيلتي النقل، البريّ والنهري. فقد كانت قوافل الحمير تنقل البضائع من حلب إلى إيمار، ثم من مرفأ إيمار عبر السفن إلى ماري.

وفي معرض إشارته إلى الطريق التجاري الدولي للمواد الأولية، يشير الدكتور فيصل عبد الله إلى اتجاه آراء بعض الباحثين على أن هذا الطريق في فترة زمري ليم وحمورابي، كان يبدأ من الصين وأفغانستان وينتهي في حلب والآلاخ، حيث يتابع إلى بحر إيجه والأناضول. ويشير إلى أن أهم تلك الموارد على الإطلاق هو القصدير.(62)

وتنبغي الإشارة أيضاً إلى أن يمحاض وكونها كانت تُشكل وسيطاً بين ماري وأوغاريت، فإن البضائع التي كانت تصدر أو تستورد عبر أوغاريت مع قبرص وكريت، كانت تمرّ إلى حلب ثم إلى ماري أو من ماري إلى حلب فأوغاريت فالعالم الإيجي.

أيضاً تشير المعطيات إلى وجود أشخاص يعملون لخدمة قصر ماري في مدن متعددة، فأحد الأشخاص مثلاً وكان

يمحاضياً / حلبياً، كان يعمل لصالح ماري كخبير في الخشب كما يقوم بتثبيت ألواح الأرز المستوردة من كركميش. ARM. VIII. 242.

ومن طرائف الوثائق في العلاقة بيم ماري ويمحاض، ثمة رسالة من رجل يدعى لاؤوم حيث يبدو أنه مرسل على رأس قافلة إلى البلاط الحلبي زمن حكم حمورابي الحلبي، ونتيجة تعرّض بعض أعضاء الوفد إلى الازعاج والمضايقات يكتب هذا إلى زمري ليم:

" أقول لمولاي، هكذا خادمك لاؤوم، ذهبنا من أجل وجبة مع حمورابي ودخلنا إلى القصر وقد أعطونا، أنا، زمري . أدو . وياريم أدو، ثياباً لنلبسها، ورجال يمحاض الذين ذهبوا معنا أخذوا ملابس ليرتدوها. وهكذا كل واحد كان يرتدي ملابس من يمحاض. ولكن خدم مولاي، رسل SASIKKIM لم يأخذوا ثياباً، هكذا أتكلم عن سلوكهم إلى سن . بيل . أبليم قائلاً: " لماذا تفصلوننا وكأننا لصوص؟ خدم من نحن؟ خدم من هم رسل SASIKKIM، كلنا خدم مولاي ". ARM II 76.

المبادلات التجارية بين ماري ومملكة كركميش / جرابلس /:

تشير الوثائق إلى تصدير القصدير إلى كركميش / وزنة واحدة إلى ملك كركميش أبلا خاندا، و 2.5 مينة إلى شخص آخر[⊗]. كما يذكر نص آخر 50 مينة من القصدير إلى أبلا خاندا الملك وسبع مينات مرسلة إلى صدقم لاناسي وهذا هو سفير ماري في كركميش ويبدو وأنه مهتم بالشؤون التجارية.

واستوردت ماري الحلي والأواني المعدنية من كركميش وكذلك وصلها النبيذ من بلاط كركميش كهدية للقصر الملكي. كما استوردت الزيوت منها / تذكر النصوص إرسال 10 جرار من الزيت إلى ماري /.

وكان النبيذ يشحن من كركميش عبر الفرات حيث يمر من ميناء إيمار في مراكب خاصة له، حيث كانت المراكب الصغيرة تتسع لمئة جرة، بينما تتسع المراكب الكبيرة لثلاثمئة جرة.

ويبدو أن نبيذ كركميش كان ذا أهمية كبيرة في ماري لمذاقه الطيب، وقد حفلت رسائل الملوك والحكام بذكر تقدمات منه ويشير نص رسالة من ملك كركميش إلى يسمع أدد / حاكم ماري زمن الفاعلية الآشورية /:

[⊗] ARM VII 86.

" إنني أرسل لك نبيذاً ممتازاً لتشربه، وبنفس الوقت أرسل لك طعاماً لتأكل .. إذا لم يكن لديك نبيذ جيد لشرابك، أكتب إليّ وسأرسل نبيذاً ممتازاً لشرابك ". ARM V 5.6 , 13 .

كما يرسل أبلا خاندا ملك كركميش شحنة من النبيذ / 50 جرة / إلى زمري ليم ملك ماري.

وكان التجار يستأجرون مراكباً لنقل النبيذ على الفرات، وفي موقع مدينة ترقا، كان عليهم أن يسددوا الضرائب على الشحنة العابرة سواءً بمثاقيل الفضة أو من النبيذ نفسه، وكانت الضريبة تعادل 10٪ من قيمة الشحنة.

الجدير ذكره أن نصوص ماري تشير إلى عدة أنواع من النبيذ عادي وآخر أحمر بمواصفات جيدة، كما ورد ذكر نبيذ مُعتق ونبيذ وردي معتق ونبيذ المزاعتمار.[63]

ويشير فينيه إلى أن تجارة النبيذ كانت تراقب أحياناً من قبل ملك ماري شخصياً.[64]

كما استوردت ماري العسل من كركميش / ثمة ذكر لعشر جرار أرسلها أبلا خاندا إلى زمري ليم /، وتشير المعطيات أيضاً إلى أن كركميش صدّرت الأخشاب إلى ماري عبر الفرات.

كما استوردت ماري الخيول من كركميش.[⊗]

ومن طرائف العلاقات بين ماري وكركميش، رسالة من أبلا خاندا ملك كركميش إلى حاكم ماري الآشوري / يسمع أدد / حيث يقول له:

" هكذا ترى أن مركز توتول على البليخ / وكان واقعاً تحت الفاعلية المارية / قد حجز 30 خروفاً و50 جرة نبيذ، حتى أنه حجز زوجة صاحب السفينة .. إكتب إذن إلى توتول لفك حجزها. وفي مملكتي قام الموظفون لدى سماعهم الخبر بحجز عدد كبير من البضائع المرسلة إلى ماري وأخرى إلى توتول ". ARM V 9

وتشير نصوص ماري إلى وجود رجال معتمدين من قصر ماري في كركميش لتسهيل والاشراف على المواد التجارية المستوردة، فتشير النصوص إلى رجل اسمه داريا، متخصص في استيراد منتوجات من كركميش إلى ماري ولا سيما الخشب

[⊗] يشير الدكتور علي أبو عساف في دراسته غير المنشورة بعد " إيمار وحوض الفرات الأوسط بين مملكتي ماري وإبلا " 1991، إلى أن الوثائق / رسائل سفير ماري في كركميش / تشير إلى أنه كانت هناك عربات تجرها الثيران استخدمت في نقل العنب والحبوب.
وثمة رسالة من كركميش إلى زمري ليم جاء فيها: لقد تكلمت مع أبلا خاندا بخصوص الجياد البيضاء. وهو (أجاب) أنه لا يوجد جياد بيضاء للعربات .. سوف أكتب إلى حيث يوجد وسوف يرسلها إلي، حتى ذلك الوقت سأرسل جياداً حمراء من خارسمنا / الأناضول /. انظر ـ علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق صـ 69 ـــ

والنبيذ.⊗ وثمة دلائل على وجود مركز له هناك يدير عبره أعماله المختلفة.

كما تشير النصوص إلى أن أي تجارة من قبل مراكز ومدن مملكة ماري مع المدن خارج المملكة يجب أن تمر على المركز / القصر في ماري، حيث يزود التاجر بتصريح للسماح له بذلك.

فثمة وثيقة / رسالة من حاكم ساغاراتوم التابعة لمملكة ماري ويدعى ياقيم أدو إلى سيده زمري ليم جاء فيها:

" أراد أحد سكان إيكالاتوم أن يذهب إلى كركميش، وكان في حوزته أربع إماء. قال له ياقيم . أدو: دون (إذن) سيدي لا تذهب الإرسالية إلى بلد ثان، كما سألته " لماذا لا تحمل أي لوح (تصريح) من سيدي. " ARM XIV 52

وثمة رسالة أخرى من نفس الحاكم إلى زمري ليم تتحدث عن أحد الخانيين " ورّد دون إذن من الملك، أحد العبيد إلى السوتيين، ولم يلاحظ حرس الحدود ذلك.

وعندما عاد الرجل جالباً معه حمارين وثلاثة رؤوس من الأغنام كثمن للعبد، صادر حرس الحدود هذه الحيوانات. ARM XIV 79.

⊗ ARM VIII 80 : IX 14 , 17.

الجدير ذكره هنا، هو أن سعر العبد كان يتراوح بين 9 ـ 11 مثقال من الفضة. ARM I 29 : 11, VII 117;7;P.33i

وفي مجال الطرق التجارية بين ماري وكركميش، فإن نهر الفرات يقود من ماري إلى كركميش، كما أن الطريق الواصل بين ماري وإيمار تقود شمالاً إلى كركميش.

كما ثمة معطيات تشير إلى وجود طريق صحراوية بين إيمار وماري. ويعتقد أن هذه الطريق تمر جزئياً في حوض الفرات.[⊗]

وكنا ذكرنا آنفاً إلى أن كركميش كانت تصدّر الأخشاب إلى ماري، وقد أبانت نصوص ماري أهمية هدا الأمر، في رسالة من حاكم ساغاراتوم[⊗⊗]، ياقيم ـ أدو، إلى زمري ليم حيث يقول أن:

" 200 لوحاً من خشب الصنوبر الثقيل، وجذعين من الخشب / خشب الأرز / بطول 12 متراً و8 جذوع من الصنوبر بطول 12 م و8 جذوع من الصنوبر بطول 12م قد احتجزت في كركميش ". ARM XIV 31.

[⊗] انظر ـ علي أبو عساف ـ دراسة غير منشورة ـ مرجع سابق.

[⊗⊗] ـ كان لمدينة ساغاراتوم مرفأ غير بعيد عن ملتقى الخابور مع الفرات.

وثمة رسالة أخرى يعلمه فيها عن وصول خشب الأرز إلى سيلازيبوم بصحبة التاجر داريّا، والذي يبدو أنها قادمة من كركميش.

كما ثمة وثيقة / رسالة يعلم فيها موكانيشوم، زمري ليم، عن وصول خشب الأبواب التي طلبها من كركميش، حيث يرد " محور ارتكاز الباب الذي جلبوه من كركميش . لم ألمس ذلك المحور حتى يفحصه سيدي ". ARM XIII ,7

الجدير ذكره، هو أن موقع مدينة كركميش في شمال المشرق الغربي إلى الغرب وعلى ضفة نهر الفرات، شكّل منها، حجر ارتكاز تجاري، نحو مناطق الأناضول وطوروس. وكانت علاقاتها بشكل عام، متوازنة مع الممالك الأخرى.⊗⊗⊗

المبادلات التجارية بين ماري ومملكة قطنة:

لعل العلاقات بين ماري وقطنة، تأخذ بُعداً أساسياً في تجارة الجناح الغربي الشامي للمشرق العربي.

فالمدينتان، تجاريتان بامتياز، وتشكّلان محطات للعبور التجاري، وإن كانت قطنة اعتمدت على الطريق البري، فإن ماري استحوذت على كلا الطريقين التجاريين المائي والبري.

⊗⊗⊗تشير الوثائق في ماري إلى إرسال ملك كركميش أبلا خاندا أحجاراً إلى ماري وقت وقوعها تحت فاعلية آشور ARM V 13 : 9-10 .

وكون ذلك، كان طبيعياً أن تكون العلاقة بين كلا المدينتين / المملكتين، علاقات مصالح قصوى وحقيقية وثابتة. فقطنة هي توّجه ماري نحو سواحل المتوسط، وماري هي حاجة قطنة، للعبور إلى الجناح الرافدي وهذا ما استطاع ملك آشور، شمشي أدد من استثماره حين ضمَّ ماري إلى فاعلية آشور وحين زوّجَ ابنه حاكم ماري يسمع أدد، من ابنة ملك قطنة بغية تعميق التحالف بين المملكة الأشورية / عبر ماري / وقطنة. حيث كانت قطنة تشكل محور المواصلات التجارية، بحيث تخرج منها، الطرق التجارية إلى نهر الفرات شرقاً، وإلى حلب شمالاً، وإلى الساحل السوري عبر جبيل وأوغاريت، وإلى حاصور في شمال فلسطين.

وكنا قد ناقشنا في تجارة الألف الثالث في ماري، أهمية قطنة بالنسبة إليها. وقلنا أن المسافة بين قطنة وماري تبلغ حوالي 350 كيلومتراً، وان الطريق بينهما يعبر من تدمر، عبر البادية، حيث أن تدمر تقع في الوسط بينهما. ولعل هذا الطريق استمد أهميته القصوى في فترة الفاعلية الأشورية، كون أن العلاقة المتوترة بين مملكة يمحاض ومملكة آشور حتّمت الاعتماد على هذا الطريق تحاشياً للطريق الشمالي.

ويشير هورست كلينغل إلى أن العلاقة بين ماري وقطنة أكدتها نصوص ماري التي تذكر مسافرين وتجاراً عبروا البادية السورية إلى قطنة، جبيل، حاصور، قبارة، أشنونا، وعيلام في جنوب غرب ايران.[65]

صدّرتْ ماري القصدير إلى قطنة⊗، وتتحدث النصوص عن إرسال 50 مينة إلى ملك قطنة آموت . بيل، وكذلك عشرين مينة أخرى.

وكنا ذكرنا سابقاً، كيف أن ملك قطنة اشخي . أدد امتعض من حاكم ايكالاتوم الآشوري إشمي . دجن، بسبب إرساله قصديراً رديئاً / حوالي عشرين مينة / مقابل حصانين.

كما أن قطنة شكّلت عبوراً للقصدير المصدّر من ماري إلى مدن الساحل السوري والبحر الإيجي / كريت وقبرص /.

وتشير المعطيات الآثارية أيضاً إلى أن تجار ماري كانوا يذهبون إلى عيلام لشراء المعادن الثمينة والمطلوبة، ومن ثم يفاوضون عليها بشأن توزيعها إلى قطنة ويمحاض وكركميش وأوغاريت.[66]

⊗ خوان فينولوس ـ التعدين في حوض العاصي الأوسط ـ ملخص الندوة الدولية / سورية الوسطى من البحر إلى البادية. 1999

وكانت ماري تستورد الخيول من قطنة، وثمة رسالة من زمري ليم إلى أدد . دوري، تتحدث عن أحصنة بيضاء تم إرسالها إلى ماري .ARM X 147.⊗

ونعتقد في هذا المجال أن ماري كانت تستورد الأخشاب من مدن الساحل السوري والداخل، وتنقلها عبر قطنة، غير أن الوثائق لم تقدم شيئاً في هذا المجال حتى الآن، ويشير الدكتور هورست كلينغل إلى ذلك بالقول،

" عبر الطريق بين قطنة وماري كانت البضائع السورية القادمة من شمال فلسطين، ومن مناطق سوريّة أخرى، كالأخشاب والخيول .. الخ، تنتقل إلى الفرات، ومن هناك إلى بلاد الرافدين ".

كما يشير إلى وجود مركز تجاري لمدينة ماري في قطنة.(67)

" وتذكر نصوص ماري أن حاكم قطنة / آموت بي ايل / أرسل إلى قصر ماري عربات خشبية سريعة، وجراراً من الخمر وأواني معدنية ذهبية وفضية، وبالإضافة إلى القصدير، كانت ماري ترسل الألبسة والمنسوجات والأحذية الجلدية إلى ملك قطنة ".(68)

⊗ جاء في وثائق ماري وصف للخيول البيضاء الواردة من قطنة. " التي تسمع دائماً أنها أحصنة أنيقة حقيقية ".

كما تذكر النصوص خبر أخشاب وردت إلى ماري من قطنة، مرسلة إلى آشور من الساحل المشرقي، وقد أودعت موقتاً في مدينة صبروم / بين ترقا وماري /.(69)

الجدير ذكره هنا، هو أن معظم مدن المشرق ذات الفاعلية التجارية، كان يوجد فيها جمعيات أو منظمات تجارية، / كاروم / للبت والاشراف على الحركة التجارية ومعوقاتها ومشاكلها، كما وتمّثل الوساطة بين التجار والقصر وبين السكان والقصر من جهة أخرى.(70)

المبادلات التجارية بين مملكة ماري وأوغاريت:

كانت أوغاريت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، تشكل فاعلية تجارية يعتمد عليها، ولكن فاعليتها السياسية والتاريخية، لم تكن قد نضجت واكتملت بعد حيث أننا سننتظر حوالي 300 عام كي يتم ذلك.

وفي هذه الفترة / القرن الثامن عشر قبل الميلاد / كانت علاقتها قوية بيمحاض، ويبدو من الوثائق أن العلاقة بين ماري وأوغاريت كانت تتم بوساطة مملكة يمحاض.

وهذا الأمر يتجلى وثائقياً في طلب زيارة أمير أوغاريتي مع مهندسيه، إلى قصر ماري للاطلاع عليه، وتمَّ ذلك عبر وساطة ملك يمحاض مع ملك ماري زمري ليم.

الشيء الآخر، أن أوغاريت شكلت مركزاً للتجارة في هذه الفترة بين العمق المشرقي وكريت وقبرص. وثمة دلائل على زيارة قام بها زمري ليم إلى أوغاريت.

وأيضاً، تذكر الوثائق وجود ممثل لزمري ليم في أوغاريت ويدعى داريش . ليبور.[71]

ويشير هورست كلينغل إلى أن تجار ماري كانوا يلتقون في أوغاريت مع تجار من جزيرتي كريت وقبرص، حيث يتم عقد الصفقات التجارية بمساعدة مترجمين.

وليس هذا الأمر مختص بماري فقط، فالوثائق المارية تشير إلى أن حمورابي ملك بابل، أرسل كمية من القصدير، قسم منها أودع في حلب، وقسم أخرى في أوغاريت، وتم ذلك عبر تاجر من ماري.[72]

كما تذكر نصوص ماري زيارة ياريم ليم ملك يمحاض إلى أوغاريت، حيث رافقته الأميرة " يتار أيا " وأعضاء من بلاط ماري. وثمة شواهد على أن زمري ليم ملك ماري رافق شخصياً ملك يمحاض حتى أوغاريت.

وقد كانت أوغاريت في عهد زمري ليم، تمتلك أهمية خاصة، كونها محطة لتجارة القصدير والنحاس. فالقصدير يأتيها من ماري، في حين أن النحاس كان يستورد من قبرص عن طريق أوغاريت.(73)

إذن، المدينتان شكلتا مفتاح التجارة المتبادلة والعابرة، ماري عبر تجارتها ومحطتها للجناح الرافدي وما وراءه، وأوغاريت عبر تجارتها ومحطتها لعالم المتوسط / كريت . قبرص . آكاريا /.

أما طريق التجارة من ماري نحو أوغاريت، فثمة طريق يخرج من ماري إلى حلب، ماراً بإيمار شمالاً، ثم نحو قطنة مروراً بتدمر، ثم أوغاريت.

وثمة طريق مباشر بين ماري وقطنة، فالساحل المشرقي. وكنا ناقشنا طرق التجارة بين قطنة والساحل المشرقي سابقاً.

الجدير ذكره، أن النحاس الذي كان يَرِدُ إلى ماري من قبرص، كان يتم معالجته في ماري. وكان النحاس ينتقل بالسفن إلى مرفأ أوغاريت ثم عبر الطريق البري / قوافل الحمير / كان يصل إلى ماري.(74)

المبادلات التجارية بين مملكة ماري وإيمار:

تشير المعطيات التاريخية إلى أن إيمار كانت تدور في فلك مملكة يمحاض، وهذا يعني أن لمملكة حلب مرفأ على الفرات، هو إيمار.

لهذا فإن العلاقات بين ماري وإيمار، في هذه الفترة، كانت تمر حكماً عبر العلاقة بين ماري وحلب، وكون أن العلاقات كانت حميمية ومصلحية وتحالفية بين المدينتين، فهذا ما سوف ينعكس على علاقة ماري وإيمار.

ومع هذا فثمة حالات تمرد من إيمار، تختص في طرق تعاملها السيئة مع المسافرين عبرها، ومنهم أحد الفارّين من حاصور إلى زمري ليم، حيث وضع نفسه تحت حمايته.

وذكرنا سابقاً أن مدن كركميش وحلب وماري فرضت حصاراً على إيمار لمعاقبتها.

وثمة وثيقة / رسالة من زمري ليم إلى ملك يمحاض، يشكو فيها ملك ماري، أن سكان إيمار يتعرضون للمسافرين عبرها⊗(75)

أيضاً نلمس علاقة ماري مع إيمار، في منحنى آخر، ذكرته وثائق ماري، حيث أن إيمار عبر غرفة تجارتها / كاروم /، منعت رئيس الجوقة الموسيقية المارية من متابعة سفره إلى

⊗ انظر الملحق الثالث آخر الكتاب.

ماري / حيث كان الموسيقيون في حلب /، وتم حجز المعدات والحاجيات العائدة للجوقة، بسبب أن لتجار إيمار ديوناً على تجار ماري التي لم تسددها.

وهذا ما دفع زمري ليم إلى إرسال ممثليه لتسوية هذا الأمر. (76)

وبشكل عام فمعظم صادرات يمحاض إلى ماري، كان يتم نقلها إلى إيمار، ثم نحو ماري. وهذا ما أشارت إليه الوثائق في تصدير القمح الحلبي إلى ماري، حيث ورد أن ياقيم . أدو ذكر في أحد رسائله عن تعبئة قوارب من إيمار ARM XIV 33;1 – 13. كما ذكرت رسالة أخرى استيراد ماري لـ 180 لتراً من السميد من إيمار. ARM XI 14.

وثمة رسالة للمدعو ياسيم . سومو، حيث يقترح على زمري ليم، استئجار 10 سفن لنقل 300 أوكار من الشعير. ARM T XIII 35.

كما تذكر الوثائق أيضاً، وجود تاجر إيماري، يدعى هاباتان، في ماري حيث في حوزته حوالي 15 كيلوغراماً من البرونز وأنواع الصوف وثلاثة حراب وستون قطعة ملابس. وقد

جاء إلى ماري لشراء هذه المواد من ثم للسفر إلى منطقة البليخ. وكان لهذا التاجر بيتاً في ماري ولديه 5 عبيد⊗⊗ (77).

ويشير الدكتور أبو عساف إلى أن تجار إيمار كانوا يأتون إلى ماري لشراء البرونز.

كما أن ثمة تجاراً من إيمار يبيعون زيت الريحان في ماري ARM XXI 210.

وكانت ماري تشتري الصوف / عند الحاجة / من إيمار / حيث تشير المعطيات الوثائقية إلى شراء ما يعادل طن ونصف من الصوف من أحد سكان إيمار.

كما أبانت الوثائق عن وجود عقود شراء للصوف من قصر ماري بحيث تراوح سعر الكيلوغرام الواحد بين 0.6 – 12. غراماً من الفضة.(78) وتتحدث الوثائق المارية عن قافلة تنقل الحبوب من حلب إلى إيمار تتألف من 1000 حمار، لعلها نحو ماري⊗.

أما طرق التجارة بين ماري وإيمار. فقد ذكرناها آنفاً، ولا سيما الطريق النهري، وذلك الطريق الصحراوي المحاذي لضفة

⊗⊗ يشير الدكتور علي أبو عساف إلى أن هذا التاجر كان له مقر في ماري، يعمل به موظفون لتنظيم حركة نقل بضائع هذا التاجر بين ماري وإيمار. انظر ـ علي أبو عساف ـ دراسات تاريخية 39 - 40.

⊗ لا يخفى أن ماري كانت تصنع الألبسة بكميات كبيرة وتذكر الوثائق وجود تجار من إيمار يحملون من ماري النبيذ والحبوب د. أبو عساف ـ دراسة غير منشورة ـ مرجع سابق.

الفرات. الجدير ذكره أن إيمار في فترة زمري ليم كانت تشكل مركزاً مهماً لتجارة الحبوب وكانت تمتلك ميناء ضخماً يتم فيه تأجير السفن.(79)

المبادلات التجارية بين مملكة ماري ومملكة بابل:

قلنا في مناقشتنا للواقع السياسي سابقاً. أن ممالك ماري وبابل ويمحاض، شكّلت تحالفاً ضد تحالف اشنونا وعيلام، وبذا فإن العلاقة بين ماري وبابل، حتمتها مصالح كلا الطرفين مع بعضهما البعض. رغم أن عالم الوثائق يشي بوجود حذر في تعامل زمري ليم مع حمورابي بابل، يبدو أنه يرجع إلى طموحات حمورابي وتدفق فاعلية بابل لتوسيع مملكتها، بالاضافة إلى البنية التحتية القوية التي تستند إليها بابل في العمق الرافدي والتي جعلتها عبر مكامن قوتها، تفوق مكانة ماري وقوتها.

وقد شكّلت ماري بوابة من البوابات التجارية المتوسطية والشامية لبلاد بابل، ويبدو أن حمورابي البابلي، كان يدرك أهمية منطقة الفرات الأوسط التي تتزعمها ماري، لهذا بقيت علاقته معها تحالفية إلى حين اكتمال " نضج " المملكة البابلية واكتمال

فاعليتها للإجهاز على منطقة الفرات الأوسط، ووراثة عوامل حيويتها التجارية وغيرها.⊗

ويبدو أن ماري كانت تشكّل محطة تجارية بين بلاد بابل وبين العمق المشرقي، فالنبيذ كان يستورد من إيمار وكركميش وينقل عبر ماري إلى بابل. وأيضاً كان النحاس يستورد من قبرص ويعبر أوغاريت ثم ماري في طريقه إلى بابل. وكذلك منتجات جزيرة كريت/ كما استوردت بابل الأخشاب عبر ماري.

وقد أبانت وثائق ماري وآلالاخ أن مجتمع بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، يمثل جزءاً من مجتمع الدول العمورية التي انتشرت في كامل المشرق العربي.(80) وثمة إشارة إلى درجة الحذر التي يبديها زمري ليم تجاه حمورابي بابل، فقد ذكرنا سابقاً أن ماري كانت تعاني أحياناً من مواسم جفاف ما يستتبع أن تؤمن حاجاتها الغذائية وأصوافها من الحلفاء، ويبدو وأنه في أحدى الأزمات تلك، أظهر حمورابي البابلي أنه سيقدم العون لزمري ليم وماري، غير أن ملك ماري فضّل أن يشتري ما تحتاجه ماري من أسواق إيمار.(81)

ومع هذا وفي منحى دبلوماسي، كان ملك ماري يرسل النبيذ، كهدية إلى ملك بابل⊗⊗، وتشير الوثائق إلى إعطاء زمري

⊗ من المعتقد أنه يعد أن دمر حمورابي البابلي، مدينة ماري فإنه ورث تجارة القصدير وتصديره من شمال غرب ايران إلى المدن السورية. فرزات - مرعي - دول وحضارات 1991.

ليم ختمه الشخصي لزوجته شيبتو كي تنتقي من مخزن الخمور، بعضها، كي يرسله إلى ملك بابل كهدية .ARM X 133.

كما تشير المعطيات إلى أن زمري ليم كان يرسل مبعوثين وممثلين عنه ليشاركوا في احتفالات القصر في بابل ARM XXI.P.5 O7. وكذلك يرسل زمري ليم إلى حمورابي، أنسجة وآنية وسلعة كريتية / جورج دوسان /.

وبشكل عام، شكّلت ماري بوابة لعبور مواد الزيوت والمواد الصمغية والنبيذ والأخشاب والحجارة إلى الجناح الشرقي الرافدي. وذكرنا سابقاً أن بابل أرسلت قصديراً إلى حلب وأوغاريت عبر تاجر من ماري.

كما ذكرت وثائق ماري أيضاً أن اللازورد كان يجلب من أفغانستان عن طريق وادي ديالى وبابل.

وكان أهم طريق تجاري يربط بين ماري وبابل، ذلك الذي يصعد بموازاة نهر الفرات من الجنوب الرافدي نحو بابل ثم ماري حيث يلتقي قرب ترقا بطريقين قادمين من آشور وشوباط انليل ثم يتابع نحو حلب ومنها إلى أوغاريت عبر الآلاخ ومناطقها.

⊗⊗ في إشارة إلى مدى قوة وهيبة بابل آنذاك، فقد أقام حمورابي، محطة تفتيش في باصوم القريبة من سيبار وعلى الضفة اليمنى لنهر الفرات، حيث كانت السفن تفتش ولا سيما تلك القادمة من مرفأ إيمار والتي كانت تنقل البضائع مصدرة من حلب. انظر: هورست كلينغل - الحوليات الأثرية السورية 34 / مرجع سابق.

الجدير ذكره، أنه كان لملك ماري قوافل تجارية خاصة به يرسلها إلى الديلمون وبابل.[82]

المبادلات التجارية بين مملكة ماري ومدينتي جبيل وحاصور:

قيما يخص مدينة حاصور في شمال فلسطين، كنا أشرنا إلى معالم التفاعل لهذه المدينة مع عمقها المشرقي عند اكتمال فاعليتها السياسية مع الألف الثاني قبل الميلاد، أما مدينة جبيل على الساحل السوري فإنها تعود إلى ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد، لكنها الآن باتت تشكل مرفأ مهماً إلى جانب أوغاريت في تواصل المشرق العربي التجاري مع عالم المتوسط.

وقد شكلت ماري / كما بالنسبة لأوغاريت / بوابة تجارية للمدينتين الساحليتين تجاه العمق الرافدي.

وقد حوت نصوص ماري معلومات عن وجود تجار من حاصور في ماري ويمحاض وإيمار.

ولعل العلاقات بين ماري وساحل المتوسط وشمال فلسطين، شهدت استمراريتها ولوحظت من خلال النصوص والوثائق الأثرية إن كان في ماري أو أوغاريت.⊗

⊗ للاستزادة يمكن الرجوع إلى دليل معرض الآثار السورية، فيينا، 1985.

وتشير المعطيات إلى تلقي زمري ليم هدية من ملك جبيل هي عبارة عن إناء من الذهب وزنه ثلثا مينة، كما تشير الوثائق / الرسائل إلى وصول ماري، كمية من الذهب والفضة والأحجار الكريمة مرسلة من حاصور التي ربما استوردتها من مصر آنذاك.(83)

كما استوردت الملابس إلى ماري من جبيل حيث كانت منسوجات جبيل مرغوبة بشدة في ماري.

وتشير الوثائق إلى استقبال ملك ماري زمري ليم مبعوثاً من جبيل حاملاً هدية هي عبارة عن ثوب كما يصل القصر أيضاً، قطعة قماشية من شخص عائد من جبيل.(84)

وقد صدرت ماري القصدير إلى حاصور أيضاً.

ومن طرائف الوثائق أنه جرى ايقاف قافلة تجارية في حاصور ذلك لأن ساقياً قادماً من حاصور قد سُلب في إيمار، من المواد التي يحملها ولا سيما المعادن الثمينة المرسلة إلى زمري ليم. حيث نجد أن زمري ليم يطلب من ياريم ليم ملك حلب، البحث عن الجاني في إيمار واسترداد ما سلب منه.(85)

وكان يجري في قصر ماري تكريم البعثات والوفود من الممالك الأخرى، وقد حوت وثائق ماري على ذكر ارساليات لمبعوثين من حاصور وجبيل.

أما عن طريق التجارة من ماري إلى كلا المدينتين فكان يتبع عدة اتجاهات:

الاتجاه الأول: ينطلق من ماري بمحاذاة الفرات / شمال غرب / حتى مدينة إيمار ثم ينعطف نحو الغرب إلى حلب ومن ثم إلى ساحل المشرق العربي,

الاتجاه الثاني: من ماري عبر بادية الشام ليصل إلى سهول حمص فالساحل المشرقي، أو ينعطف عند تدمر باتجاه الجنوب الغربي إلى القريتين نحو دمشق ثم إلى فلسطين.[86]

ويبدو أن الاتجاه الثاني كان أكثر استخداماً كونه مستخدم للسفر أيضاً.

وثمة طريق ينطلق من حلب نحو حاصور مروراً بقطنة.

البُنى والقواعد التجارية الناظمة للتبادل التجاري بين ممالك المشرق العربي في الألف الثاني قبل الميلاد:

ذكرنا في معرض مناقشتنا للتجارة في الألف الثالث، على أنه كان هناك نواظم تنظم قواعد العمل التجاري وتبادل السلع. وان كانت وثائق الألف الثالث في ماري لم تشر إلى ذلك

بوضوح لقّلتها، غير أن مدينة إبلا عبر وثائقها قدمت تلك المعلومات والتي يمكن أن تنسحب على ممالك الألف الثالث في المشرق.

وبالنظر إلى نواظم التبادل والنشاط التجاري في الألف الثاني، نلحظ أن مثل هكذا تعامل وناظم العلاقات التجارية، لا يمكن أن يولد فجأة، بل ثمة عراقة في هذا تعود إلى عصور خلت. خصوصاً وأن مدن المشرق في الألف الثالث كانت ذات فعالية تجارية نشيطة ومفيدة، وعلى الرغم من هذا فإن كل تلك النواظم للعمل التجاري ومبادلاته، اتسمت بالعقلانية، وتحقيق المصالح لكل مدينة ومملكة ضمن خط حضاري واحد وهذا ما نتبينه في أن مثلاً سعر الثور في ماري لم يزد عن 20 مثقالاً من الفضة، وحين نقرأ قوانين حمورابي / المادة 241 / نجد أن سعر الثور في ماري لم يزد عن ذلك الثمن.(87)

وذكرنا أن غرف التجارة / كاروم / كانت تؤمن حقوق التجار وتحّل مشاكل العمل وتأمين الحقوق جراء هذه النشاطات. ويمكن الرجوع إلى فترة التجارة والتبادل التجاري في الألف الثالث لتباين بعض القواعد السائدة في الألف الثاني والتي لا تشذ عما كان سائداً في الألف الثالث قبل الميلاد.

ففي مجال النقل البري التجاري، كانت الطرق التجارية البرّية يحّفها الخطر من غزوات قطاع الطرق، لهذا فثمة على ما يبدو اتفاقيات بين المدن والقبائل المتواجدة في مجالات الطرق، حيث أن كل قبيلة تتواجد في منطقة تعبرها القوافل التجارية لابد لهذه القوافل والمسافرين أيضاً أن يدفعوا رسوماً لها لقاء تأمين الحماية والأمن ووسائل الحاجة الأخرى من قبل القبيلة.

وكانت المدن التجارية على الفرات، تفرض رسوماً على السفن والقوافل العابرة سواء، في النهر أو البر، وتتم جباية الضرائب حسب الحمولة ونوعية البضائع وكميتها.

وفي ماري، كانت تقام مراكز الجمارك التابعة للمملكة ككل، على ضفة الفرات، ويعتقد أنها قريبة من ترقا. وكذلك على فروع الأنهار والطرق البرية وعلى أبواب المدن.

كما تذكر الوثائق أنه لماري اسطولاً نهرياً بقيادة " لاريم بحلي "، كما كانت تُصّنع القوارب[⊗]، كما توتول. وكانت الطرق المائية الطبيعية والصناعية تلعب دوراً مهماً، ولا سيما حين يكملها النقل البري، وتذكر وثائق ماري عل جلب زمري ليم 350

[⊗] تشير الوثائق فترة الفاعلية الآشورية إلى اهتمام ملك آشور بصناعة السفن، وثمة رسالة من شمشي أدد إلى ابنه / يسمع أدد / حاكم ماري، تتحدث عن ضرورة بناء سفن لنقل الحبوب،
" ابنِ ستين سفينة، وقد أمرت بإرسال صيلي ـ إيا بنّاء السفن. اكتب من أجل أن تجلب صيلي ـ إيا لبناء ستين سفينة في توتول. يجب عدم التهاون من أجل السفن ". ARM I 102. ومعلوم أن توتول كانت متميزة بصناعة القوارب.

طناً من القمح بعد رحلة عسيرة من الطرق تمثل رحلة مائية لحوالي 400 كم في قافلة من 10 سفن حمولة الواحدة منها 36 ـ 40 طناً.(88)

الجدير ذكره هنا هو أن الفضة كانت المُعادل الرئيسي في التبادل التجاري, فالحبة تساوي 1/16غ، والمثقال يساوي 8 غ والمينة تساوي 500 غ

وكون أن النقد لم يبتكر بعد بل سننتظر حتى الألف الأول قبل الميلاد، غير أن بعض المعطيات الآثارية تشي باستخدام معادن ثمينة في مجال المبادلة / الفضة . الذهب / حيث عثر على قطع متناسقة تعطي إيحاء باستخدامها في ما يشبه النقد.⊗⊗

الجدير ذكره هنا ، هو أن القوافل البرية اقتصرت على استخدام الحمير.

وكانت ضرائب عبور القوافل من خلال أراضي المملكة يسدد إما بالفضة أو بعيّنات من المواد المتاجر بها، وقد بلغت نسبة ضريبة العبور حوالي 10% من قيمة البضاعة.(89) ⊗

⊗⊗ عرفت الخواتم / الحلقات / كأحد أشكال استخدام الفضة بمثابة النقود قبل العملة ـ انظر، علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.

⊗ تظهر الوثائق أن بعض الضرائب كانت تستوفى عينياً بنسبة 10% على الشعير، 5% - 10% على النبيذ. انظر: علم الدين أبو عاصي ـ مرجع سابق.

كما صنعت ماري العربات لغاية النقل وثمة رسالة من إشمي دجن إلى يسمع أدد تشير إلى تمّيز ماري في هذا المجال:

" صنعت ماري عربات أفضل من أي عربات أخرى " ARM IV 79.

وقد تبيّن وجود عربات بأنواع عديدة، منها عربات ذات عَجلتين، ويعتقد وجود عربات تجرّها خمسة دواب وثمة عربات نقل. ARM VII P 291,358

وتذكر بعض الوثائق حالات تهرّب من دفع الرسوم الجمركية عبر تهريب البضاعة بشكل مخفي، وثمة رسالة من ياستيوم إلى إدينيا توم تشي بذلك:

" بالنسبة لقاربي النبيذ العائدان إلى إيباتان ، أحد القاربين قد ملئت جوانبه بجرار النبيذ، وقد وصل منذ شهر مضى. وقد دفع على ذلك الجزء حصته / ضريبة /. خذ ثلاثين جرة من النبيذ ضريبة من 600 جرة من النبيذ التي يحملها ". ARM XIII 99.

أيضاً ثمة إشارة في الوثائق إلى طرق نقل الأخشاب عبر الأنهار، فمنها ما هو في السفن، وهو غالي الثمن، ومنها ما ينقل عبر تطويفه في النهر نزولاً، وثمة رسالة من حاكم ترقا كبري . دجن إلى زمري ليم يخبره أنه أرسل له أخشاباً على مياه النهر، وأنه سيرسل له أخشاباً فوق المياه أيضاً.(90)

ويبدو أن أكثر ما كان يسبب المتاعب للقوافل البرية، التجارية، هو هجمات قطاع الطرق، وتزخر وثائق ماري بأخبار غزواتهم على المسافرين وعلى القوافل التجارية.

وتشير النصوص إلى تعرض أحد السقاة للسطو، وكان في طريقه من حاصور إلى ماري، وكان يحمل مواداً ثمينة وأحجار كريمة. وحين مرَّ بإيمار، تم السطو عليه وسلب كل ما يحمله، لكنه تمكّن من أن ينجو بحياته ويهرب إلى ماري.

كما تذكر النصوص حادثة سطو أخرى على قافلة متجهة إلى الإخوث في أعالي الرافدين، حيث قتل قائد القافلة و13 شخصاً، وتمَّ سلب 10 حمير محمّلة بخشب الأرز الأبيض، وحصان. ولم يتمكن سوى رجلين من ماري من الإفلات من الهجوم بالاضافة إلى 8 رجال من الإخوث. ARM II 123.

وكان المبعوثون والوافدون إلى مدن، يتمتعون بحماية المدينة أو المملكة، وتذكر النصوص رسالة من بخدي ليم حيث وصلت وفود إلى ترقا:

" مجموعة من المبعوثين من يمحاض وقطنة قد وصلت. أبي اشتارت، باباني . إيل ، أتلي . عشتار، ثلاثة مبعوثين من بابل، قد وصلوا أيضاً من يمحاض مع حارسهم سامسو . إيشار، ونفسه مبعوثاً من يمحاض، هم مسافرون إلى بابل. سن .

إمي، مبعوث من إيكالاتوم، مع زودان، حارسه من يمحاض، يسافر غداً إلى إيكالاتوم، يربا . أدد، مبعوث من قطنة، وقد أُرسل إلى سيدي: وقد جاء بدون حارس. الآن، قد جهزت أحد الرجال ليرافقهم وقد أرسلته إلى سيدي ". ARM VI 14

ومن طرائف الوثائق حول هذا الأمر، هو امتعاض حمورابي البابلي من ملك عيلام فيرسل له:

" سوف أرسل المبعوثين العيلاميين عائدين إلى سيدهم بدون أي حراس ".[91].

ويشير هورست كلينغل إلى أن القوافل والرسل كانوا يتوقفون في ماري للراحة والتزود بالطعام والماء والحاجيات، ولإصلاح معداتهم وعرباتهم، أو للتبادل السلعي. ومقابل هذا كانت ماري تجني الرسوم والأرباح.[92]

طرق التجارة والتبادل التجاري بين ممالك المشرق العربي في الألف الثاني / عصر زمري ليم /:

إزاء مجمل التبادلات الاقتصادية . التجارية، بين ممالك تلك الفترة في المشرق العربي، والتي توحي وكأن ثمة دورة حياة اقتصادية . تجارية قائمة على وحدة المصالح وعلى البعد الاجتماعي . الروحي، نجد أننا أمام شبكة من العلائق التجارية المتينة أساسها تحقيق مصالح كل مملكة في أمورها الاقتصادية والسلعية.

وفي موازاة هذا كان لابد أن نشهد وجود شبكة من الطرق التجارية، تصل بين مدن هذه الممالك ضمن المشرق العربي. مع ملاحظة أن نهر الفرات لم يكن فاصلاً بين الجناحين، بل كان عامل توحيد للمصالح وأحياناً عامل حروب ونزاعات لأهميته التجارية.

وقد أمدتنا نصوص ماري وبابل بمعلومات عن طرق التجارة في منطقة الفرات الأوسط، بحيث يمكننا تصنيف الأماكن التي كانت تأتي منها القوافل إلى أربع مجموعات:

المجموعة الأولى: وتشمل مدن أواسط الرافدين/ بابل . اشنونا . سيبار / حيث كان للأخيرة مكتسب تجاري في ماري /، وكذلك عيلام.

المجموعة الثانية: وتشمل مدن شمال الرافدين: ارابخا . قبارة . آشور . إيكالاتوم . كرانه . كحت . شوباط انليل . كردا.

وهنا في هذا الطريق لعب نهر الخابور الذي يسير جنوباً ليصب في نهر الفرات الأوسط، الدور الأمثل لسلوكه من قبل تلك المدن والامارات.

المجموعة الثالثة: وتشمل مدن الساحل الشرقي، حيث تذكر الوثائق المسمارية عن ذهاب جماعات تجارية من شمالي الرافدين إلى مدن الساحل والعودة منها.

وكان اسم قطنة يتردد باستمرار بسبب وجود حلف عسكري بين كل من شوباط انليل وماري من جهة مع قطنة من جهة أخرى.

ويبدو أن الطريق البري المار من البادية الشامية عبر تدمر حظي بأهمية كونه يستخدم للسفر إلى قطنة وجبيل وحاصور.

المجموعة الرابعة: وتشمل مدن شمال الجناح الشامي، حيث كان يتم الوصول إليها عبر ميناء إيمار.

ويشير كلينغل إلى أن الطرق بين مدن ومراكز المجموعات الأربع، تلتقي عند نقطة التقاء الخابور بالفرات. لهذا فقد حظيت ماري بأهمية استراتيجية تجارية.[93]

أما عن طرق التجارة في عصر ماري العموري، والتي تربط بين المشرق العربي بساحله السوري، الفلسطيني، فتشمل ثلاث طرق تتداخل مع ما سبق من المجموعات التي ذكرناها، وهي:

الطريق الشمالي: الذي يصعد بموازاة الفرات من الجنوب الرافدي نحو بابل ثم ماري ويلتقي قرب ترقا بطريقين قادمين من آشور وشوباط انليل، ثم يتابع نحو إيمار وحلب ومنها إلى أوغاريت عبر ألآلاخ.

وقبل إيمار كان هناك طريق يتفرع منه يمتد عبر الرصافة والطيبة على أطراف البادية الشامية حتى قطنة.

الطريق الأوسط: حيث ينطلق من ترقا ويجتاز البادية الشامية نحو الغرب باتجاه السخنة ثم تدمر فقطنة ومن قطنة يتجه إلى جبيل عبر منعطف حمص.

وكان الطريق من ترقا إلى قطنة يستغرق 10 أيام.

الطريق إلى الجنوب المشرقي: حيث ينطلق من حلب إلى الجنوب نحو حاصور عبر قطنة، ويمكن للقوافل أن تترك طريق البادية عند تدمر لتسير نحو نشالا، ثم تلتقي بالطريق العام من حلب وتتابع رحلتها عليه.[94]

وكنا قد ذكرنا في طرق تجارة الألف الثالث، الطرق التجارية المتجهة من قطنة نحو الساحل المشرقي.

ولعل وجود ماري في الفرات الأوسط، جعل منها عقدة الوصل بين مجموعة من الطرق التجارية في اتجاهاتها الأربع:

فبالاضافة إلى طريق ماري . قطنة فالساحل المشرقي وفلسطين ثم مصر، نجد طريق ماري إلى حلب، عبر إيمار. ثم يتابع من حلب نحو المتوسط. أو يتجه شمالاً إلى كركميش وهضبة الأناضول، أو جنوباً إلى طريق البادية وثمة طريق يصل بين ماري وآشور، وهو محاذ للخابور، ويصل إلى هضبة الأناضول.[95]

وبشكل عام كانت طرق التجارة النهرية أكثر أماناً من طرق التجارة البرية، لكنها أغلى كلفة.

ويشير كلينغل إلى أهمية الطريق التجاري الذي كان يقطع البادية الشام مروراً بتدمر، حيث أنه يختصر المسافة بين بلاد ما بين النهرين وساحل المتوسط اختصاراً كبيراً.

كما تنبغي الإشارة إلى أن أوغاريت لم تكن وفق كل ما ذكر، قاعدة تجارية لا تمتلك الهوية الحقيقية بها، بل وكما ذكر اسحاق شيغمان في كتابه ثقافة أوغاريت، " أن الثقافة الأوغاريتية بمختلف مظاهرها كانت جزءاً مكملاً للحضارة

الكنعانية العمورية، وقد عسكت في مرحلة تطورها الثقافي الذي وصلنا عبر الوثائق الكتابية الأوغاريتية المستوى الذي وصلته الحضارة الكنعانية الأمورية في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد وأن الكثير من الظواهر التي وصلتنا من مختلف مجتمعات العالم الكنعاني العموري الواقع في آسيا الأمامية المطلة على ساحل المتوسط يعود في نهاية المطاف إلى تقاليد واحدة مشتركة ليست ثمرة تأثير مجتمع واحد ".⊗

التجارة الدولية لمملكة ماري الأمورية:

بيّنا في الفقرة السابقة أن منظومة العلاقات التجارية للمشرق العربي في هذه الفترة، قامت على أساس المصالح الاقتصادية . التجارية المتبادلة بين ممالك المشرق آنذاك، فما هو موجود في يمحاض، قد تفتقد إليه في ماري، وما تمتلكه ماري من موقع استراتيجي، يقابله ما تملكه أوغاريت أو جبيل من موقع استراتيجي في حركة التجارة آنذاك. ولكن، ما يجب

⊗ انظر اسحاق شيغمان ـ ثقافة أوغاريت ـ دار الأبجدية ـ ت ـ د. حسان اسحاق 1988

برأينا أن نأخذه بعين الاعتبار، هو وحدة الحياة الواحدة هذه بين ممالك المشرق العربي، والتي تبدت في وحدة المصالح، وإرادة الحياة المشتركة رغم غياب أي وعي اتحاديّ بين هذه الممالك، وجلَّ ما توصلت إليه هو تحالفات ظرفية لمواجهة أخطار داهمة.

حتى أن هذه التحالفات شابها بعض طغيان المصالح على ما سواها.

ونعتقد لو أن ماري امتلكت القاعدة الزراعية المتينة والبنية الاقتصادية القوية، إلى جانب غناها التجاري وقوتها في هذا المجال لكانت استطاعت أن تقف في وجه دمارها، وهذا ما سوف نناقشه في فصل نهاية ماري. إذن، إن كان الألف الثالث قبل الميلاد قد تميّز باتجاه التجارة المشرقية إلى الشرق من المشرق العربي العربي، فإن الألف الثاني يتميز باتجاهها نحو الغرب وبلدان المتوسط.

وإن كانت معطيات الألف الثالث، تشير إلى أن مدن الجناح الرافدي قد مارست التجارة الدولية مع المواقع الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي، فإن الاتجاه مع الألف الثاني انتقل إلى عالم المتوسط عبر الجناح الشامي. ويعود هذا إلى أن فاعلية المواقع الايرانية قد خبت، ولا سيما تلك التي مارست تجارة

اللازورد وذلك عبر طريقه من أفغانستان إلى المشرق العربي ثم مصر.

أيضاً شهدت حضارة وادي السند، ضعفاً في فاعليتها التجارية وكذلك موقع الديلمون في الخليج العربي.

لذا فإن وثائق بابل في هذه الفترة، تشهد اختفاء ذكر مدن تجارية أو مواقع ساهمت بقوة في التجارة الدولية في الألف الثالث ولا سيما ماجان، مالوحة والديلمون.

وفي موازاة ذلك، يبدو أن مواقع جديدة انبثقت في عالم المتوسط ولا سيما كريت وقبرص. حيث ساهمت منذ الآن في حركة التجارة الدولية.

وقد ذكر اسم قبرص في نصوص ماري / كأقدم ذكر / تحت اسم آلاشا في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.(96)

" كما ذكرت كريت في وثائق الألف الثاني قبل الميلاد في نصوص ماري، وذلك في إشارة إلى استلام قصدير من عدة أشخاص ومن بينهم شخص من جزيرة كريت وشخص آخر من جزيرة كأريا، حيث كان التفاهم يحصل بوجود مترجم. وقد تمَّ استلام البضاعة في أوغاريت التي كانت الوسيط في التجارة مع الجزر الإيجية. ولعل وجود مترجم يؤكد على أن وجود جماعة

من العالم الإيجي قد تطلب توظيف شخص قادر على فهم لغة الآخرين آنذاك. "(97)

ويشير هورست كلينغل إلى أن " نصوص ماري ومصادر أخرى من العصر البابلي القديم، تشير صراحة إلى أهمية وديان نهر الفرات والخابور للأغراض التجارية. وكمعادل لاضمحلال التجارة الرافدية في منطقة الخليج العربي، بزغت منطقة جديدة على جانب كبير من الأهمية في شرق البحر المتوسط لتكون محطة التبادل الحضاري الدولي. وهكذا تحولت جزيرتا قبرص وكريت إلى شريكتين في التجارة ".(98)

ويبدو وأن فاعلية كريت لم تكتمل إلا مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وتشير المعطيات إلى أن القصر الملكي في تلك الجزيرة كان يشرف على التجارة والإنتاج الاقتصادي، وهذا ما أتاح المجال لقيام تجارة بحرية نائية بعثت على تحريك الطلب إلى المصنوعات الأجنبية وبخاصة السلع الثمينة والنحاس والقصدير.

ويشير كلينغل إلى أن كل هذا تحقق اعتماداً على تزايد السكان العاملين في الزراعة وبخاصة جمع العنب والزيتون، وكذلك تطورات في تعدين النحاس وابتكارات تقنية في الملاحة البحرية ولا سيما تجهيزات الشراع(99).

ونتيجة لكل ذلك أصبحنا أمام الألف الثاني قبل الميلاد وفي مطلعه أمام توجه تجاري لجزيرة كريت نحو شواطئ المتوسط الشرقية / الساحل المشرقي /.

وقد أكدت المعطيات الأثرية عن وجود خناجر من صنع كريت في جزيرة قبرص، كما أن الفخار الكريتي بدأ يظهر في قبرص ومدن سواحل بلاد الشام.

أما لجهة جزيرة قبرص، فقد قدمت المعطيات الأثرية أدلة على اتصالات بينها وبين كريت من جهة، وبين بلدان الساحل المشرقي من جهة أخرى.

فمنذ 2300 ق.م شهدت قبرص، نشاطاً في الاستقرار البشري فيها، ترافق مع أهمية متنامية لتعدين النحاس. ولقد تطورت قبرص بصفتها شريكاً تجارياً جذاباً ومنفتحة على جيرانها على الصعيد التجاري، فالفخار القبرصي ظهر في كيليليا السورية / طرسوس / وفي سهل العمق / لواء اسكندرون / وفي تل براك شمالي الحسكة، وفي مواقع عديدة في الجناح الرافدي، كما في الجناح الشامي وكذلك في أوغاريت وتل سوكاس وتل الكزل وجبيل.

" وقد سُجّل وجود عملاء للبلاط الكريتي في الساحل السوري والمناطق المحاذية له "[100]

الجدير ذكره هنا، هو أن التفاعل بين مدن المشرق العربي والعالم الإيجي يعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث، ويبدو أن المبادهة في ذلك صدرت عن جزيرة كريت.

وقد توصل الباحث هورست كلينغل إلى جملة معطيات هي عبارة عن أسباب هذا التطور الاقتصادي والإتصال السياسي والتبادل الحضاري مع مواقع المشرق العربي عبر مدنه الساحلية وذلك عبر:

1 . التطور الكامل للبلاط الكريتي وتجارته البحرية.

2 . ازدياد أهمية النحاس القبرصي الذي وصل إلى مناطق الفرات والتقى هناك بالنحاس المستورد من منطقة الخليج العربي.

3 . ظهور مملكة يمحاض في حلب والطلب على السلع الكمالية المعدنية.

4 . عودة مصر للظهور بصناعاتها اليدوية الرفيعة المستوى والمواد الخام المستوردة من أفريقيا، فضلاً عن ازدياد طلب الأسرة الحاكمة إلى المصنوعات المستوردة من بلاد الشام والعالم الإيجي.

5 . التغيير الذي طرأ على وجهة التجارة في الجنوب الرافدي / باتجاه الجناح الشامي وعالم المتوسط /.(101)

اذن، نحن ازاء بوابات تجارية نحو العالم الخارجي إن كان في مواقع ايران أو مواقع البحر المتوسط والأناضول.

ولعبت أوغاريت دوراً مهماً في ذلك عبر التجارة المارية مع كريت وقبرص. كما لحاصور دورها في التجارة مع مصر. وكركميش كانت بوابة نحو الأناضول كما بابل بوابة نحو المواقع الإيرانية. بالاضافة إلى قطنة ويمحاض كمعابر نحو ساحل المشرق العربي.

وبتنا نعلم أن لماري وجهان تجاريان، الأول كونها محطة للعبور والتبادل السلعي التجاري، والثاني، كونها مصدرة ما ينتج في أسواقها.

وعلى هذا فالتجارة المارية في عهد زمري ليم، شملت كريت وقبرص وحاتوشا في الأناضول، والديلمون / البحرين / في الخليج العربي وعيلام في جنوب غرب ايران.

وقد كانت بوابة كركميش مهمة لماري لجهة الوصول إلى مواقع الأناضول مثل موقع زلبا وخاشوم كما إلى مواقع جنوب شرق الأناضول.

ويبدو أن مدينة سيبار في أواسط الرافدين، وتل الدير كانتا بوابة ماري نحو شرق الرافدين / عيلام.

وتشير نصوص ماري / النص ARM VIII 32 / إلى وجود عيلاميين في ماري / ربما وفد أو تجار / حيث يتحدث النص عن أحوال حفل مقام في ماري:

" إلى سيدي يقول هكذا ياسيم . سومو: تماماً كما كتب لي مولاي، قد جلبوا جرة من النبيذ وكبشين جيدين وبعض الجليد من مولاي، وأخذوا إلى العيلاميين. وكتب لي مولاي قائلاً:

العيلاميون قلقون من الوجبة، وهم مستاؤون من الوجبة، ومن قيمة هداياهم. فإما أن تنظروا أنتم في هذه المسألة أو أحد أفراد حاشيتكم .. وهكذا أرسلت يتار . أدو لينظر على القارب وعلى مؤونتهم، وقد اكتشف أنهم ليسوا مستائين بالنسبة إلى هداياهم أو وجباتهم ولكنهم مستاؤون بالنسبة لأعمال القصر. وقد أخبر يتار . أدو كل شيء حول ذلك. وهكذا قد أرسلت يتار . أدو إليك حيث مولاي قد يسأله عن التقدير الكامل ".

وفي فترة الفاعلية الآشورية، تشير الوثائق إلى قدوم رسل من الديلمون إلى ماري وتسلّم بعضهم في شوباط انليل هدايا بأمر من الملك شمشي أدد.⊗(102)

كما تذكر نصوص ماري وجود رسل في ماري من عيلام. كما أن يسمع أدد أرسل رسالة حين كان حاكماً على ماري، إلى

⊗ شملت الهدايا، زيت، سمسم، صناديق خشبية، صنادل. ARM I 17.

حمورابي بابل حول بعض المعوقات التي رافقت بعثة ماري إلى الديلمون. ARM V 14

إذن، وعبر تجارتها الدولية، استوردت ماري القصدير من شمال غرب ايران وذلك عن طريق مواقع الجناح الرافدي.⊗⊗ ومن عيلام وإنشان أو الهضبة الإيرانية أو أبعد شرقاً وشمالاً، من تخوم القوقاز.

ولا يستبعد ب. لاند سبرغر أن يكون " الحزام القصديري " في بورما وسيام وملايو مصدراً للقصدير القادم إلى المشرق العربي.(103)

وقد أشارت حسابات خزانة القصر الملكي في ماري / زمري ليم / إلى كميات من قصدير مرسلة من ملك سوسة (في عيلام)(104) ويتفق الباحث جورج دوسان مع جورج بوتيرو في أن طريق استيراد القصدير كان ينطلق من دارنكيانا، سوسة، أشنونا، ماري ثم بلاد أمورو في الغرب. DOSSIN OP.CIT.P. 106

وكانت ماري تقوم بدور الوسيط ما بين بلاد الرافدين وبلاد البحر المتوسط في المنطقة الممتدة من كركميش شمالاً حتى مدن شمال فلسطين جنوباً.

⊗⊗ يشير W.F. LEEMANS إلى أن تجارة القصدير كانت تنظم بين آشور ولارسا عبر دجلة، وكانت ماري تحصل على القصدير عبر طريق بري من آشور. / علم الدين أبو عاصي 2002 /

أما لجهة التجارة مع جزيرة قبرص، فإن النحاس الموجود في هذه الجزيرة في جبل ناغاتا، كان يتم استيراده إلى ماري، حيث يعالج في مصاهرها.

ويشير دوسان إلى أن العلاقة بين قبرص وماري كانت مستمرة في المدة الأخيرة من زمن زمري ليم.⊗

وتشير المعطيات إلى جلب ذهب إلى قصر ماري من مصر، وذلك بوساطة مدينة حاصور، ولا يمكن للنصوص أن تقدم أدلة على وجود علاقات مباشرة بين ماري ومصر آنذاك.

أيضاً كان الرصاص يأتي إلى ماري من الأناضول. أما العقيق الأحمر فكان يستورد من أفغانستان وشبه القارة الهندية.

وتشير النصوص أيضاً إلى ورود أوان ذهبية وملاقط وجرار وأسلحة مرصعة بالذهب واللازورد من كريت والبحر الإيجي. كما أن زمري ليم حصل على بعض الحاجات الفنية والصناعات الجميلة من كانيش في الأناضول.[105]

إذن إن النظر إلى التجارة الدولية لمملكة ماري في عهد زمري ليم، ينبغي أن تدرس من خلال شبكة العلاقات التجارية . الاقتصادية للمشرق العربي ككل في ذلك العصر، هذه الشبكة التي استندت على دورة حياة اقتصادية . اجتماعية واحدة، ولمزيج

⊗ DOSSIN O.P.CIT.P. 169 – 170.

ديمغرافي أصبح أساسه عمورياً، جبَّ كل ما سبقه وأضاف عليه وما كان بتقص دورة الحياة هذه، هو دورة حياة سياسية واحدة متأصلة في ذاتها وفي تفاعلها مع الظروف الموضوعية آنذاك, والدولية أيضاً.

مراجع الفصل الرابع

1 . اندره بارو . ماري . مرجع سابق
2 . علي أبو عساف . دراسة 1990
3 . المرجع السابق

4 . فاروق اسماعيل . ماري وشوباط انليل. وثائق الآثار السورية . مرجع سابق.

5 . المرجع السابق.

6 . المرجع السابق.

7 . حميد وحمادة . تل ليلان . دراسات تاريخية 37 . 38 . 1990

8 . كاي كولماير . دليل معرض الآثار السورية . فيينا . 1985.

9 . دومنيك شاربان . المحفوظات الملكية في ماري . المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية IFAPO 1989.

10 . اندره بارو . مرجع سابق.

11 . المرجع السابق.

12 . علي أبو عساف . مرجع سابق.

13 . فاروق اسماعيل . قطنا في وثائق العهد البابلي القديم . الحوليات الأثرية السورية 42 . 1996.

14 . المرجع السابق.

15 . فيصل عبد الله . دور السلالة الحلبية الأولى في تجارة الشرق وشمال سورية في القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد. الحوليات الأثرية السورية . مجلد 43 . 1999.

16 . ألفونسو آركي . حلب في عهد إبلا . الحوليات الأثرية السورية 43 . 1999.

17 . هورست كلينغل . تاريخ سورية السياسي . مرجع سابق.

18 . فيصل عبد الله . مرجع سابق.

19 . حميدوحمادة . مرجع سابق.

20 . علي أبو عساف . مرجع سابق.

21 . فيصل عبد الله. المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الآشوريات . دراسات تاريخية 27 . 28.

22 . هورست كلينغل. حمورابي، ملك بابل وعصره . ت . غازي شريف . بغداد . دار الشؤون الثقافية 1987 .

23 . المرجع السابق.

24 . فاروق اسماعيل . ماري وشوباط انليل وثائق الآثار السورية . مرجع سابق.

25 . المرجع السابق.

26 . المرجع السابق.

27 . المرجع السابق.

28 . هورست كلينغل . إله الطقس السوري والعلاقات التجارية . الحوليات الأثرية السورية 43 .

29 . هورست كلينغل . تاريخ سورية السياسي . مرجع سابق

30 . فيصل عبد الله . المرأة في مملكة حلب / يمحاض / في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . دراسات تاريخية 27 . 28 / 1987

31 . المرجع السابق.

32 . المرجع السابق.

33 . فيصل عبد الله . قراءة في خمس مجلدات من ماري . مرجع سابق.

34 . ايفا شترومنغر . ماري أكبر حاضرة في سورية . ت . قاسم طوير . المديرية العامة للآثار والمتاحف دمشق 1983

35 . فيصل عبد الله . دور السلالة الحلبية . مرجع سابق.

36 . علم الدين أبو عاصي . اقتصاد مملكة ماري . مرجع سابق.

37 . اندره بارو . سومر . مرجع سابق.

38 . عدنان الجندي , الفن العموري . 1972 . دمشق.

39 . علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية . مرجع سابق.

40 . انطون مورتفات. تاريخ الشرق الأدنى القديم . ت . توفيق سليمان . علي أبو عساف . قاسم طوير . 1967 . دمشق

41 . جان لويس هيو . الجزيرة السورية وعلاقتها مع وادي الرافدين . وثائق الآثار السورية . مرجع سابق.

42 . كاي كولماير. العصر السوري القديم . كتاب معرض الآثار السورية.

43 . اندره بارو . مرجع سابق

44 . علي أبو عساف . فنون الممالك القديمة . مرجع سابق.

45 . المرجع السابق.

46 . اندره بارو . ماري . مرجع سابق.

47 . علي أبو عساف . فنون الممالك . مرجع سابق.

48 . اندره بارو . سومر . مرجع سابق.

49 . عدنان الجندي . مرجع سابق.

50 . علي أبو عساف المرجع السابق.

51 . المرجع السابق.

52 . د. فاضل علي . مجلة سومر . العراق . المجلد 20 . 1964

53 . علي أبو عساف . آثار الممالك القديمة . مرجع سابق.

54 . فيصل عبد الله . مقدمة في علم ا~لأكاديات . دار الأبجدية . دمشق

55 . علي أبو عساف . دراسة غير منشورة . مرجع سابق.

56 . شوقي شعث. الحوليات الأثرية السورية. 34

57 . فيصل عبد الله . دور السلالة الحلبية . الحوليات الأثرية . مرجع سابق.

58 . المرجع السابق.

59 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

60 . المرجع السابق.

61 . المرجع السابق.

62 . فيصل عبد الله . دور السلالة الحلبية . الحوليات الأثرية . مرجع سابق

63 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

64 . FINET . LE VIN A' MARI. .

65 . هورست كلينغل . تدمر والتجارة العالمية في عصر البرونز . الحوليات الأثرية السورية 42

66 . هورست كلينغل . تاريخ سورية السياسي . مرجع سابق.

67 . المرجع السابق.

68 . فاروق اسماعيل . قطنا في وثائق العهد البابلي القديم . مرجع سابق.

69 . المرجع السابق.

70 . المرجع السابق.

71 . هورست كلينغل . تاريخ سورية السياسي . مرجع سابق.

72 . المرجع السابق.

73 . المرجع السابق.

74 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

75 . علي أبو عساف . دراسة غير منشورة . مرجع سابق.

76 . المرجع السابق.

77 . المرجع السابق.

78 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

79 . المرجع السابق.

80 . فيصل عبد الله . الأرض والإنسان في الآلاخ في القرن 18 و 15 ق.م . دراسات تاريخية 35 . 1990/36 .

81 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

82 . علي أبو عساف . طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم . دراسات تاريخية 39 . 40 / 1991 .

83 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

84 . المرجع السابق.

85 . المرجع السابق.

86 . محمد حرب فرزات . عيد مرعي . دول وحضارات . مرجع سابق.

87 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

88 . جان كلود مارجرون . وثائق الآثار السورية . مرجع سابق.

89 . فيصل عبد الله . الحوليات الأثرية السورية 43 . مرجع سابق.

90 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

91 . المرجع السابق.

92 . هورست كلينغل . الحوليات الأثرية السورية 34 . مرجع سابق

93 . المرجع السابق.

94 . فاروق اسماعيل. قطنا في وثائق العهد البابلي القديم . الحوليات 42 مرجع سابق.

95 . علي أبو عساف . طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم . دراسات تاريخية مرجع سابق.

96 . هورست كلينغل . التجارة في بلدان الشرق القديم والتفاعل مع جزيرة كريت في الألف الثالث ق.م أضواء جديدة في تاريخ وآثار بلاد الشام . ترجمة فاسم طوير . 1989 .

97 . المرجع السابق.

98 . هورست كلينغل . التجارة ووسائل العيش في فجر العصور التاريخية للجزيرة . وثائق الآثار السورية . مرجع سابق.

99 . هورست كلينغل . التجارة في بلدان الشرق القديم . مرجع سابق.

100 . المرجع السابق.

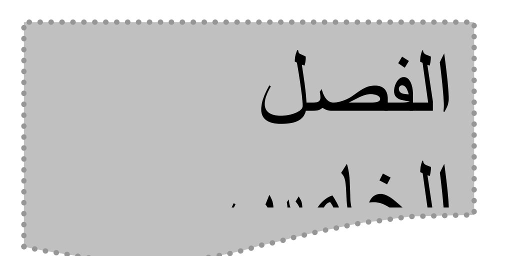
101 . المرجع السابق.

102 . علم الدين أبو عاصي . مرجع سابق.

103 . المرجع السابق.

104 . المرجع السابق.

105 . المرجع السابق.



الحياة الاعتقادية في مملكة ماري العمورية

الحياة الإعتقادية في مملكة ماري العمورية:

إن الذهنية الإعتقادية في ماري العمورية، والتي استندت إلى العامل الاقتصادي ـ التجاري، الذي أدى إلى حالة التنوع في الألوهة، سواء لجهة الألوهة السومرية أو لجهة الألوهة العمورية، كانت تسير في حالة من التعايش والتآلف الديمغرافي ـ الاجتماعي.

وتخلو وثائق ماري من ذكر لصراعات بين رموز إلهية وأتباعها. وهذا يُعبّر عن خاصية مهمة في حضارة المشرق العربي حيث ثمة انفتاح وتفاعل وتعايش تحت سقف الولاء للدولة.

وكما ذكرنا فقد حفلت الحياة الاعتقادية في ماري بالرموز الإلهية ومعابدها، فمن معبد عشتار إلى معبد شمش، ونينهور ساج وعشتارات ونيني زازا، فإن فيض هذه المعابد، يمنح دليلاً على حالة التعايش الاجتماعي، والتألف اللذين ساهما في ازدهار ماري أيضاً.

ووسط كل هذا يحتل دجن، المرتبة الأولى في نسق الألوهة المارية، وكذلك عشتار. وهذا يتوضح أكثر في فترة السيادة العمورية.

ويعود ظهور هذا الإله بفاعليته الاعتقادية إلى فترة الفاعلية الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. ولا سيما في منطقة الفرات الأوسط، ولا سيما أيضاً في مدينتي ماري وترقا. حيث أن ترقا شكّلت مركز أو العاصمة الاعتقادية الأولى للإله دجن.⊗

ويظهر اسم هذا الإله في وثائق فاعلية أور الثالثة / في الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد / في موقع / بوزريش دجن / القريب من موقع مدينة نفر.

ويبدو أنه إله كنعاني . عموري، سرعان ما انتشر في مدن المشرق العربي في الألف الثاني، إن كان في إيسن أو آشور أو إبلا وتوتول ومواقع فلسطين.

زوجة هذا الإله / حسب الاعتقاد العموري / هي شالا ذات الأصل الحوري وزوجة إله الطقس الأكادي، أدد. وإحدى الوثائق العائدة إلى مواقع شمال الرافدين تذكر أن دجن هو والد إله الطقس، وهذا ما نجده أيضاً في وثائق أوغاريت في النصف

⊗ له معبدان في ترقا واسميهما " بيت راحة الموتى " وبيت رعشة البرد ". فولكرت هاز ـ انظر: وثائق الآثار السورية 2002.

الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. كما ورد ذكره في نصوص ماري مع إله الطقس / إتور مير /.

ويشير ويلغرد لامبيرت، إلى هذا الإله / اتور مير / والذي ظهر اسمه في وثائق ماري، ويعني اسمه " بوابة ماري". هو أصل تسمية مدينة ماري.(1)

وفي معرض مقابلة اسم الإله دجن، مع اللغة العربية، نجد أن هذا الاسم يرد / دُجْن، دِجَان، دُجون / تعني الغيم المطبق، المطر الكثير.(2)

ويُلّقب في منطقة الفرات الأوسط بملك البلاد وسيد الآلهة، ويشار إلى أنه إله الحبوب / وهذا يرد في وثائق أوغاريت /. غير أن صفته غير معروفة في الجناح الشرقي الرافدي.

يكتب اسم دجن في اللغة الأكادية على شكل مقاطع: / دا . جان / وكذلك / دا . جا . ان / و / دا . جا . نا / وفي الكنعانية يلفظ داجون، وفي الأوغاريتية كان يكتب بالحروف الساكنة / د. ج. ن /. وكما عثر على معبد لدجن في ماري وترقا، كذلك عثر على معبد له في أوغاريت يوحي بشعبية واسعة له.⊗

⊗ تشير سلفي لاكن باخر، إلى وثيقة / رسالة من ماري إلى أوغاريت تعود لنهاية القرن الثالث عشر ق.م تشير إلى مكانة آلهة ماري في أوغاريت .. انظر ـ فيصل عبد الله ـ قراءة في خمس مجلدات في ماري، دراسات تاريخية ـ مرجع سابق.

الجدير ذكره هنا، هو أنه وفي حوالي 1100 ق.م، كان معبوداً عند الفلستينين في غزة. حيث أنه يتربع قمة مجمع الآلهة لديهم وتقدم له النذور والأضحيات.

أيضاً تحظى عشتار بأهمية جيدة في النسيج الإعتقادي في ماري، لا بل وفي المشرق العربي بعامة.

فنجد معابدها في ماري وأوروك وكيش ونينوى ونوزي وآشور وإبلا .. الخ.

وفي الأسطورة المشرقية أن إنانا / عشتار هي ابنة إله السماء / آن /، وثمة رواية أخرى على أنها ابنة إله القمر / نانا / وثمة روايات من أنها ابنة انليل. كما عند الآشوريين أنها ابنة آشور.

اعتبرت عشتار آلهة الخصب وتتصف بأنها آلهة بلا زوج.

شعارها عبارة عن حلقة قصب: ويبدو . أن صفاتها تتمدد إلى اعتبارها إلهة حرب كما عند الآشوريين. ويطلق عليها حمورابي قي مقدمة قوانينه/سيدة الكفاح والمعارك /.

تظهر في الرسوم الجدارية في قصر ماري ولا سيما في لوحة تنصيب الملك زمري ليم، ويشير أندره بارو إلى هذه اللوحة

باعتبارها وثيقة غير اعتيادية ليس بالنسبة إلى تاريخ الفن فقط، بل وإلى الدين.(3)

فهي تقدم أئتلافاً مدهشاً للعقليتين " السامية " والسومرية، أي الكهنوتية المتمسكة بالتقاليد من ناحية، والخيال الجميل من الناحية الأخرى.

فالقسم الكهنوتي هو القسم الأعلى من المشهد المركزي الذي يبين الملك يلمس الشعارين الذين قدمتهما إليه عشتار في حفل التنصيب الذي كان حضور عدد من الآلهة فيه يضفي وقاراً إضافياً.

كما أن الكهنوتية تمثلت ثانية في تلك الحيوانات الرمزية التي يبدو وأنها كانت تؤلف حاجزاً وقائياً.

ويبدو أن كل تفصيل في هذه اللوحة، له تفسيره في اعتقادات المشرق العربي، غير أن عشتار الظاهرة بأسلحتها وأسدها وتابعها الحيوان، تشي بحضور لذهنية الملك الذي يأخذ السلطة من الإله.

كما أن الرسم الجداري في غرفة الاجتماع في قصر ماري / الغرفة 132 / والذي يضم خمسة حقول، بان منها ثلاثة فقط، حيث تبين وجود رسم لملك يقدم قرباناً إلى إله جالس فوق جبل،

وعلى رأسه هلال. تصحب الملك كائنات سماوية وثمة ثوران يسيران على كل جانب من المشهد.

وكان ثمة عيد لعشتار في ماري، حيث يدوم يومين، وكان النبيذ يسيل فيه متدفقاً.

ويشير بوردروي إلى انتشار عبادة عشتار المارية إلى أوغاريت حيث يبدو أن الأفكار والعبادات كانت تنتقل من الجناح الشرقي والفرات الأوسط إلى الجناح الغربي والساحل المشرقي، وهذا ينقله إلى عالم بحر إيجة.(4)

ويشير فولكرت هاز إلى أنه " في احتفال شعائري لعشتار في ماري، تلا خلاله المغنون الشعائريون، تراتيلاً، حيث قدمت الأضاحي لأرواح الموتى، وأقيمت الاحتفالات لأرواح الملوك الموتى ".(5).

الجدير ذكره، أنه في معبد عشتار في ماري، عثر على تمثال ملك ماري، لمجي ماري. حيث كان الملوك يقدمون تماثيلهم إلى معابد الآلهة تقرباً ومنحاً لبركة الآلهة عليهم.

وذكرنا سابقاً، عن وثيقة / رسالة في نصوص ماري تتحدث عن أن حاكم ترقا ذكّر زمري بأمر من دجن، أن عليه تقديم القربان الجنائزي عن روح والده مرتين كل شهر. ما يمنح دليلاً على تقليد يختص بالطقوس الجنائزية.

الجدير ذكره أيضاً، أن الأضاحي كانت من الخراف الذكور. وقد قدمت نصوص ماري أسماء أكثر من 25 إلهاً، فبالإضافة إلى دجن وعشتار هناك، أدد وإنكي ونينهور ساج وشمش وتموز الذي جاء تحت اسم أماعوشمغال، وكان بجانب الآلهة الأم، عشتار التي تجلت بأربع ظهورات. كما نجد إلهات مثل، أبيرتوم، ننكور ويرجح أن يكونا صورتين لدجن.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنه في فترة فاعلية أور الثالثة، حدث توسع أساسي في عالم الآلهة في ماري حيث ثمة ذكر لإلهات عديدات وبشكل كثيف مثل، بيليت . إيكاليم، نين ايفالا وتسمى هذه، سيدة القصر التي كانت ذات أهمية قصوى في منطقة الفرات الأوسط. وثمة إلهة " نينغال " السيدة الكبيرة وزوجة إله القمر.

كما ثمة آلهة ذكور مثل، لامار، إتور مير، نوغال، وثمة إلهان توأمان هما مشتابة وإشار وميشار.(6).

إن كثرة تعدد الآلهة في ماري يدل على أنها مدينة ذات تنوع وتعددية، حكمتها منظومة تجارية ولا سيما في مجال العبور التجاري والذي يشكّل أداة تفاعل بين ثقافات مختلفة، مع الإشارة

إلى أن جلَّ هذا التفاعل يتم تحت سقف الولاء لدولة المدينة ولخطها الحضاري المشرقي الضارب في القدم.⊗

وكذلك فإن الخط الذهني الإعتقادي في كافة مدن المشرق العربي في الألف الثاني قبل الميلاد، ولكونه يتبع الواقع الديمغرافي ـ الاجتماعي، فإننا نلاحظ تعدداً في الآلهة بين المدن واختلاف في الرموز، ولكن هذا يتبع خطاً واحداً في البانثيون العموري والذي يستند في روائزه العامة على البانثيون السومري ـ الأكادي.

وعلى هذا فإن شمشي أدد العموري / أبن ترقا /، نلحظ أنه يستند في مشروعه السياسي على الإله انليل / إله الرياح، وقد ادعى في وثائقه أن الإله انليل / سيد البانثيون السومري / هو من منحه السلطة وجعله ملكاً.

وعلى هذا فقد أنشأ معبداً للإله انليل في مدينة آشور، وأطلق على المدينة في أعالي الرافدين اسم " شوباط انليل " وتعني مسكن الإله انليل.

أيضاً نلحظ أسماء ولديه، يسمع أدد، والتي تعني كما تفهم بالعربية يسمع الإله أدد، في إشارة إلى اعتبار متقدم للإله أدد. وكذلك في اسم ولده الآخر " إشمي دجن " ويعني في

⊗ يشير ويلفرد جورج لامبيرت إلى أن نصوص ماري قدمت أسماء أكثر من 25 إلهاً مقدساً. فيصل عبد الله. دراسات تاريخية 37 - 38.

الأكادية " الإله دجن، سمع ". وهذا يعطي أهمية لحضور دجن في الحياة اليومية بالاضافة إلى أدد وانليل في آشور.

وبالمقابل، نلحظ أن حلب، كانت تقدم الإله أدد على أي إله آخر، ونعتقد أن هذا معزو إلى كونها مدينة زراعية، يعنيها الإله أدد في صفاته، إله الطقس والرعد وما يتصل بالخصب.

وكون أن المُلك يأتي من الإله، فإن مثلاً ياريم ليم، ملك حلب، وهو ممثل ونائب للإله على الأرض، حتى أنه يستطيع أن يحكي باسمه عبر الوحي الإلهي.

وكنا ذكرنا مضمون وثيقة / رسالة من ياريم ليم إلى زمري ليم، وردت إلى زمري ليم من الإله أدد الحلبي عن طريق الوحي وكان الوجه الآخر من الرسالة / الرقيم يحتوي على الرسالة التالية:

" ألست أنا، أدد سيد حلب، الذي فقّهك من بين الرعية، والذي أوصلك إلى العرش، وإلى منزل والدك ... لقد مسحتك بزيت انتصاري ".[⊗]

الجدير ذكره، أن مملكة يمحاض / حلب، كانت بفاعلية تاريخية قوية، وهذا ما أسبغ على إلهها أدد، صفة القوة أيضاً، وعلى هذا نلحظ أن الملوك من الممالك أو المدن الأخرى، كانوا

[⊗] انظر: ألفونسو آركي ـ حلب عهد إبلا ـ الحوليات الأثرية 43.

يحرصون حين زيارة يمحاض على تقديم الأضاحي لهذا الإله، وقد ذكرت الوثائق عن زيارة لزمري ليم إلى يمحاض وتقديمه الأضاحي لهذا الإله.(7)

كما كان يرسل باستمرار القرابين والأضاحي للإله أدد الحلبي، وقد أمر بصنع تمثال من البرونز تقدمة له، بمناسبة عودته إلى عرش ماري.

وتذكر النصوص، أن الخلاف الذي وقع بين يمحاض وقطنة، والذي ساهمت ماري / زمري ليم / في حلّه، كان من شروط ملك يمحاض للصلح أن يحضر ملك قطنة إلى حلب ليقدم الأضاحي ويحلف أمام الإله أدد في حلب وبشكل عام، وكون أن نموذج المجتمع الذي ساد في ماري شبيه في بابل وآشور في فترة السلالة البابلية الأولى، فإن المعلومات التي يمكن الحصول عليها من نصوص ماري يمكن أن يقال أنها تنطبق على بلاد آشور وبابل.⊗⊗

وكذا العكس، حيث أنه يمكننا مناقشة الطقوس والاعتقادات والشعائر والتي قدمتها مدينة بابل في الألف الثاني

⊗⊗ انظر الفرد هالدار العموريون ـ مرجع سابق.

ونسحبها على ماري مستندين إلى النسيج الاجتماعي العموري أولاً، وإلى التماثل بين مدن المشرق العربي آنذاك.⊗⊗⊗

ويذكر صموئيل هوك في مناقشته للإله شمش في بابل، حيث أن رمزه منقوش على مسلة قوانين حمورابي، وقد كان هذا الإله معنياً بتفسير الوحي إلى جانب الإله أدد. وكان رمزه الذي ينقش على الأختام والأنصاب مؤلفاً من قرص الشمس وله نجم ذو أربعة شعاب في داخله، والأشعة تنبثق من بين تلك الشعاب.

أما الإله أدد، فقد وصف في كتابات " جوديا " بأنه " الراعد " فهو إله العاصفة، ورمزه، الصاعقة التي يمسك بها في يده اليمنى وبيسراه يحمل فأساً وحيوانه المقدس هو الثور المقدس.⊗

أما عشتار / التي باركت زمري ليم في لوحة تنصيبه الجدارية / فقد كان رمزها نجماً ذو ثماني شعب أو 16 شعبة. وتمثل عموماً وهي راكبة ممتطيا المقدسة / الأسد / وهذا ما تبيناه في لوحة التنصيب.

⊗⊗⊗ ذلك كون وثائق ماري في تلك الفترة، كانت تتجه نحو الاهتمام بالشؤون التجارية والعلاقات السياسية.

⊗ حتى في الألف الأول قبل الميلاد، بقي الملوك المشرقيون يقدمون الأضاحي للإله أدد الحلبي، وقد ذكر الملك الآشوري شلم نصر الثالث، في أحد نقوشه / نقش الثور / أنه قدم قرباناً للإله أدد الحلبي في أثناء حملة له على الجناح الغربي الشامي في العام السادس من حكمه. صموئيل هوك ـ ديانة بابل وآشور ـ ت ـ نهاد خياطة.

وكنا ذكرنا سابقاً أن الكهان أو المتنبؤن كان لهم دوراً مهماً في ماري ويدعى واحدهم / نبو /، حيث يقدمون للملك رؤاهم حول مجريات الأمور والأخطار المحدقة بالمدينة.

وكنا أشرنا إلى وثيقة من ماري، خطّها " نبو " / المتنبئ أو العراف، وهو كبير الكهنة، وهذا كان ينقل للملك رؤاه ولاسيما في الحالات المصيرية والخطيرة في حياة المملكة.

وتحتوي هذه الوثيقة على رؤيا العراف التي نقلتها شيبتو الملكة إلى زوجها الغائب في المعارك، حيث تطمئنه إلى أن الإله وملائكته مصممون على حماية مدينة ماري وأن أحداً لا يستطيع المساس بها.(8)

وتحدثنا أيضاً ، عن استخدام الاستخارة من قبل العرافين في ماري، حيث تتم استشارة الإله، من أجل اتخاذ قرارات مصيرية في حياة المملكة / جان ماري دوران / قراءة في خمس مجلدات من ماري . فيصل عبد الله /.

وثمة منحى آخر في مقاربتنا للحياة الاعتقادية في المشرق العربي العموري / كما قبله /، يختص في النظر إلى الإله وفكرة الألوهة بشكل عام.

ولعل أول ما نلحظه خلال جولاتنا في النصوص المسمارية، أن الآلهة مؤنسسنة، فهي أولاً صنع إنساني، وابتكار

إنساني آنذاك وهذا نتج عن مجمل قيم التفاعل ومعاييره بين المجتمع وبيئته الطبيعية ووسطه الحيوي. وعلى هذا فإن الطبيعة بتجلياتها المختلفة هي التي حفزت الإنسان آنذاك لابتكار رموز لها، وهذا الأمر استند على فكرة الخوف والغموض، وعدم ايجاد تفسيرات منطقية أو علمية للظواهر الطبيعية، كالطوفان، والبرق والرعد، الخ.

والغريب هنا، هو أن المجتمع آنذاك استطاع السيطرة على الطبيعة، إن كان في تلك المنشأت المائية من سدود أو أقنية .. الخ .. غير أنه بقي في مجال البنية الدماغية قاصراً عن الوصول إلى تفسيرات لتلك الظواهر المخيفة والمدمرة.

لذا فإن النصوص المشرقية تحفل بذكر أن الإنسان خلق من أجل خدمة الآلهة DULLU / دُلُّو /.

وكون تلك الآلهة ابتكار للعقل الإنساني، فقد أُنسنتْ، " وبذا فهي تأكل وتشرب وتسمع الموسيقى وترقص. كما أنها . تحتاج إلى أسرّة لتنام عليها، ولديها زوجات أو أزواج أو أبناء. كما أنها تغتسل وتتعطر "(9)

وذكرنا سابقاً أنه في ماري كان ثمة ورش لصناعة التماثيل تكون إلى جانب المعابد، والتماثيل تلك ممكن أن تكون شخصية، أو لا شخصية / عامة /. كما أن هناك ورشات لصنع

تماثيل الآلهة. وفي هذه الـ " بثْ . مُحُّو " أي بيت الصانع، كانت تصاغ التماثيل وتصنع ثم تنصب في حرمات المعابد.

وكان ثمة طقس يعرف باسم " مِس . في " أي غسل الفم، وكذلك " فِثْ . في " أي فتح الفم. حيث يتم عبرهما سريان الحياة في تماثيل الآلهة.

أما ما يجري في المعبد من طقوس يومية، ففي المقام الأول يتم غسل التماثيل وكسوتها وإطعامها. وزودت حرم المعابد بمنصات توضع عليها الأضحيات والمشروبات والورود. وثمة مباخر للبخور. وكان على الكهنة، رش الحرم بالماء الطاهر، حيث كانت تقام الولائم.

أما طعام الآلهة فكان يتألف من الخبز والكعك ولحوم الحيوانات / عجل . ماعز . غنم . غزال / وكذلك السمك والدواجن /.

أما الكاهن المولج بذبح الأضحيات فيلقب بـ " نَسْ . فَتْري " أي حامل الخنجر.

وكانت الذهنية الاعتقادية آنذاك تعتقد أن تقديم القرابين للآلهة، يجعلها في مزاج حسن وبالتالي تجنب غضبها، وهذه القرابين كانت تسمى " تهدئة كبد " الآلهة.

وفي السنة الجديدة، كان الكاهن في اليوم الخامس يقوم مع " حامل الخنجر "، بعد قطع رأس أضحية، بتمريغ حرم المعبد باباً وجدراناً بجسد الأضحية، وبذا حسب اعتقادهم يتم طقسياً امتصاص كل الخبائث ونقلها إلى الأضحية / خروف أو عجل ../ المذبوحة ثم تلقى الشاة برأسها وجسمها في النهر الذي يذهب بها و بالخبائث التي تحملها.

والطريف هنا، أن الكاهنين الذين قاما بعملية التطهير أصبحا غير طاهرين طقسياً، لذا توجب عليهما مغادرة المدينة حتى انقضاء فترة الإحتفالات بالسنة الجديدة.

وكان الاعتقاد السائد آنذاك أن لكل حادث معنى اعتقادياً ويُعبّر عن مزاج القوى فوق الطبيعية أو الرموز الإلهية. لذا فثمة مراقبة لطيران الطيور، وكذلك علاقة الأجرام السماوية فيما بينها، وطاوع الشمس والقمر، وأحشاء الحيوان وأكبادها / وهذا الأمر موثق في لقى مدينة ماري /.⊗

ويبدو أن قراءة الطالع أو التنبؤ كان يستند على جملة هذه الظواهر.

⊗ لعل قراءة طوالع الكبد تعود إلى فترة الفاعلية الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. وقد عثر في ماري على مجموعة من نماذج أكباد طينية كانت تستخدم في أغراض العرافة / وهذا ما يعرف بدرس الكبد HEPATOSCOPY / بحيث حوّتْ على نقوش ذات صلة بمواضيع واستعمال قراءة الطالع. وقد انتقلت هذه العرافة إلى عالم المتوسط، حيث استخدمها العرافون الرومان والإتروسك، وقد عثر على نموذج برونزي لكبد في باتشنيسا عام 1877.

وكانت الولادة لتوائم، تعتبر ظاهرة جديرة بالملاحظة، وهذا محقق في وثائق ماري برسالة شيبتو لزوجها الملك تخبره مسرورة، بأنها أنجبت توأمين.

ومن طرائف الاعتقادات المشرقية عامة:

. إذا ولدت المرأة ولداً له رأس أسد، فمعنى ذلك أن ملكاً شديد البأس سوف يحكم البلاد.

. إذا ولدت المرأة ولداً أصلم الأذن اليمنى، فهذا يعني أن أيام الملك قد اقتربت من نهايتها.

. إذا بال كلب أبيض على شخص، فإن الفقر محقق عليه، وإذا كان الكلب أسوداً، فإن مرضاً سوف يصيبه. وإذا كان الكلب أسمراً، فهذا يعني أن فرحاً سيلقى.

. إذا كان صقر الصيد، أثناء الصيد ومرّ من يمين الملك إلى يساره، فمعنى هذا أن الملك سوف يحقق النصر أينما ذهب.

. إذا سقطت حية خلف إنسان في الأول من نيسان وحتى الثلاثين منه، فمعنى هذا أن صديقه سوف ينقلب عليه ويصبح عدواً له.

. اليد اليمنى تدل على فأل حسن واليسرى عكس ذلك حيث أن وجهة هذه تكون نحو بلاد عيلام المعادية.

ومعلوم أن بابل وماري ويمحاض شكّلت حلفاً سياسياً وعسكرياً ضد تحالف إشنونا وعيلام.

وكان الاعتقاد الذهني المشرقي، والذي يختص بالحيوان المذبوح / الأضحية /، يستند على أن القلب هو مركز التفكير، أما الأمعاء والكبد فهي مركز العواطف، وتشير نصوص المشرق ولاسيما البابلية إلى تهدئة كبد الآلهة.

وكانت قراءة الأمعاء لكشف الطالع تسمى " إرّي ساحيروتي " أي الأحشاء المضفورة.

وثمة وثائق تعود إلى فترة الفاعلية الأكادية تشير إلى نوع العرافة هذا حيث جاء في النص:

" عندما تحيط المرارة بالأحشاء إحاطة تامة، فهذا علامة على طالع شاروكين الذي بتأثير هذا الفأل، اجتاح بلاد عيلام وقهر العيلاميين وأحاط بهم من كل صوب وقطع عنهم الامدادات ".(10)

أما طالع الكبد، فقد كانت الكبد تخطط بدقة، ويطلق على مختلف أقسامها ونتوؤاتها أسماء مثل الإصبع، الفم، القصر، الراية .. الخ.

وقد عثر على كبد طيني يعود إلى مطلع الألف الثاني، حيث قُسّم الكبد إلى أكثر من 50 قسماً بواسطة خطوط طولانية

وعرضانية. ولدى الكاهن مجموعة من الموجزات التي تفسر له معنى مختلف أجزاء الكبد.

" فعندما تكون العلامات الملائمة كثيرة وغير الملائمة قليلة، يكون الطالع فألاً حسناً، ولكن عندما تكون عكس ذلك فيكون الفأل، سيئاً "[11]

" وعندما تكون العلامات الملائمة وغير الملائمة متساوية، فيجب على الإنسان ألا يتكل على الخط في مثل هذا الطالع "[12]

وكان يمكن في حال كان نتيجة الاستطلاع أنه غير ملائم، أن يعاد ثانية بما يمكن أن يؤدي إلى استجابة ملائمة.

وهذا موثق في استمرارية هذا الطقس حتى الألف الأول قبل الميلاد، حيث ثمة وثيقة تعود إلى أيام الملك أسرحدون، تتحدث عن إجراء جلب الطالع هذا بطلب من الملك إلى الإله شمش عن طلب الملك الإسكيثي " برطاطو " الزواج من ابنة أسرحدون، وقد كانت نتيجة الاستفسار عبر طالع الكبد، غير ملائمة، وبعد إجراء الاستطلاع الثاني، تبين أن النتيجة ملائمة، وهذا ما أدى إلى أن يقبل الملك الآشوري تزويج ابنته إلى الملك ذاك.[13]

إن محاولتنا في مقاربة استخدام طالع الكبد، وتفسيراته ومعانيه، تتبع من العثور على أكباد طينية في ماري ربما لم تقدم وثائقها تفسيراً لعملها وآليتها وبذا فإننا نحاول الإضاءة عليها عبر الوثائق المشرقية الأخرى، المتعاصرة معها أو التي جاءت من الألف الأول قبل الميلاد، حيث حوت وثائقه على تفسير لكيفية قراءة طالع الكبد. ولعل نصوص مكتبة آشور بانيبال، وكذلك نصوص المعابد البابلية تقدم هذه الإضاءات.

وقد كان الشكل الهرمي في نموذج الكبد الطيني يُعرف باسم " الإصبع " حيث تشير النصوص إلى ما يلي:

" إذا كان الإصبع كرأس الأسد، فمعنى ذلك أن الخدم سوف يطردون ملكهم، وإذا كان الإصبع كأذن الأسد، فهذا يعني أن الملك لن يجد منافساً له. أما إذا كان الإصبع كرأس النعجة، فهذا يدل على أن الملك سوف يكون موفقاً تماماً "(14)

وفي قراءة طالع الكليتين، نجد أنه:

" إذا كانت الكلية اليمنى تالفة، فهذا يدل على موت الملكة، وإذا كان المستطلع يحمل سلاحاً / كما في الحرب / فهذا يعني الهزيمة لمولاي.

وإذا كانت الكلية اليسرى تالفة، فهذا يعني أن ملكة البلد المعادي سوف تموت، وإذا كان المستطلع له سلاحاً، فهذا يدل على هزيمة الملك، لملك العدو "(15)

نصل من هذا إلى مقاربة لمسألة الطالع عبر أجزاء جسم الضحية، بحيث بتنا أمام عنصر اعتقادي سائد، يقول أن مجمل البنى والأحداث المعتقدة إنما تحدث بإرادة الآلهة.

ويذكر صموئيل هوك أنه كان ثمة هيئة للعرافين / البآّروتُو /، ربما يكونوا ظواهر نبوة، أو ما يسمى آنذاك " مَحُّو "، وهذا يشابه حالة الوجد أو التوحد مع الإله أو حالة صوفية حميمة، ويبدو أن مؤلفي هذه النبوءات كانوا من النساء، وثمة نص من أيام أسرحدون الآشوري في الألف الأول قبل الميلاد يقول على لسان الآلهة:

" لا تخف، (أسرحدون) فأنا الإله " بل " أخاطبك. نياط قلبك أنا أَشدّها، كأمك التي كانت سبب وجودك، ستون إلهاً عظيماً يقفون جميعاً معي ويولونك حمايتهم. الإله سن إلى يمينك، والإله شمش إلى يسارك، ستون إلهاً عظيماً يحفّون بك من كل جانب وقد تأهبوا للقتال.

لا تأمن الناس! أدر عينيك صوبي، انظر إليّ! فأنا عشتار الأربيلية، لقد حولتُ عطف آشور إليك. عند ما كنت صغيراً، آزرتك.

لا تخف، أثنِ عليّ. أين ذلك العدو الذي مرَّ بك ولم ألاحظه؟ المستقبل كالماضي! فأنا الإله نابو، رب قلم اللوح، أثنِ عليّ ! وحيٌ نطقت به شفتا المرأة بايا الأربيلية ". (16)

ولعل هذا يضيء بشكل كبير على المعطى العام لذهنية الإلوهة والاعتقادات السابقة لظهور الأديان السماوية، والمستمرة إلى العصور اللاحقة وصولاً إلى العصر الحديث.

ولعل مجمل تلك المعطيات تؤكد على وحدة الذهنية الحضارية المشرقية واستمراريتها عبر الزمن.

ولعل الإشارة إلى المجموعة المؤلفة من 47 أعجوبة رافقت سقوط أكاد وانتهاء الفاعلية الأكادية، تشير إلى معالم الاعتقادات في المشرق العربي عبر العصور .. لنقرأ:

" رأس مقطوع صاح بصوت عال، فرس ذات قرن في شمال جبينها، في بابل، شجر نخيل مذكر حمل ثمراً، أسد وضبع وخنزير بري دخل المدينة "(17)

ألا يذكرنا هذا بما درجت عليه ذهنية المشرق في العصور اللاحقة عند دمار المدن أو موت زعماء أو أنبياء!.

وفي مجال مراقبة الأفلاك والنجوم لغايات استطلاعية واعتقادية أيضاً، نشير إلى أن الزقورات التي بنيت في مدن المشرق العربي ومنها ماري، كان من غايتها، رصد النجوم كما أنها أبراج مراقبة. وثمة معابد كانت تحتوي على حجرة خاصة للمنّجمين تعرف باسم " بت تَمَرْتي " أي بيت الرصد، حيث كانوا يراقبون القمر ويرصدونه، وقد عثر على مدونة في مواقع المشرق العربي تمتلك فرادتها كون أنها تشكّل موجزاً استرولوجياً قديماً، جاء تحت اسم " عندما آنووانليل " ويعتقد أنه يعود إلى فترة الفاعلية السومرية في الجناح الرافدي.

وقد قّسمت هذه المدونة العالم آنذاك إلى أربعة أقسام: بلاد أكاد، عيلام، سوبرتو، أمورو، والغريب أن هذا التقسيم يعود إلى الحقب الأولى في حين يرد أسماء ملوك أكاديين مثل ريموش وإبيسين، ثم نجد ذكراً للحثيين والأخلامو، بما يحمل على الظن أن هذه المدونة شهدت على مر القرون التالية إضافات وزيادات اشتملت على ملاحظات دونتها أجيال لاحقة من المنجمين "(18)

وهذا ما يقدم دليلاً على التواصل الذهني / الاعتقادي لحضارة المشرق العربي.

كانت مراقبة القمر ورصده من أساسات العرافة، وكان لمواعيد بزوغه أو احتجابه أو تغير شكله انعكاساً على حياة المدينة ومصيرها كما ساد الاعتقاد آنذاك.

فنقرأ في أحد النصوص:

" في هذا الشهر، إذا شوهد القمر في اليوم السابع والعشرين كما يشاهد في أول يوم بزوغه، كان هذا شؤم على عيلام. وإذا شوهد في اليوم الثامن والعشرين كما يشاهد في أول بزوغه، كان ذلك شؤم على أمورو "[19]

" إذا شوهدت الشمس والقمر معاً في اليوم الثالث عشر، فمعنى ذلك الفتنة وبوار التجارة، وتطأ البلاد قدمُ عدوّ، وينهب العدو كل شيء.

وإذا شوهدت الشمس والقمر معاً في اليوم الرابع عشر، فهذا يبشر بالازدهار، ويعّم الفرح البلاد "[20]

وكانت من الحوادث الأكبر دفعاً للتشاؤم والخوف، خسوف القمر، وقد حفلت وثائق المشرق بذكر هذه الظاهرة لا بل وثمة أسطورة تتحدث عن هذه الظاهرة.

ويتحدث رقيم طقسي عن حالة خسوف القمر وما يجري خلالها في المدن المشرقية:

" يوم خسوف القمر، يعمد كهان بيوت الآلهة تيرّانا إلى جَراكّو / مذبح / ويجعلونه في بيت ألهتهم. وعندما يخفت الضوء، يصرخون بصوت عال ألا تقترب كارثة أو فتنة أو خسوف من أوروك والقصر وحَرَمي إنانا وبيوت آلهة تيرانا، وأن يرفعوا أصواتهم بالنواح، ويصرخوا بصوت عال حتى ينجلي الكسوف ".

ويرافق هذا المجيء بالآلات الموسيقية المقدسة من المعابد:

" يوم الخسوف، ليخرجوا من البيت الـ " هالهالتو " النحاسي / آلة موسيقية / والـ " إرّشِمّا " النحاسية، والـ " ليليسو " النحاسي⊗ ".(21)

أما عن زمن حصول الخسوف وانعكاسه على الممالك والمدن المشرقية نقرأ في النصوص:

⊗ ليليُّسو: هو الطبل المقدس النحاسي، له دور هام في المناسبات الدينية والطقوس. وتشير المعطيات النصّية إلى وجود طقوس معينة لصنع هذا الطبل أو إصلاحه.
ويبدو أن المشرقيين بعامة كانوا ينظرون إلى الطبل المقدس ويعاملونه معاملتهم لإله.

" إذا حدث الخسوف في شهر نيسان، وفي الهزيع الأول من الليل، يكون دمار ويقتل الأخ أخاه.

وإذا حدث في شهر أيار، يموت الملك ولا يخلفه ابنه على العرش.

وإذا حدث في تموز، أخصب الزرع وارتفعت الأسعار.

وإذا حدث في آب أرسل أدد طوفاناً على البلاد ".(22)

أما عن الرعد، وهو صوت الإله أدد، فكان زمن حصوله ذو معنى على حياة المملكة أو المدينة، وتشير النصوص المشرقية إلى هذا الأمر:

" عندما يُسِمع أدد صوته في شهر نيسان، يكون ذلك إيذاناً بانتهاء حكم العدو.

وعندما يحدث في تموز، يخصب الزرع.

وعندما يحدث في آذار، تخرج البلاد عن الملك.

وعندما يرعد مثل كلب كبير، ينهض (الأعداء) ولا من يباريهم.

وعندما يزأر كالليث، يسقط الملك ".(23)

وكذلك كان البرق مدعاة للتنبؤ بأحوال المدن، " فإذا لمع البرق ليلاً في الجنوب، أرسل أدد طوفاناً وإذا لمع البرق ليلاً في الشمال، غرّق أدد بلاد جوتيوم "(24)

أما الزلازل فكانت تحمل معنى فاجعياً، في حين أن قوس قزح يظلل المدينة بالفرح العارم.

وبشكل عام، فإن طقوس واعتقادات ماري العمورية لا تشذ عن الخط الذهني العام الذي حكم الحضارة المشرقية في الألف الثاني قبل الميلاد، مع وجود اختلاف واحد بين المدن، في تراتبية الآلهة المعبودة، ونعتقد أن هذا يرتبط بالواقع الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ البيئي الطبيعي، والذي جعل علاقة المجتمعات تلك مع فكرة الألوهية، علاقة مصلحية تستند على الخوف وعدم انجلاء المظاهر الطبيعية بعد، في العقل الإنساني.

بقي أن نشير هنا، إلى أن الباحثة ماري تيريز بارليت، أشارت إلى نص ختم من ماري يحمل عبارة:

" إله العموريون حامل سلاح الحرب في يده، المخّلص من الخطيئة ".[25]

وفي مقاربة لمعبد نيني زازا في ماري، يشير أندره بارو إلى اكتشاف مهم، حيث يظهر في باحته مايشي باحتفال مختلف وغير متوقع: ممر أرضه مطلية بالقار، ويحيط بالباحة، جدرانه مزينة بتجويفات يحيط بها من الطرفين عضادات. وفي الوسط، ثمة حجر بازلتي كبير منحوت على هيئة مخروط قاعدته ذات أطراف مشدوفة قليلاً.

يقول بارو: " إن هويته تفرض نفسها فلا يمكن أن يكون إلا نصباً. وإن وجود هذا النوع من الملحقات وعلى هذا الشكل، قاعدة عامة في طقوس العبادة الكنعانية .. على ضفاف الفرات الأوسط.

إن الممر المطلي بالقار .. يتطلب لا محالة القيام باحتفالات طواف ديني، ويمكننا أن نتصور ببساطة جموع الكهنة أو المؤمنين يمرون بخشوع قبل أن يدخلوا إلى قاعة القدس، مكان العبادة الأخير، كما نتصورهم خارجين بعد أن أتموا فروض الطاعة. وليس من الضروري أن نجد النص المسماري عن الاحتفال الذي يدور في الباحة لكي نعرف صفاته الكبرى. لأن هذا مقروء بوضوح كبير على الأرض ".(26)

وإن كان هذا المعبد يرقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد، غير أن استمرارية الطقوس والعبادات، تحتم النظر إلى مجمل اعتقادات ماري كحالة متجانسة، كون أن الهوية الأكادية العمورية هي السائدة آنذاك.

وقد أوردت نصوص ماري أسماء الكثير من العرافين / نبو / حيث نجد: أدو . باني، اسكودوم، آشار . ايليشو، ايبي . آموروم . إيلوشو . نصر، اينيب . شمش، ايشي . أدو، شمش . ناصر، زيمري . دجن، زونام.

ويجدر الذكر أيضاً، إلى ظاهرة مهمة، عنيتُ بها التنجيم، والذي كان يجري بوساطة الطيور أو بشرب مشروبات قد تكون كحولية.

وللكشف عن المستقبل، كانت تجري طقوس يقوم بها رجلان، الأول وهو عراف متخصص بفحص الأحشاء / للحيوانات /، وآخر يسمى " خادم الإله ".

حيث بعد أن يفرغ العراف من فحص أحشاء الحيوان يعلن نتيجة الكشف بملائم أو غير ملائم. ومن فم خادم الإله " الملهم "، يفصح الإله عن ذاته بشكل واضح ومفصّل وبنبرة غنائية وتنبؤية خاصة.[27]

وفي إشارة إلى الإله أدد والذي كان الإله الوطني ليمحاض / حلب، والذي هو محارب يقود وبمهارة، ويتحكم بهواطل المطر والبرد والثلج، يشير دوران إلى فكرة مهمة حيث أن هذا الإله وبدل أن يكون أحد الآلهة العديدة المشتركة المتعطشة إلى النذور الثمينة والغنى، يشدد على أن من يريد تكريمه يجب أن يقنع بممارسة العدل.

ولعل هذا الأمر يدل بصورة لا لبس فيها، على سمو فكرة القيّم عند العموريين، حيث أن الإله والذي هو ابتكار إنساني

آنذاك، كان في تماهٍ مع النفس البشرية فجاء عاكساً ومرآة لها في تحقيق قيم الحق والخير والجمال.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن هذا الإله كانت له شعبية واسعة في مدن المشرق ومع العصور اللاحقة، حيث أنه في أوغاريت في القرن الرابع والثالث عشر، لم يعد يدعى باسمه وإنما بلقبه: بعل BA ʼAL أي السيد. وشكّل منذ الفاعلية العمورية إلهاً حامياً للمملكة / يمحاض /.

وذكرنا أيضاً أن عبادته انتقلت إلى الممالك الأخرى، حيث مثلاً، أن زمري ليم لم يكتف بإرسال نصب يمثله إلى معبد أدد في حلب، بل أمر بصنع طبل ضخم من البرونز، وقد كان ثقله عائقاً في نقله إلى إيمار ثم حلب ومع هذا وصل بصعوبة إلى حلب.(28)

مراجع الفصل الخامس

1 . فيصل عبد الله . قراءة في خمس مجلدات من ماري . مرجع سابق.

2 . ادزارد . بوب . رولينغ . قاموس الآلهة والأساطير . ت . محمد وحيد خياطة . مكتبة سومر . حلب 1987 .

3 . اندره بارو . سومر . مرجع سابق.

4 . فيصل عبد الله . مرجع سابق.

5 . فولكرت هاز ، الآلهة والعبادات والأساطير . وثائق الآثار السورية . مرجع سابق.

6 . المرجع السابق.

7 . شوقي شعث . العلاقة بين ماري ويمحاض في مطلع الألف الثاني ق.م . الحوليات الأثرية السورية 34.

8 . فيصل عبد الله . قراءة في خمس مجلدات من ماري . مرجع سابق.

9 . صموئيل هوك . ديانة بابل وآشور . ت . نهاد خياطة . دار العربي 1987. دمشق

10 . ID. OP,CIT.,VOL.II,P.274

11 . MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.270

12 . ID. OP,CIT.,VOL.II,P.270

13 . ID. OP,CIT.,VOL.II,P.270 -1

14 . MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.273

15 . ID., OP,CIT.,VOL.II,P.274

16 . PRITCHARD.OP,CIT.,P.450

17 . MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.277

18 . صموئيل هوك . مرجع سابق.

19 . MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.284

20 . المرجع السابق P.284 – 9

21 . صموئيل هوك . مرجع سابق.

22 . MEISSNER,OP.CIT.,VOL.II P.249

23 . ID., OP,CIT.,VOL.II,P.258

24 . المرجع السابق.

25 . فيصل عبد الله . دراسات تاريخية 37 . 38 . مرجع سابق.

26 . اندره بارو . ماري . مرجع سابق.

27 . جان ماري دوران . دراسات تاريخية . 45 . 46 /1993.

28 . المرجع السابق.

الحياة الاعتقادية في مملكة ماري العمورية 258



مراجع الفصل الخامس 279

الحياة اليومية في مملكة ماري

الحياة اليومية في مملكة ماري العمورية:

لا تختلف الحياة اليومية بمجرياتها كافة، في ماري عن أي حياة يومية لمدينة تجارية عبر التاريخ. فمن شرطها التجاري وكونها معبراً تجارياً، نستطيع أن نخمن أننا أمام مدينة دافقة الحيوية والتنوع والغنى.

وكون أ، العامل التجاري يدعم إشراطات المثاقفة بين الحضارات والشعوب، فإن هذا الأمر يتحقق في ماري، بما يؤدي إلى إخصاب في توجهها الإبداعي المستند إلى قيم التفاعل والغنى الإنساني.

وهذا سوف ينسحب على مجمل المجالات الحياتية وإيقاعها، بدءاً من الحِرَف مروراً بتقنيات الصناعات، إلى كافة المناحي الاجتماعية والروحية.

وعلى هذا يمكننا مقاربة الحياة اليومية في مملكة ماري وفق نصوصها، والتي تلتقي في محاورها الأساسية مع أي مدينة قامت وتأسست على شرط تجاري عبر العصور، إن كان في أور أو إيمار أو إبلا وغيرها الكثير .

عالم الزراعة في ماري:

ذكرنا سابقاً أن مملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد، امتدت على مدى منطقة الفرات الأوسط، من ماري المدينة إلى توتول وبلاد خانة وحول مجرى نهر الخابور إلى الشمال، وامتلكت حدوداً مشتركة مع قطنة. رغم أنها سعت إلى إنشاء أنظمة للري من أقنية وسدود ومنشآت مائية، للسيطرة على ممكنات الطبيعة، ورغم أنها امتلكت أراضٍ واسعة / كمملكة / ولا سيما وادي الفرات والخابور، غير أنها كانت فقيرة نسبياً.

ويشير د. أبو عساف إلى " أن الوثائق التجارية من إيمار أبانت أن تجار ماري كانوا يستوردون منتجات المواد التي كانت تزرع في المدينة مثل زيت السمسم والنبيذ والحبوب. ومن المؤكد أن إنتاج المملكة الزراعي كانت مرتبطاً بنظام الري الذي لم يكن كافياً، وبالتالي فإن المحاصيل كانت قليلة ".[1]

هــذا بــالرغم مــن أن مثلــث الخــابور شــكّل منطقــة اســتراتيجية مهمــة لجهــة الزراعــة، حيــث كــان مســتودعاً للقمح ومنتجعاً لقطعان الغنم في الصيف.

وتتحدث النصـوص عـن وجـود حالـة مـن التخصـص فـي مجـال الزراعــة فــي مــاري، فحســب وثيقــة / رســالة مــن يســمع أدد حــاكم مــاري إلــى والــده شمشــي أدد حــاكم آشور، نتبين هذا، حيث جاء في الوثيقة:

" اكتــب لتوتــول حتــى يرســلوا لــك مزارعــاً قــادراً علــى مسك المحراث ومتابعة الأثلام [2]

وقد أبانت وثائق ماري عن وجـود منتجـات زراعيـة مثـل الشعير، القمح / بشـكل قليـل / ، الحمـص، الفـول، العــدس، ومــن النباتــات العطريــة ورد ذكــر الطيــب، حبــات السونو، البنج SAKIRU.

كذلك زرع النخيل في منطقة الفرات الأوسط في الألف الثاني قبل الميلاد.

وقد أشار دوران إلـى زراعـة الكرمـة فـي ترقـا، مـا يـدل على وجود صناعة للنبيذ فيها. [3]

وفي مجال الحياة الحرفية، قدمت وثائق ماري معطيات مهمة في هذا المجال ولا سيما ما ارتبط بأعمـال المجمـع الرئاسـي في ماري.

ويبدو أن ثمة تنظيمـاً مركزيـاً لمـوظفي القصـر الملكـي عند زمري ليم حيث يُستفاد من الوثائق عـن وجـود تنظـيم إداري للعمل. فنجد مثلاً مسؤولاً في القصـر لجهـة شـؤون النسـيج والأعمـال المعدنيـة والزينـة الاصـطناعية والجلـود والزيوت، ويدعى موكانيشوم، كذلك كـان مولجـاً بالإشـراف على أعمال السجينات من النساء.

وثمـة مسـؤول آخـر ويـدعى ياسـيم – سـومو، ويعتبـر مفتش في قصر مـاري وقصـور المملكـة أيضـاً. وهـو مكلـف باقتراح التعيينات للسنة الجديدة.

كذلك تذكر النصوص وجـود مسـؤول عـن المعـدن وهـو: قيشـتي- ماما، ومسوؤل عـن أمـور الصـرف والنقـد واسـمه

زيكراتوم، وحين غياب الملك عن القصر يتنكب نجدي – ليم مسؤولية القصر.

كما وتقدم وثائق ماري أن من يتم أسـره فـي الحـروب، يلحق للعمل في ورش القصر الملكي / DALLEY / . وإذا كن نسوة فيتم إلحاقهن بورشات النسيج في القصـر. علمـاً أن الصـناعات النســيجية والغذائيــة فــي مــاري كانــت مــن اختصاص النساء. وتشير وثيقة من زمري ليم إلـى زوجتـه، وذلك بعد انتصاره على أشلاكا/ إلى طلبه منهـا أن تحـتفظ بالنســاء الأســيرات كعـاملات نســيج، مـع اســتثناء الأكثـر جمالاً منهن. (5)

وكانت أجور العمال عينية وتدفع بشكل أسبوعي وهي عبارة عن صوف وحبوب وثياب.

وتشير نصوص ماري إلى وجود تقسيمات لبعض الحرف على شكل قطاعـات، فثمـة قطـاع زابينـوم, حيـث يضـم 13 حداداً. وقطاع موت – رامـا وبضـم أربعـة صـناع للبّـاد. وثمـة قطاع يضم 12 صانع معدن، وقطاع يضم خمسة نوتيين. في حين يضم قطاع أنـا – إيـا – تلاكـو، 6 نجـارين، ويضـم قطـاع يدين – تبور – مير ثلاثة عمال لصناعة البيرة.

الجدير ذكـره، أن الحيـاة والنشــاط الحرفـي فـي القصـر الملكي كان من مهامه الأولى، تأمين حوائج القصر اليومية إن كــان فــي الغــذاء أو الثيــاب أو الأوانــي وكــذلك الهــدايا والقرابين والأثاث. (6)

بالإضافة إلى صناعة العربات والجلود⊗ وغيرها.

وفي مجال الصناعات الغذائية ومنتجاتها، تشير نصـوص ماري مثلاً إلى أصناف من الطحين، فنهاك الطحين العادي، وطحين مصنوع من لباب القمح ويـدعى ســاســقو، وطحـين ممتاز ربما هو طحين الشعير، وكذلك طحين البقول الخ...

⊗ كانت تصنع الأحذية والصنادل العازلة للماء من الجلود المدبوغة، وصنعت الطبول من جلود الأبقار.

ويشير الباحث حميدو حمادة إلى وجود تسعة أنواع من البيرة في ماري، كما عثر على مستودعات للثلج في القصر وذلك لتخزين النبيذ. / حميدو 2002/ وثمة وثيقة تأسيسية تعود إلى 1775 ق.م يفتخر فيها زمري ليم بأنه شيّد في ترقا مصنعاً للثلج / بيت الثلج /[⊗] .

كما يشير جان بوتيرو إلى أنه استطاع إحصاء ما يزيد على عشرة أنواع من العطور في ماري.[(7)]

و26 نوعاً من الحلي والمجوهرات و31 نوعاً من أواني الشرب، سواء أباريق أو جرار، وأغلبها كانت على شكل رؤوس حيوانات/ رأس وعل – رأس ثور – رأس غزال – رأس أسد /.

كما استطاع بوتيرو تصنيف 21 نوعاً من الألبسة الداخلية في ماري.

الجدير ذكره هنا، هو أن وثائق ماري أشارت إلى استخدام الستائر وأغطية الأسرّة والبطانيات، كذلك ثمة أغطية للأسرّة يمكن استخدامها على الوجهين، وكذلك وجود ستائر بوجهين.

وقد كان الصوف هو المادة الأولى في صناعة النسيج في ماري، ولم يكن القطن سائداً آنذاك.

وصُبغت الملابس بألوان منها الأرجواني، والأبيض، والأسود والأزرق والأخضر، ولون التفاح ولون الزجاج.[(8)]

أما عن اللباس عند أهل ماري، فيذكر الباحث علم الدين أبو عاصي إلى أن الجزء الأساسي من اللباس كان ما يشبه الجلباب المصنوع من الجوخ المزين أو من الكتان.

وكان الملك يرتدي ثوباً يلتصق بجسمه، يثبته حزام. ورداء علوي يتم ارتداؤه من جهة الرأس، وأحياناً يرتدي غطاء للكتفين فضفاضاً، ويعتمر على رأسه قلنسوة تعرف بالقلنسوة البابلية. [(9)]

[⊗] جورجيو بوتشيلاني – قرقا – مرجع سابق.

وتشير نصوص ماري إلى أهمية تفصيل عمامة مزينة بالأحجار الكريمة، أو أردية مجهزة بمشابك صغيرة. وفي مجال صناعة الأسلحة، كانت ماري تصنع الأسلحة البرونزية ويشير نص من ماري إلى رسالة من زمري ليم إل مكانيشوم جاء فيها:

" حالما تقرأ هذه الرسالة أصنع 50 رأس سهم من البرونز، وزن كل واحد 40 غراماً، 50 رأس سهم وزن كل واحد 24 غراماً، 100رأس سهم وزن كل واحد 16 غراماً، 200 رأس سهم وزن كل واحد 10 غرامات، اصنعها كأفضلية، وهكذا تنتهي بسرعة، يبدو أن حصار أنداريق قد يدوم، ولهذا أكتب إليك من أجل هذه السهام " (10)

وفي تطور لافت، أمكن لورشات ماري من تحقيق الوصول إلى معجونة الزجاج، وقد أبانت التنقيبات عن وجود قطعة صغيرة على شكل زهرة منزّلة في صحيفة من الحجر، حيث حفرت عليها إلهة تستنشق عبير الزهرة. (11)

ويشير الباحث دوران في كتابه الحياة في ماري إلى أن القصر الملكي في ماري كان يمتلك حديقة للحيوانات، وكانت تجري في المناسبات والمهرجانات، سباق للخيول، وكان أهل ماري يفضلون الخيول البيض.

وفي مجال صناعة الأواني من المعادن تقدم وثائق ماري العديد من المعطيات، وفي إحدى الوثائق / رسالة من موكانيشوم إلى الملك زمري ليم يخبره فيها أنه أرسل له ما يلي:

" وعاءان للشرب على شكل رأس ثور، يزن الواحد منهما 650 غراماً.

ثمانية أوعية للشرب على شكل رأس وعل.

وعاء شرب من الذهب الأحمر، يزن حوالي 3 كغ.

وعاء للشرب فضي على شكل رأس غزال ويزن 200 غ.⊗

⊗ ARM XI II.8.

وفي إشارة إلى مبلغ تدخّل الملك، حتى في تصميم صنع بعض الأواني والأوعية في القصر، تشير وثيقة / رسالة من ياسيم – سومو إلى موكانيشوم إلى أن " الملك أعطى تعليماته له حول زخارف حامل وعاء الشرب، رؤوس الأسود، قرون الغزال والأيائل : / IBID.55. /.

وقدمت وثائق ماري، معلومات عن وجود أطباء مختصين، في دلالة على وجود وعي صحي كبير سبق أن أشرنا إليه.

وأيضاً هناك الموسيقيون والمنشدون والراقصون، وقد أشرنا إلى رسالة من زمري ليم إلى زوجته من أجل أن تختار من ثلاثين فتاة، من يليق بهن أن يكنّ في فرقة رقص. / حميدو حمادة 2002/.

وتظهر وثائق فترة حكم ماري من قبل يسمع أدد، عن وجود مغنيات في ماري، مثل المغنية نارو.

" وكان يوجد في ماري مسرحاً، تعرض عليه مسرحيات غنائية تحت إشراف موكانيشوم، وتذكر لوائح التعيينات، موسيقيين وموسيقيات يتلقون الطعام والنبيذ من القصر، كما تفصح إحدى الرسائل عن موسيقيين مسافرين مع قوافل " [12] .

وسبق أن أشرنا أيضاً إلى احتجاز إيمار لرئيس فرقة موسيقية من ماري مع آلاتهم، وكانوا قادمين بعد إقامة حفلة في حلب، وتم احتجازهم حتى تدفع ماري ما يتوجب من ديون عليها إلى إيمار.

ويشار أيضاً إلى وجود صناعة للمراكب في ماري/ إضافة إلى توتول /. كما وتميزت ماري بصنع العربات أيضاً.

وكانت الخدمة العسكرية مطبقة في مملكة ماري، ويشير أندره بارو إلى أن الوثائق أشارت إلى حمل أحد المسؤولين العسكريين في ماري، رأس شخص يدعى حانيان، رفض واعترض/ ويبدو أنه هرب/ على الخدمة العسكرية، بحيث جال هذا المسؤول في المملكة ليجعله عبرة لكل معترض أو هارب من الجيش [13].

ويشير دومنيك شاربان إلى أنه في عام 1769 ق.م، تم إجراء إحصاء عام في البلاد / مملكة ماري/، كان الهدف منه مراجعة اللوائح العسكرية⊗ (14)

الجدير ذكره أيضاً هو أنه استخدمت في ماري الإشارات الضوئية لتأمين الاتصالات السريعة في فترات الطوارئ أو الحوادث، ولطلب النجدات وحالات الإنذار بخطب ما.

أما في مجال العلاقات الاجتماعية ونظام المجتمع في ماري، فكنا أشرنا في معرض مناقشتنا لمجتمع ماري في الألف الثالث إلى عدة أمور يبدو أنها بقيت سائدة في الألف الثاني، مع الإشارة أيضاً إلى الطلاق في ماري / كما عند السورين بعامة / آنذاك كان يتم من قبل الزوج وعلامته، اقدام الزوج على خلع معطف زوجته أو تمزيقه بحضور شهود، كما كان للزوجة الحق بالمبادرة بقطع العلاقة الزوجية، بمعنى أن العصمة بيدها.(15)

وقبل أن نختم فصل الحياة اليومية في شقها حول النشاط الحرفي، ينبغي أن نشير إلى ما يقوله المؤرخ الفرنسي جان بوتيرو في مؤلفه "بابل والكتاب المقدس" حيث جاء فيه: " يوجد في ملفي حوالي 80 رقيماً صغيراً، صادرة عن " معطرة " قصر ماري. وقد اكتشفت فيها ليس فقط ميلاً واضحاً لدى هؤلاء الناس القدماء للدهون والعطور، حيث كان يوجد حوالي عشرة أنواع منها بعضها مركّب ودون شك مكلف.

وقد كان بوسع عطاري قصر ماري، أن يصنعوا منها 600 ليتراً في الشهر على الأقل. ولعل هذه المنتجات المكررة تستخدم لعدد من الاستعمالات الممكنة، الطبية، الدينية، التبرج، نفقات الزوجة وآداب المعاشرة " (16).

⊗ يشير الباحث ألفرد هالدار في كتابه " العموريون " إلى أن وثائق ماري كشفت على أنه في فترة الفاعلية الآشورية على ماري، تم إجراء إحصاء عام للسكان في ماري من أجل جباية الضرائب.

شعائر الموت ومعتقداته في ماري العمورية:

على مدى مواقع المشرق العربي، ومع الألف الثالث قبل الميلاد، نلاحظ أن ثمة خطاً واحداً يحكم ذهنية المجتمع المشرقي تجاه الموت. وإن كان ثمة اختلافات بين مدينة وأخرى، فإن هذا يعزى إلى ممكنات البيئة حيث أن ما تقدمه البيئة الطبيعية يحتم مثلاً نوع القبر ومواده، كما أن طبيعة التضاريس تساهم في تعدد ظواهر الدفن لجهة الضريح، من منطقة سهلية إلى جبلية وهكذا.

ولكن الفارق الوحيد بين الجناح الغربي الشامي والجناح الرافدي، هو ظهور ضحايا بشرية في قبور بعض الملوك الرافديين ولا سيما في موقع أور الرافدي والذي يرقى إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد[⊗] ، وكذلك موقع كيش.

أما الجناح الشامي فقد خلا من وجود هذه الظاهرة الاستعبادية.

[⊗] حوى موقع مدينة أور في الجنوب الرافدي على مقبرة تشمل 16 قبراً ملكياً، تعود إلى حوالي 2900-2750 ق.م. ونجد في هذه المقبرة وجود ضحايا بشرية / مرافقين/ مع الملك في العالم السفلي. حيث وصل عدد المرافقين 45 شخصاً للملك المتوفى، وثمة قبر آخر لملك آخر عثر فيه على ثلاث مرافقين، وثمة حفرة حبيرة حوت على 62 ضحية بشرية من بينها نساء.
للمزيد انظر كتابنا – دراسات في حضارات المشرق العربي القديم - مرجع سابق.

ولعل الخوض في شعائر الموت في ماري ومعتقداته، لا يشذ عن الخط الذهني السائد في الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، بشكله الأساسي.

فالميت يجب أن يدفن، وتجب إقامة الطقوس الجنائزية على روح الميت في يوم الندب، وكنا أشرنا إلى رسالة من حاكم ترقا إلى زمري ليم، يطلب فيها الأول من الثاني، أن يقيم الشعائر الجنائزية لروح والد الملك زمري ليم.

وقد جاء هذا الطلب من الإله دجن بواسطة الكاهن.

كما أن المرفقات الجنائزية واجبة مع الميت، حيث أن اعتقادهم، بأن هناك حياة أخرى في العالم السفلي ولا بد أن تكون المرفقات مع الميت بالإضافة إلى الشراب والغذاء وسكب الماء الدائم.

وكان ثمة يوم يوصف بيوم سكب الماء / يوم القرابين الجنائزية/ يوم الندب / يوم الكآبة / حيث كان يعتقد أن أرواح الموتى تتجمع في ذلك اليوم آن يكون القمر محاقاً.

أما عن طرق الدفن، فهناك الدفن البسيط في التراب، وكذلك الدفن في ضريح ولا سيما للموسرين والأغنياء، بالإضافة إلى مدافن الملوك وأضرحتهم.

وقد شاع في المشرق العربي الدفن في جرار فخارية⊗وقدّم موقع مدينة ماري نماذج لهذا الدفن.

مقابر ماري:

أبانت التنقيبات في ماري عن وجود مقابر تعود للألف الثالث والثاني وكذلك الألف الأول قبل الميلاد.

فأثناء التنقيب في القصر الملكي، كشف في القاعة رقم 1 من القصر الواقع إلى الشرق من القصر الكبير، عن قبر تحت الأرض مبني بالآجر.

⊗ للمزيد انظر كتاب د. نائل حنون – عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة – بغداد 1985.

ونحن نعلم أن ظاهرة الدفن تحت أرضيات المساكن تعود إلى الألف الثامن قبل الميلاد، ويبدو أن هذه الظاهرة استمرت مع العصور اللاحقة، في مدن المشرق العربي، حيث نجدها أيضاً في إبلا والآلاخ وغيرها.

ويبدو أن هذا القبر يعود لملك من ملوك ماري، حيث أن ملوك ماري في الألف الثالث اهتموا ببيوت " الأبدية ". وقد كشف عن قبور حجرية كبيرة، مبنية من بلاطات كبيرة من الجص ومنسقة بحيث تشكل ملجأين توأمين مسقوفين بكتل ضخمة تحملها دعائم مائلة على شكل خرجة.

وتقع هذه القبور إلى الشمال الشرقي من الكتلة الحمراء.

كما أبانت الكشوفات عن ثلاثة قبور حجرية رائعة من الطراز السابق في قطاع معبد عشتار.

الجدير ذكره أن هذه المجموعات من القبور تعود إلى الألف الثالث.

أما حالات الدفن الشعبي ، لعامة الناس، فقد كان يتم دفن الميت في التراب دون أي وقاية أو تابوت [17] . ويكون محاطاً بطبقة من الجرار الصغيرة، تحوي مرفقات جنائزية للمتوفى.

وفي الألف الثاني، شاع الدفن في الجرار الفخارية في ماري. حيث يتميز هذا الدفن بالبساطة، فتوضع الجثة في حلل من الفخار أو في جرات كبيرة توضع عمودية مع ميل بسيط. وثمة جرار تحوي مرفقات جنائزية للميت.

وقد عثر على جرار فخارية تحمل تزيينات نافرة ومحفورة. ويبدو أحد الأوعية التي تم العثور عليها، وقد حوى مشهداً دينياً حيث نلاحظ أسدين نافرين، ورجل يجلب شاة إلى الإله الجالس على عرشه / كرسي/. ويلاحظ وجود قرنين على جبين الإله.

كما عثر على مقابر حقيقية للأطفال، تضمنت أوانٍ فخارية ذات غطاء متحرك، حيث جُمعت ورُصفت في إحدى الغرف أسفل الجدران.

وقد شُغل موقع مدينة ماري بعد هدمها، ولا سيما في الألـف الأول، بالتواجـد الآشـوري العسـكري، حيـث أبانـت الكشـوفات عـن أدلـة تشـير إلـى وجـود حاميـة عسـكرية، دفنت أمواتها فـي الباحـات الكبـرى لمـا كـان يُشـكل قصـر زمري ليم / الباحة 106-131/.

كما عثر علـى قبـور إلـى شـرقي الزقـورة. وقـد قـدمت هذه المقابر أدلة عديدة عن ن مط الدفن آنذاك.

فثمـة الـدفن الشـعبي أو البسـيط فـي التـراب، حيـث توضع الجثة بوضعية منكمشـة تُـذكر بوضعية الجنـين. كمـا يبدو استمرار الدفن في الجرار الفخارية، حيث توضع الجثـة داخل جرتين كبيرتين تكون فوهاتها متقابلـة، وتكـون الجثـة بوضعية انكماش أو مثنية.

وقد تم تحديد اتجاه الجثث نحـو اتجـاهين فقـط ، الأول، شمال- جنوب، والثاني شرق – غرب.

وقد تم الكشف عن مرفقات جنائزية مهمـة وغنيـة فـي مقابر هذه الفتـرة، فثمـة أوانٍ أنيقـة مـن مسـحوق الزجـاج اللامـع. وعلـب ملـبس ذات غطـاء بالإضـافة إلـى حبابـات وكؤوس وجرار صغيرة وأقداح.

كما تم العثور على علبـة ملـبس مـن الألبـاتر بالإضـافة إلى علب خشبية حافظت على وضعها.

وكـذلك قطـع برونزيـة، هـي عبـارة عـن أسـاور وخـواتم ومرآة وجعبة مع سهامها الحديدية.

وفي أحد القبور عثر على ثلاث أقنعـة لرجـال مـرد مـع زوائد متطاولة تمثل الأذنين، صنعت مـن مسـحوق الزجـاج. وثمة ثقوب ثلاثة تمر منهـا خيـوط تثبـت القنـاع علـى صـدر الميت.

الجدير ذكره أن هذه الأقنعة عثر عليها في مواقع أخرى في المشرق ولا سيما في أوغاريت.

أما تعليل وجـود هـذه الأقنعـة، فيقتـرح بـارو أنهـا تمثّـل حارساً شاباً يتجلى فيه توق النفس الإنسانية للهـرب مـن ظلال الموت والبقاء في حالة شابة وحيوية.

بالإضافة إلى هذا، عثر على ثلاثة قبور حوت على قطع ثمينة، مثل أكاليل على شكل ورود من الذهب، طوق من لآلئ من الكورنالين والعنبر المرصع، وعقد من اللآلئ من الكورنالين على شكل رمان بالإضافة إلى حلق ومخازم من الذهب.

ويعتقد أن هذه تخص نساء آشوريات.

وفي فترة الفاعلية الكلدانية/ منتصف الألف الأول قبل الميلاد/ ، عثر في ماري على قبور تمثّل جراراً متقابلة كما في السابق، مع ملاحظة أن وضعية الجثث كانت غير مثنية وعلى ظهرها. مع شحّ في المرفقات الجنائزية.

وفي العصر السلوقي/ القرون الثلاثة الأخيرة من الألف الأول قبل الميلاد وحتى 69 ق.م/ أبانت كشوفات ماري عن قبور تتميز بطراز دفن مميز.

فهنا اختفت عادة الدفن في الجرار المتقابلة، في مقابل العثور على أوعية دفنية كبيرة لها غطاء، وتشبه قشرة الجوز الكبيرة.

كذلك عثر على خوابي عريضة وطويلة، بحيث يوضع فيها الجسد بعد أن يتم قطع قطعة من بطن الخابية كي يتم إدخال الجثمان، ثم بعد ذلك تعاد القطعة إلى مكانها.

وأيضاً أبان التنقيب عن وجود قبر / القبر 420/ يتألف من وعائين من الطين المشوي، حيث ترقد امرأة وعلى صدرها سلة مدورة من القصب المجدول فوق صندوق خشبي.

كما تم العثور على جثث لا تزال ملفوفة بأكفان من القماش أو الجلد تحمي الرأس والساقين.

وقد شملت المرفقات الجنائزية على أباريق فخارية ذات آذان، وأقراط آذان من الفضة وأساور من البرونز مزينة برؤوس أفاعي متقابلة. (18)

هذا من جهة اللقى والمعطيات الدفنية. وقد حوت نصوص ماري على موضوعات تختص بشعائر الموت، ولا سيما في مملكة يمحاض/ حلب أو كركميش.

ففي وقائع مراسم دفن الملكة سومونابي الحلبية أو في مراسم دفن ملك كركميش إبلاخاندا، تشير النصوص إلى أن تلك المراسم كانت تجري وفق سرّية / مقدسة – شبه سرية /، وتعتبر شأناً عائلياً في الحالة الأولى.

ونعتقد أن هذا الأمر ينسحب على شعائر الدفن ومراسمه في كافة مدن العالم العموري آنذاك بما فيه مدينة ماري. أما في حال موت الملك، فإن الحياة العامة تتوقف كلياً.

ويطلق على طقوس الدفن اسم " كيسبوم " حيث تجرى في القصر مراسم الدفن، وتكون على شكل وليمة جنائزية تحضرها الآلهة والعائلة الملكية والأصدقاء المتميزون للعائلة. وقد يدعى إليها سفراء مثل سفير ماري مثلاً.

ويشير دوران إلى أن هذا المظهر العائلي المنزلي للشعائر يساعد على فهم سبب وجود المدافن في البيوت الخاصة. ونحن نعلم أن مسألة الدفن تحت أرضيات المنازل تعود إلى ثقافة العصر الحجري الحديث وهنا فهي استمرارية لها، وليس فقط كما يذكر دوران بسبب الاحتفال الجنائزي العائلي.

أما القرابين الجنائزية فكانت تتضمن حيوانات ميتة حيث كان يقدمون " بجروم " PAGRUM مقابل ما يجري في الطقوس العادية من تغذية الإله بإراقة دم الحيوان / رمز الحياة /.

علماً أن الكلمة البابلية المقابلة لكلمة أضحية هي: نقوم NIQUM .

بالإضافة إلى ذلك، ثمة وجه آخر لهذه الطقوس يتجلى في مناجاة أرواح الأسلاف الميتين / الأرواحية/[19] .

مراجع الفصل السادس

الفصل ال

1- علـى أبـو عسـاف- دراسـة غيـر منشـورة – مرجـع سابق.

2- ARM I 63.

3- علم الدين أبو عاصي – مرجع سابق.

4- المرجع السابق.

5- J – M.DURAND.LA VIE Á MARI

6- علم الدين أبو عاصي – المرجع السابق.

7- جان بوتيرو – بابل والكتـاب المقـدس – دار كنعـان - دمشق 2000.

8- علم الدين أبو عاصي- مرجع سابق.

9- المرجع السابق.

10- IBID. P.304,353

11- أندره بارو- ماري – مرجع سابق.

12- علم الدين أبو عاصي- مرجع سابق.

13- أندره بارو- ماري- مرجع سابق.

14- D.CHANPIN.HISTOIRE DE MARI

15- فيصل عبد الله – المـرأة فـي يمحـاض – دراسـات تاريخية 27/28- مرجع سابق.

16- جان بوتيرو- مرجع سابق.

17- أندره بارو- ماري- مرجع سابق.

18- المرجع السابق.

19- جان ماري دوران- تـاريخ حلـب فـي بدايـة الألـف الثاني قبل الميلاد من خـلال نصـوص مـاري. دراسـات تاريخية 45-46 / 1993.

تدمير مدينة ماري وإنهاء فاعليتها التاريخية

في مقاربة لعوامل سقوط ماري عبر الفاعلية البابلية العسكرية، لا يمكننا إلا أن نعيد هذا الأمر إلى ما اتفقنا عليه في مساق هذا البحث بعامة.

فالوعي الاتحادي أو الوحدوي بين ممالك المشرق العربي العمورية لم يكن قد نضج، وجلّ ما تمّ تحقيقه بين

الممالك هو عبارة عن تحالفات مصلحية في مواجهة خطر وجودي ما، وطارئ أيضاً.

لذا فقد وجدنا في مناقشتنا للواقع السياسي سواء في الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، أن مصلحة المدينة – الدولة، فوق مصالح المدن والدول الأخرى، وهكذا كنا أمام صراعات عسكرية/ مصلحية بين تلك المدن الدول.

وهنا في مثال علاقة مملكة بابل مع مملكة ماري، نجد أن العلاقة المتبادلة بينهما، كانت متعددة الوجوه، فمن تحالف مصلحي بينهما وكذلك مملكة يمحاض، ضد خطر تحالف إشنونا وعيلام، لدرجة أن الوثائق تذكر أن زمري ليم في سنوات حكمه الأولى، ذهب إلى بابل على رأس جيش لنجدتها⊗، ثم عن تنظيم ماري لنقل قوات من مملكة يمحاض إلى بابل عبرها، وكذلك حول مساعدات عسكرية بابلية لماري.. وكذلك إرسال قوات من ماري لبابل في السنة الحادية عشرة من حكم زمري ليم.

ولكن مع كل هذا، تشي الوثائق بأن زمري ليم ملك ماري، كان في تفكيره الدائم، خشية من تعاظم قوة مملكة بابل، وذكرنا سابقاً أنه حتى في فترة تعرض ماري لمجاعة، وسعي حمورابي بابل تقديم المساعدة لها، فإن زمري ليم فضّل أن يشتري ما تحتاجه ماري من إيمار، في رفض ضمني لعرض حمورابي بابل ـ وهذا يؤكد أن العلاقة بيم الرجلين كان ينتابها الكثير من الشكوك والحذر ولا سيما من قبل زمري ليم إضافة إلى أن حمورابي بابل كان يتميز بدهاء رجل الدولة فضلاً عن القوة المتعاظمة لمملكته والتي كانت تخشاها ماري⊗.

⊗ يشير دومينيك شاربان إلى أن نصوص ماري، أظهرت أقدم معاهدة تحالف، بين حمورابي بابل وزمري ليم، حيث يتعهد الطرفان فيها بمحاربة ملك عيلام وبعدم تفرد أي منهما بعقد الصلح معه.
دومينك شاربان – المحفوظات الملكية في ماري. المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية. IFAPO 1989.

⊗ يشير هورست كلينغل إلى أن حمورابي بابل كان المستفيد من تحالفه مع ماري واستطاع تحقيق أكبر المنافع أكثر من استفادة ماري من هذا التحالف.
انظر . حمورابي – ملك بابل وعصره. هورست كلينغل. بغداد 1987

ولعل مـوت شـمشــي أدد، الملـك الآشـوري، أدى إلـى نقطة انعطاف حاسـمة في معالم تبلـور الفاعليـة التاريخيـة لبابل، واسـتطاع حمـورابي مـن توطيـد علاقـات جيـدة مـع المـدن والممالـك لحـين تمكّنـه مـن تحقيـق مشـروعه السياسـي.

فمـثلاً، نجـد أن حـاكم مدينـة لارسـا الرافديـة، كانـت تربطه علاقة جيدة مع حمـورابي/ وهـذا لـيس فـي مطلـق الأحوال/، وثمة رسالة في نصوص ماري تشير إلى أن ريـم سـن حـاكم لارسـا عـرض علـى حمـورابي إقامـة تحـالف بينهما، لكن حمورابي لم يحبذ ذلك، حيث نجـد أن الوثـائق البابلية تشير إلى جمع حمورابي لجنـده لقتـال ريـم سـن، حيث استطاع احتلال المدينتين لارسا وأور ونقـل كنوزهمـا إلى بابل وقد تم له ذلك في 1763 ق.م.

وفي سنة 1762 ق.م احتل حمورابي إشنونا ودمّرها.

ويبدو في هذه الفترة أن العلاقة بين حمـورابي وزمـري ليم بدأت بالتدهور، لا سيما حين رأى ملك ماري هذا المـدّ العسكري والامتداد القوي لمملكـة بابـل، وتشـير النصـوص إلى رسالة جوابية من زمري ليم إلى حمورابي، يفهم مـن خلالها أن حمورابي كان يُطلع زمـري لـيم علـى مـا يفعـل، كنوع من الدهاء السياسـي أولاً، وثانياً لتبديد مخاوف زمري ليم، والذي يبدو أن حمورابي كان يمتلكه تصور واضـح لمـا سـتؤول إليـه أحـوال مملكتـه وهـي فـي ذروة فاعليتهـا التاريخية.

يقول زمري ليم فـي رسـالته الجوابيـة إلـى حمـورابي/ وذلك بعد احتلال إشنونا/:

" إذا اعتُـرف بـك ملكـاً علـى إشـنونا، فتكـون أنـت إذن الحاكم الشرعي، إذا لم يعترف بك ، فنصّب..من هـو لـديك كي يحكمها "[1] .

الجدير ذكره هنا، هو أن تدمير مدينة توليباش / إشنونا/ تـم بتـدمير السـدود حيـث تشـير وثـائق الأخبـار السـنوية،

البابلية إلى أن حمورابي " ونتيجة الحكمة التي حباه بها مردوخ، قد دمّر توليباش بكميات هائلة من المياه "[2].

ويبدو أن حمورابي وبعد أن حقق سيادة فاعلية مملكته على جنوب وأواسط وادي الرافدين، أخذ يفكر بمناطق الشمال/ عنيتُ منطقة الفرات الأوسط/ حيث بذلك سوف تكتمل فاعلية المملكة في حدّها الأقصى.

ويبدو أن زمري ليم أحس بهذا الخطر القادم حيث أن الجيش البابلي بقوامه المؤلف من 10.000 - 20.000 جندي وبعد أن فرغ من حربه في بلاد يموت بعل، كان يعدّ العدة عبر هذه القوات لاحتلال ماري وبذا سوف يمزق حمورابي عقد التحالف مع مملكة ماري ويوجّه قواته إليها، ويتصادم الجيشان وتسقط ماري محتلة بحيث يعثر على بطاقتين تحملان عبارة " سلة رسائل خدم زمري – ليم " وعلى الوجه الآخر ذكر الشهر والسنة 32 من حكم حمورابي " [3] ما يشير إلى احتلال أو تواجد للجيش البابلي في مدينة ماري.

كما أشارت اللوحات التي عثر عليها في ماري إلى أسماء " جنود بابليين مقيمين في ماري في تلك السنة نفسها/ الثانية والثلاثين من حكم حمورابي /.

ويبدو أنه في هذه السنة قد احتلت ماري من قبل بابل، وبعد سنتين سوف تنتفض ماري، وهنا سوف يلجأ حمورابي إلى تدمير أسوراها وحرقها بالكامل وذلك في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه حيث تشير الوثائق إلى : " بأمر آنو وإنليل دمّر/ حمورابي / سور ماري " .[4] وكان ذلك في حوالي 1760 ق.م.

وبذا تمّ إلحاق ماري وضمّها إلى فاعلية مملكة بابل التاريخية.

في وقت وتبعاً للمتوالية التاريخية، فقد تأسست في ترقا مملكة قوية / حيث كانت ترقا سابقاً تحت

سيطرة فاعلية مملكة ماري/ عرفت بمملكة عانا والتي استمرت فاعليتها حتى حوالي 1500ق.م ⊗

الجدير ذكره أن تدمير ماري وإحراقها شمل كافة الأسوار والقصور والمعابد وكافة مآثرها العمرانية والتزيينية، وتم نقل الكنوز المارية إلى بابل [5].

وفي معرض مناقشته لانتهاء فاعلية ماري، يشير الباحث الفرنسي جان كلود مارجرون إلى أن " أفول نجم ماري لم يكن في الحقيقة ناتجاً ببساطة عن الأعمال العسكرية التي قادها حمورابي ضد زمري ليم.

فانتصار حمورابي قد أزال ماري من الساحة الدولية، وما ذلك إلا لأن المدينة لم تعد تمسك بأسس القوة.

فماري أصبحت غنية بصورة أساسية من خلال فرض الضرائب على البضائع العابرة، وعندما خفت كثافة النقل، تناقص بالتالي دخل ماري سريعاً. وهذه النقطة تتيح لنا فهم الدرجة التي وصلت إليها ثروة ماري خلال عهد الشكاناكو / فترة فاعلية مملكة أور الثالثة / لأن عظمة المدينة كانت نتيجة ثروتها " [6].

ولا نعلم هنا، إذا كان ثمة وثائق تؤكد أن كثافة النقل التجاري قد خفّت، ما أدى إلى إضعاف ماري وبالتالي إلى إضعاف ماري وبالتالي سقوطها لقمة سائغة في يد الجيش البابلي.

غير أن آخرين يذكرون أن نصوص ماري، تفيد في أنها تمادت في فرض الرسوم والضرائب على السفن التجارية، لا بل ومضايقتها أيضاً، وهذا ما دفع بحمورابي البابلي إلى تدميرها. [7]

وهنا أيضاً نفتقد إلى الوثيقة التي تشير إلى ذلك.

وتجاه كل هذا فنحن نعتقد أن إنهاء فاعلية ماري التاريخية، ناتج عن معطيات عدة:

⊗ يشير مارجرون إلى أن ترقا وإن ورثت ماري في قيادة الفرات الأوسط، وأصبحت عاصمة إقليمية، لكنها لم تصل أبداً إلى مستوى ماري في روعتها وسلطانها.
مارجرون – ماري- معرض الآثار السوري – الأوروبي 1996.

أولها: أن ثمة مخطط استراتيجي لدى حمورابي، نابع من اكتمال الفاعلية الاقتصادية – التجارية – الاجتماعية – السياسية لمملكة بابل.

وهذا المخطط عبّر عن نفسه بحيوية أملتها موجبات حركة التاريخ بعامة. ولا نعتقد أن بقاء مملكة ماري المسيطرة على منطقة الفرات الأوسط، سوف يكون إيجابياً، تجاه امتداد وثبات وقوة وتعاظم الفاعلية التاريخية للمملكة البابلية.

فشرط تعاظم واكتمال هذه الفاعلية كان إنهاء دور ماري في منطقة الفرات الأوسط وهذا ما حصل. فإذن، احتلال ماري كان هدفاً سياسياً آزرته القوة العسكرية البابلية.

ثانيها: أنه وبالنظر إلى الفاعلية التجارية التي امتلكتها مملكة ماري، إن كان عبر النشاط التجاري والعبور التجاري، وموقعها الاستراتيجي في هذه المنطقة لجهة ذلك، فإن المصلحة الاقتصادية والتجارية للمملكة البابلية كانت تحتم إنهاء هذا الدور التجاري لماري والذي كان محورياً بشكل أساسي.

وفي إشارة إلى تجّذر الوعي المديني المصلحي والذي يحمل أوجهاً سلبية، فإن الملاحظ لحركة التاريخ عند سقوط ماري، أن ملك يمحاض / حمورابي الحلبي/ والذي كانت تربطه علاقات جيدة مع زمري ليم، بالإضافة إلى صلات القرابة بين الأسرتين الحاكمتين، لم يسعَ إلى مساعدة ماري في محنتها وإنقاذها من المدّ البابلي. ويبدو أن مصالح يمحاض آنذاك جعلتها في منأى عن الاصطدام مع الجيش البابلي، رغم أن يمحاض كانت آنذاك مملكة مهابة وقوية.⊗

ويشير الدكتور فيصل عبد الله إلى ذلك بقوله:

⊗ عند سقوط ماري بدأ تفكير حمورابي حلب يتجه نحو التغلغل في مناطق الخابور وسنجار التي كانت تحت سيطرة ماري سابقاً/ فاروق اسماعيل – دراسات تاريخية 45-46 /.

" لم يساعد حمورابي حلب، صهره / زمري ليم / حين دمر حمورابي بابل، ماري، ويبدو أن هذا كان مقصوداً في سياسة ذلك الزمن إذ أن الملك الحلبي الجديد / وهو ابن ياريم ليم / ربما كان يهتم أكثر بمنقطة أعالي الجزيرة والفرات، ولا يعنيه خوض حرب قد تكون خاسرة مع بابل " [8].

والذي يبدو أنه بعد سقوط ماري ودمارها، ظهر ماريّون في موقع مدينة عانة على الفرات، وقد أظهرت وثائقها أسماء لملوك صغار قد يكونون من ماري حيث نجد إيشار ليم – إيكيش دجن.

الجدير ذكره أن يخدون ليم كان " ملك ماري وعانة في آن واحد " [9].

كما وفي نفس هذا المنحى يشير جورجيو بوتشيلاني إلى أنه ربما يكون زمري ليم وعائلته متحدرين من ترقا، وعليه ربما أنه وبعد دمار ماري عادت العائلة المتبقية إلى موطنها الأصلي في ترقا. [10]

وإن كان ماري قد تهدمت وأحرقت، غير أن الذي يبدو هو حصول استمرارية بسيطة في موقعها فالباحثة مارغريت يون تشير إلى أن العلاقة بين منطقة ماري والساحل المشرقي لم تنته بانتهاء ماري، حيث عثر في أوغاريت على نص مسماري يعود إلى حوالي 1300 ق.م يرد فيه اسم ماري. [11] وتشير آني كوربيه في معرض مناقشتها لعلاقات بين ماري وأوغاريت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى أن هذه الفترة تشهد تواجداً آشورياً في ماري، حيث كانت منفتحة تجارياً مع بابل وآشور مع بقائها متأثرة بإبداعات أوغاريت.

وتشير إلى أوان طينية خزفية وحيدة اللون، صنعت من طينة السيليس عبر قالب وجعل عليها طبقة خزفية واحدة ملونة بالنحاس ومتدرجة الألوان من السماوي وحتى الأزرق القاتم.

وتشير هذه الباحثة إلى أنها ترقى إلى العصر البرونزي الحديث / 1600-1200 ق.م / وانتشرت مثل هذه الأواني في عدة مواقع مشرقية، من الشاطئ السوري / أوغاريت/ وحتى الفرات الأوسط / إيمار- ماري – بلاد آشور – أور – أوروك – تل الرماح /.

وتصل الباحثة إلى أن إبداعات الحضارة المادية دلت على العلاقة بين أوغاريت وماري في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (12).

وبعد،

فكما كان اكتمال الفاعلية الأكادية التاريخية يستوجب تدمير إبلا، كذلك فإن اكتمال فاعلية بابل، كان من إشراطاته تدمير الفاعلية التاريخية لماري.

ويبدو أن المشرق العربي عبر تاريخه آنذاك لم يكن ليصل إلى تحقيق وعيه الاتحادي الذي كان قميناً في حال توفره، أن يغيّر وجه التاريخ بأكثر مما غيّر . واستمرت فاعلية مملكة بابل حتى 1595 ق.م حيث سقطت فاعليتها بفعل الهجوم الحثي بقيادة ملكهم مورشيلي الأول.

مراجع الفصل السابع

1- توفيق سليمان – دراسات في حضارات غرب آسية القديمة – مرجع سابق.
2- هورست كلينغل – حمورابي – بغداد – 1987.
3- أندره بارو – ماري – مرجع سابق.
4- هورست كلينغل – مرجع سابق.
5- جان كلود مارجرون – ماري – معرض الآثار السوري الأوروبي – 1996.
6- مارجرون – الوثائق الأثرية السورية – مرجع سابق.
7- قاسم طوير – آثار حوض الفرات – الحوليات الأثرية السوري 34.

الملاحق

8- فيصل عبد الله – دور السلالة الحلبية – الحوليات الأثرية – مرجع سابق.
9- أندره بارو – ماري – مرجع سابق.
10- جورجيو بوتشيلاني – ترقا – أضواء جديدة على تاريخ آثار بلاد الشام – مرجع سابق.
11- مارغريت يون – أوغاريت وماري – الحوليات الأثرية السورية مجلد 34.
12- آني كوربيه – أوغاريت وماري – المرجع السابق.

الملحق الأول:

ثبت بأسماء ملوك مدينة ماري في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد :

الألف الثالث قبل الميلاد:

- بين 2900 ق.م – 2600ق.م، حكم ماري ستة ملوك / وربما غيرهم / لمدة 136 عاماً . وأولهم : أنسود – الخمسة الآخرون كان النص مشوهاً فلم يتم تحديد أسمائهم.
- بين 2600-2350 ق.م: حَكم ماري عدد من الملوك هم :

10. إيكوشمش
11. سوم
12. إيشتوب شار
13. إيبلول إيل
14. نيزي
15. إنا دجن
16. لمجي ماري
17. إيكو شماكان
18. حيدار

- وفي الفترة بين 2266-2008 ق.م: حَكم ماري:

1. يوديش
2. شو دجن ولده
3. يشمع دجن
4. نور مير ولده
5. يشدب إيل أخوه
6. يشكن أدد
7. آبيل / آخل كين ولد يشمع دجن /
8. يدين آيل ولده

9. يلي يشا أخوه
10. ترام دجن
11. بوزو عشتار ولده
12. هتلال آرْزا ولده
13. هانون دجن ولده ⊗

وبين فترة 2015-1920 ق.م، ربما كان هناك سبعة حكّام في ماري ⊗⊗

وفي الفاعلية العمورية لماري مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، حَكم ماري:

6. يجيد ليم
7. يخدون ليم
8. سومو يمام
9. يسمع أدد
10. زمري ليم

الملحق الثاني :

وثائق / رسائل عن الزواج السياسي بين العائلتين الملكيتين في ماري وحلب ⊗

زمري ليم – شيبتو ابنة ياريم ليم :

ترجم هذه الوثائق الدكتور جان ماري دوران عن الأكادية – المارية. وقد نقلها الدكتور فيصل عبد الله، مستعيناً بترجمة الباحث الفرنسي.

⊗ اقترح هذا الثبت لهؤلاء الحكام الدكتور جان ماري دوران، وتمّ نشره في كتاب الدكتور علي أبو عساف – فنون الممالك القديمة في سوريا – دار شمأل – 1993 . دمشق.

⊗⊗ المرجع السابق – أبو عساف.

⊗ استندنا في مواد هذا الملحق على بحث الدكتور فيصل عبد الله في الندوة العالمية حول " تاريخ سورية والشرق الأدنى القديم " 1992. والذي نشر في مجلة دراسات تاريخية 46/45 1993/ حزيران.

عدد الرسائل ، سبع. وكانت موجهة من وفد ماري إلى الملك زمري ليم في ماري. حيث وردته من مدينة حلب وإيمار.

مرسل الرسائل هو أصدقوم ومعاونه ريشييا.

وتصنف الرسائل وفق مواضيعها على الشكل التالي:

8. رسالة من حلب إلى ماري: تتعلق بمراسم الزواج التي تمت بعد موافقة ملك حلب ياريم ليم، وقبل موت الملكة الأم سومو نابي.
9. رسالة من حلب أيضاً: تتحدث عن زيارة المبعوثين لبلاد يمحاض في فترة مرض الملكة الأم سومونابي.
10. رسالة من حلب: تتحدث عن أنباء لمشاركة الوفد بحل بعض الخلافات في منطقة حلب.
11. رسالة من حلب: تتعلق بمكان إقامة العروس / شيبتو / في ماري.
12. رسالة من حلب: وفيها أن أحد أعضاء الوفد واسمه ساميتار، يعترض على اختيار موعد انطلاق موكب العروس في شدة الحر ويقترح التريث لانتهائه، وانتهاء فيضان الفرات.
13. رسالة من إيمار: تتحدث عن وصول الموكب إلى إيمار، ويتوقعون وصولهم إلى ماري خلال أيام.
14. رسالة بالقرب من ماري: حيث وصول الموكب إلى مناطق قريبة من ماري تبدأ من زبناتوم ثم ترقان وإلي صبروم فماري.

واستطاع الباحث دوران أن يقّدر زمن انطلاق المهمة المارية إلى حلب بين 15 كانون الأول و15كانون الثاني. وذلك تحاشياً لاشتداد البرودة، كما بالنظر إلى مناسبة الملاحة الجيدة في حوض الفرات.

ويبدو أن رحلة العودة من حلب إلى ماري بدأت في شهر أيلول وفي مطلعه. كما أن إقامة البعثة في حلب استغرقت حوالي تسعة أشهر.

ويعتقد أن وصول موكب العروس إلى ماري حصل في بداية السنة الثانية من حكم زمري ليم.

الرسالة الأولى من ريشييا إلى زمري ليم:

" الوصول إلى حلب وبدء مفاوضات الزواج..

قل إلى مولاي
هكذا (تحدث) ريشييا
خادمك:
موكب (حملة) مولاي، سالمة،
5 وصلت، والملك (ياريم ليم) كان مسرور جداً.
الأوامر، لأصقدوم
وإليّ بالذات، التي وجهها مولاي،
قد عرضت أمام شمروم (وزير البلاط الحلبي).
أوامر مولاي..
10 قد أثلجت (صدر) شمروم.
وموضوعنا، أمام الملك ياريم ليم
بالذات سيعرضه شمروم،
(ويفصل له) موضوع أوامر مولانا.
15 ويشير علينا بما يلزم
شمروم أمام الملك،
شارحاً (بالتفصيل).
ثانياً، شمروم،
قال لنا ما يلي:
20 " ما لمولاي، والمغنية
التي كتبت له عنها، لم يرسلها ! " (مغنية من ماري تدعى كارانا توم)
الآن ، يوم، اللوحة (الرسالة) هذه
يسمعها مولاي،

المغنية كاراناتوم
على بغل لياسيم دجن
25 أو لآخرين ليركبوها
وفي اليوم التالي لوصول لوحتي (رسالتي)
هذه.
فلتغادر، لتصل بسرعة.
هذا لكي:
30 يتمكن شمروم من
عرض الموضوع أمام
الملك.
كي تصل هذه المغنية،
ليبذل مولاي كل جهده..

الرسالة الثانية: من أصقدوم وريشيبا إلى زمري ليم:

" مرض الملكة الأم الحلبية وتعثر المفاوضات بسبب ذلك "
قل لمولانا ما يلي:
هكذا تحدث أصقدوم
ريشيبا
خادماك:
5 ياريم – ليم:
أحاطنا علماً بالموضوع، كما يلي:
لقد أحضرتم المقدّم – ببلوم
ولكن أمي مريضة
وأخشى من حدوث مأتم
10 في قصري
وقربت أيامكم (يوم رحيلكم).
ولهذا وبسرعة
قد سلمنا المقدم – ببلوم
الذي حمّلنا إياه مولانا.
ووضعنا الحجاب على رأس العروس

وبعد ثلاثة أيام
من تقديمنا المقدم – ببلوم
فإن سومو نابي
قد لاقت مصيرها.
20 الملك ياريم ليم
بوساطة طب بلاطي، / الوزير الثاني في بلاط
حلب /
قد أحاطنا علماً كما يلي:
اذهبوا، فمدني القوية
وقصوري، شاهدوها كلها.
25 نحن
تساءلنا
وكتبنا للملك ما يلي
" لماذا بعث لنا مولانا
هذه الأسطر :
30 " هذه مدني القوية، قصوري
شاهدوها كلها ! "
هذا ما كان جوابنا
ثم كتبنا له ما يلي:
أليست السيدة سومونابي
35 مولاتنا ! إذا لم يكن
لنا مقعدنا بجانب مولانا
فإن هذا الأمر سيسمع في ماري !
وزيادة على ذلك مجلس خدم
ابنك معنا
إلى هنا، لا جواب!
40 وهو قد اكتفى بإعادة خدمه قائلين:
" ألم تروا بلادي.."
اذهبوا ! . قلت
....
....

....
....
في قصر مولانا
55 ومن ممتلكاته، 20 نمريقاً أو
مزهرية مذهبة
ليرسلها لنا، لتودع في النهاية
في قن (أو مستودع)
مولانا .

الرسالة الثالثة: من أصقدوم وريشيبا إلى زمري ليم :

(تذكر الرسالة الهدايا المرسلة من قصر ماري إلى قصر حلب).

إلى مولانا
قل ما يلي:
2 هكذا تكلم أصقدوم
4 وريشيبا
خادماك
6 كما أن " الملكة " سومونابي
قد ماتت، فإن ياريم ليم
8 قد قال لنا ما يلي:
" ريثما ينتهي هذا المأتم
10 اذهبوا إلى وسط (لب) بلادي
وشاهدوها " خمسة عشر يوماً
12 في أوساط بلاده
ونحن نتجول
14 ثم عدنا
ومنذ أن عدنا فإن الخرفان الأولى
16 أضحية البنت (بنت ياريم ليم)

المتبقية
18 وكذلك ما تبقى من خرفان
كانت لدي،
20 قد قمت بتحضيرها
خام واحد من الذهب (وزنه)
6 وزنات (ثقل)
22 ثوب واحد (ساكوم) وثوب
قماش " نوع أول " 5 أثواب
قماشية خشنة نوع 2 واحد
وعشرون ثوباً عادياً
24 ومائتا خروف (تيشاني)
وخرفان "بإلية " أو طيور
26 إلى ياريم ليم
ثوب واحد رقيق، وشكلتان
ذهبيتان وزنهما (ثقلان) .
28 وشكلتان ذهبيتان بثقل واحد
وعشرون خروفاً إلى السيدة
جاشيرا
30 ثوب واحد من نوع (مراتو) وأربع
شكلات ذهبيات بثقلين،
إلى البنت شيبتو
32 الهدايا الأولى وكذلك
الثانية، قد وفت (بالأمر).
34 ياريم ليم،
وجهه كان مشرقاً جداً.
36 وقال
هداياك التي أمامي ماذا أعمل بها ؟
حتى الآن الملوك لم يكونوا هنا
38 أما الآن
فإن حكام البلاد قد اجتمعوا
اجتمعوا كلهم

40 من أجل هذا فإن ياريم ليم
كان مسرور جداً
وبعد الأضحى (خيارى)
42 وألحّ على ذلك
وبسرعة سنغادر
فالأمر قد تم

الرسالة الرابعة: تتحدث عن حل خلاف في يمحاض شارك به ممثلا زمري ليم[⊗]

الرسالة الخامسة : من أصقدوم إلى زمري ليم
(حول مكان إقامة العروس):
2 إلى مولاي
قل:
هكذا تكلم أصقدوم
خادمك:
ياريم ليم
6 قد أحاطني علماً بما يلي:
غالباً ما سمعت
8 أن آلهة القصر
(حاضرة) قوية
10 فأين ستوضع
أغراض ابنتي !
12 أجبته بيت ابنتك
سيكون جميلاً !
14 فقال: أغراض ابنتي
لتوضع في بيتها .
16 ولتعش ابنتي مع زوجها،

[⊗] يمكن الرجوع إليها في مجلة دراسات تاريخية – د. فيصل عبد الله – رسائل جديدة عن تاريخ حلب وشمال سورية في القرن 18 ق.م 1993/46/45.

ومن خمسة إلى ستة أيام
18 لتترك قصرها
للعدة (مدة الدورة الشهرية)
20 والآن، ليأمر مولاي
ويختار بيتاً لابنته (لابنة ياريم ليم).
ولينسقه (ينظمه)
كيما، خدمه
24 الذين سيأتون معي
يرونه، وإلى مولاهم
26 يرفعون تقريراً
والآن ما سمعته من فم ياريم ليم
28 إلى مولاي
قد كتبته، فليتفكر مولاي
30 بمسكن البنت هذه
لنستقر على خيار
32 ثانياً، والآن..
....

....

....

....

40 .. لنعد ....
فيما يتعلق بالحمالين (للكراسي)
42 الذين كتبت له عنهم
ليرسلهم لي مولاي
44 كيما، وقبل سفري
أتمكن من ترتيب هذا البيت

الرسالة السادسة: من مساميتار إلى زمري ليم

(عن حالة الطقس وموعد رحلة موكب العرس من حلب إلى ماري) :

إلى مولاي
2 قل (ما يلي):
هكذا تكلم مساميتار
4 خادمك
فيما يتعلق بالموكب الذي
سيقوده أصقدوم
6 ويؤمن سلامة مولاتي
سمعت أن كثيراً من النساء
8 سيذهبن مع مولاتي
والنساء اللواتي سيذهبن هن ناعمات
10 والطريق هذه، مدبرة، وقفراء،
وما من أحد يرتحل في مثل هذه الأيام.
12 إنها أيام خطرة
وأخشى بسبب العطش
14 أن تتضرر نفوس أو
أي شيء آخر.
16 مما سيندم عليه
مولاي . في هذا الشهر
18 ما من أحد يسلك هذا الدرب
ففي الربيع أو الخريف
20 تُسلك هذه الدرب.
الدرب في هذا الشهر ليست
22 سالكة . هذا الشهر
بعد خمسة أيام سينتهي
24 وفي اشهر القادم وفي إيجي كور،
في اليوم العاشر إذا لم يكن في اليوم الخامس
26 فالأيام ستبرد، والفرات

سيبدأ فيضانه، والرحلة مناسبة
28 " نص مهشّم "
....
....
....
....
35 ....
كخادم
36 إلى مولاي
قد كتبت
38 وليتساءل مولاي (ويتفكر)
وليتصرف بسلطانه !

الرسالة السابعة: من أصقدوم وريشيا إلى زمري ليم

" الموكب تجاوز إيمار وعلى مشارف ماري " :
إلى مولانا
2 قل ما يلي:
هكذا تكلم أصقدوم
4 وريشيا
خادماك
6 هذا الرقم / الرسالة / من إيمار
أرسلناها إلى مولانا، في اليوم
العاشر
8 وسنصل ماري بعد تسعة أيام !
2 آ .. كما يرى ويصطحب إخوته
ثانياً أوامر مولانا
4 آ لتصدر لنا، فيما إذا كانت
البنت (العروس) ستطلع

6 آ إلى دور يخدون ليم أو
إلى مدينة ساجاراتوم
8 آ إلى قصر ترقا أو أي قصر
آخر ..
ساع، أو مراسل سريع
10 آيجب أن يصل
12 آ إلينا بسرعة
كي نتدبر الأمر .

الرسالة الثامنة : من سوموخادو إلى زمري ليم
" استقبال شيبتو في دور يخدون ليم من قبل أحد موظفي زمري ليم المدعو سومو خادو"
إلى مولاي قل ما يلي:
2 هكذا تكلم سومو خادو
خادمك
4 هذا الرقم من دور يخدون ليم
قد أرسلته إلى مولاي
6 في هذا اليوم، مولاتي
إلى دور يخدون ليم، مساء
8 ستصل
فقد كتب إلى أصقدوم
10 وجبة طعام لمولاتنا
وجماعة العرس، أحضرها من
12 دور يخدون ليم، إلى تيلازيبوم
وبما أنني لم أوافق
14 فقد أدخلت مولاتي
إلى دور يخدون ليم
16 الركب
في " مدينة " جانيباتوم
18 قد انتظر
وبما أن، شاتمنى في مدينة خوران

20 فقد خشيت
من بني يمين ولم أرسلهم
22 إلى جانيبام توم
انطلاقاً من خوران. الركب
24 سيركب. يوم في دور يخدون ليم
ستبيت، ويومها الثاني
26 في ريبنا توم، وفي ثالث
يوم في ترقا
28 وفي اليوم الرابع
إلى صبروم ستصل
30 وستبيت في صبروم
وستنهض في اليوم الخامس
32 حيث ستدخل إلى ماري
في الظلام. وهكذا .. !
....
....

الملحق الثالث :

وثيقة / رسالة من الملك زمري ليم إلى ملك حلب / يمحاض، ياريم ليم [⊗]

27. إلى ياريم ليم
28. يقول،
29. هكذا زمري – ليم
30. ولدك:
31. بخصوص الساقي ؟ أنت كتبت لي كما يلي:
32. هكذا أنت (تقول): " هذا الرجل
33. رافق من حاصور الفضة والذهب و
34. الأحجار الكريمة وذهب
35. إليك. و (لذلك) الحاصوري
36. أوقف الحمير والرجال الذين

[⊗] وثيقة من مجموعة وثائق اقتصادية نشرها جان بوتيرو في المجلد السابع من سلسلة منشورات أرشيف ماري الملكي ARM VII ووردت في كتاب الأستاذ علم الدين أبو عاصي. اقتصاد مملكة ماري – وزارة الثقافة السورية 2002

37. حضروا من أجل التجارة، قال كما يلي: الساقي (؟)
38. رافق الفضة والذهب و
39. الأحجار الكريمة وذهب إلى
40. زمري – ليم " هذا ما كتبت لي.
41. بدون شك هذا الرجل
42. لم يُحضر
43. إليَّ أية
44. فضة أو ذهباً أو أحجاراً كريمة
45. عند إيمار ذلك الرجل
46. قبض عليه وسُرق
47. كلياً، سلب كل ذلك الذي
48. حمله. الخاتم
49. الذي اشتراه الرجل بالمال
50. أخذ أيضاً، حقاً ، هذا(الرجل) لينقذ
51. حياته، هرب
52. إليّ. الآن والدي، بخصوص ذلك الرجل

.....(12 سطراً مهشماً)

أرجو أن يُكتب إلى إيمار

وأن يُعطى والدي ممتلكات هذا الرجل

* * *

وثيقة / رسالة من مبتو / مسؤول في القصر الملكي في ماري إلى زمري ليم الملك/

29. إلى سيدي
30. يقول
31. هكذا (تكلم) مبتو،
32. خادمك
33. فيما سبق، عن فقدان التصدير من القصر

34. وعن حاجة القصدير في القصر، من فم سيدي سمعت
35. (تكلم)
36. والآن، حالياً
37. 29 حماراً و44 متاجراً (مهرباً) بالبرونز
38. يحملون القصدير
39. وصلوا هنا من أشنونة
40. سيّرتهم
41. إلى سيدي
42. إذا كان سيدي بالقصدير
43. يرغب، ليقول لرئيس التجار
44. ليقوم
45. رئيس التجار بالبحث عن القصدير
46. وإلاّ، إن سيدي لملاقاة الحمير
47. إما باتجاه خيدان أو باتجاه دير
48. يرسل مفتشين
49. لنقل القصدير
50. لكي لا نتقل القصدير ليد أخرى
51. مختلف قصديرهم
52. صادرت ولكن لم أختمه،
53. بخصوص الرسائل بحثت عنها
54. قلت في نفسي : " ربما
55. أخفوا عبر مكان ما الرسائل .."
56. المنطقة على أحسن حال.